مرآة الجنان وعبرة اليقظان

في

معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان
اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه
خليل المنصور

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

وجدة، وشد وشدة، وحد وحدة، وضوغة، وروعة، ونخوة، وسطوة، وصوت وصيت، ومصاعيب ومصاليت، ومساعير ومغاوير، ودهم ودهم، وشهب وكمت وصلاب وصلاد، وأنجاب وأنجاد، وجلب ولجب، وبيض ويلب، وبيض وسود، وأساود وأسود، وجرد، ومرد، وكهول، وفحول، ورقاق، وعتاق، وقود، وقيدود، وأطلاب وأبطال، وفوارس ورجال، وخفاف وثقال، وعراب وأعاريب، وسراحين وسراحيب، وحد لا يكل، وجد لا يمل، وجمر يتقى، وجمع لا يلتقى، ومعه رماة الأحداق كماة الأتراك، وهداة التوحيد عداة الأشراك.

فقرّت عينه بولده واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله فى يده. وكان قد استدعى الأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر، بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواجًا تلاطم أمواجًا، وأفواج تزاحم أفواجًا، تدب على البحر عقاربها، وتخب كقطع الليل صحائبها، وتجر بالذوابل ذوائبها، وتزاحم مناكب الأطواد مناكبها. والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها. فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه. وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه، ويظهر فى وقائعه حسن موقعه.

* * *

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبًا، وبالعزم غالبًا، وللنصر مصاحبًا، ولذيل العز ساحبًا. وقد أصحب ريّض مناه، وأخصب روض غناءه، وأصبح رائج الرجاء، أرج الأرجاء، سيّب العرف، طيب العرف، ظاهر اليد، قاهر الأيد، سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملأ فأفاض الآلاء، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق. فالأرض شاكية من أجحاف الجحافل، والسماء حاظية بأقساط القساطل.

وسار ساراً بالأحوال الحوالى، مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى، مطوية مدارج مناجحه على ما تنشره الآمال من الأمالى، وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعة المجانى والمجالى. والإسلام يخطب من القدس عروسًا، ويبذل لها فى المهر نفوسًا، ويحمل إليها نعى ليحمل عنها بوسى. ويهدى بشراً ليذهب عبوسًا، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لأعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، وإطلاع زهر المصابيح فى سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه ورده إلى سكونه وسكنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذى استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان. وكفّ كف الكفر عنه بإيمان

الأيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى الناس، وإفحام الأفهام بإخراس الأجراس.

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبًا وطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفًا من جيش الإسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت. وكان به من مقدمى الإفرنج باليان بن بارزان والبطرك الأعظم، ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك. وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وأيس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج.

* * *

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا: ها هنا نطرح الرؤوس، ونسبك النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحًا بمحل الروح، فهذه قمامتنا فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا، وبها غرامنا وعليها غرامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفى استدامتها استدامتنا، وإن تخلينا عنها لزمت لآمتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموه والمذهب، والمطلع والمقطع، والمربى والمربع، والمرخم والمخرم، والمحلل والمحرم، والصور والأشكال، والأنظار والأمثال، والآساد والأشبال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح.

وفيها صور الحواريين فى حوارهم، والأحبار فى أخبارهم، والرهابين فى صوامعهم، والأقسّاء فى مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلم، والمهد والصبى المتكلم، وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار، والنواقيس، والنواميس.

قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرّب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزل الديجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج

الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع وما لنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا ننازل، ولأى معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق أمات الأسواء على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، ونشرت طواميرهم، وتسعرت مساعيرهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، ودعت دواعيهم، وعدت عواديهم، وسعت أفاعيهم، وحضتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم.

وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم وأخبرتهم بإقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود، منشورة البنود، موصولة القواطع بالأشاجع مهجورة الغمود، مشهورة القواضب، مشهودة الكتائب، مقودة الضوامر إلى نار العدى، موقدة الضمائر بنار الهدى، مشبوبة المزائم مجنوبة الصلادم، مسلولة الظبا، مطلولة الربا، مجنونة أجنة أغمادها، مسنونة أسنة صعادها، مطلقة أعنة جيادها، محققة مظنة طرادها، قد سالت الوهاد بآكامها، وجالت الأعلام فى أعلامها، وسدت الفجاج أفواجها، ومدت العجاج أمواجها، وحجبت الغزالة عقبانها، وألهبت الذبالة خرصانها، وجرت بالجبال رياحها، وجرت كالجبال رماحها، واشتمل على الضراغم غيلها، وأقبل بالعظائم قبيلها، ووافى كل واف بعهد ربه، كاف لكف خطبه، شاف لهم قلبه، ضاف بفيض شربه، خاف فى لبوسه، ناف لبوسه، باسل بباسه، عاسل بأمراسه، ناسل بنت الغمد من جفنه، غاسل نبت الحد بدم قرنه، واصل بيض الهند بسواعده، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده حاد بجده، جاد بحده، وكل شاب لنار الحرب شاب، ورب دين لدين الرب راب، وكل جيش كالبحر عبّاب، وكل سال ذى ذباب عن الهدى ذاب، وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال، مائل فى سبيل الله إلى إنفاق مال.

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه، وأبطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه، وعظام أوليائه، فى مقانب بالمناقب مقنبه، وكتائب بالمواكب مكتبه، وذوابل بالكواكب منصله، وجحافل بمضاء المضارب محفله، وألوية صفر للأواء بنى الأصفر، وبيض وسمر ترزق زرق العدى من الموت الأحمر، وقباب وقبائل، وقنا وقنابل، وصوافن وصواهل، وعوامل وعواسل، وفوارس فوارس، وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس، وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى وفريقه الأسنى، وبذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسن.

وقال : إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا، وأى يد له عندنا إذا أيدنا، فإنه مكث فى يد الكفر إحدى وتسعين سنة، لم يتقبّل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخلية، وحلّت الفرج به متولية، فما ادَّخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقبول القلوب، وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار.

وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدّس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر. وفيه الصخرة التى صينت جدة إيهاجًا من الأنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشماء التى على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق، ومن أبوابه باب الرحمة الذى يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود، وفيه كرسى سليمان ومحراب داود، وله عين سلوان التى تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أول القبلتين، وثانى البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد إليها الرحال، ويعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره، وقال عزَّ من قائل: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ [الإسراء: ١].

وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء. وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا ﷺ بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا** ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولنهاره التعبد ولليله المحيا، وهو الذى أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه، وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، وأسماه وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه.

وقد أظهر الله طوله وطوله، بقوله: ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١]. وكم

فيـه من الآيات التى أراها الله نبيـه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئيـة، ووصف السلطان من خصائصـه ومزاياه، ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه وآلاه، وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمـه، ويرفع بأعلاه علمـه، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، ويصغى إلى صرخة الصخرة، ويبغى بالبشرى بشر أسرّة الأسرة.

وسار واثقا بكمال النصرة وزوال العسرة، وحسر الفرنج قناع الحسرة. ونزل على غربى القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب، والقدر قد أظهر العجب.

وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاس عاسل بالعاسل. قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون ويرمون ويدمون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذوبون، ويشبون ويسبون، ويصرخون ويحرضون، ويلهثون ويتغوثون، ويلوذون ويلوبون ويجولون ويجوبون، ويقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون، ويتعاوون ويتضاعون، ويحترقون للبابا، ويقترحون المنايا.

وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحدّ نضال، ونازلوا أجد نزال، وطافوا بصحاف الصفاح، لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال، والتهموا، والتهبوا، وتأشبوا ونشبوا، واستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئين، ودون القمامة تقوم القيامة، ولحب سلامتها تقلى السلامة.

ودامت الحرب، واستمر الطعن والضرب، فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب الشمالى وخيّم هناك، وضيّق على الفرنج المسالك، ووسع عليهم المهالك، ونصب المجانيق، ومرى من آفاتها الأفاويق، وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حشر السوء منهم وراء السور، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس إلا ويلقون البوس، واليوم العبوس، ويلقون على الردى النفوس، فللداوية دوى، والبارونية من البوار فى الهاوية هوى، وللاسبتار تبار، وما للفريرية من الموت فرار، وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى إليهم حجاب، وفى كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب، إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدى على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم فى الاهتمام مهمومة، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة. فكأن المجانيق مجانين يرامون، ومناجيد لا يرامون، وجبال تجنبها حبال، ورجال تنجدها رجال، وأمات الدواهى والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حجر عليها فى حجر، ولا أمن عندها

من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر، ولا خطر مرورها إلا مرارات ذوى الفطر. فكم من نجم من سمائها ينقض، وصخر من أرضها يرفض، وجمر من شرارها ينفض، وما شيء كآفات كفاتها، وآيات نكاياتها، ودركات إدراكاتها، ولفتات فلتاتها، وجذبات عذباتها. فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها، وتمتح بأشطانها، وتمرح فى أرسانها، وتصدم، وتهدم، وتصرع، وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتفل شمل المبانى بتفريقها وتبديدها، وتقوض القواعد بضربها من أساسها وتنقض المعاقد بجذبها فى أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها، حتى تركت السور سوراً، وجعلت الذاب عنه محسوراً، وعاد العدو من نظمه المبتور مبتوراً، وخرق الخندق وحفز الزحف وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف، وأخذ النقب، وسهل الصعب، وبذل المجهود، وحصل المقصود، وكمل المراد، وكلم المرّاد، ويثغر الثغر، وأمر الأمر، وأربى الأرب، واستتب السبب وخاف القوم الوقم، واستعاضوا من الصحة السقم.

وأسلم البلد وقطع زنار خندقه، وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى فى سومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هو إلا أن نديم لكم الهوان، وغداً نملككم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى فى تأمينهم إلا الإباء، فتعرضوا للتضرع، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا: إذا آيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنّا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجود بالعدم، ونقدم إقدام المستشرى بالشر، ونقتحم اقتحام المستضرى من الضر، ونلقى أنفسنا على النار، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة، ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى أيدينا بالفتك منتشرة، وإنا نحرق الدور ونخرب القبة، ونترك عليكم فى سبينا السبة، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف، وقد عرف أن كلامنا من الذل عزوف وللعز ألوف، وأما الأموال فإنّا نعطبها ولا نعطيها، وأما الذرارى فإنّا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فأية فائدة لكم فى هذا الشح وكل خسر لكم فى هذا الربح، ورب خيبة جاءت من رجاء النجح، ولا يصلح السوء سوى الصلح، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل أسفار الصبح.

فعقد السلطان محضراً للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم فى الأمر، وحاورهم فى السر والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا

سرائرهم، واستورى زندهم، واستعلم ما عندهم، وراوضهم على المصلحة المترجحة، وفاوضهم فى المصالحة المربحة، وقال: إن الفرصة قد أمكنت فنحرص فى انتهازها، وأن الحصة قد حصلت ونستخير الله فى إحرازها، وإن فاتت لا تستدرك، وإن أفلتت لا تملك، فقالوا: قد خصك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العبادة. ورأيك راشد، وعزمك لضالة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلنا لك فى اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد، واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات على قطيعة تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سلمه، ضرب عليه الرق، وثبت فى تملكه لنا الحق وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران.

ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار فى الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً. وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير، ومقدم كبير، يحصر الخارجين ويحصى الوالجين فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ هذا المال حق حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه، لكنما تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفياً فى الرحال، ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزى الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة، فى عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها به متلهبة، وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال وأشياء وأشياع ومتاع وأتباع، فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن فى إخراج كل مالها فى الأكياس والأخراج، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قرحى.

وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك أمارى مقيمة فى جوار القدس مع ما لها من الخدم والخول والجوارى، فخلصت هى بمن معها ومن تبعها، ومن ادعى أنه ممن صحبها وشيعها. وكذلك الابرنساسة ابنة فيليب أم هنفرى أعفيت من الوزن، وتوفر

مالها عليها فى الخزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمنى ذكر أنهم من بلده، وإن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده.

وطلب مظفر الدين بن على كوجك زهاء ألف أرمنى ادعى أنهم من الرها، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى. وكان السلطان قد رتب عدة دواوين، فى كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين. فمن أخذ من أحد الدواوين خطًا بالأداء انطلق مع الطلقاء بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر لى من لا أشك فى مقاله، أنه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطًا لمن نقده فى كيسهم، ويلبس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وبقى من بقى تحت رق وأسار، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

* * *

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب

واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال والالتهاج، وجلس السلطان للهناء، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيأة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، ومحبته تروق ومهابته تروع، وآفاقه تضىء وأخلاقه تضوع، ويده لفيض أمواء السخاء، وفض أفواه العطاء، ظاهرها قبلة القبل، وباطنها كعبة الأمل، قد حلت له حالة الظفر، وكان دستة به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزير لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، والكاتب ينشى ويوشى ويوشع، والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع، فما شبهت قلمى إلا بشائر أرْى البشائر، ولا وجهت كلمى إلا لطائف وحى اللطائف، وما أرسلت يراعى إلا ليراعى الرسائل، ويشيع الفواضل، ويشبع القول، ويسبغ الطول ويطول بالحجة وإن كان فى حجمه قصر، ويصول باللهجة وإن كان فى هجمه حصر، ويسمى الملك به وهو نحيف، ويثقل الجيش به وهو خفيف، ويبدى بياض الغرة من سواد الدهمه، ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة، ويجرى بالآجال والأرزاق، والمنع والإطلاق، والخلف

والوفاق، والإرقاق والإعناق، والعدة والإنجاز، والجدة والإعواز، والفتق والرتق، والرقع والخرق، وهو الذى يجمع الجيوش، ويرفع العروش، ويوحش المستأنس ويؤنس المستوحش، وينعش العاثر ويعثر المنتعش، يجرى بالأعداء على الأعداء وبالإيلاء للأولياء، فبشرت بأقلامى أقاليم البشر، وعبرت بأعاجيبى من عجائب العبر، وملأت البروج بالدرارى والدروج بالدرر، ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا الرى وسمر سمرقند، وأطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند، وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت، وشرحت فضيلتها وبينت، وأديت فريضة زيارتها وتعينت.

* * *

ذكر حالى فى العود إلى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لى فى المرض من النوبة، فأقمت بدمشق أداوى مزاجى، وأدارى منهاجى، وأعالج تدبيرى وأدبر علاجى، إلى أن وصل الخبر بأن السلطان نزل على القدس، فوجدت خفة فى النفس، وأنست بإبلالى بعض الأنس، وأمنت لوثوقى بالصحة والاستقامة من النكس، فأوجهت إلى تلك الجهة، وسرت بطاعة النفس المتنزهة، وعصيان الطبيعة المتكرهة، واخترت تعب السفر على راحة الإقامة، ورأيت فى ركوب طريق العطب وجه السلامة، ووصلت بكرة السبت ثانى يوم الفتح، بالسعد واليمن والنجح، فوصلنى السلطان عند وصولى بأجلى بشاشة وأحلى هشاشة، وسرى عنه وسر، وأبر وبر، وقال: أين كنت ولم أبطأت؟ وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت، وقد كنا فى انتظارك، والسؤال عن أخبارك، وهذا أوان إحسانك، فأين إحسان أوانك، فأجر بنانك بجرأة بيانك، وأجر فى ميدانك، وما للبشائر إلا واصفها، وللفرائد إلا راصفها، وللفصاحة إلا قسها، وللحصافة إلا قيسها.

وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على إنشاء كتب ما ارتضاها، واقتضاب معان ما اقتضاها، وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال: لهذا من هو أقوم به، وعنانى، فلما رآنى نادانى واستدنانى فصرفت إلى امتثال أمره عنانى. وسلم إلىّ الكتب التى كتبوها، بالألفاظ التى رتبوها.

وقال: غيّرها، ولا تسيرها. وغرضه أنى أعدل معوجها، وأبدل مثبجها، وأفترع المعنى البكر للفتح البكر، وأوضح ذكر آياته بآيات الذكر، فاستجديتها فما استجدتها، واستلمحتها فما استملحتها، وشممتها وبها سهك، وكشفتها وسترها هتك، وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك، فشرعت فى افتضاض الأبكار، واقتضاء الأفكار، واقتراح القريحة، واقتراء رحاب الكلم الفصيحة الفسيحة.

وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز، وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز، ووشحت ووشعت، وشعبت وأشبعت، وأطلت وأطبت، وصببت وأصبت، وأعجزت وأعجبت، وأطريت وأطربت، وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت، وطابقت وجانست، ووافقت وآنست، وبينت فضل عصر الإمام الناصر على الأعصار السابقة، بالأبصار الصادقة. وإن هذا الفتح أدخره الله لزمانه ومكّن منه لمكانه وسلّط عليه بسلطانه وحسّنه لنا بإحسانه فقد عبرت القرون الماضية على حسرته وظفر وهو وأشياعه بمسرته وما حصل لنا إلا ببركة أيامه وحركة اعتزامه. وذكرت من هذا كل ما راق وشاق ونوّر الآفاق، وإن هذه الفتوح تفوح بأرج نشره وتحيى بحيا بره فما أيمن أيامنا بأيامه، وما أسعد آمالنا بإنعامه.

وكتبت إلى كل ذى طرف بمعنى طريف ولفظ فصيح حصيف، وسهرت تلك الليالى حتى نظمت اللآلىء وحليت المعالى وقرحت المعادى وفرحت الموالى وسارت شواردى إلى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى وتلوت شرع لكم من الدين ما وصى وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء ومنزل الوحى بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء ومقام إبراهيم بموضع قدم محمد المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بيتيه مستمتعين وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم فوفدوا لزيارة من كل فج عميق وسلكوا إليه فى كل طريق وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق وتنزهوا من أزهار كراماته فى الروض الأنيق.

* * *

ذكر ما جرت عليه حال الفرنج وخروجهم من القدس

وشرع الإفرنج فى بيع الأمتعة واستخراج ذخائرهم المودعة، وباعوا بالمجان فى سوق الهوان. وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان، وباعوا بأقل من دينار كل ما يساوى أكثر من عشرة، وجدوا فى ضم ما وجدوا من أمور لهم منتشرة، وكنسوا كنائسهم، وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الأوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل، ونقضوا من الكنائس الكنائن، واستخرجوا من الخزائن الدفائن.

وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر، من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين، وجمع ماكان فى قمامة من الجنسين والنسجين، فقلت للسلطان: هذه أموال وافرة، وأحوال ظاهرة، تبلغ مائتى ألف دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها فى أيدى هؤلاء الفجار. فقال: إذا

تأولنا عليهم نسبونا إلى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الأمر، فنحن نجريهم على ظاهر الأمان ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان.

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم إلى صور، وكتفوا بالديجور الديجور، وبقي منهم زهاء خمسة عشر ألفاً امتنعوا من مشروع الحق فاختصوا بمشروط الرق. فأما الرجال وكانوا فى تقدير سبعة آلاف فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بألآف ، فاقتسمتهم أيدى السبى أيدى سبا، وتفرق الغانمون بجمعهم فى الوهاد والربا، وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة، عادت بيننا مقتسمة، وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة، فكم محجوبة هتكت، ومالكة ملكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسمحت، وخيبة توقحت، ومجدة مزحت، ومصونة ابتذلت، وفارغة شغلت، وعقيلة امتهنت، وجميلة امتحنت، وعذراء افترعت، وشماء فرعت، ولمياء رشفت، وظمياء فرشت، وريضة أصحبت، ورضية أصحبت، فكم تسرى منهن سرى، وتجرأ عليهن جرى، وقضى وطره عزب، ونفى نهمه سغب، وفثأ سورته شغب، وكم غانية استخلصت، وغالية استرخصت، ووالية اعتزلت، وعالية استنزلت، ووحشية صيدت، وعرشية قيدت.

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز، وخلع لباس الذل ولبس خلع العز، أبى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا، وتضرعوا فى أن يسكنوا ولا يزعجوا، وبذلوا خدماً وخدموا ببذول، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وشحت أفواههم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون، ودخلوا فى الذمة، وخرجوا إلى العصمة، وشغلوا بالخدمة، واستعملوا فى المهنة، وعدوا المنحة فى تلك المحنة.

* * *

ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وحتم به أمر الإيجاب. وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جداراً وتركوه للغلة هرياً، وقيل: كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغياً. وكانوا قد بنوا من غربى القبلة داراً وسيعة، وكنيسة رفيعة، فأوعز برفع ذلك الحجاب، وكشف النقاب، عن عروس المحراب، وهدم ما قدامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس فى الجمعة فى العرصة المتسعة،

ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر. ونقض ما أحدثوه بين السوارى، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى، وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحق الحق وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلّت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانتابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبوس، وطابت الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى وطنه، وطلب الفضل من معدنه. وورد القراء وقرىء الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والأبدال والأوتاد، وعبد الواحد ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهى والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد الساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر، وأملى الحفاظ، وأسلى الوعاظ، وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء، وتحدث الرواة، وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالإصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة فما فيهم إلا من خطب الرتبة ورتب الخطبة وأنشأ معنى شائقًا ووشى لفظًا رائقًا وسوّى كلامًا بالموضع لائقًا، وروى مبتكرًا من البلاغة فائقًا.

وفيهم من عرض علىّ خطبته وطلب منى نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيته فيها أمنيته. وكلهم طال إلى الالتهاء بها عنقه، وسال من الالتهاب عليها عرقه، وما منهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب فى أخماسه أسداسه، ورفه لهذه الرياسة راسه، والسلطان لا يعين، ولا يبين، ولا يخص، ولا ينص. ومنهم من يقول: يا ليتنى خطبت فى الجمعة الأولى، وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت بطالع سعدى، فما أبالى بمن يخطب بعدى.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتلفت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقّة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع، وغصّت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم

تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الإسلام وارتاش، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والأمة الظاهرة، وما أكرم هذه النصرة الناصرية، والأسرة الإمامية، والدعوة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية. وهل فى بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التى شرّفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة.

وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا فى التفويض، وتحدثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعرافين من الضجيج ما فى عرفات للحجيج حتى حان الزوال، وزال الاعتدال، وحيعل الداعى، وأعجل الساعى، فنصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختياره بعد فحصه.

أوعز إلى القاضى محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى، فأعرته من عندى أهبة سوداء من تشريف الخلافة، حتى تكمل له شرف الإفاضة والإضافة. فرقى العود، ولقى السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف المعشر، وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ فى خطبتيه، وخطب بموعظتيه، وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠].

ونزل وصلى فى المحراب، وافتتح ببسم الله من أمّ الكتاب، فائتمّ بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة.

ولما قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع واطرد القياس. وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير، ليرفعه كبير. فجلس عليه زين الدين أبو الحسن عليّ بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا، وخوف بالحجة ذوى الحجا، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا، وأتى بكل عظة، للراقدين موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون، وعجّ المتشاكون، ورقّت القلوب، وخفت الكروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون، وأناب المتحوبون، وصاح التوابون، وناح الأوابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت،

وضراعات قبلت، وفرص من الولاية الإلهية انتهزت، وحصص من العَناية الربانية أحرزت. وصلى السلطان فى قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصلة، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة، والأيدى إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة. ثم رتّب فى المسجد الأقصى خطيبًا استمرت خطبته واستقرّت نصبته.

* * *

وصف الصخرة المعظمة عمّرها الله

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحًا، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسًا ولا مطمحًا، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبة، وقالوا: محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكانت فيها صور الأنعام، مثبتة فى الرخام. ورأيت فى تلك التصاوير أشباه الخنازير، والصخرة المقصودة المزورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة.

فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسر لثامها، وقشر رخامها، وكسر رجامها ونقض بنائها، وفض غطائها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، ونزع لبوسها، وزفاف عروسها، وإخراج درها من الصدف، واطلاع بدرها من السدف، وهدم سجنها، وفك رهنها، وإراءة حسنها، وإضاءة يمنها، وإبداء وجهها الصبيح، وجلاء شرفها الصريح، وردها إلى الحالة الحالية، والقيمة الغالية، والرتبة العالية. وهى التى حليها عطل وعطلها حلى، وعريها كسوة وكسوتها عرى، فعادت كما كانت فى الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وسيم بهاء حسنها الوسيم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء أهل الكفر فى نحتها، وظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نورًا على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد. ورتب السلطان فى قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة، وأينهم طلاوة، وأنداهم صوتًا، وأسماهم فى الديانة صيتًا، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر، وأطيبهم فى العرف والنشر، وأغناه وأقناه، وأولاه لما ولاه، ووقف عليه دارًا وأرضًا وبستانًا، وأسدى إليه معروفًا دارًا وإحسانًا، وحمل إليها والى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة. ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس

عامة، قومة لشمل مصالحها ضامة، فما ترتب إلا العارفون العاكفون، القائمون بالعبادة الواقفون. فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واستعرت من العارفين الضلوع. فهناك كل ولى يعبد ربه ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، وهناك كل من يحيى الليل ويقومه، ويسموا بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله، ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأذكار، وما أسعد نهارها، حين تستقبل الملائكة زوارها، وتلحف الشمس أنوارها أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها، وتضع الجناة عندها أوزارها، وتستهدى صبيحة كل يوم منها أسفارها، وما أظهر من تولى أطهارها، وأطهر من باشر إظهارها، وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل: باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكسباً.

ولما ظهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها. فهى الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام فى خدرها وحرزها، وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع فى العمران، وأمر بترخيم محراب الأقصى، وأن يبالغ فيه ويستقصى، وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة. فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلى وبيّن وحلى وزين، وأشفق وأنفق، وأغنى وأقنى، واعتنى وابتنى، ووفى وأوفى، وأصفى وأضفى.

وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر بكل صنع بكر، موجب لكل شكر، وكل فعل جميل، ورفد جزيل، ومن جلى ومنح جليل، ومكرمة حميدة، ومحمدة كريمة، وفضيلة بها ترجح، ووسيلة بها نجح.

[وأتى الملك المظفر تقى الدين عمر، بكل ما عم به العرف وغمر، ونهى وأمر، وبنى وعمر].

ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوماً فى قبة الصخرة مع جماعة من السراة الأسرة، ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال. فانتهز فرصة هذه الفضيلة التى ابتكرها بالافتراض، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صباً حتى تعطرت، وكذلك طهر حيطانها، وغسل جدرانها. ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت، وتضوعت وتعرفت، وفغمت مناشق أهل الهدى، وأرغمت آناف العدى، وما زال مع قومه فى تطهير البقعة المباركة طول يومه، حتى تيقنت طهارتها، وبينت عمارتها،

وراقت نضارتها، ووقفت عليها الاستحسان نظارتها، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين على، بكل نور جلى، وكرم ملى، وإحسان سنى، وإنعام هنى، وعرف زكى، وعرف ذكى، وعطاء مبتدع، وسخاء مخترع، وجود مبتكر، ورفد معتبر، وأتى بكل ما خلد أثر الحسن، وأنطق بحمده الألسن، وبسط بها الصنيعة، وفرض فيها البسط الرفيعة، وهدى وأهدى، وأعاد بعدما أبدى، وأنار وأسدى، وأفاض الندى، وفض الجدا، ونفض الأكياس، حتى خلنا به الإنفاض والإفلاس، وسيأتى ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، ما لم يشق أحد فيه غباره، ولا ملك سابق فيه مضماره.

وأما الملك العزيز عثمان، فإنه أتى بالإحسان الذى استظهر به الإيمان، وذلك أنه لما عاد إلى مصر وقد شاهد الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقية، ودروعًا سوابغ، ونصولاً دوامغ، وخوذًا وترائك، ورماحات ونيازك، وقنا وقنابل، وصواقل وذوابل، وجروخًا وقسيًا، ويمانيًا وهنديًا ويزنيًا، ودرينيًا ومشرفيًا، وجفاتى وجنويات، وطوارق وقنطاريات، ورانات حديد وزانات، وآلات وزيارات وزرافات، ونفاطات وقطاعات، وعدد النقوب، وجميع أدوات الحروب، فاستظهرت بها المدينة، وتوثقت بها عراها المتينة.

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، ويخرجوا قبل أن يستوفى الباقون فى أداء القطيعة مدتهم. فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى بذلك عما يصل من المدد.

* * *

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس وإنشاء المدارس

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى فإنه فى حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذى يقيم به الوالى. فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى، ورتب له إماما، ومؤذنين وقواما، وهو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيها الأنام.

وكان الملك العادل نازلاً فى كنيسة صهيون، وأجناده على بابها مخيمون،

وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، فى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية، فعيّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حنة عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهى بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفًا، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفًا، وارتاد أيضًا مدارس للطوائف ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف. وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإلمامة. وتفاوض الناس عنده فيها. فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وإزالة تماثيلها، وإزاحة أباطيلها، وإطفاء قناديلها، وإعفاء أناجيلها، وإذهاب تساويلها، وإكذاب أقاويلها، وقالوا: إذا هدمت مبانيها وألحقت بأسافلها أعاليها، ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت، ومحيت رسومها ونفيت، وحرثت أرضها، ودمر طولها وعرضها، انقطعت عنها أمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة.

وقال أكثر الناس: لا فائدة فى هدمها ولا هدها، ولا يؤذن بصد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء.

ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان.

* * *

ومما كتبته إلى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى من رسالة

«قد سبقت البشائر بما منّ الله به من الفتح العظيم، والنصر العميم، والعرف الجسيم، والفضل الوسيم، واليوم الأغر الأعز الكريم، والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار، فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته، وافتضاض عذرته، وخص من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته، وأعاد به القدس إلى قدسه، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس. وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين. وقال المحراب لأهله: مرحبًا وأهلاً.

وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً، ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين. وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدى، وصافحت الأيدى منها موضع القدم، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم، فهو ثانى المسجدين، بل ثالث الحرمين، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس، وتضوّع أرج الرجاء فى أرجائه بعد اليأس. فالحمد لله الذى أبدل الإيحاش بالإيناس، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس، وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الأعصر مفضلاً، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملاً، وييسر ببركات إيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها، ولقد حل الكفر عروة عروة، وهد ذروة ذروه، وعادت حباله رثاثًا، وعقوده أنكاثًا، ومساكنه أجداثًا، وصار حديثًا بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثًا، فالرتاح مستفتح، والرجاء مستنجح، والبلاد مستخلصة، والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصة، والعقائل مقتضه، والمعاقل منفضة، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة، والثغور مبتسمة، والأمور منتظمة، والحصون متسلمة، والخصوم مذعنة مستسلمة، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها، بل يستولى على أوساطها وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها.

ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها، والنعمة بحمد الله عظيمة، والموهبة وإن خصت هذا الإقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمة، ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ فى مضمار البيان ولم يبلغ مدى ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ [الكهف: ١٠٩].

والقاضى ضياء الدين القسم الشهرزورى قد توجه لهذه النعمة واصفًا، وعندما يأمر به من إنهاء البشر بها واقفًا، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفًا، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور مصادر شرحه، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه.

عاد الحديث إلي ما جرى بعد فتح القدس

وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون. ورحل ولده الملك الأفضل قبله إلى عكاء عائداً، وعن حوزتها ببأسه وجوده ذائداً. ثم تبعه الملك المظفر فرحل، وسار إلى عكاء وبها نزل. ثم عمد السلطان إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه في ذوى الاستحقاق وأنفقه، وفرضه بعوارفه، وفضه في مصارفه، فسد خلة المعيل، وأسهم منه ابن السبيل، وحمل به عن الغارم، وأحيى به سنن المكارم، ووضعه في أهله، وأحله في محله، وصرفه في حله، وقدم التوسعة على ذوى الإضافة، والإنفاق في أهل الفاقة، وأجنى الأجناد منه مقاطف، وجعل للمجاهدين منه وظائف، وأبقاه بإفنائه زخراً للآخرة، وكسباً للمحامد الفاخرة. فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا ما فضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذى أ نفقه هو الذى أبقيه، وإذا قبله منى المستحق فالمنة له على فيه، فإنه يخلصنى من الأمانة ويطلقنى من وثاقها، فإن الذى في يدى وديعة أحفظها لذوى استحقاقها، فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر، والإفاضة في نظم من حمده ونثر، وحاز كل ذى فضيلة منه فضلاً، وتفيأ كل فئة من فيئه ظلاً. وكثر السائلون بالفضائل والقائلون بالوسائل، والقاصدون بالقصائد، والوافدون بالفوائد، والواردون بالفوارد، والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوايق، والسالكون للطرائق، والمالكون للحقائق. فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح، وراوياً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة، ومتفحصاً في مشكلة، ومورداً لحديث نبوى، وذاكراً لحكم مذهبى، وسائلاً عن لفظ لغوى، ومعنى نحوى أو مقرضاً بقريض، أو معرضاً بتصريح أو مصرحاً بتعريض أو جالباً لمدحه، أو طالباً لمنحه، أو مستضعفاً بفاقة، أو مستسعفاً بإفاقة، أو ناشداً بنشيد، أو مسمعاً بتغريب وتغريد.

وما فيهم إلا من أحظى بسهم، أو أرضى بقسم، وأصيب بنصيب وأجيب، وأجيز بتقرير وتقريب، فقيل له: لو ذخرت هذا المال للمآل، لشفيت به ما يقع من الاعتلال، وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال. فقال: أملى قوى من الله الكافل بنجح الآمال وجمع الأسراء المطلقين. وكانوا ألوفاً من المسلمين فكساهم وأساهم، وواساهم وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره ناجياً من ضرره ووضره.

ومكث السلطان عليه مقيماً، للنظر في مصالحه مستديماً. فقيل: ما قعودك عن صور، فانهض إليها عسكرك المنصور وأنت تدخلها يوم وصولك وتحظى منها بمرادك وسؤلك.

فانو السير، وأحو الخير، وأحصر الخير، وأحظر التأخير، وفى تعجيل النهضة تحصيلها فى القبضة، وفى بدار الإلمام بدارها، بشرى أهلة الفتوح المقمرة بإبدارها، فأسر بالعسكر وأسرع، وأقطع عن الكفر تلك الأعمال وأقطع.

وأكثر من كان يستحثه وعلى النهوض يبعثه الأمير على أبو أحمد المعروف بالمشطوب، وكان من أكابر الكافين للخطوب، الكافين فى الحروب. وكانت معه صيداء وبيروت، وهما بقرب صور وقد أشفق أن فتحها يفوت، فرأى الحظ فى الحض، وحرض على الفرض، ولم يفكر فى قوتها بانتقال رجال الساحل إليها وإنه يشق فى هذا الوقت النزول عليها. وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس بأحكام صور مشتغلاً، وعلى الاستهتار بتحصينا مشتعلاً، وقد استجد قدامها من البحر إلى البحر خندقًا وجعل الطريق إليها مضيقًا وأحكم أسباب الأحكام وأخذ بالحزم فى الاهتمام.

* * *

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وقد عنا لأمره كل قاص ودان ودان، وودعه ولده عزيز مصر فى أول منزله وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة، ثم أوصاه وشيعه واستصحب أخاه الملك العادل معه مستظهراً بأخائه، مستبشراً بآلائه، مستبصراً بأرائه، مستنصراً بمضائه مستغنياً بغنائه، موفياً بوفائه، وهو بعقده يعقد وبحله يحل، وبشده يشد وبحلوله يحل، والعساكر بالفضاء فائضة، وللخطوب الريضة رائضة، وإلى استنهاض النصر لأنصارها ناهضة، ومن هواها أنها فى دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة، فوصل إلى عكا فى أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهراً بخيمه، باهراً بتأخيره وتقديمه، قاهراً بشباه المبير، زاهراً بسناه المنير، جاهراً بسره ظاهراً فى بحره.

وأقام أياما يتفكر ويتدبر، ويستشير ويستخبر، والمشطوب يستعجله، ولا يمهله، ويحرض بالبعث ويحذر من المكث، ويقول: الفرصة تدرك بالحث وتفوت باللبث.

فسار لندائه ملبيًا، ولجيش النصر معبيًا، ولرأيه مقلداً، وبالله عزَّ وجل متأيِّداً، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة، بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة، فنزل بعيداً من سورها سعيداً فى ترتيب أمورها، مضروبة قبابه، مجنوبة عرابه، محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه، منشورة راياته منصورة آراؤه، خافقة على الأعداء عذبات عذابه، دافقة فى ثرى النجح فى الأنحاء ثَرَّاتُ صوب صوابه قد كست خيامه عرى العراء، وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء، واحتوت مضاربه

سنة خمس وثلاثين ومائتين

* فيها ألزم المتوكّل جميع النصارى[١] لبسَ الحلّي فيميّزوا به.

* وفيها توفّي إسحاق بن إبراهيم بن مالك التيمي الموصلّي النديم. وكان رأساً في صناعة الطرب والموسيقى أديباً شاعراً أخبارياً عالماً ظريفاً نافقَ السوقِ عند الخلفاء إلى الغاية، وأول من سمعه المهديّ، ولم يكن في زمانه مثله في الغناء واختراع الألحان، وكان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار العرب والشعراء وأيام الناس. ذو فضائل جمّة، وكان له يد طولى في الفقه والحديث وعلم الكلام.

قال محمد بن عطيّة الشاعر: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلّي، وأخذ يناظر أهل الكلام حتّى اتصف منهم، ثم تكلّم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلّم في الشعر واللغة، ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحيى بن أكثم فقال له: أعزّ الله القاضي، في شيء ممّا ناظرت فيه وحكيت نقص أو مطعن؟ قال: لا، قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنسب إلى فنّ واحد قد اقتصر الناس عليه يعني الغناء!! قال ابن عطية المذكور: فالتفت إلي القاضي يحيى وقال: الجواب في هذا عليك، وكان الراوي المذكور من أهل الجدل، فقال للقاضي يحيى: نعم أعز الله القاضي، الجواب عليّ. ثمّ أقبل على إسحاق وقال: يا أبا محمد؛ أنت كالفرّاء والأخفش؟ فقال: لا، فقال: أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي يزيد العلاّف والنظّام البلخي؟ قال: لا، قال: أنت في الفقه كالقاضي؟ وأشار إلى القاضي يحيى ـ قال: لا، قال فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نوّاس؟ قال: لا، قال: فمن ها هنا مشيت إلى ما مشيت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله ـ فضحك وقام وانصرف، فقال القاضي لابن عطيّة: لقد وفيّت الحجّة حقّها. وفيها ظلم قليل لاسحاق، وإنّه ممن يقلّ في الزمان نظيره.

وذكر أبو المجد الموصلي أنّ إسحاق بن إبراهيم المذكور كان مليح المحاورة والنادرة، ظريفاً فاضلاً، كتب الحديث عن سفيان بن عُيَيْنة ومالك بن أنس، وهشيم بن بشير، وأبي معاوية الضرير، وأخذ الأدب عن الأصمعيّ وأبي عبيدة، وبرع في علم الغناء، فغلب عليه ونسب إليه، وكان الخلفاء يكرمونه ويقرّبونه، وكان المأمون يقول: لولا سبق لإسحاق على ألسنة الناس. واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعفّ وأصدق وأكثر

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٨٥: في هذه السنة أمر المتوكل أهل الذمّة بلبس الطيالسة العسلية وشدّ الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب...

ديناً وأمانة من هؤلاء القَضاةِ، لكنّه اشتهر بالغناء، وغلب على جمع علوم مع صغرها عنده، ولم يكن له فيه نظير. وله نظم جيّد وديوان شعر، فمن شعره ما كتبه إلى هارون الرشيد.

وآمرة بالبخل قلت لها اقصِري فليس إلى ما تأمُرينَ سبيلُ
أرى الناس خلال الجواد ولا أرى بخيلاً في العالمين خليل
وإني رأيتُ البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أنْ يُقال بخيلُ
ومِن خير حالات الفتى لو علمت إذا نال خيراً أن يكون سبيل
عطائي عطاءُ المكثرين تكرّماً ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنا ورأيُ أمير المؤمنين جميل

وكان كثير الكتب حتى قال أبو العباس ثعلب: رأيت الإسحاق الموصلي ألفَ جزء من لغات العرب، كلّها سماعُه، وما رأيت اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل إسحاق ثم منزل ابن الأعرابي. وكان المعتصم يقول: ما أغنى في إسحاق بن إبراهيم قطّ إلا خيل، إلا أنه قد زيد في ملكي، وأخباره كثيرة، وحكاياته شهيرة، وكان قد عمي آخر عمره.

* وفيها توفي الإمام أحد الأعلام أبو بكر بن أبي شيبة صاحب التصانيف الكبار. قال أبو زرعَة: ما رأيتُ أحفظ منه، وقال أبو عبيد: فانتهى علم الحديث إلى أربعة: أبي بكر بن أبي شيبة، وهو أسردهم له، وابنُ معين، وهو أجمعهم له. وابن المديني وهو أعلمهم به ـ وأحمد بن حنبل، وهو أفقههم فيه. وقال نفطويه: لمّا قدم أبو بكر بن أبي شيبة بغداد في أيام المتوكل، حذروا مجلسه بثلاثين ألفاً.

* وفيها: وقيل في سنة سبع وعشرين توفي أبو الهذيل شيخ المعتزلة البصريين المعروف بالعلاف مولى عبد القيس، صاحب مقالات في مذهبهم، ومجالس ومناظرات، حسن الجدال، قويّ الحجّة، كثير الاستعمال للأدلّة والإلزامات، توفّي وله نحو مائة سنة.

* وفيها توفي سُرَيج بن يونس البغدادي، العابد المشهور بالصلاح والأوصاف الملاح، أحدِ أئمة الحديثِ جدّ أبي العباس سُرَيج.

سنة ست وثلاثين ومائتين

* فيها توفّي الحافظ محدّث المدينة إبراهيم بن المنذر، والحافظ النّسابة الأخباري مصعب[1] بن عبد الله بن مصعب الأسدي الزبيريّ. قال الزّبير: كان عمّي مصعب وجه

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٥/ ٢٨٨: فيها توفي مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله المدني ـ وكان عمره ثمانين سنة، وهو عم الزبير بن بكار.

قريش مروءة وعلماً وشرفاً وديناً وقدراً وجاهاً، وكان نسّابة قريش.

* وفيها توفّي وزير المأمون الحسن بن سهل، وقد تقدّم دخول المأمون بابنته بوران، والكلفة التي احتملها والدها، وكان أخوه الفضل وزيراً قبله، وكان الحسن عالي الهمّة كثير العطاء للشعراء وغيرهم، قصده بعض الشعراء وأنشده:

تقول خليلي لما رأيتني أشد مطيتي من حلل
أبو الفضل اين ترتحل المطايا فقلت نعم إلى الحسن بن سهل

قلت: لقد تناسب لفظ هذا البيت ومعناه، أعني؛ لفظ سهل، مع سهولة النظم وسلاسته، وسهولة الخلق المذكور في نيل المقصود منه، مناسبة هذه السهولة لفظ اسمه، فاجتمعت السهولة في ثلاث: في المدح واسم الممدوح وخلقه، فأعطى قائلها المذكور عطاء جزيلاً، وخرج يوماً مع المأمون يشيّعه، فلما عزم على مفارقته قال له المأمون: يا أبا محمد؛ ألكَ حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، تحفظه عليّ من قلبك ما لا أستطيع حفظه إلا بك.

وقال بعضهم: حضرت مجلس الحسن بن سهل، وقد كتب لرجل شفاعة، فجعل الرجل يشكر، فقال الحسن: يا هذا؛ علامَ تشكرنا؟ إنّا نريد الشفاعات زكَوة مروءتنا، بلغني أنّ الرجل يسأل في القيامة عن فضل جاهه، كما يسأل عن فضل ماله، ولم يزل على وِزارة المأمون إلى أن ثارت عليه المرأة السوداء، لكثرة خدمة أخيه الفضل لما قيل، كما تقدّم في ترجمته سنة اثنتين ومائتين.

وفي سنة ستّ وثلاثين أيضاً توفي هَدبَة (بالموحدة) ابن خالد العبسيّ البصريّ الحافظ، قال عبدان: كنّا لا نصلّي خلفَ هدبة مما يطوّل، كان يسبح في الرُكوع والسجود نيفاً وثلاثين تسبيحة.

سنة سبع وثلاثين ومائتين

* فيها غضب المتوكّل على أحمد بن أبي دُؤاد القاضي وأهله، وصادرهم وأخذ منهم ستة عشر ألف[1] درهم.

* وفيها توفّي الشيخ الجليل المكرم العارف بالله حاتم الأصمّ الناطق بالمعارف والمواعظ والحكم، المكنّى والملقّب حين انفجرت فيه ينابيع الحكمة بأبي عبد الرحمن ولقمان هذه الأمة. قلت: وقصّته في الوعظ مع قاضي الريّ محمد بن مقاتل مشهورةٌ،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٥/٢٨٩: ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم.

واستحسان الإمام أحمد كلامه، ومدحه له. وإنّما سمّي الأصم، ولم يكن به صمم، لأن امرأة جاءت تكلّمه في شيء، فسمع منها صوتاً، فخجلت، فقال: أسمعيني ما تقولين، فإنّي أصمّ، فذهب عنها ما بها نزل من شدّة الخجل.

* وفيها توفّي وثيمة (بفتح الواو وكسر المثلثة وسكون المثناة من تحت وفتح الميم في أخره هاء) ابن موسى الوشّاء الفارسيّ. كان يتخيّر في الوشي، وصنّف كتاباً في أخبار الردّة، وذكر فيه القبائل التي ارتدّت بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، والسرايا التي سيّرها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وصورة مقاتلتهم، وما جرى بينهم وبين المسلمين في ذلك، ومن عاد منهم إلى الإسلام، وقتال مانِعِي الزكاة، وما جرى لخالد بن الوليد المخزومي مع مالك بن نُويرة اليربوعي أخي متمّم بن نُويرة الشاعر صاحب المراثي المشهورة في أخيه مالك، وصورة قتله، وما قاله متمّم وغيره من الشعر في ذلك، وهو كتاب جيّد يشتمل على فوائد كثيرة. وذكر الواقدي أنه صنّف كتاباً في الردّة أيضاً، أجاده في ذكر جماعة من أجلّاء المؤرّخين، وقالوا: كان يتخيّر في الوشي، وهو نوع من الثياب المعموله من الإبريسم[1]، وبه عُرف جماعة منها وثيمةُ المذكور، وإذا قد ذكرنا مالكاً وأخاه متمّماً، فلنذكر نبذة مشتملة من خبرهما.

كان مالك المذكور رجلاً ثريّاً نبيلاً يردف الملوك والإرداف إردافان فإن ردف يركب بعدهم على مركوبهم، وردف بخلفهم في الحكم إذا قاموا من مجالسهم. ومالك المذكور هو الذي يِضرب به المثل، فيقال: مرعى ولا كالسعدان، وماء ولا كصداء، وفتىً ولا كمالك. كان فارساً شاعراً مطاعاً في قومه، وكان فيه خيلاء وتقدّم ذاملة كبيرة، وكان يقال له الحفول، قدم على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في قوم من العرب، وأسلم فولّاه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم صدقةَ قومه.

ولما ارتدّت العرب بعد موته عليه السلام بمنع الزكاة، كان مالكٌ المذكور في جملتهم، ولمّا خرج خالد بن الوليد لقتالهم ـ في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه، نزل على مالك ـ وهو يقدم قومه بني يربوع ـ وقد أخذ مركوبهم، وتصرّف فيها، فكلّمه خالد فيها فقال: أنا آتي الصلاة دون الزكاة، فقال له خالد: أما علمت: الصلاةُ والزكاةُ معاً، لا يُقبل واحدٌ دون أخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك، قال خالد: وما تراه لك صاحباً، والله لقد هممت أنْ أضرب عنقك، ثم تحاولا في الكلام طويلاً، فقال له خالد: إني قاتلك، قال أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال: وهذه بعد تلك، والله لأقتلنّك.

(١) الإبريسم: كلمة فارسية تعني الحرير. (المنجد).

وكان عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وأبو قتادة الأنصاري حاضرين، فكلّما خالداً في أمره، فكره كلامهما، فقال مالك: يا خالداً بعثنا إلى أبي بكر، فيكون هو الذي يحكم فينا، فقد بُعث إليه غيرنا ممّن جُرمُه أكبر من جرمنا، فقال خالد: لا أقالني الله إن لم أقتلك. وتقدم إلى ضرار بن الأزور الأسدي بضرب عنقه، فالتفت مالك إلى زوجته أمّ متمم، وقال لخالد: هذه التي قتلتني ـ وكانت في غاية الجمال ـ فقال له خالدٌ: بل الله قتلك برجوعِك عن الإسلام، فقال مالك: أنا على الإسلام، فقال خالد: يا ضرار اضرب عنقه؛ فضرب عنقه، وجعل رأسه أُثفيّة لِقِدر، وكان من أكثر الناس شعراً، وكان القدر على رأسه حتى تطبخ الطعام، وما خلصت النار إلى سواه من كثرة شعره. هكذا قيل، وقبض خالدٌ امرأته، وقيل إنه اشتراها من الفيء وتزوّجها، وقيل: إنها اعتدّت بثلاثِ حَيْضات، ثم خطبها إلى نفسها فأجابته.

وقال لابن عمر وأبي قُتادة: تحضران النّكاح، فأبيا وقال له ابن عمر: تكتب إلى أبي بكر، وتذكر له أمرها، فأبى وتزوّجها، فقال في ذلك أبو زهير السعدي أبياتاً، نسب فيها خالداً إلى البغي.

قلت: ومنصب الصّحابة منزّه عن ذلك، يلتمس لهم أحسن المخارج كما ذكر العلماء في قتال بعضهم بعضاً، وكما سيأتي من اعتذار أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ لخالد في هذه القضيّة، على ما ذكر بعض المؤرّخين. ومن أبياتُ أبي زهير المذكور:

ألا قلْ لحيّ أوطئوا بالسّنابك ... تطاول هذا الليل من بعد مالكِ
قضىٰ خالِدٌ بغياً عليه لفرسه ... وكان له فيما هو قبل ذلكِ
فأمضى خالدٌ غير عاطف ... عنان الهوى عنها ولا متمالكِ
وأصبح ذا أهل وأصبح مالكٌ ... إلى غير شيء هالك في الهوالكِ
فمن لليتامى والأرامل بعده ... ومَنْ للرجالِ المعدمين الصعالك
أُصيبت تميمٌ عنها وسميتها ... بفارسها المرجوّ سحت الحوارك

قلت: قوله: (وكان له في ما هو قبل ذلك): هكذا هو في الأصل المنقول فيه، والصوابُ فيك، التفاتاً إلى المرأة، ليصبح كسرُ الكاف من ذلك. والحواركُ تطلق على كواهل الخيل.

قالوا: ولمّا بلغ الخبرُ أبا بكر وعمر، قال عمر: إنّ خالداً قد زنى فارجمته؛ قال: ما كنت لأرجمه، فإنّه تأوّل فأخطأ، قال: فإنه قتل مسلماً فاقتلْهُ، قال: ما كنت لأقتله به، إنه تأول فأخطأ، قال: فاعزِ له، قال: ما كنت لأشيمَ سيفاً سلّه الله عليهم أبداً. يعني: ما كنت

لأغمده. هكذا ذكر هذه الواقعة الواقدي، والله أعلم، وممّن رثاه به أخوه متمّمٌ قولهُ:

لقدْ لامني عند القبور على البكاء فبقي لتذراقِ الدموع السوافك
فقالوا: أتبكي كلّ قبر رأيْتَهُ لقبرٍ ثَوَىٰ بين اللّوى والدّكادِكِ
فقلت له: إنّ الشجيّ يبعث الشجىٰ فدعني، فهذا كله قبرُ مالك

قلت: وقد تقدّمت الإشارة إلى أنّ هذه الأبيات يستشهد بها المجنونُ وأرباب الشجون على أنّ الشجى يبعثُ الشجيٰ وكان قبرُ كلّ هالك قبرَ مالك، وكأنّ سائرَ الأشجان، على بابه شجون كلّ إنسان.

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

* فيها: أقبلت الروم في البحر في ثلاث مائة مركبٍ واهبة عظيمة، فكبسوا دُمياط وسَبْوا وأحرقوا وأسرعوا الكرّة في البحر، فأسروا ستّ مائة امرأةٍ.

* وفيها توفّي الإمام عالم المشرق المحدّث إسحاق بن راهويه الحنظليّ المروزيّ النيسابوري الحافظ. روي أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث، ويذاكر بمائة ألف ألف حديث، وقال: ما سمعت شيئاً قطّ إلاّ حفظته، ولا حفظت شيئاً فنسيتُه، وجمع بين الحديث والفقه والورع.

وذكره الدّارقطني فيمن روى عن الشافعيّ، وعدّه البيقهيّ في أصحاب الشافعي، وق ناظر الشافعي في جواز بيع دور مكّة، وقد استوفى، فخر الدين الرازيّ صورة ذلك المجلس في كتابه (مناقب الشافعي)، فلمّا عرف إسحاق فضله نسخ كتبه وجميع مصنّفاته بمصر. وقال الإمام أحمد: إسحاقُ عندنا من أئمة المسلمين، وكان قد رحل إلى الحجازِ والعراق واليمن والشام، وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته، ومنه سمع البخاريّ ومسلم والترمذيّ، وعمّر قريباً من ثمانين سنة، ولقّب أبوه براهويه، لأنه ولد في طريق مكّة، والطريقُ بالفارسية (راه ويه) معناه: وجده، فكأنه وجده في الطويق.

* وفيها توفّي أبو علي النيسابوري الحافظ، رحل وأكثر عن أبي بكر بن عيّاش وابن عُيينة وطبقتهما، وعرض عليه قضاء نيسابور، فاختفى، ودعا الله فمات في اليوم الثالث ـ رحمة الله عليه.

* وفيها توفي عبد الملك بن حبيب، مفتي الأندلس، مصنّف (الواضحة).

* وفيها توفّي عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام صاحب الأندلس، وقد نيّف على الستّين، وكانت أيامه اثنتين وثلاثين سنة، وكان محمود السيّرة عادلاً جواداً مفضّلاً، له نظر

في العقليات، ويهتمّ بالجهاد، ويقيم للناس الصلاة.

* وفيها توفّي أبو سعيد يحيى بن سليمان الجعفي الكوفي المقرىء الحافظ، نزيل مصر، وقيل في السنة التي قبلها.

سنة تسع وثلاثين ومائتين

* فيها غزا المسلمون حتى شارفوا القسطنطينية، فأغاروا وأحرقوا ألف قرية، وقتلوا وسَبَوا. وفيها عُزل(١) يحيى بن أكثم من القضاء، وصودر،، وأخذ منه ألف دينار، وفيها توفّي الحافظ عثمان بن أبي شيبة العبسي الكوفي، وكان أَسَنَّ من أخيه أبي بكر، رحل وطوّف، وصنّف التفسير والمسند، وحضر مجلسه ثلاثون ألفاً.

سنة أربعين ومائتين

* فيها توفّي قاضي القضاة أحمد بن أبي دُؤاد (بضمّ الدال المهملة مكرّرة في أوله وآخره، والهمزة والمد، بينهما على وزن فُواد)، الإياديّ عن ثمانين سنة، وكان فصيحاً مفوّهاً جواداً ممدحاً، وكان من أصحاب واصل بن عطاء المعتزلي، وهو الذي شغب على الإمام أحمد بن حنبل، وأفتى بقتله. وكان قد مرض بالفالج قبل موته نحو أربع سنين، ونكب وصودر. وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكان لا يبدؤهم أحد حتّى يبدؤوه.

وقال أبو العيناء: كان ابن أبي دُؤاد فصيحاً شاعراً مجيداً بليغاً، وما رأيتُ رئيساً قط أفصح ولا أنطقَ منه، وقد ذكره دعبل بن عليّ الخزاعي في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء، وروى له أبياتاً حِساناً. وكان يقول: ثلاثٌ ينبغي أن يبجّلوا أقدارهم: العلماء وولاة العدل والإخوان. فمن استخفّ بالعلماء أهلك دينه، ومن استخفّ بالولاة أهلك دنياه، ومن استخفّ بالإخوان أهلك مروءته.

وقال إبراهيم بن الحسن: كنّا عند المأمون، فذكروا مَنْ بايع من الأنصار ليلة العقبة، واختلفوا في ذلك، ثمّ دخل ابن أبي دؤاد فعدهم واحداً واحداً بأسمائهم، وكنّاهم وأنسابهم، فقال المأمون: إذا استجلس الناسُ فاضلاً، فمثل أحمد، فقال أحمد: بل إذا جالس العالم خليفةً فمثلُ أمير المؤمنين الذي يفهم، وكان أعلم بما يقوله منه، ومن كلام أحمد: ليس بكاملٍ مَنْ لم يحمل وليّه على منبر ولو أنه حارسٌ، وعدوُّه على جذع ولو أنّه وزير.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٩٤: في هذه السنة ـ ٢٤٠ هـ ـ عزل يحيى بن أكثم عن القضاء وقبض منه ما مبلغه خمسة وسبعون ألف دينار.

وقال أبو العيناء: حسد أبو دُلَفٍ القاسم بن عيسى العجلي، واحتيل عليه حتّى شهد عليه بخيانة. وقيل عند أفشين، فأخذه ببعض أسبابه، وجلس له، وأحضر السيّاف ليقتله. فبلغ ابن أبي دُؤاد الخبرُ، فركب في وقته مع من حضر من عدوله، ودخل على الأفشين، وقد جيء بأبي دُلَف ليُقتل، ثم قال إني رسول أمير المؤمنين إليك، وقد أمرك أن لا تحدّث في القاسم بن عيسى حدثاً حتى تسلّمه إليّ، ثم التفت إلى العدول، وقال: اشهدوا أنّي قد أدّيت الرسالة إليه، والقاسم حي معافى، فقالوا: شهدنا، وخرج فلم يقدر الأفشين على أن يُحدث فيه مكروهاً، وسار ابن أبي دُؤاد إلى المعتصم من وقته وقال: يا أمير المؤمنين؛ قد أدّيت عنك رسالة لم تقلها إنّي ما أعتدُّ بعمل خيرٍ خيراً منها، وإنّي لأرجو لك الجنة بها. ثم أخبره الخبر فصوَّب رأيه، ووّجه من أحضر القاسم، فأطلقه ووهب له، وعنّف الأفشين فيما عزم عليه.

وكان المعتصمُ قد اشتد غيظه على محمد بن الجهم البرمكي، فأمر بضرب عنقه، فلمّا رأى ابنُ دَؤاد ذلك وأن لا حيلة فيه، وقد شُدّ برأسه وأُقيم في النطع، وقد هزله السيف قال: ابن أبي دُؤاد للمعتصم: وكيف تأخذ ماله إذا قتلته؟ قال: ومَنْ يحول بيني وبينه؟ قال يأبى الله ذلك، ويأباه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ويأباه عدل أمير المؤمنين، فإنّ المال للوارث، إذا قتلته، حتّى تقيم البيّنة على ما فعله. وأمره باستخراج ما اختانه أقرب عليك وهو حيّ، فقال: أجلسوه حتّى أُناظر، فتأخر أمره على ماله جملةً وخلص بحمد الله تعالى.

وذكر الجاحظ أنّ المعتصم غضب على رجل من أهل الجزيرة، وأحضر السيف والنطع فقال له المعتصم: فعلتَ وصنعت وأمر بضرب عنقه، فقال له ابن أبي دُؤاد: يا أمير المؤمنين، سبق السيف العدل، فتأَنَّ في أمره، فإنه مظلوم، فسكن قليلاً، قال ابن أبي دُؤاد: وأرهقني البول فلم أقدر على حبسه، وعلمت أنّي إن قمتُ قُتل الرجل، فجعلت ثيابي تحتي، وبُلْتُ فيها حتى خلّصت الرجل، فلما قمتُ نظر المعتصم إلى ثيابي رطبة فقال: يا أبا عبد الله؛ كأن تحتك ماء؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنه كان كذا وكذا، فضحك ودعا لي وقال: أحسنت، بارك الله عليك. قال الراوي: وخلع عليه، وأمر له بمائة ألف درهم.

وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي: ابنُ أبي دُؤاد روحٌ كلّه من قرنه إلى قدمه، وقال بعضهم: ما رأيت قطّ أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد، وكان يسأل الشيء فيمتنع منه، ثم يدخل ابن أبي دؤاد، فيكلّمه في أهله، وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب، فيجيبه إلى كلّ ما يريد، ولقد كلّمه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان، فقال له: وما علي من هذا النهر؟ فقال: يا أمير

المؤمنين، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أقصى رعيّتك كما يسألك عن النظر في أدناها، ولم يزل يرفق به حتّى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحّاك الشاعر المشهور لبعض المتكلّمين: ابن أبي دؤاد عندنا لا يعرف اللغة، وعندكم لا يحسن الكلام، وعند الفقهاء لا يدري الفقه، وهو عند المعتصم يعرف هذا كلّه.

وكان ابتداء أمر ابن أبي دؤاد بالمأمون أنّه قال: كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم مع الفقهاء، وكنت عنده يوماً إذ جاء رسول المأمون وقال له: يقول لك أمير المؤمنين انتقل إلينا أنت وجميع مَنْ معك من أصحابك. فلم يحب أن أحضر معه، ولم يستطع أن يؤخّرني، فحضرت مع القوم، فتكلمت بحضرة المأمون، فأقبل المأمون ينظر إليّ إذا شرعت في الكلام، ويتفهم ما أقول، ويستحسنه، ثم قال لي: من تكون؟ فانتسبتُ له، فقال: ما أخرّك عنّا؟ فكرهت أن أحيل على يحيى، فقلت: حبس القدر وبلوغ الكتاب أجله. فقال: لا أعلمن يكون لنا مجلس إلا حضرته، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم اتصل الأمر.

وقيل: قدم يحيى بن أكثم قاضياً على البصرة من خراسان من قبل المأمون في آخر سنة اثنتين ومائتين وهو حدث، سنّة نيّفٌ وعشرون سنة، فاستصحب جماعة من أهل العلم والمروءات منهم: ابن أبي دؤاد، فلمّا قدم المأمون بغداد في سنة أربع ومائتين قال ليحيى بن أكثم: اختر لي من أصحابك جماعة ليجالسونني، فاختار منهم عشرين، معهم ابن أبي داود. ثم قال اختر منهم خمسة فيهم ابن أبي دؤاد، واتصل أمره وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم، وقال فيها: وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك، أشْرِكْه في المشورة في كلّ أمر، فإنه موضع ذلك، ولا تتخذنّ بعدي وزيراً. ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، وعزل يحيى بن أكثم، وخصّ به أحمد، حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، وامتحن ابن أبي دؤاد الإمامَ وألزمه، وأطلق القول بخلق القرآن الكريم، وذلك في شهر رمضان من سنة عشرين ومائتين. قلت: هكذا في الأصل المنقول منه (ألزم الإمام وأطلق) وكأنّه يعني الإمام أحمد ومعلوم أن الإمام أحمد لم يلتزم ذلك، ولا وافق عليه مع ما ناله من المكروه والضرر كما سيأتي في ترجمته.

ولما مات المعتصم وتولّى بعده الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دؤاد عنده، ولما مات الواثق وتولّى أخوه المتوكّل فلج ابن أبي دؤاد يعني، أصابه المرض المعروف بالفالج، وذهب شقّه الأيمن، فقلد المتوكّل ولده محمد بن أحمد القضاء مكانه، ثم عزل محمد بن أحمد عن المظالم،، وقلد يحيى بن أكثم، وكان الواثق قد أمر أن لا يرى أحدٌ من الناس الوزير محمد بن عبد الملك الزيات إلا قام له، وكان ابن أبي دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة

يصلّي فقال ابن الزيات.

صلّى الضحى لما استفاد عداوتي ولذا ينسك بعدها ويصوم
لا تَعْدَمْ مِنْ عداوةٍ مسمومة تركتك تقعد تارةً وتقوم

ومدح ابن أبي دؤاد جماعة من شعراء عصره قال الراوي: رأيت أبا تمام الطائي عند ابن أبي دؤاد، ومعه رجل ينشد عنده قصيدة منها:

لقد أنست مساوىء كلّ دهر محاسنَ أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرت في الآفاق إلاّ ومن جدواك راحلتي وزادي

ودخل أبو تمام عليه يوماً، وقد طالت الأيام في الوقوف ببابه، ولا يصل إليه، فعتب عليه معْ بعض أصحابه فقال له ابن أبي دؤاد: أحسبك عاتباً يا أبا تمّام؛ فقال؛ إنما يعتب على واحد، وأنت الناس، فكيف يُعتبُ عليك؟ فقال له: من أينَ لك هذا يا أبا تمام؟ فقال: من قول الحاذق، يعني أبا نوّاس للفضل بن الربيع.

وليس من الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد

ولما ولي ابن أبي دؤاد المظالم قال أبو تمّام يتظلّم إليه قصيدة من جملتها:

إذا أنت ضيّعت القريض وأهله فلا عجب أنْ ضيّعته الأعاجم
فقدْ هزّ عطفَيْه القريض ترفعاً بعدلك مذ صارت إليك المظالم
ولولا خلا فيها الشعر ما درى نعاه العُلى من أين تؤتى المكارم

ومدحه أبو تمام أيضاً بقصيدة، ما ألطف وأبدع وأبلغ وأبرع قوله فيها:

وإذا أراد اللّهُ نشرَ فضيلةٍ طُويَتْ أتاحَ لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النار في ما جاورَتْ ما كان يُعرف طيبُ نشرِ العود

قلت: وممّا يناسب هذا المعنى ما حصل لعائشة رضي الله تعالى عنها من الشرف الأسنى والمجد المقيم، بما أنزل الله تعالى في براءتها من القرآن الكريم، لمّا تكلم فيها ما بين حاسد أثيم ومخطىء للصواب عديم، ومتوعّد بعذاب عظيم، ومدحه بعض الشعراء بأبيات من جملتها:

لقد حازت نزارُ كل مجدٍ ومكرمة على رغم الأعادي
فقلْ للفاخرين على نزار ومنهم خندفٌ وبنو إياد
رسول اللّه والخلفاء منّا ومنّا أحمد بن أبي دُؤادِ

ولما سمع هذا الشعر أبو هفان قال:

فقـل للفـاخـريـن علـى نـزارٍ وهـم فـي الأرض سـاداةُ العبـاد
رسـول اللّـه والخلفـاء منّـا وتبـرّا مـن دعـا لبنـي إيـادِ
ومـا منّـا إيـاد إنْ أفـوت بـدعـوة أحمـد بـن أبـي دؤادِ

فقال ابن أبي دؤاد: ما بلغ منّي أحد ما بلغ منّي هذا الغلام، لولا أني أكره أن أُنبّه عليه لعاقبته عقاباً لم يعاقب أحد بمثله، جاء إلى منقبة كانت لي فنقضها عروةً عروةً، قلت قوله: أكره أن انبّه عليه، يعني: إذا عاقبتُ لعاقبته عقاباً لم يعاقب به الناس لقوله الذي ذمّني فيه، وكان بين ابن أبي دؤاد وبين الوزير مناقشات وشحناء، فمنع الوزير بعض أصحاب القاضي المذكور من التردّد إليه، فبلغ ذلك القاضي، فجاء إلى الوزير وقال: ما أتيتك متكثّراً بك من قلّة، ولا متعزّزاً من زلّة، ولكنّ أمير المؤمنين رتّبك رتبة أوجبت لقاءك، فإنْ لقيناك فَلَه، وإنْ تأخّرنا عنك فلك، ثم نهض من عنده (وهجا) بعضُ الشعراء الوزير ابن الزيّات بقصيدة، عَدَدُ أبياتها سبعون، فبلغ خبرها القاضي ابن أبي دؤاد فقال:

أحسـن مـن سبعيـن بيتـاً هجـا جمعـك معنـاهـن فـي بيـت
مـا أحـوج الملـك إلـى قطـرة تغسـل عنـه وَضَـرَ الـزّيـت[1]

فبلغ ابن الزيات ذلك فقال:

يـاذا الـذي يطمـع فـي هجـونـا عـرضـت بـي نفسـك للمـوت
الـزيـت لا يـزري بـأحسـابنـا أحسـابنـا معـروفـة البيـت
قبـرتـم الملـك فلـم تنقـه حتـى غسلنـا القـارَ بـالـزيـت

واستمر ولد القاضي المذكور في مكانه لما فلج حتّى سخط المتوكّل على القاضي أحمد المذكور وولده محمد في سنة سبع وثلاثين ومائتين، فصرفه عن المظالم، ثمّ عن القضاء، وأخذ من ولده مائة ألف وعشرين ألف دينار، وجواهر بأربعين ألف دينار، وقيل: صالَح على ضياعه وَضياع أبيه بألف ألف دينار، وسيّره إلى بغداد وفوّض القضاء إلى يحيى بن أكثم، قال أبو بكر بن دريد: كان ابن أبي دؤاد متألّفاً لأهل الأدب ـ من أيّ بلدٍ كانوا ـ وقد ضمّ منهم جماعة يعولهم ويموّنهم، فلمّا مات حضر ببابه جماعة منهم، وقالوا: يدفن من كان على ساقة الكرم، وتاريخ الأدب، ولا يتكلّم فيه، إنّ هذا وهن وتقصير، فلما طلع سريره قام إليه ثلاثة منهم فقال أحدهم:

---

(١) الوضر: وسخ الدسم

اليـوم مـات نظـام الملـك والسنـنّ   ومـات مَـنْ كـان يسعـد علـى الـزمـن
وأظلمـتْ سبـل الأدب إذا حُجبـت   شمـسُ المكـارم فـي غيـمٍ مـن الكفـن

وتقدم الثاني فقال:

تـرك المنـابـر والسـريـر تـواضعـاً   ولـه مَنَـابِـرُ لـو يسـافـر وَسـريـر
ولـه المحـامـد، ولغيـره يُجبـى الخـراج   وإنمـا يجبـى إليـه محـامـدٌ وسـريـر

وتقدّم الثالث فقال:

وليـس فتيـق المسـكِ ريـح حنـوطـه   ولكنّـه ذاك الثنـاء المخلـف
وليـس صـريـر العـرش مـا تسمعـونـه   ولكنّـه أصـلاب قـوم تقصـف

قلت: ومحاسنه كثيرة، ومناقبه شهيرة، سارت بها الرُّكبان، لولا ما صدر عنه من الامتحان بخلق القرآن.

وفي السنة المذكورة توفّي في الفقيه الإمام أحد العلماء الأعلام أبو ثورٍ إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، تفقّه بالشافعي، وسمع من ابن عُيَيْنة وغيره، وبرع في العلم، ولم يقلد أحداً، قال أحمد بن حنبل: هو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، أعرفه بالسّنة منذ خمسين سنة في تصنيفه في الأحكام بين الحديث والفقه، وكان أول اشتغاله في مذهب أهل الرأي حتّى قدم الشافعيُّ العراق فاختلف إليه واتّبعه ورفض مذهبه الأول.

وقال له محمد بن الحسن يوماً: يا أبا ثور؛ حسبت هذا الحجازيّ قد غلبنا عليك، فقال: أجل، الحقّ معه، ولم يزل مائلاً إلى مذهب الشافعي إلى أنْ توفّي.

وفي السنة المذكورة توفّي الحسن بن عيسى النيسابوري، وكان ورعاً ديناً أسلم على يد ابن المبارك، وسمع الكثير منه ومن ابن الأحوص وطائفة، ولمّا مرّ ببغداد حدّث بها، وعدُّوا في مجلسه اثنَيْ عشر ألف محبرة.

* وفيها توفي أبو العَمَيْثَل (بفتح العين والميم والمثلّثة وسكون المثناة من تحت قبل المثلثة) عبد الله بن خليل مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، كان يعجُم الكلام ويعرّبه، وكان كاتب عبد الله بن طاهرٍ وشاعره، وكاتب أبيه طاهر من قبله، وكان مكثِراً من ثقل اللغة، عارفاً بها شاعراً مجيداً، ومن شعره في عبد الله بن طاهر قوله:

يـا مـن يحـاول أن يكـون صفـاتـه   كصفـات عبـد الله أنصـت وأسمـع
فلقـد نصحتـك فـي المشـورة والـذي   حـجّ الحجيـج إليـه فـاسمـع أودَعِ

أصدق وعِنْ وَبِر واصبر واحتمل واصفح وكافِ ودارِ واحلَم واسجعِ
والطف وَلِنْ وتأنّ وارفق وابتدِ واحرِم وجدّ وجام واحمل وارفعِ
ولقد محضتك إن قبلت نصيحتي وهديت للنهج الأسد المهيعِ

قلت: وعدد كلمات بيته الثالث والرابع كلّ واحد عشر كلمات، ولي بيت جمعت فيه اثنتي عشرة كلمة في مخاطبة الله عزّ وجل بالدعاء. وهو قولي في بعض القصائد:

وسبحانك اللهمّ يا سامع الدعاء ويا منقذ الهلكى ويا راحم الورى
أقل واسترا جبروا رفِقِ ارزق وعافِ واهدِه والطف تجاوز واعطف وارحم لنا اغفرا

والألف التي بعد الراء من «اغفر» أبدل من نون التأكيد أي اغفرن، ولما حجب أبو العَمَيْثَل عن الدخول على عبد الله المذكور، وقد وصل إلى بابه قال:

سأترك هذا الباب ما دام اذنه على ما أرى حتّى يخفّ قليلا
إذا لم أجد يوماً إلى الإذن سلّما وجدتُ إلى ترك اللقاء سبيلا

فبلغ ذلك عبد الله، فأمر بدخوله، وكان أبو العميثل يقول: النعمان اسمٌ من أسماء الدم، ولذلك قيل شقائق النعمان نسبت إلى الدّم لحمرتها. قال: وقولهم إنّها منسوبة إلى النعمان بن المنذر ليس بشيء. وقال ابن قتيبة: إنّ النعمان بن المنذر، وهو آخر ملوك الحيرة من الحِمْيَر، خرج إلى ظهر الكوفة، وقد اعتمّ بناته من بين أصفر وأحمر وأخضر، وإذا فيه من الشقائق شيء كثير، فقال: ما أحسنها، احموها فحموها، فسمّي شقائق النعمان، وكذا اذكر الجوهري أنّها منسوبة إلى النعمان.

ويحكى أنّ أبا تمام الطائيّ لما أنشد عبد الله بن طاهر قصيدة مدحه بها، كان أبو العميثل حاضراً فقال: يا أبا تمام؛ لِم لا تقول ما يُفْهم؟ فقال: يا أبا العَمَيثل: لِمَ لا تفهم ما يُقال؟ وقبّل يوماً كفّ عبد الله بن طاهر فاستخشن شاربه فقال أبو العميثل في الحال: شوك القنفذ لا يؤلم كفّ الأسد فأعجبه كلامه، وأمر له بجائزة سنيّة، وصنف كتباً منها (ما اتفق لفظه واختلف معناه)، و (كتاب التشابه)، و (كتاب الأبيات السائرة)، و (كتاب معاني الشعر.

* وفيها توفّي مفتي القيروان وقاضيه أبو سعيد عبد السلام بن سعيد، المعروف بِسَحْنون المغربي المالكي، صاحب المدوّنة، والمدونة أصلها مسائل أخذها عن ابن القاسم، وكانت غير مرتبة، فرتب سحنونُ أكثرها وبوّبها على ترتيب التصانيف، واحتجّ لبعض مسائلها بالآثار، وأوّل من شرع في جمع المدونة أسد بن الفرات الفقيه المالكي بعد رجوعه من العراق من أسئلة سأل عنها ابن القاسم، وكتبها عنه سحنونٌ، ثم رحل بها إلى ابن

القاسم، فعرضها عليه، فأصلح فيها مسائل وحررها، ثم رجع بها إلى القيروان، وعلى نسخته يعتمدون. ولقّب سحنوناً باسم طائر وحديد في المغرب يسمّونه بذلك لحدّة ذهنه وذكائه، أخذ عن أبي القاسم وابن وهب وأشهب.

* وفيها توفي عبد العزيز بن يحيى الكناني المكّي صاحب «كتاب الجيدة» سمع من سفيان بن عيينة، وناظر بِشر المريسي فقطعه، وهو معدود من أصحاب الشافعي.

سنة إحدى وأربعين ومائتين

* فيها توفي إمام المحدّثين في عصره السيد الكبير فريد دهره، ذو العلم والعمل والحقّ والتحقيق والزهد الصادق والورع الدقيق، المعظّم المبجّل أحمد بن حنبل الشيباني المروزي الأصل ـ رضي الله تعالى عنه ـ خرج من جماعة من الكبار، ورحل إلى اليمن وسمع من الإمام الحافظ عبد الرزاق في صنعاء، والإمام إبراهيم بن الحكم في عدن وغيرهما من شيوخ اليمن. وقيل: كان يحفظ ألف ألف حديث، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصّه والمحبين له والمعتقدين فضله والمعظمين قدره والمبجلين محلّه. وقد تقدّم في ترجمة الشافعي الإشارة إلى تفخيم الإمام أحمد له.

وكذلك كان الشافعي يفخّمه، ولما ارتحل إلى مصر قال في حقّه: خرجتُ من بغداد، وما خلّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل، ودعي بعد وفاة الشافعي لستّ عشرة سنة إلى خلق القرآن فلم يجب، وضُرِبَ فصبرَ مصرّاً على الامتناع، وكان ضربه في العشر الأخير من شهر رمضان سنة عشرين ومائتين، أخذ عنه الحديث جماعةٌ من الأماثل، منهم الإمامان الحافظان قدوتا المحدّثين، محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، ولد سنة أربع وستين ومائة (وتوفّي) ضحى نهار الجمعة لثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول، وقيل: بل لثلاث عشرة بقينَ من الشهر المذكور، وقيل من ربيع الآخر، ودفن بمقبرة باب حرب، وقبره مشهور يُزار رحمة الله عليه، وحَزِرَ من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمان مائة ألف، ومن النساء ستين ألفاً، وقيل: إنه أسلم يوم مات عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس.

قلت: فإنْ صحّ ذلك فإسلامهم يحتمل سببين:

أحدهما: أن يكون ذلك لكثرة من رأوا من الخلائق مجتمعين على فضله وتعظيمه والصلاة عليه والأسف على فراقه.

والثاني: أنْ يكون بعضهم رأى آية، كما رأى بعض اليهود في جنازة سهل بن عبد الله، وهي أنه لمّا نظر إلى جنازته قال: أترون ما أرى؟ قالوا: وما ترى؟ قال: أرى أقواماً ينزلون

من السماء يتبركون بالجنازة، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وحكي أن إبراهيم الحربيّ قال: رأيتُ بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خرج من مسجد الرّصافة، وفي كمّه شيءٌ يتحرّك، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وأكرمني، فقلت: ما هذا الذي في كُمّك؟ فقال: قدم علينا روح أحمد بن حنبل فنثر عليه الدرّ والياقوت، فهذا ممّا التقطتُهُ. قلت: فما فعل يحيى بن معين وفلانٌ سمّاه من أئمة الحديث؟ قال: تركتهما، وقد زارا ربّ العالمين، وَوُضِعت لهما الموائد. قلتُ: فلم لم تأكل معهما أنت؟ قال: قد عرفت هوان الطعام عليّ، فأباحني النظر إلى وجهه الكريم، وكان رضي الله تعالى عنه حسن الوجه، ربعةً يخضّب بالحناء خضاباً ليس بالثاني، وفي لحيته شعرات سود قد جاوز سبعاً وسبعين سنة، وقد جمع ابن الجوزي أخباره في مجلّد، وكذلك البيهقي والهروي.

ومن مناقبه أيضاً ما ذكر بعض العلماء في مناقب الإمام الشافعي عن الربيع قال: لما خرج الشافعي إلى مصر ـ وأنا معه ـ كتب كتاباً وقال: يا ربيع، خذ كتابي هذا، وامضِ به إلى عبد الله أحمد بن حنبل، وأْتِني بالجواب. قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتابُ فلقيت أحمدَ بن حنبل في صلاة الصبح، فصلّيت معه، فلما انتقل من المحراب سلّمت إليه الكتاب وقلت: هذا كتاب الشافعيّ من مصر، فقال أحمد: نظرتَ فيه؟ قلت: لا، فكسر الختم وقرأ الكتاب فتغرغرت عيناه بالدّموع فقلت له: إيش فيه؟ فقال: يذكر أنّه رأى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه منّي السلام وقل له: إنك ستمتَحَنُ وتدعي للقول بخلق القرآن، فلا تجبهم، فسترفع لك علم إلى يوم القيامة. قال الربيع: فقلت: البِشارةَ! فخلع قميصه الذي يلي جلده ودفعه إليّ، وأخذت جواب الكتاب، وخرجت إلى مصر فسلّمت الكتاب للشافعي وقال: يا ربيع؛ إيش الذي دفع إليك؟ قلت: القميص الذي يلي جلده، فقال الشافعي: لا نفجعك به، ولكن بُلّهُ، وادفع إليّ الماء حتّى أكون شريكاً لك فيه.

* وفيها توفّي الإمام أبو علي الحسن بن حمّاد الحضرمي البغدادي، والحافظ أبو قدامة عبد الله بن سعيد رحمهم الله تعالى.

سنة اثنتين وأربعين ومائتين

* فيها توفي القاضي أبو حسان الزيادي الحسن بن علي بن عثمان، وكان إماماً ثقة، اخبارياً مصنّفاً كثير الاطلاع. وفيها توفي الإمام الربّاني أبو الحسن محمد بن أسلم الطوسي الزاهد صاحب المسْند والأربعين، وكان يُشبّه في وقته بابن المبارك. رحل وسمع من

يزيد بن هارون وجعفر بن عون وطبقتهما، وروى عنه إمام الأئمة المعروف بابن خُزيمة. وقال: لم تَرَ عيناي مثلَه، وقال غيره: يُعدّ من الإبدال رحمة الله عليه.

* وفيها توفي الفقيه العلاّمة المفخّم القاضي المشهور يحيى بن أكثم (بالمثلثة) التميمي. كان فقيهاً بارعاً عالماً بصيراً بالأحكام، سالماً من انتحال البدعة، قائماً بكلّ معضلة، غلب على المأمون حتى أخذ بمجامع قلبه، فقلّده القضاء وتدبير مملكته، وكانت الوزراء لا تعمل شيئاً إلا بعد مطالعته، كذا قال طلحة الشاهد، وقال غيره: جعل المتوكّل يحيى في مرتبة ابن أبي دُؤاد، ثم غضب عليه، وقال أبو حاتم فيهِ نَظَرٌ، قلت: وقد تقدّم في ترجمة ابن أبي دُؤاد أنّه قال: كان ابتداء اتصالي بالمأمون أني كنت أحضر مجلس يحيى بن أكثم مع الفقهاء، وأنا عنده يوماً إذْ جاء رسول المأمون فقال له: يقول لك أميرُ المؤمنين: أنتقل إلينا أنت وجميع من معك من أصحابك. قال: فلم يحبَّ أن أحضر معه، ولم يستطع أن يؤخِرني، فحضرت مع القوم، فتكلّمت بحضرة المأمون، فأقبل المأمون ينظر إليّ إلى آخر كلامه المتقدّم.

ومنه أنه لما ولّي المعتصم الخلافة جعل ابن أبي دؤاد قاضي القضاة، وعزل يحيى بن أكثم، وأنه سخط المتوكّل على القاضي ابن أبي دؤاد وولده وصادرهما، وفوّض القضاء إلى يحيى بن أكثم على ما ذكره ابن خلّكان في تاريخه، وهووواضح في تقدّم يحيى بن أكثم بولايته القضاء في زمن المأمون، ثم عزله بابن أبي دؤاد في زمن المعتصم، ثم عزل ابن أبي دؤاد، ابنه بابن أكثم في زمن المتوكل، وكل ذلك ظاهر على ما تقدّم والله أعلم.

رجعنا إلى ذكر ابن أكثم. قال طلحة بن محمد المذكور: ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه في زمانه إلا يحيى بن أكثم، وأحمد بن أبي دؤاد وسُئِلَ رجلٌ من البلغاء عنهما ليهمّا لنبل فقال: كان أحمد يجدّ مع جاريته وابنته ويحيى، ويهزل مع خصيمه وعدوّه، وكان يحيى سليماً من البدعة، وينتحل مذهب أهل السنّة، بخلاف ابن أبي دؤاد في اعتقاده وتعصّبه للمعتزلة.

وذكر الفقيه أبو الفضل عبد العزيز بن علي في (كتاب الفرائض) في آخر المسائل الملقّبات، وهي أربع عشرة المعروفة بالمأمونية التي هي: أبوانِ وابنتانِ، ولم يقسم التركة حتّى ماتت إحدى البنتين، وخلفت من المسألة، الأولى سُمّيت،مأمونيةً لأنّ المأمون أراد أن يولي رجلاً على القضاء، فَوُصِفَ له يحيى بن أكثم، فاستحضره، فلمّا دخل عليه - وكان ذميمَ الخلق - استحقره المأمون، فعلم ذلك يحيى فقال: يا أمير المؤمنين سَلْني إن كان القصدُ علمي لا خَلْقي، فسأله عن هذه المسألة فقال: الميت الأول رجل أو امرأة، فعلم المأمون أنّه قد علم المسألة. وفي رواية أنه قال له: إذا عرفتَ الميت الأول فقد عرفتَ

الجواب، وذلك أنه إنْ كان الميت الأول رجلاً فيصّح المسألتان من أربعة وخمسين، وإنْ كان امرأة لم يرث الجد في المسألة الثانية، لأنه أب وأمّ، فتصبح المسألتان من ثمانية عشر سهماً. قال بعضُهم، كان المأمون ممّنْ برع في العلوم، فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل.

وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أنّ يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسِنُّه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهل البصرة فقالوا: كم سنّ القاضي؟ فعلم أنه قد استُصْغِر، فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجّه به، أو قال: وجهه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قاضياً على أهل مكّة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجّه به النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سُور (بضم السين المهملة) الذي وجهه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاضياً على أهل البصرة فجعل جوابه احتجاجاً.

قلت: وقد روي أيضاً أنّه كان سنّه ثماني عشرة سنة، فقال: سنّي سنّ عتاب بن أَسَيْد حين ولاّه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على مكة ثمان عشر سنة، وكانت ولاية يحيى ابن أكثم على قضاء البصرة بعد إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة سنة اثنتين ومائتين.

وروى محمد بن منصور قال: كنّا مع المأمون في طريق الشام، فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء: بكّرا غداً إليه. فإن رأيتما للقول وجهاً فَقُولا، وإلاّ فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا إليه وهو يُسْتاك ويقول وهو مغتاظٌ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. وعلى عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وأنا أنهي عنهما، ومن أنت يا جعل حتى أنتهي عمّا فعله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أو أبو بكر؟ قال محمد بن منصور وأومى أبو العيناء إليّ إذا كان هذا القول يقوله في عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فكيف نكلّمه نحن؟ فسكتنا حتى جاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا. فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيّراً فقال: يا أمير المؤمنين؛ لما حدث في الإسلام، قال: ما حدث في الإسلام؟ قال: النداء بتحليل الزّنا. قال: نعم المتعة زِنا، قال: ومِنْ أين قلتَ هذا؟ قال: من كتاب الله تعالى وحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال الله تعالى: **﴿قد أفلح المؤمنون﴾** إلى قوله: **﴿والذين هم لِفُروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾** [المؤمنون ١ ـ ٧] يا أمير المؤمنين: زوجة المتعة ملك اليمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورّث، ويلحق منها الولد، ولها شرائطها؟ قال: لا؟ قال فقد صار متجاوز هذين من العادين. وهذا الزهري يا أمير المؤمنين ـ روى عن عبد الله والحسن ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، قال: أمرني

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها، بعد أن كان قد أمر بها، فالتفتَ إلينا المأمون وقال: أمحفوظٌ هذا من حديث الزهري؟ فقلنا: نعم، يا أمير المؤمنين، رواه جماعة منهم، مالك بن أنس فقال: أستغفر الله، بادروا بتحريم المتعة فبادروا بها.

وقال أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأزدي القاضي الفقيه المالكي البصري، وقد ذكر يحيى بن أكثم فعظم أمره وقال: كان له يوماً لم يكن لأحدٍ مثله، وذكر هذا اليوم، وكانت كتب يحيى في الفقه «أجلّ كتب، فتركها الناس لطولها، وله كتب في الأصول، وله كتاب أورده على العراقيين وبينه وبين داود بن علي مناظراتٍ كثيرة.

قالوا: وكان يحيى من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور ـ قال يوماً وزير المأمون أحمد بن أبي خالد وهو واقفٌ بين يدي المأمون وابنُ أكثم معه على طرف السرير يا أمير المؤمنين؛ إن القاضي يحيى صديقي، ومن أثق به في جميع أمري، وقد تغير عما عهدته منه، فقال المأمون: يا يحيى؛ إن فساد أمر الملوك بفساد خاصتهم، وما بعد لكما عندي عهد، فما هذه الوحشة فيكما؟ فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين؛ واللّٰهِ إنه ليعلم أني له على أكثر ممّا وصف، ولكنه لما رأى منزلتي منك هذه المنزلة حتّى خشي أن أتغيّر عليه يوماً فأقدح فيه عندك. فأحبّ أن يقول لك هذا ليأمن مني، وإنه لو بلغ نهاية مساوىء، ما ذكرته بسوء عندك أبداً. فقال المأمون: أكذلك هو يا أحمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال نستعين الله عليكما، فما رأيت أتمّ دهاء ولا أعظم فتنة منكما. وكان يحيى إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن حديث، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو، وإذا رآه يعرف النحو سأله عن الكلام ليقطعه.

وذكر الخطيب في تاريخه أنّه ذكر لأحمد بن حنبل رضي الله عنه ما يرمي الناس به يحيى بن أكثم، وينسبونه إليه من الهنات فقال: سبحان الله مَنْ يقول هذا أنكر ذلك إنكاراً شديداً.

وذكر الخطيب أيضاً أنّ المأمون قال ليحيى المذكور: من الذي يقول:

قاضي يرى الحدّ في الزنا ... ولا يرى على من يلوط من بأس

قال: أوما تعرف يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، قال: يقوله أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

لا أحسب الجورَ ينقضي ... وعلى الأمّة والٍ من آل عبّاس

قال: فأقحم المأمون خجِلاً وقال: ينبغي أن يُنفى أحمد بن أبي نعيم إلى السند. وهذان البيتان من جملة أبيات له منها قوله:

لا أفلحت أمّة، وحقّ لها ... يطول مكّس، وطوله أنعاس
ترضى بيحيى يكون سائسها ... وليس يحيى لها بِسوّاس

وممّا يناسب إنشاد المأمون البيت المذكور وجواب ابن أكثم بالبيت المقحم له، ما يحكى أنّ معاوية بن أبي سفيان لما اشتدّ مرض موتِهِ، وحصل اليأس منه، دخل عليه بعض ذريّة علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - يعوده فوجده قد استند جالساً متجلّداً، ثم ضعف عن القعود، فاضطجع وأنشد:

وتجلُّدي للشامتين أُريهمُ ... أنّي لريب الدهر لا أتضعْضَعُ

فأنشد العلوي عند ذلك:

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارَها ... ألفيتَ كُلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فتعجب الحاضرون من جوابه. وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة لأبي ذؤيبٍ خويلدِ بن خالد الهذلي، يرثي بها بنيه، وكان قد هلك له خمسُ بنين في عام واحدٍ بالطاعون في طريق مصر، وقيل في طريق إفريقية، وقيل في طريق المغرب، ثم هلك هو بعدهم.

وممّا يناسب الجواب المذكور، ما يُحكى أنّ بعض الشعراء وهو عبدُ الله بن إبراهيم المعروف بابن المؤدّب القيرواني امتدح ثقة الدولة بقصيدة رجا فيها صِلَتَه فلم يصله بشيء يُرضيه، وكان قد بلغ ثقة الدولة عنه شيءٌ، فلم يزل يرسلُ الطلب بعد حتّى ظفر به فقال له: ما الذي بلغني عنك؟ قال: المحال، أيّد الله الأمير. فقال: من هو الذي يقول في شعره: (فالحرّ ممتحن بأولادِ الزِّنا)؟ فقال: هو الذي يقول: (وعداوة الشعراء بئسَ المقتنى)، فتسمّر ساعة، ثم أمر له بشيء، وأخرجه من المدينة كراهيَة أن تثور عليه نفسه فيعاقبه، بعد أن عفا عنه، فخرج منها. وهذا المستشهد به عَجُزَا البيتين من شعر المتنبّي في قصيدةٍ مدح بها ابنَ عمّار. وصدرُ الأول منهما:

وإنه المسير عليك في نصلة ... فالحرُّ ممتحَن بأولاد الزنا

وصدر الثاني:

ومكائدَ السفهاء واقعةٌ بهم ... وعداوة الشعر بئس المقتنى

رجعنا إلى ذكر القاضي يحيى بن أكثم ولمّا توجّه المأمون إلى مصر في سنة

خمس عشرة ومائتين، وكان معه القاضي يحيى، فولاّه قضاءَ مصر، فحكم بها ثلاثة أيام، ثم خرج مع المأمون.

وروي عن يحيى أنه قال: اختصم إليّ في (الرّصافةِ) الجدّ الخامس يطلبُ ميراث ابنِ ابنِ ابنِ ابنهِ. قلت: ومِثلُ هذا، وجد عندنا في يافع من بلاد اليمن، حتى كان يقول الابن السافل: يا جدُّ أجِب جدَّك، وكان بعضُ الشعراء يتردّد إليه ويغشى مجلسه، وكان بعضَ الأحيان لا يقدر على الوصول إليه، إلا بعد مشقّة ومذلّة يقاسيها، فانقطع عنه، فلامته زوجته في ذلك مِراراً فأنشدها:

تكلّفُنــــي إذلالَ نفســــي لغيـــرهـــا   وكـــانَ عليهـــا أن أُهـــانَ لِتُكْـــرَمَـــا
تقـول سـل المعـروف يحيى بـن أكثـم   فقلـت: سليـه ربَّ يحيـى بـنِ أكثمـا

ولم يزل الأحوال تختلف على ابن أكثم وتتقلّب به الأيام إلى أن عزل محمد بن القاضي أحمد بن أبي دؤاد عن القضاء في أيام المتوكل، فولي ابن أكثم كما تقدّم، وخلع عليه خمس خلع، ثم عزله وولي في رتبته جعفر بن عبد الواحد الهاشمي. فجاء كاتبه إلى القاضي يحيى فقال: سلّم الديوان، فقال: شاهدان عادلان على أمير المؤمنين أنّه أمرني بذلك، فأخذ الديوان منه قهراً، وغضب عليه المتوكّل، فأمر بقبض أملاكه، وأُلزم بيتَه، ثم حجّ وحمل أخته معه، وعزم على أن يجاور، فلما اتصل به رجوع المتوكّل له رجع يريد العراق، فلمّا وصل إلى الربذةِ توفي بها يوم الجمعة منتصفَ ذي الحجّة من السنة المذكورة، وقيل في غيره سنة ثلاث وأربعين، ودفن هناك.

وحكى أبو عبد الله بن سعيد قال: كان يحيى بن أكثم القاضي صديقاً لي، وكان يودُّني وأودّه، وكنت أشتهي أن أراه في المنام بعد موته، فأقول له: ما فعل اللّهُ بك؟ فرأيتُه ليلةً، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر ليّ إلاّ أنّه وبخني، ثم قال لي: يا يحيى؛ خلطت عليّ في دار الدنيا، فقلت: يا ربّ، اتّكلت على حديث حدّثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنك قلت: إني لأستحيي أن أعذّب ذا شيبة بالنار، فقال: قد عفوتُ عنك يا يحيى، وصدق نبيّي، إلا أنك خلطت عليّ في دار الدنيا. ذكر كذلك الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته.

قلت: وممّا يناسب هذه الحكاية أو يقرب منها أنه توفّي شيخ كان عندنا في بلاد اليمن وكيلاً على باب القاضي في عدن. فلمّا توفي رآه بعضُ الناس في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه وقال: يا شيخ السوءِ، جئتني بموبقات الذنوب، أورقال

بالذنوب الموبقات، فقال: قلت: يا ربّ، ما هكذا بلغني عنك. قال: وما الذي بلغك عنّي؟ قلت: العفو والكرم، قال: صدقت، أدخلوه الجنة أو كما قال.

ولما ذكرتُ هذه الحكاية عند ولدٍ له وكيلٍ أيضاً في الخصومات قال: نعم ـ وهو وكيل ما يعجزه الجواب ـ يعني أباه ما أجاب به. قلت: وكلامه هذا، إن كان مزاحاً فهو قبيح، وإن كان جِدّاً فباطلٌ غير صحيح، لأنّ الثبات في الآخرة ليس إلا بتوفيق الله، وما ينعم به من نوالٍ لا بفصاحةِ اللسان وما يعرفه الإنسان في الدنيا من الجدال. نعوذ بالله من الاغترار والزيغ والضلال.

سنة ثلاث وأربعين ومائتين

فيها توفّي الشيخ الكبير العارف معدن الأسرار والحكم والمعارف وإمام الطريقة ولسان الحقيقة الحارث بن أسد المُحاسبيّ (بضم الميم) البصري الأصل، ممّن اجتمع له علم الظاهر والباطن، والفضائل الفاخرة، وجميل المحاسن. وله تصانيف في السلوك والمواعظ والأصول. ومن كتبه المشهورة النفيسة (كتاب الرعاية)، ومن دقيق ورعه أنه ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً لأنّ أبان كان يقول بالقدر. قال: وقد صحّت الرواية عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «**لا يتوارث أهلُ ملّتَيْن شتّى**»، ومات وهو محتاج إلى درهمٍ، خلّف أبوه ضياعاً وعقاراً، فلم يأخذ منه شيئاً.

ومن المشهور أنه كان محفوظاً إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة يتحرّك في إصبعه عرقٌ، فيمتنعُ من تناوله، وكان يقول: فقدنا ثلاثة أشياء: حُسْنَ الوجه مع صيانة، وحسن القبول مع الأمانة، وحسن الإخاء مع الوفاء. وهو أحد شيوخ الجنيد،

وقيل له المُحاسبيّ: لكثرة محاسبَةِ نفسه، وهو من الخمسة الشيوخ الجامعين بين علم الظاهر والباطن في عصر واحد، وهم: (هو) و (أبو القاسم الجنيد)، و (أبو محمد رُوَيْم)، و (أبو العباس عطاء)، و (عمرو بن عثمان المكّي) رحمهم الله تعالى.

* وفيها توفّي الفقيه الإمام أبو حفص حُرْمُلة بن يحيى التّجِيبي المصري الحافظ مصنِّف (المختصر والمبسوط) رحمه الله، روى عن ابن وهب مائةَ ألف حديث، وتفقّه بالإمام الشافعي، قيل: وكان أكثر أصحابه اختلافاً إليه واقتباساً منه و (التُجيبي): بضمّ المثنّاة من فوق وكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت وبعدها موحّدة. نسبة إلى امرأة نسبت أولادها إليه.

* وفيها توفّي إبراهيم بن عباس الصُّولي الشاعر المشهور، كان من الشعراء المجيدين، وله ديوان شعر، كلّه نحت وهو صغير، ومن رقيق شعره:

دنـت بـانـا مـن عـزتنـا زيـارة ... وشـطّ بليلـي عـن دنـوٍّ مـزارهـا
وإن مقيمــات بمنســرج اللّـــوى ... لأقرب من ليلى، وهاتيك دارها

وله:

ولــربّ نــازلــةٍ يضيــق بهــا الفتــى ... ورعـــاً وعنـــد اللّـــه منهـــا مخـــرجُ
كلمــتْ فلمــا استحكمــت حلقــاتهــا ... فـــرجـــت وكنّــا نظنهـــا لا تفـــرجُ
أولـــى البـــريـــةِ طُـــرّاً أن تـــواسيـــه ... عنـد السـرور الـذي واساك فـي الحـزَنِ
إن الكـــرام إذا مـــا أسهلـــوا ذكـــروا ... مَـنْ كـان بـالفهـم فـي المنـزل الخشِـنِ

وله هذان البيتان، وقيل هما في ديوان الوليد الأنصاري مجردان:

لا يمنعك خفضُ العيش في دَعَةٍ ... نـزوعُ نفـسٍ إلـى أهـل وأوطـانِ
تلقـى بكـلّ بـلادٍ إنْ حللـتَ بهـا ... أهـلاً بـأهـلٍ وجيـرانـاً بجيـرانِ

* وفيها توفي محمد بن يحيى بن أبي عمرو العداني الحافظ صاحب المسند، روىٰ عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى.

وفي السنة المذكورة توفّي ابن الراوَنْدي أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، وله مقالة في علم الكلام، ويُنسب إلى الزّيغ والإلحاد. وله مائة وبضع عشرة كتاباً، وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام.

قال ابن خلّكان بعدما أثنى على فضله، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام في كتبهم قال: وكانَ من فضلاءِ عصره، ومن تصانيفه (كتاب فضيحة المعتزلة)، قلت: وهو ردّ عن المعتزلة، فأصحابنا ينسبونه إلى ما هو أضلّ وأفظع من مذهب المعتزلة. عاش نحواً من أربعين سنة. ونسبته إلى راوند. قريةٌ من قرى قاسان ـ بالسين المهملة ـ بنواحي أصْفهان غير التي بالشين المعجمة المجاورة لِقُمّ بضم القاف، و (راوَنْد) أيضاً ناحية ظاهرَ نيسابور، وراوَند هذه هي التي ذكرها أبو تمام في كتاب الحماسة في باب المراثي.

قلت: وذكر أصحابنا في باب النسخ من كتب الأصول أنّه هو الذي لقّن اليهود الاحتجاج على عدم جواز النّسخ بزعمهم بنقل مفترى بأن قال لهم: قولوا أن موسى عليه السلام أمرنا أنْ نتمسّك بالسبت، ما دامت السمٰوات والأرض، ولا يجوز أنْ يأمر الأنبياء، إلا بما هو حقّ، وهذا القول بهت وافتراء على موسى صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلى نبيّنا وعلى جميع النبيين والمرسلين.

سنة أربع وأربعين ومائتين

* فيها وقيل في سنة ستّ وأربعين ومائتين مات دِعْبل[١] (بكسر الدال وسكون العين المهملتين وكسر الموحدة وبعدها لام) ابن عليّ الخزاعي الشاعر المشهور، يرجع في نسبه إلى عامر بن مريقيا، كان شاعراً مجيداً بذيء اللسان، مولعاً بالهجوّ والحطّ من أقدار الناس. هجا الخلفاء فمن دونهم، وعمل في إبراهيم بن المهديّ أبياتاً من جملتها:

ثَغَــرَ ابــنُ شِكلَــة بــالعــراقِ وأهلِــهِ فهقــا إليــه كــلُّ أطلــس مــائــق[٢]

يقال: فلان أحمق مائق إذا كان فيه حمق وغباوة، والأطلسُ الذي لا لحية له. فدخل إبراهيم على المأمون فشكا إليه حاله وقال: يا أمير المؤمنين؛ هجاني دِعبل فانتقم لي منه فقال: ما قال لعلّ قوله: (ثِغر ابن شكلة بالعراق وأهله)، وأنشد الأبيات فقال: هذا من بعض هجائه وقد هجاني بما هو أقبح من هذا:

فقال المأمونُ لك أسوةٌ بي فقد هجاني واحتملتُه وقال فيّ:

أيسـومُنـي المـأمـون حظـة جاهـل أوَ مـا رأى بـالأمـس رأسَ محمـدِ
إنّـي مـن القـوم الـذيـن سيوفُهـم فللـت أخـاك وشَـرّفتـك بمقعـدِ
سادوا لذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ

فقال إبراهيم: زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً، فما ينطق أحدنا إلا عن فضل علمك ولا يحلم إلا اتّباعاً لحلمك، وأشار دِعبل في هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخُزاعيّ وحصاره بغداد وقتله الأمير محمد بن الرشيد، وبذلك ولي المأمونُ الخلافة، ودعبلُ خزاعي فهو منهم، وكان المأمون إذا أنشد قوله هذا يقول: قبّح الله دِعْبِلاً ما أوقَحَه، كيف يقول عليّ هذا وقد ولدتُ في الخلافة ورضعت ثديّها وربيْت في مهدها؟ ومن شعره في الغزل:

لا تعجبـي يـا سَلْـمُ مِـنْ رجـل ضحـك المشيـب بـرأسـه فَبَكـى
يـا ليـتَ شعـري كيـف نَـوْمُكمـا يـا صـاحبـيّ إذا دَمِـي سُفِكـا
لا تـأْخُـذا بِظُـلامتـي أحـداً قلبـي طـرفـي فـي دمـي اشتـركـا

---

(١) في العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ٣١٨: هو دعبل بن علي بن رزين. وقيل دعبل لقبه، واختلفوا في اسمه، هل هو محمد أو الحسن أو عبد الرحمن؟ ـ وهو من خزاعة صلبية لا ولاء. كان أبوه شاعراً متوسطاً وكذلك عمه عبد الله وأخواه ـ ولد دعبل بالكوفة سنة ١٤٨ هـ.

(٢) هقى يهقي: هذى يهذي به: يتناوله بالقبيح. ثغر: ثلم، كسر.

ومن شعره في مدح المطلب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر:

زَمَنـي بمُطَّلِـبٌ سُقيـتَ زمـانـاً ... مـا صـرتَ إلا روضـة وَجنـانـا
كـلّ النّـدى إلا نـداك تكلُّـفٌ ... لـم أرضَ غيـرَك كـائنـاً مَـنْ كـانـا
أصلَحْتني بـالبِّـرِ يـدك فسـدتنـي ... وتـركتنـي السخـط الإحسـانـا[(١)]

ومما حكاه دِعْبل قال: كنّا يوماً عند فلان ابن فلان الكاتب البليغ، وسمّاه، ولكن كرهْتُ ذكرُه لوصفه له بما يقبح ذكره قال: وكانَ شديد البخل فأطَلْنا الحديث، واضطرّهُ الجوعُ إلى أن استدعى بغذائه فأتِيَ بقصعة فيها ديك هرم لا يقطعه السكّين، ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ كسرةَ خبزٍ فخاض بها مرقته، وقلب جميع ما في القصعة، ففقد الرأس فبقي مطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه، وقال للطباخ: أين الرأسُ؟ قال: رميت به، قال: ولِمَ؟ قال: ظننت أنّك لا تأكله، قال: لبئسَ ما ظننتَ، ويحك؛ واللّهِ لأمقُتُ من يرمي رجلَيْه، فكيف من يرمي رأسه، والرأس رئيس، وفيه الحواس الأربع، ومنه يصيح، ولولا صوته لما فضل، وفيه عرقه الذي يُتبّرك به، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل، فيقال شرابٌ كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكليتين، ولم يُرَ عظمٌ قطّ أحسن من عظم رأسه، أوَ مَا علمت أنّه خيرٌ من طرف الجناح ومن الساق والعنق؟ فإن كان قد بلغ مني بتلك أنك لا تأكله فانظرْ أين رميتَ به؟ قال: لا أدري أين هو، قال: لكنّي أدري أين هو، رميت به في بطنك، فالله حسيبُك.

ولما مات دعبل وكان صديق البحتريّ وكان أبو تمام قد مات قبله ـ رثاهما البحتري بأبيات منها:

قـد زاد فـي كَلفـي وأوقـد لـوعتـي ... مثـوىٰ حبيـبٍ يـومَ مـات ودِعِبْـلِ
جـوىٰ لا زال السمـاء محيلـة ... يغشـا كمـا يمـاء مـزنٍ مسبـلِ
حـدثٌ علـى الأهـواز يبعـد دونـه ... مسيـري النغـى ورمسة بـالمـوصِـلِ

* وفيها توفّي الإمام اللغوي النحوي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِكّيت (بكسر السين المهملة وتشديد الكاف وسكون المثناة من تحت وبعدها مثناة من فوق)، صاحب كتاب (إصلاح المنطق) وغيره من التصانيف في علم اللغة والنحو معاني الشعر، وفسّر دواوين الشعر، وجمع في ذلك قول البصريين والكوفيين، وأجاد وجاوز فيها تفسير كلّ من تقدمه على ما ذكر المرزباني فقال: ولم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم منه، وكان

---

(١) في العصر العباسي الأول لشوقي ضيف:
أصْلَحْتَنـي بـالبِـرّ بَـلْ أفْسـدْتَنـي ... وتـركتَنـي أتسخَّـطُ الإحسـانـا

عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر راويةً ثقةً، قد أخذ عن البصريين، وسمع من الأعراب وقال: ابن عساكر: حكى أبو يوسف عن أبي عمرو وإسحاق بن مرار الشيباني ومحمد بن مهنا ومحمد بن صبيح بن السّماك الواعظ. وروى عن الأصمعي وأبي عبيدة والفرّاء: وجماعة، وروى عنه أحمد بن فرج المقرىء ومحمد بن عجلان الأخباري، وأبو عكرمة الضبّي، وأبو سعيد السكري، وميمون بن هارون الكاتب وغيرهم.

وقال، وقال محمد بن السمّاك: من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم مارآهم، ورأس المداراة ترك المماراة، وكتبه جيدة صحيحة، وهو صحيح السماع، وله حظ من السنن والدين، وكان المتوكّل قد ألزمه تأديب ولده المعتزّ بالله، فلما جلس عنده قال له: بأيّ شيء يحبّ الأمير أن نبدأ، يعني من العلوم؟ فقال: بالانصراف، قال: فأقوم؟ قال المعتزّ: فأنا أحقُّ نهوضاً منك، فقام المعتز واستعجل، فعثر بسراويله، وسقط، فالتفت إلى ابن السِكّيتِ كالخَجِل، قد احمر وجهه فأنشد ابن السِكّيت.

يصاب الفتى مِنْ عثرةٍ بلسانه وليس يُصاب المرء مِن عثرة الرَجْلِ
فعثرته في القول تُذهِب رأسَه وعثرته في الرّجل تترا على مهْلِ

فلما كان من الغد، دخل ابن السِكيّت على المتوكّل وأخبره، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال: بلغني البيتان، وأمر له بجائزة.

قلت: ومِنْ جناية اللسان على النفس المشار إليها في النّظم الذي أنشده ما جرى له مع كونه محقّاً مأجوراً شهيداً، وذلك ما ذكروا أنه بينما هو يوماً مع المتوكل، إذ جاء المعتزّ والمؤيد، فقال المتوكّل: يا يعقوبُ أيُّما أحبُّ إليك، ابناي هذان أم الحسنُ والحسينُ؟ فغضّ ابن السكيت من ابنَيْه وذكر من محاسن الحسن والحسين ما هو معروفٌ من فضلهما، فأمر المتوكّل الأتراكَ فداسوا بطنَه، فحُمِلَ إلى داره وماتَ من الغدِ.

وفي رواية أخرى: إن المتوكّل كان كثير التحامل على عليّ بن أبي طالب وابنَيْه الحسنِ والحسينِ، رضوانُ الله عليهم، وكان ابنُ السِكّيتِ شديدَ المحبة لهم والميل إليهم، فقال تلك المقالة، فقال ابن السكيت: والله أنّ قنبر خادمَ عليّ رضي الله تعالى عنه، خيرٌ منك ومن ابنَيْك. فقال المتوكّل: سُلُّو لسانه من قفاه، ففعلوا به ذلك فمات، رحمه الله تعالى.

وقال ثعلبٌ: أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السِكّيت، قلت: وهذا موافق لما تقدّم من قول المرزباني، وقال أبو العباس المبرّد: ما رأيتُ للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب ابن السِكّيت (إصلاح المنطق). وقال غيره من العلماء:

إصلاح المنطق كتابٌ بلا خطبة، وأدب الكاتب خطبة بلا كتاب، لأن خطبته مطوّلة مودَعَةٌ فوائدَ، وعددوا له أيضاً من التصانيف المفيدات غيرَ كثير.

سنة خمس وأربعين ومائتين

* وفيها توفّي محمد بن هشام بن عوف التميمي السعدي، كان ممدوحاً بالحفظ وحسن الرواية. قال مورِّج (بكسر الراء المشددة والجيم) أخذ منّي كتاباً فحبسه ليلة، ثم جاء به، وحفظه بالحفظ وحسن الرواية. قال محمد بن هشام المذكور: لما قدمتُ مكّة لزمت مجلسَ ابن عُيَيْنة فقال لي يوماً: لا أراك تخطىء بشيء ممّا تسمع؟ قلت: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك تكتب؟ فقلتُ: إني أحفظه. فاستعاد منّي مجالس، فأعدتها على الوجه.

قال: حدّثنا الزهري عن عِكْرمة عن ابن عباسٍ أنّه قال: يولد في كل سبعين سنة مَنْ يحفظ كلّ شيء قال: وضرب بيده على جنبي وقال: أراك صاحب سبعين أو قال: مِنْ أصحاب السبعين، وقيل لسعدي المذكور: مات الضعفاء في هذا الغد، وسلم الأقوياء فقال: أنا سمعتُ:

رأيــتُ جلّتهــا فــي الحــدب بــاقيــة ينقـي الجـواسـي عنهـا حيـن يـزدحـمُ
لأنّ الـريـاح إذا مـا أعصفـت قصفـتْ عيـدانَ نجـدٍ لـم يعبـأ بهـا السلـمُ

وأنشد أيضاً:

ومـا يـواسيـكَ فـي مـا نـاب مـن حَـدَثٍ إلا أخـو ثقـةٍ فـانظـر بِمَـنْ تَثِـقُ

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ الكبير الوليّ الشهير العارف بالله الخبير أبو الفيض ثوْبان، وقيل الفيض بن إبراهيم المصريّ المعروف بذي النون، أحد رجال الطريقة، كان لسانُ هذا الشأن، وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً، وكان أبوه نوبيّاً، سُئل عن سبب توبته فقال: خرجتُ من مصر إلى بعض القرى، فنمتُ في الطريق في بعض الصحارى، ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرّةٍ عمياءَ سقطت من وكِرها، فانشقّتِ الأرض، فخرج منها سُكُرُّجتان[1] إحداهما ذهب، والأخرى فضة، وفي إحداهما سم، وفي الأخرى ماء، فجعلَت تأكل من هذا، وتشرب من هذا، فقلت: حسبي قد تبتُ، ولزمت الباب إلى أن قبلني، وكان قد سَعَوْا به إلى المتوكل، فاستحضره من مصر، فلما دخل عليه وعظه، فبكى المتوكّل، وردّه مكرّماً، وكان المتوكل إذا ذُكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: إذا ذُكر أهل الورع حي هلا بذي النون.

---

(١) السُّكرُجَة: الصحيفة التي يوضع فيها الطعام. (فارسية).

ومن ورعه ما ذكروا أنه أهدي إليه طعام، وهو في سجن المتوكّل، فأتاه رسولُ السجّان فحمله إليه فامتنع من أكله، فقيل له في ذلك فقال: طعام أتاني على مائدة ظالم فلا آكله، أو كما قال، ويعني بمائدة الظالم كفَّ السجان التي حملت الطعام إليه من باب السجن.

وقال إسحاق بن إبراهيم السرخسي: سمعت ذا النون يقول وفي يده الغلّ وفي رجله القيد، وهو يساق إلى المطبقِ[1]، والناس يبكون حوله، وهو يقول: هذا من مواهب الله وعطاياه، وكلّ عذب حسن طيب، ثم أنشد:

لك من قلبي المكانُ المصونُ كل يومٍ عليّ فيك يهونُ
لك عزم بأن أكون قتيلاً فبك الصبر عنك ما لا يكونُ

ولما أخرج من السجن، وأدخل على المتوكّل وعظه حتّى بكى وخرج من عنده مكرّماً. اجتمع إليه الصوفيّة في الجامع في بغداد، واستأذنوه في السماع، وحضر القوال، وأنشد شعراً:

صغيرٌ هواك عذّبني فكيف به إذا احتنك
وأنت جمعتَ مِن قلبي هوى قد كان مشترَكا

فتواجد ذو النون، وسقط فأنشجّ رأسه. وكان يقطر منه الدمُ، ولا يقع على الأرض، فقام شابٌّ يتواجدُ، فقال ذو النون: الذي يراك حين تقوم، فقعد الشاب. قال بعضُ الشيوخ: كان ذو النون صاحبَ إشراف، والشاب صاحبَ إنصاف، يعني لما قيل منه، فقعد إذْ لم يكن في قيامه كاملُ الصدق.

ومن كلام ذي النون: من علامة المحبّ لله متابعة حبيب الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنّته.

وسئل عن التوبة فقال: توبة العوامّ عن الذنوب، وتوبة الخواصّ من الغفلة. وله من الحكايات الغريبات والكرامات العجيبات ما يتعذّر حصره، ولا يليق بهذا الكتاب.

وقد ذكرت شيئاً من ذلك في الكتب اللائقة ذكره بها، المحبوبة عند أهلها، ولكنّي أذكر من كراماته التي هي بفضله شاهدة ها هنا كرامةً واحدةً وهي ما ذكر خلائق من الصالحين، ورواه عنهم كثير من العلماء العاملين أنّ الشيخ الكبير المشهور أبا الفيضِ ذا النون المذكور كان مع بعض أصحابه في البراري في وقت القائلة، فقالوا: ما أحسن هذا

(١) المطبق: سجن في سامراء.

المكان لو كان فيه رطبٌ، فقال رضي الله تعالى عنه: لعلّكم تشتهون الرطب، فقالوا: نعم، فقام إلى شجرة، وقال: أقسمتُ عليك بالذي خلقك، وابتدأك شجرة إلا ما نثرت علينا رطباً جنياً، فنثرت عليهم رطباً جنياً، فأكلوا ثم ناموا، فلما استيقظوا حرّكوها فنثرت عليهم شوكاً.

سنة ست وأربعين ومائتين

* فيها توفّي موسى بن عبد الملك الأصفهاني صاحب ديوان الخراج. كان من جملة الرؤساء وفضلاء الكتّاب، وله ديوان رسائل، وله شعر رقيق، وخدم جماعة من الخلفاء ومن شعره:

لمـــا وردتُ الفـــارسيّـــةَ ... جئــت مجتمــع الــدّقــاقِ
وشمَمْـت مــن أرض الحجـاز ... نسيـــم أنفـــاسِ العـــراقِ
أيقنــت لــي ولمــن أحِــبّ ... بجمــع شمــلِ واتّفـــاقِ
وضحكــتُ مــن فــرح اللقــاءِ ... كمــا بكيــتُ مــن الفِــراقِ

ولهذه الأبيات حكاية مستظرفة ذكرها الحافظ أبو عبد الله الحميدي وغيره من مؤرخي المغاربة، وهي أن أبا علي الحسن بن الأسْكُرِيّ (بضم الهمزة والكاف وسكون السين المهملة بينهما وكسر الراء) المصري قال: كنت من جلساء الأمير تميم بن أبي تميم، فأرسل إلى بغداد، فاشترى له جارية رائقةً فائقة الغناء، فلما وصلتْ إليه دعا جلساءه قال: وكنت فيهم، ثم مدّت الستارة وأمرها بالغناء فغنّت:

وبـدا لـه بعـدمـا انـدمـل الهـوى ... بـريـقٌ تـألّـق مـوهِنـاً لمعـانـه

الأبيات المعروفة، وأحسنت الجارية الغناء، فطرب الأمير تميم ومن حضر، ثم غنّت:

ستسليك عمّـا فـات دولـة مفضّـل ... أوأيلـــه محمـــودة وأواخِـــرُه
ثنــي الله عطفَيْــه وألــف شخصــه ... على البرُّ مُذْ شُذّت إليه الموازِرُه

قال فطرب تميم ومن حضر طرباً شديداً، ثم غنّت بيتاً من قصيدة محمد بن رزق الكاتب البغدادي.

أستـودع اللّـهُ فـي بغـداد لـي قمـراً ... بـالكـرخ مـن فلـك الأزرار مطلعـه

فاشتدّ طرب الأمير المذكور، وأفرط جدّاً ثم قال لها: تمنّي ما شئت، فقالت: أتمنّى عافية الأمير وسلامته، فقال: لا والله، لا بدّ أن تتمني. فقالت: على الوفاء أيها الأمير بما

أتمنى؟ فقال: نعم، فقالت: أتمنّى أن أغنيّ ببغداد ـ قال: فامتقعَ لونُ تميم وتغيّر وجهه، وتكدّر المجلس وقام، وقمْنا، ثم أرسل إليّ فرجعتُ فوجدته جالساً ينتظرُني، فسلّمت عليه، وقمتُ بين يديه فقال: ويحَك، أرأيت ما امتُحِنّا به؟ فقلت: نعم أيها الأمير. فقال: لا بدّ من الوفاء، ولا أثق في هذا بغيرك، فتأهّب للسير معها إلى بغداد، فإذا غنّت هناك فاصرفها، فقلت: سمعاً وطاعة، ثم قمتُ وتأهبتُ، وأمرها بالتأهّب، وأصحبها جارية له سوداء، تعادلها وتخدمها، وأمر بناقة ومحملٍ، فأُدخلت فيه، فسرنا إلى مكّة مع القافلة، فقضينا حجّنا، ثم دخلنا في قافلة العراق وسرنا، فلما وردنا القادسيّة اتتني السوداءُ فقالت: تقول لك سيدتي أين نحن؟ فقلت لها: نزول بالقادسية. فأخبرتها فسمعتُ صوتَها قد ارتفع بالغناءِ بالأبيات المذكورة، فتصايح الناسُ: أعيدي بالله، أعيدي بالله، فما سُمع لها كلمة. ثم نزلنا (الياسِرية) بالياء المثناة من تحت وكسر السين المهملة والراء وبعدها ياء النسبة. وبينها وبين بغدادَ خمسةُ أميال في بساتين متّصلة ينزل الناسُ بها ثم يبكّرون الدخولَ إلى بغداد، فلما كان وقتُ الصباح، إذا بالسوداء قد أتتني مذعورةً فقلت: مالك؟ قالت: إن سيدتي ليست بحاضِرةٍ، فقلت: ويلَكِ، وأين هِي؟ فقالت: واللّهِ ما أدري. قال: فلم أحسّ لها أثراً بعد ذلك، ودخلت بغداد وقضيت حوائجي بها، ثم انصرفت إلى تميم فأخبرته خبرها، فعظم ذلك عليه واغتمّ لها غمّاً شديداً، ثم ما زال ذاكراً لها. وفي السنة المذكورة توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الإمام أحمد بن أبي الحواري، ريحانة الشام. سمع أبا معاوية وطبقته، وكان من كبار المحدّثين وأجلّاء الصوفية العارفين، صحب الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبا سليمان الداراني رحمهما الله تعالى.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحبٍّ، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه، ومن عمل بلا اتّباع السنة، فعمله باطل وأفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته، على غير الموافقة، وقال: ما ابتلى الله بشيء أشدّ من القسوة والغفلة.

وكان سيدُ الطائفة أبو القاسم الجنيد ـ رضي الله تعالى عنه ـ يقول: أحمد بن أبي الحواري رَيْحانة الشام. وكانت زوجته رائقة الشامية تقول له: احبّك حبّ الإخوان لا حبّ الأزواج. وكانت تطعمه الطيّب وتطيّبه وتقول: اذهب بنشاطك إلى أزواجك، وتقول عند تقريب الطعام إليه: كل فما نضج إلا بالتسبيح، وتقول إذا قامت من الليل:

قام المحبّ إلى الموصل قومةً   كاد الفؤاد من السرور يطير

* وفيها توّفي العباس بن عبد العظيم البصري الحافظ، أحد علماء السنة.

سنة سبع وأربعين ومائتين

* فيها توفّي إبراهيم بن سعيد الجوهري البغدادي الحافظ صاحب المسند، المخرج في أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ في نيّف وعشرين جزءاً.

وفي شوال منها قُتِل[1] المتوكّل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد العباسي. فكتوا به في مجلس لهوه بأمر ابنه المنتصر، وهو الذي أحيى السنّة وأمات البدعة، غير أنه كان فيه انهماك على اللذات والمكاره، وفيه كرم وتبذيرٌ. وكان قد عزم على خلع ابنه المنتصر من العهد وتقديم المعتزّ عليه لفرط محبّته لأمه، وبقي يؤذيه ويتهدّده إن لم ينزل عن العهد. وكان المتوكلُ قد صادر بعض رؤساء الدولة، فعملوا عليه، ودخل عليه خمسةٌ بالسيوف في جوف الليل.

سنة ثمان وأربعين ومائتين

* فيها توفّي الإمام العالم أبو جعفر أحمد بن صالح الطبري الحافظ. قال بعض المحدّثين: كتبتُ عن ألف شيخ حجّتي فيما بيني وبين الله رجلان أحمد بن صالح وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى.

* وفيها توفّي الإمام الفقيه المتكلم الحسين بن علي الكرابيسي البغدادي. تفقّه على الإمام الشافعي، وسمع من إسحاق الأزرق وجماعة، وكان متضلّعاً من الفقه والأصول والحديث ومعرفة الرجال والكرابيس: الثيابُ الغِلاظُ. وله عدة تصانيف، وأخذ عنه الفقهَ خلقٌ كثيرٌ.

* وفيها توفي أمير خراسان طاهر بن عبد الله الخزاعي، والمنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكّل على الله. وكانت خلافته سبعة أشهر، وعمره ستّاً وعشرين سنة، وكان مهيباً مليح الصورة كامل العقل محبّاً في الخير، قيل أن أمراء التّرك خافوه، فلما حمّ دسّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينارٍ، فقصده بريشة مسمومة، وقيل ثم نم في تكثرات، وحكي أنه قال لأمه: يا أماه، ذهبت منّي الدنيا والآخرة، عاجلتُ أبي فعوجِلْتُ.

سنة تسع وأربعين ومائتين

* فيها توفي الحسن بن الصباح، الإمام أبو علي البزّار، كان الإمام أحمد يرفع قدره ويجلّه ويحترمه.

---

(١) في مروج الذهب للمسعودي ٥/ ٣، قتل وهو ابن إحدى وأربعين سنة، فكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسع ليالٍ، قتل ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال.

* وفيها توفّي عبد بن حميد الكشي الحافظ أبو محمد صاحب المسند والتفسير.

* وفيها توفي أبو حفص عمرو بن علي الباهلي البصري الصيرفيّ الفلاّس الحافظ، أحد الأعلام. قال أبو زُرعة ذلك من فرسان الحديث.

سنة خمسين ومائتين

* فيها توفّي أبو الحسن أحمد بن محمد البزّي المقرىء، مؤذن المسجد الحرام وشيخ الإقراء به ـ رحمه الله تعالى.

* وفيها توفي وقيل في سنة خمس وخمسين ومائتين الإمام أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني النحوي اللغوي المقرىء، صاحب المصنّفات. أخذ العربيّة عن أبي عبيدة الأصمعي، وقرأ القرآن على يعقوب، وكتب الحديث على طائفة من المحدّثين. ولما مات أبو حاتم بلغت قيمة كتبه أربعة عشر ألف دينار، فوجّه ابن السِكّيت من اشتراها بدون هذا قليلاً، وحابوه فيها. قال أبو حاتم المذكور: مرّ رجل براهب فقال له: عظني، قال: أعظكم وفيكم القرآن، ومنكم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ قال: نعم، قال: فاتّعظ ببيت شعر قاله رجل منكم:

تجرّد من الدنيا فإنك إنما ... خرجتَ إلى الدنيا وأنت مجرّد

* وفيها توفي عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ البصري، وقيل بل في سنة خمس وخمسين؛ وهنالك يأتي ترجمته ـ إن شاء الله تعالى ـ.

* وفيها توّفي أبو عمرو نصر بن علي الجهضمي البصري الحافظ، أحد أوعية العلم. كان المستعين قد طلبه ليولّيه القضاء فقال لأمير البصرة. حتّى أرجع، فأستخر الله، فرجع وصلّى ركعتين وقال: اللهم إن كان لي عندك خيراً فأقبضني إليك، ثم نام، فنبّهوه فإذا هو ميت.

* وفيها توفي الخليع الحسين بن الضحّاك البصري الشاعر. كان حسن الإفتنان في ضروب الشعر وأنواعه، واتصل في مجالسه الخلفاء ما لم يتصل إليه أحد إلا إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي، فإنه قاربه في ذلك، وقيل ساواه. وأول من صحب منهم الأمين بن هارون الرشيد ثم هلمّ جراً إلى المستعين. وهو في الطبقة الأولى من الشعراء المجيدين،، بينه وبين أبي نواس مجازاة لطيفة ووقائع ظريفة، وسمّي خليعاً لكثرة هجوته وخلاعته، ومن شعره:

اطلبْ بخدّي وخدّيك تلقَ عجيبا ... من معانٍ يحار فيها الضمير

فبخـــدّيــــك للــــربيــــع ريــــاض وبخـــدّي للــــدمــــوع غــــديــــر

وَلَهُ:

إذا اختُّـــم بــــالغيــــب عهــــدي تــدلــون إدلال المقيــم علــى العبــد
صِلُــوا وافعلــوا فعــلَ المــدلّ بــوصلــه وإلا فصَــدُّوا وافعلــوا فعــل ذي الضــدّ

* وفيها توفي الفضل بن مروان، وزير المعتصم، وله ديوان شعر، ومن كلامه: الكتاب كالدولاب، إذا تعطّل تكسّر. وكان قد جلس يوماً لقضاء حوائج الناس، فرفعت إليه قصص العامة، فرأى في جملتها ورقة فيها مكتوب:

تفــرّغْــتَ يــا فضــل بــن مــروان فــاعتبــر
فقبْلَــكَ كــان الفضــل والفضــل والفضــل

ثــلاثــة أمــلاك مضــوا لسبيلهــم بــأيــديهــم الإقيــاد والحبــس والقتــلُ
فــإنـك قـد أصبحـت فـي النـاس ظـالمـاً ستــودي كمـا أودى الثـلاثـة مِـنْ قبـلُ

أراد بالثلاثة: الفضل بن يحيى البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل. ثم إن المعتصم تغيّر على الفضل بن مروان، وقبض عليه وقال: عصى الله في طاعتي، فسلطني عليه. ثم خدم بعد ذلك جماعة من الخلفاء.

سنة إحدى وخمسين ومائتين

* فيها توفي الإمام الحافظ أبو يعقوب إسحاق بن منصور المروزي.

سنة اثنتين خمسين ومائتين

* فيها توفّي المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم محمد بن الرشيد العباسي، بويع بعد المنتصر، وكان أمراء الترك قد استولوا على الأمر، وبقي المستعين مقهوراً معهم، فتحوّل من سامرا إلى بغداد غضبانَ، فوجّهوا يعتذرون إليه، ويسألونه الرجوع، فامتنع، فعمدوا إلى الحبس، وأخرجوا المعتزّ بالله وخلّفوا له. وجاء أخوه أبو أحمد لمحاصرة المستعين، فتهيّأ المستعين ونائب بغداد ابن طاهر للحرب، وبنوا سور بغداد، ووقع القتال، ونصبت المجانيق، ودام الحصار أشهراً. واشتدت البلاء وكثرت القتلى، وجهد أهل بغداد حتّى أكلوا الجيف، وجرت وقعات عديدة بين الفريقين، قتل في وقعة منها نحو الألفين من البغادِدَةِ، إلى أن كَلّوا وضعف أمرهم، وقوي أمر المعتزّ بالله. ثم تخلّى ابن طاهر عن المستعين لما رأى من البلاء، فكاتب المعتزَّ، ثم سَعَوْا في المصالح على خلع المستعين، فخلع نفسه على شروط مؤكّدةٍ، ثم نفذوه إلى واسط، فاعتقل تسعة أشهر، ثم أحضر إلى

سامراء فقتلوه بقادسية سامراء في آخر رمضان، وكان مسرفاً في تبذير الجوائز والذخائر.

* وفيها توفي بندار محمد بن بشار البصري الحافظ ـ رحمه الله تعالى.

سنة ثلاث وخمسين ومائتين

* فيها وقيل في سنة ستّ، وقيل إحدى وخمسين ومائتين توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير ذو المقامات العليّة والأحوال السنيّة والكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة، صاحب الفضل العديد والعزم السديد والورع الشديد السري السقطي أحد أولاء الطريقة ومعادن أسرار الحقيقة، خال الأستاذ أبي القاسم الجنيد وأستاذه وتلميذ الشيخ العارف بالله المقرّب المعروف في بغداد بالترياق المجرّب معروف الكرخي، يقال: أنّ السري كان في دكّان، فجاء معروف يوماً ومعه صبي يتيم فقال: اكسِ هذا، قال السري: فكسوته ففرح بذلك معروف وقال: بغّض الله إليك الدنيا. وزاد بعضهم في روايته: وأراحك ممّا أنت. فقال السري: فقمت من الدكّان، وليس شيء أبغض إليّ من الدنيا وكل ما أنا فيه من تركات معروف.

ويحكى أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي مرّة الحمد لله، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني إنسان وقال: سلم حانوتك، فقلت: الحمد لله. فأنا نادم من ذلك الوقت على ما فعلت، حيث أردت لنفسي خيراً من الناس. وقال أبو القاسم الجنيد: دفع إليّ السري رقعة وقال: هذه خير لك من سبع مائة قصة، فإذا فيها:

ولما ادّعيت الحبّ قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحبّ حتى يلصقَ الظهرُ بالحشا ... وتذبلَ حتّى لا تجيب المناديا
وتنحُلُ حتى ليس يُبْقي لك الهوى ... سوى مقلةٍ تبكي بها وتُناجِيا

وقال أيضاً: دخلت على السري يوماً وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: جاءتني البارحة الصبيّةُ فقالت: يا أبتِ؛ هذه ليلة حارة، وهذا الكوز أعلقه ها هنا، ثم إني حملتني عيناي فنمتُ فرأيتُ جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء، فقلت: لمن أنت؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرّد في الكيزان، وتناولت الكوز فضربت به الأرض. قال الجنيد: فرأيتُ الخزف المكسورة لم يرفعها حتّى عفي عليه التراب، وفضائل السريّ ومحاسنه معروفة، وأوصافه بالجميل والجمال موصوفة ـ قدس الله أسراره.

* وفيها توفي الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، وصيف التركي، وكان من أكبر أمراء الدولة. وأبو جعفر أحمد بن سعيد بن صخر الدّارمي السرخسيّ، أحد الفقهاء والأئمة في الأثر، رحمة الله عليه.

سنة أربع وخمسين ومائتين

* فيها توفي العسكري أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق العلوي الحسيني. عاش أربعين سنة، وكان متعبّداً فقيهاً إماماً، استفتاه المتوكّل مرّة، ووصله بأربعة آلاف درهم وهو أحد الأثني عشر الذين تعتقد الشيعة الغلاةُ عصمتهم. وكان قد سُعي به إلى المتوكّل، وقيل له: إنّ في منزله سلاحاً وكتباً، وأوهموه أنه يطلب الخلافة، فوجّه من هجم عليه وعلى منزله، فوجدوه وحده في بيت مغلق، وعليه مدرّعة من شعرٍ، وعلى رأسه ملحفة من صوف، وهو مستقبلٌ القبلة، وليس بينه وبين الأرض بساط إلاّ الرمل والحصى، وهو يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، فحمل إليه على الصفة المذكورة، فلما رآه عظّمه وأجلسه إلى جنبه. وكان المتوكّل يشرب وفي يده كأس، فناوله الكأس الذي في يده فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما خامر لحمي وعظمي قطّ، فاعفني عنه. فعفاه، وقال له: أنشدني شعراً أستحسنه، فقال: إنّي لقليل الرّواية للشعر. قال: لا بدّ أن تنشدني، فأنشده:

باتُوا على قُلل الأجبال تحرسهم غُلْب الرجال، فلم ينفعهم القللُ
واستُنزلوا بَعْدَ إعراض معاقلَهم فأُودِعوا حفراً يا بئسَ ما نزلوا
ناداهم صارخٌ من بعدما قُبروا أين الأسِرّة والتيجان والحللُ
أينَ الوجوهُ التي كانت مُنَعّمةً من دونها تُضرب الأستار والكِللُ
فأفصحَ القبرُ عنهم حين سائلَهم تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتَتِلُ

قال: فأشفق من حضر على العسكري، وظنّوا أنّ بادرة تبدر إليه، فبكى المتوكلُ بكاء طويلاً حتّى بلّت دموعه لحيته، وبكى من حضره، ثم أمر برفع الشراب وقال: يا أبا الحسن؛ أعليك دينٌ؟ قال: نعم أربعة آلاف، فأمر بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرّماً. وكانت ولادته في ثالث عشر رجب، وقيل في يوم عرفة سنة أربع، وقيل ثلاث عشرة ومائتين. وقيل له العسكري: لأنه لما كثرت السّباية في حقّه عند المتوكّل أحضره من المدينة ـ وكان مولده بها ـ وأقرّه بسرّ من رأى، وهي تدعى بالعسكر، لأنّ المعتصم لما بناها انتقل إليها بعسكره فقيل له: العسكر، ثم نُسب أبو الحسن المذكور إليها، لأنه أقام بها عشرين سنة وأشهراً، وتوفّي بها، ودفن في داره رحمة الله عليه.

* وفيها توفّي العتبي صاحب العتبة في مذهب مالك، وهو محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة الأموي العتبي القطري الأندلسي الفقيه، أحد الأعلام ببلده. أخذ عن

يحيى بن يحيى، ورحل فأخذ بالقيروانِ عن سحنون، وبمصر عن أصبغ.

سنة خمس وخمسين ومائتين

* فيها خرج العلوي(١) بالبصرة ودعا إلى نفسه، فبادر إلى إجابة دعوته عبيد أهل البصرة والسودان، ومن ثم الزنج، والتفت إليه كلّ صاحب فتنة حتّى استفحل أمره، وهزم جيوشَ الخليفة واستباح البصرة وغيرها، وفعل الأفاعيل، وامتدّت أيامه إلى أن قتل في سنة سبع وسبعين.

* وفيها توفّي الإمام الحبر أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي، صاحب المسند المشهور، ورحل وطوّف وسمع النضر بن شُمَيْل ويزيد بن هارون وطبقتهما.

* وفيها قتل المعتزّ بالله، أبو عبد الله محمد بن المتوكّل، خلعوه وأشهد على نفسه مُكْرهاً، ثم أدخلوه بعد خمسة أيام حمّاماً فعطس حتى عاين الموت، وهو يطلب الماء فيمنع، ثم أعطوه ماءً بثلج فشربه. فسقط ميتاً. واختفت أمّه وكانت ذات أموال عظيمة، منها ياقوت وزمرّد وغيرهما من الجواهر، قوّموها بألفَيْ ألف دينار، ولم يكن في خزاين الخلافة شيء، فطلبوا من أمّه مالاً فلم تعطِهم، فأجمعوا على خلعه، ولبسوا السلاح، وأحاطوا بدار الخلافة، وهجم على المعتزّ طائفة منهم فضربوه بالدبابيس، وأقاموه في الشمس حافياً ليخلع فيه نفسه فأجاب، وأحضروا محمد بن الواثق من بغداد، فأوّل من بايعه المعتزّ بالله، ولقبوا محمداً بالمهديّ بالله.

* وفيها توفي ذو النوادر والغرائب والظرف والعجائب من حوادث الزمان العوارض، أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ الكناني الليثي المعتزليّ البصري العالم المشهور صاحب التصانيف المفيدة في فنون عديدة، له مقالة في أصول الدين، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظيّة من المعتزلة، وهو تلميذ إبراهيم بن سيّار البلخي المتكلّم المشهور، ومن أحسن تصانيفه وأوسعها (كتاب الحيوان)، لقد جمع فيه كلّ غريبة، وكذلك (كتاب البيان والتبيين). وكان مع فضائله مشوّه الخليفة. وإنما قيل له الجاحظ، لأنّ عينيه كانتا جاحظتين، أي ناتئتين، ومن جملة أخباره أنه قال: ذكرت للمتوكّل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني، فخرجت من عنده ولقيت محمد بن إبراهيم يعني إبراهيم بن المهدي، وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٣٤٦/٥، في شوال خرج في فرات البصرة رجل، وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وجمع الزنج الذين كانوا يسكنون السباخ.

عليّ الخروج معه والانحدار في حرّاقته، وكان بسُرَّ مَنْ رأى، فركبنا في الحرّاقة، فلما انتهينا إلى فم نهر القاطوع نصبَ ستارة، وأمر بالغناء، فاندفعت عَوّادة فغنّت:

كــــلّ يــــوم قطيعـــة وعتـــاب ينقضـي دهـرنـا ونحـن غِضـابُ
ليـت شعـري أنـا خُصِصْـتُ بهـذا دون ذا الخلـق أم كـذا الأحبـابُ

وسكتت فأمر الطنبور فغنّت:

وارحمنــــا للعـــــاشقيـــــن مـــا أن أرى لهـــم مغنيّـــا
كـــم يهجـــرون ويصـــرمـــون ويقطعـــون ويضــــربـــونـــا

قال فقالت لها العوّادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: هكذا يصنعون، وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها، وبرزت كأنها فلقة قمر، فألقت نفسها في الماء، وعلى رأس محمدٍ غلام يضاهيها في الجمال، وبيده مذبّة، فأتى الموضعَ ونظر إليها وهي تصير بين الماء فأنشد:

أنـــتِ التــــي عـــرفتنـــي بعـــد القضـــاء لـــو تعلمينـــا

وألقى نفسه في الماء في إثرها، فأدار الملاّح الحرّاقة، فإذا بهما معتنقين، ثم غاصا فلم يُرَيا، فاستعظم محمد ذلك، وهاله أمره، ثم قال: يا عمرو لتحدّثني ما يسليني عن فعل هذين، وإلا ألحقتك بهما، قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم، وعرضت عليه القصص، فمرّت به قصة فيها: إن رأىٰ أمير المؤمنين أن يخرج إلى جارية حتّى تغنّي ثلاثة أصوات فعل. فاغتاظ يزيد من ذلك، وأمر أن يخرج إليه، ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول رسولاً آخر، يأمره أن يدخل إليه الرجل، فأدخله، فلمّا وقف بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثّقة بحلمك والاتكال على عفوك. فأمره بالجلوس حتى لم يبقَ أحد من بني أمية إلا خرج، ثم أمر بالجارية فأُخرِجَت ومعها عودها، فقال له الفتى: غنّي:

أفــاطــمُ مهــلاً بعــضَ هــذا التــدلّــل وإنْ كنتِ قد أزْمعتِ صَرمي فأجملي

فغنتهُ، فقال له يزيد: قل، قال: غنّي:

تــألّــق البــرقُ نجـديّـاً فقلـت لـه يـا أيّهـا البـرق إنّـي عنك مشغـولُ

فغنته، قال له يزيد: قل، قال: تأمر لي برطل شراب؟ فأمر له به، فما استتمَّ شرابه حتّى وثب وصعد على أعلى قبّة ليزيد ورمى نفسه على دماغه فمات. فقال يزيد: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أتراه الأحمق الجاهل ظنّ أني أخرِج إليه جاريتي، وأردّها إلى ملكي؟ يا غلمان؛ خذوا بيدها، واحملوها إلى أهله إن كان له أهلٌ، وإلا فبيعوها وتصدّقوا بثمنها

عنه. فانطلقوا بها إلى أهله، فلمّا توسّطت الدار نظرت إلى حفرة في وسط دار يزيد قد أُعدّت للمطر، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت:

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خيرَ في عشقٍ بلا موتِ

فألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت، فَسُرِّي عن محمد، وأجزل صِلَتي، وقال أبو القاسم السّيرافي: حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل ابن العميد، فجرى ذكر الجاحظ، فقصّ عنه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلمّا خرج الرجل قلتُ له: اسكُتْ أيّها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الردّ على أمثاله، فقال: لم أجد في مقابلة مقالته أبلغَ من تركه على جهله، ولو وافيته وبيّنتُ له النظر في كتبه صار بذلك إنساناً يا أبا القاسم. فكتب الجاحظ: تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً. ولم أستصلحه لذلك، قلت: يعني لم أره أهلاً لذلك. وكان الجاحظ في أواخر عمره قد أصابه الفالج، وكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الأيسر لو قِرض بالمقاريض لما أحسّ به من خدره وشدة برده. وكان يقول في مرضه: اصطلحت على جسدي الأضداد: إن أكلتُ بارداً أخذ برجلي، وإنْ أكلتُ حارّاً أخذ برأسي. أنا من جانبي الأيسر مفلوج، لو قرض بالمقاريض ما علمتُ، ومن جانبي الأيمن منقرس، فلو مرّ به الذباب لتألّمت، وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها، وأشدّ ما عليّ ست وتسعون سنة. وكان ينشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنت أيّام الشباب
لقد كربتك نفس لبس ثوب   دَريس كالجديد من الثياب

وحكى بعض البرامكة قال: كنت تولّيت السّند، فأقمتُ بها ما شاء الله ثم اتّصل بي[1]، انصرفت عنها وكنت قد كسبت ثلاثين ألف دينار، فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه، فصنعته عشرة آلاف أهليلجة، وكل أهليلجة ثلاثة مثاقيل. ولم يمكث الصارف أنْ أتى، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرت إليه، فأفضيت إلى باب دار لطيف، فقرعته فخرجت إليّ خادمة صفراء فقالت: من أنت؟ فقلت رجل غريب، وأحبّ أن أسرّ بالنظر إلى الشيخ، فبلّغته الخادمة ما قلته، فسمعته يقول: قولي له: وما تصنع بشقّ مائل ولعاب سائل ولون حابل؟ فقلت للجارية: لا بدّ من الوصول إليه، فلمّا بلّغته قال: هذا رجل اجتاز بالبصرة وسمع بعلّتي فأراد الاجتماع بي ليقول: قد رأيت الجاحظ. ثم أذن لي

---

(١) هكذا جاءت دون كتابة.

فدخلت فسلّمت عليه فردّ عليّ ردّاً جميلاً وقال: مَنْ تكون أعزّك الله تعالى؟ فانتسبت له فقال: رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة، ولقد انجيز بهم خلق كثير، فسقياً لهم ورعياً. فدعوت له وقلت له: أسألك أن تنشدني شيئاً من الشعر؛ فأنشدني:

لئن قدمت قبلي رجال، فطالما ... شئت على رسلي فكنت المقدّما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ... فتبرِمُ منقوضاً وتنقض مُبْرَما

ثم نهضتُ، فلمّا قاربت الدهليز قال: يا فتى؛ أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا، قال: إنّ الإهليلج الذي معك ينفعني، فابعث لي منه، فقلت: نعم، وخرجت متعجّباً من وقوفه على خبري مع كتماني. وبعثت إليه مائة إهليلجة، وقال أبو الحسن البرمكي: أنشدني الجاحظ:

وكان لنا أصدقاء مضوا ... تفانَوا جميعاً فما خَلِدوا
سقاهم جميعاً كؤوس المنون ... فمات الصديق ومات العدو

قلت: كان المناسب لقوله: (فمات الصديق ومات العدو) أن يذكر الأعداء مع الأصدقاء في البيت الأول، فيقال لنا: أصدقاء مضوا مع أعداء، فيكون قوله في آخر البيت الأخير: فمات الصديق ومات العدو مطابقاً لأول الأول.

سنة ست وخمسين ومائتين

كان صالح بن وصيف التركي قد ارتفعت منزلته، وقتل المعتزّ وظفر بأمّه، فصادرها حتى استصفى نعمتها، وأخذ منها نحو ثلاثة آلاف ألف دينار، ونفاها إلى مكّة، ثم صادر خاصّة المعتز وكتّابه، وقتل بعضهم.

فلمّا دخلت السنة المذكور أقبل موسى بن بغا وعبّأ جيشه، ودخلوا سامراء ملبسين مجمعين على قتل صالح بن وصيف، وهم يقولون: قتل المعتز وأخذ أموال أمّه وأموال الكتّاب. وصاحت العامّة: يا فرعون؛ جاءك موسى. ثم هجم بمن معه على المهتدي بالله وأركبوه فرساً، وانتهبوا القصر، ثم أدخلوا المهتدي دارُ ناجور[1] (بالنون والجيم والراء على ما ضبطه في الأصل المنقول منه)، وهو يقول: يا موسى؛ ويحك ما تريد؟ فيقول: وتربة المتوكّل لا ينالك سوء. ثم حلفوه لا يمالىء صالح ابن وصيف عليهم، وبايعوه فطلبوا صالحاً ليناً، ظروه على أفعاله فأخرج، وردّوا المهتدي إلى داره، وبعد شهر قتل صالح.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ياجـور انظر ٥/٣٥٣.

وفي رجب قتل المهتدي بالله أمير المؤمنين محمد بن الواثق بالله هارون بن المعتصم محمد بن الرشيد العباسي. وكانت دولتُه سَنةً، وعمره نحو ثمانٍ وثلاثين سنة. وكان مليح الصورة ورعاً تقياً متعبداً عادلاً شجاعاً قوياً في أمر الله تعالى خليقاً للإمارة، لكنّه لم يجد ناصراً ولا معيناً على الخير. وقيل: إنه سرد الصوم مدّة أمرته، وكان يقنع بعض الليالي بخبز وخلّ وزيت، وكان يشبّه بعمر بن عبد العزيز، وورد أنه كان له جبّة صوف وكساء يتعبد فيهما لله، وكان قد سدّ باب الملاهي والغناء، وحسم الأمراء عن الظلم. وكان يجلس بنفسه لعمل حساب الدواوين، ثم إنّ الأتراك خرجوا عليه، فلبس السلاح وشهر سيفه وحمل عليهم فأسروه وخلعوه، ثم قتلوه إلى رحمة الله، وأقاموا بعده المعتمد على الله.

* وفيها توفّي أبو عبد الله الزبير المعروف بابن بكّار القرشي الأسدي الزبيري كان من أعيان العلماء، تولّى قضاء مكّة، وصنّف الكتب النافعة منها (كتاب أنساب قريش) جمع فيه شيئاً كثيراً، وعليه اعتماد الناس في معرفة أنساب القرشيين. وله مصنفات غيرَهْ دلّت على فضله واطّلاعه. روى عن ابن عُيينة ومَنْ في طبقته، وروى عنه ابن ماجة القزويني وابن أبي الدنيا وغيرهما، وتوفي بمكّة وهو قاضٍ عليها وعمره أربع وثمانون سنة.

وفي ليلة عيد الفطر منها توفّي البخاري الحافظ الإمام قدوة الأنام وعالي المقام جامع أصحّ الكتب المصنفة في السنن والأحكام، إمام المحدّثين وشيخ الإسلام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزية البخاري مولى الجعفيين صاحب الجامع الصحيح وغيره من التصانيف، ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ورحل سنة عشرة ومائتين، فسمع مكيَّ بن إبراهيم وأبا عاصم النبيل وخلائقَ عدّتهم ألف شيخ، وكتب بخراسان والجبال والعراق والحجاز والشام ومصر، وقدم بغدادَ فاجتمع إليه أهلها واعترفوا بفضله وشهدوا بتفرّده في علم الرواية والدّراية.

وحكى أبو عبد الله الحميدي في كتاب (جذوة المقتبس) والخطيب في (تاريخ بغداد) أنّ البخاري لمّا قدم بغداد سمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وأعدّوا له مائة حديث، قلبوا مُتونَها وأسانيدها، وجعلوا متْن كلّ واحد لإسناد آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس إلى كل واحد عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس يلقون ذلك على البخاري، وعيّن الموعد للمجلس، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها. ومن البغداديين، فلما اطمأنّ المجلس بأهله انتدب أو قال: ابتــدر واحدٌ من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحد بعد واحد حتّى فرغ من عشرة، ثم كذلك كلّ واحد من العشرة جعلوا يسألونه عن الأحاديث المذكورة واحد بعد واحد والبخاري يقول: لا

أعرفه. وكان الفقهاء ممّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعضهم، ويقولون: الرجل فهم. وما كان منهم ضدّ ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلّة الفهم، فلمّا علم البخاري أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم وقال: أمّا حديثك الأول فهو كذا، وأما الثاني فهو كذا، وكذلك الثالث والرابع وباقي أحاديثه إلى تمام العشرة على الولاء، يردّ كلّ متن إلى إسناده وكلّ إسناد إلى متنه. ثم كذلك فعل بكلّ واحد من التسعة حتّى رتّب المائة جميعها كلّ واحد منها في موضعه إسناداً ومتناً، فأقرّ له الناس بالحفظ فاعترفوا له بالفضل.

وكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكيس النطاح. ونقل الفربري عنه أنه قال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلتُ قبل ذلك وصلّيت ركعتين. وعنه أنّه قال: صنّفت كتابي الصحيح لستّ عشرة سنة، خرّجته من ستّ مائة ألف حديث، وجعلته حجّة فيما بيني وبين الله تعالى. قلت: وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ أنّ سنن أبي داود خرّجها من خمس مائة ألف حديث.

وقال الفربري: سمع صحيحَ البخاري ـ يعني عليه ـ تسعون ألف رجلٍ، فما بقي أحد يروي عنه غيري. وممّن روى عنه أبو عيسى الترمذي. وكانت ولادة البخاري يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة، وقيل اثنتي عشرة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة. وتوفّي ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة عيد الفطر، ودفن يوم العيد بعد صلاة الظهر، رحمة الله عليه ورضوانه.

سنة سبع وخمسين ومائتين

* فيها وثب العلويّ قائد الزنج والسودان على الأيلّة، فاستباحها وأحرقها، وقتل بها نحو ثلاثين ألفاً، فساق العسكرَ لحربه سعيدٌ لحاجب فالتقَوا فانهزم سعيدٌ واستحر القتل بأصحابه، ثم دخلت الزنج البصرة، وخرّبوا الجامع، وقتلوا بها اثني عشر ألفاً، وهرب باقي أهلها بأسوأ حال فخربت.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ المعمّر أبو علي الحسن بن عرفة العبدي البغدادي المؤذّن، وله مائة وسبع سنين. (والحافظ) زهير بن محمد المروزي ثم البغدادي كان من أولياء الله، قال البغوي: ما رأيت بعد أحمد بن حنبل أفضل منه، كان يختم في رمضان تسعين ختمة رحمة الله عليهم.

* وفيها توفّي الحافظ صاحب التصانيف أبو سعيد الأشجع الكندي الكوفي.

سنة ثمان وخمسين ومائتين

* فيها توفّي الإمام أبو جعفر الباقي اليامي قاضي الكوفة ثم قاضي همدان، وكان صالحاً عادلاً في أحكامه، وكان يسمّى راهب الكوفة بعبادته.

* وفيها توفّي الحافظ أحمد بن الفرات أحد الأعلام، صنّف المسند والتفسير وقال: كتبت ألف ألف حديث وخمسمائة ألف حديث.

* وفيها توفّي الإمام الحافظ أحد الأعلام محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري، سمع عبد الرحمن بن مهدي وطبقته، وأكثر الترحال، وصنّف التصانيف، وكان الإمام أحمد يجلّه ويعظّمه، وقال أبو حاتم: كان إمام أهل زمانه.

* وفيها توفّي الشيخ العارف بحر الحكم والمعارف واعظ عصره وحكيم زمانه يحيى بن معاذ الرازي، ومن كلامه: كيف يكون زاهداً مَنْ لا ورع له. تورّع عمّا ليس لك ثم ازهد في مالك. وكان يقول: الجوع للمريدين رياضةٌ، وللتائبين تجربةٌ، وللزّهاد سياسةٌ، وللعارفين مكرمة. وقال: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل الجليل من العطاء. وفي هذا المعنى قلت:

جليل العطايا في دقيق التورّع ... فدقّق تنلْ عالي المقام المرفّعِ
وتسلم من المحظور في كلّ حالة ... وتغنم من الخيرات في كلّ موضعِ
وتحمدْ جميل السعي بالفوز في غدٍ ... فسارعْ إليه اليوم مع كلّ مسرعِ
ولا تكُ مثلي وابناً متخلّقاً ... لجوهر عمرٍ عن شرّ مضيع

سنة تسع وخمسين ومائتين

* فيها استفحل أمرُ يعقوب بن الليث الصفّار، واستولى على اقليم خراسان وأسرَ محمد بن طاهر أمير خراسان، وفيها توفّي الإمام الحافظ محمد بن يحيى الأسفرائني شيخ الحافظ أبي عوانة.

* وفيها توفّي أبو عبد الله محمد بن موسى بن شاكر أحد الإخوة الثلاثة الذين ينسب اليهم حِيَلُ بني موسى، وهم مشهورون بها، وأسماء إخوانه أحمد والحسن، وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل. وأتعبوا أنفسهم في شأنها، وكان الغالب عليهم من علوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم، وهو الأقلّ. ولهم في الخيل كتاب عجيب نادر، يشتمل على كل غريبة، وهو مجلّد واحد، وصفه ابن خلّكان بكونه مُمتِعاً، وممّا اختصّوا به في ملّة الإسلام، وأخرجوه من القوّة إلى الفعل، وإن كان

أرباب الأرصاد المتقدّمون قد فعلوه، لكنه لم يُنقل أنّ أحداً من أهل هذه الملّة تصدّى له وفعله الأهم، وهو ما سيأتي ذكره في ترجمة الصُّولي في سنة خمس وثلاثين وثلاث مائة، وهو إيضاح مساحة كرة الأرض أربعة وعشرين ألف ميل استخراجاً من ارتفاع القطب، وكون كلّ درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثا ميل بالعمل، ومشيهم في الأرض المستوية في جهة الشمال، كما سيأتي واضحاً في السنة المذكورة إن شاء الله تعالى.

سنة ستين ومائتين

* فيها صال يعقوب بن اللّيث، وجالَ، وهزم الشجعان والأبطال، وترك الناس بأسْوأ حالٍ. ثم قصدا الحسن بن زيد العلوي صاحبَ طبرستان، فالتقوا فانهزم العلوي، وتبعه يعقوب في تلك الجبال، فنزل على أصحاب يعقوب بلاء سماوي نزل عليهم ثلج عظيم أهلكهم، مات فيه أربعون ألفاً، فذهب عامة خيله وأمواله.

* وفيها توفي الإمام أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح الزَعْفَراني الفقيه الحافظ صاحب الإمام الشافعيْ. روى عن ابن عيينة، وطبقته مثل وكيع بن الجراح ويزيد بن هارون، وروى عنه البخاري في صحيحه وأبو داود السجستاني والترمذي وغيرهم. والزّعفراني ـ بفتح الزاي وسكون العين المهملة وفتح الفاء والراء ـ نسبة إلى الزعفرانة وهي قرية بقرب بغداد. ودرب الزعفراني في بغداد منسوبٌ إلى الإمام المذكور، قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء: وفيه مسجد الشافعي، وهو المسجد الذي كنت أدرس فيه، ولله الحمد والمنّة، يعني في درب الزعفراني، وكان الزعفراني: يتولّى كتب الشافعي، وهو أحد رواة أقواله القديمة. ورواتها أربعة هو والإمام أحمد بن حنبل وأبو ثور والكرابيسي ورواةُ أقواله الجديدة ستّة، المزني والبويطي وحرملة ويونس بن عبد الأعلى، والربيع بن سليمان الجيزي، والربيع بن سليمان المرادي، وكان الزعفراني من أذكياء العلماء، وبرع في الفقه والحديث، وصنّف فيها كتباً، ولزم الإمام الشافعيّ حتّى بحر وسار ذكره في الآفاق.

* وفيها توفّي الشريف العسكري أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن عليّ بن موسى الرضا بن جعفر الصادق، أحد الأئمة الاثنَيْ عشر على اعتقاد الإمامية، وهو والد المنتظر عندهم صاحب السرداب، ويعرف بالعسكري، وأبوه أيضاً يُعرف بهذه النسبة. توفّي في يوم الجمعة سادس ربيع الأول، وقيل ثامنه. وقيل غيرُ ذلك من السنة المذكورة، ودفن بجنب قبر أبيه بسرّ من رأى، وقد تقدّم ذكر سبب هذه النسبة.

* وفيها توفّي حنين بن إسحاق العبادي الطبيب المشهور، كان إمام وقته في صناعة

الطب، وكان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامّة، وهو الذي عرّب كتاب اقليدس، ونقله من لغة اليونانيين إلى لغة العرب، ثم نقّحه ثابت بن قرّة، وهذّبه كما تقدم في ترجمته، وكذلك كتاب المجَسْطي، وأكثر كتب الحكماء والأطباء كانت بلغة اليونانيين، فعرّبت، وكان حنين المذكور أشدّ اعتناء بتعريبها من غيره، وعرّب غيره أيضاً بعض الكتب، ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بتلك الكتب، لعدم المعرفة بلسان اليونان. لا جرمَ، كلّ كتاب لم يعرّبوه باقٍ على حالا لا ينتفع به إلا من عرف نلك اللغة، وكان المأمون مغرياً بتعريبها وتحريرها وإصلاحها، ومن قبله جعفر البرمكي وجماعة أهل بيته أيضاً، لهم بها اعتناء. لكنّ عناية المأمون كانت أتمّ وأوفر، ولحنين المذكور مصنفات في الطبّ مفيدة. قال ابن خلّكان: ورأيت في كتاب أخبار الأطباء أنّ حنيناً كان في كلّ يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمّام، فيصب على رأسه الماء، ويخرج فيلتفّ قطيفة، ويشرب قدح شراب ـ يعني من شراب الفُسّاق ـ ويأكل كعكة، ويتكىء حتى ينشف عرقه ـ وربما نام ـ ثم يقوم ويتبخّر، ويُقدَّم له طعام فروج كبير مسمّن، قد طُبخ بزبرباج، ورغيف وزنه مائتا دِرهم، فيحسّ من المرقة، ويأكل الفروج والخبز وينام. فإذا انتبه شرب أربعة ـ أرطال شراباً عتيقاً ـ يعني من الشراب المصحّح للأبدان الهادم للأديان ـ فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفّاح الشاميّ والسفرجل، وكان ذلك دأبه إلى أن مات.

سنة إحدى وستين ومائتين

* فيها توفّي الحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي الكوفي، نزيل طرابلس المغرب صاحب التاريخ والجرح والتعديل.

* وفيها توفّي أبو شعيب السوسي صالح بن زياد مقرىء أهل الرقة وعالمهم، قرأ على يحيى اليزيدي، وروى عن عبد الله بن نمير وطائفة، وتصدّر للإقراء، وحمل عنه طائفة.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله الخبير صاحب المقام العالي المشكور والحال الحالي المشهور أبو يزيد المسمّى بطيفور بن عيسى، ذو الفضل السامي الفتى المعروف بالبَسْطامي، قيل له: بأيّ شيء وجدت هذه المعرفة؟ قال ببطن جائع، وبدن عارٍ. وقيل: ما أشدّ ما لقيته في سبيل الله؟ فقال: لا يمكن وصفه. فقيل: ما أهون ما لقيت نفسك منك؟ فقال: أمّا هذا فنعم، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجب، فمنعتها الماء سنة. وكان يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتّى يرتفع في الهوى، فلا تعتبروا به حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة. وله مقالات عليّة، وكرامات سنيّة، ومجاهدات عظيمة، وشيم كريمة. توفي سنة إحدى، وقيل أربع وستين ومائتين.

وبَسْطام[1] بفتح الموحدة وسكون السين وبالطاء المهملتين وبعد الألف ميم ـ بلدةٌ مشهورة من أعمال قومس. ويُقال أنه أول بلاد خراسان من جهة العراق والله أعلم ومِنْ جلالته وعظم هيبته قضية مشهورة مع الشابّ الذي قال له أبو تراب: لو رأيت أبا يزيد ـ وقد ذكرتها في غير هذا الكتاب ـ ومختصرها أنّه لما رآه وقد خرج من غيضةٍ مات الشاب، فقال أبو تراب لأبي يزيد: قتلتَ صاحبنا. فقال: لا، بل كان صاحبكم صادقاً، وكان مستوراً عنه حاله، فلما رآنا تجلّى له حاله في مرآتنا، فلم يطقْ حمل بطاقة فماتَ. فقال أبو يزيد: أقمت في الزهد ثلاثة أيام، زهدت في اليوم الأول في الدنيا، وزهدت في اليوم الثاني في الآخرة، وزهدت في اليوم الثالث فيما سوى الله تعالى.

وفي السنة المذكورة توفّي الإمام الحافظ مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، أحد أركان الحديث، وصاحب الصحيح وغيره. ومناقبه مشهورة، وسيرته مشكورة. رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر، وسمع يحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهَوِيه، وعبد الله بن مَسْلمة القعنبي وغيرهم، وقدم بغداد غير مرّة، وروى عنه أهلها، ورُوِي عنه أنه قال: صنّفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة. وقد اختلف أئمة الحديث المتأخّرون في تفضيل الصحيحين، فالأكثرون منهم فضّلوا صحيح البخاري على صحيح مسلم، وبعضهم فضّلوا صحيح مسلم، حتى قال أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم في علم الحديث. قلت: والمعروف أنّ كتاب البخاري أفقه، وكتاب مسلم أحسن سياقاً للروايات.

وقال الخطيب البغدادي: كان مسلم يناضل البخاريّ حتّى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه، وقال أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ: لما استوطن البخاري بنيسابور أكثر مسلم من الاختلاف إليه، فلمّا وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ما وقع في مسألة اللفظ نادى عليه، ومنع الناس من الاختلاف إليه حتى هجر وخرج من نيسابور. في تلك المحنة قطعه أكثر الناس غير مسلم، فإنّه لم يتخلّف عن زيارته، فأنهي إلى محمد بن يحيى أنّ مسلم بن الحجاج على مذهبه ـ قديماً وحديثاً ـ لم يرجع عنه. فقال: في مجلسه إلا من قال باللفظ: فلا يحلّ له أن يحضر مجلسنا. وأخذ مسلم الرداء فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس، وخرج من مجلسه. وجمع كلّ ما كان كتب منه، وبعث به على ظهر حمال إلى باب محمد بن يحيى، فاستحكمت بذلك الوحشة، وتخلّف عنه وعن زيارته.

---

(١) في معجم البلدان لياقوت الحموي: بِسطام: بكسر الباء: بلدة كبيرة بقومس، على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. قال مسعر بن مهلهل: بسطام قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة، منها أبو يزيد البسطامي الزاهد.

سنة اثنتين وستين ومائتين

فيها لمّا عجز المعتمد على الله عن يعقوب بن اللّيث، كتب إليه بولاية خراسان وجرجانَ، فلم يرضَ يوافي باب الخليفة، وأضمر في نفسه الاستيلاء على العراق. وخاف المعتمد، فتحوّل عن سامراء إلى بغداد، وجمع أطرافه وتهيأ للملتقى. وجاء يعقوب في سبعين ألف فارس، فنزل واسط، فتقدّم المعتمد، وقصده يعقوب، وقدّم المعتمدُ أخاه الموفق يجهّز الجيش، فالتقيا في رجب. واشتد القتال فوقعت الهزيمة على الموفّق، ثم ثبت وشرعت الكسرة على أصحاب يعقوب، فولاه الأدبار واستبيح عسكرهم. وكسب أصحاب الخليفة ما لا يحدّ ولا يوصف، وخلّصوا محمد بن طاهر الذي كان مع يعقوب في القيود، ودخل يعقوب إلى فارس، وخلع المعتمد على محمد بن طاهر أمير خراسان، وردّه على عمله وأعطاه خمسمائة ألف درهم. وفي السنة المذكورة توفي الحافظ أحد الأعلام يعقوب بن شيبة الدوسي، صاحب المسند المعلّل الذي ما صنّف أحد أكبر منه، ولم يتمّه.

سنة ثلاث وستين ومائتين

* فيها توفي الحافظ محمد بن علي بن ميمون الرّقي العطار. قال الحاكم: كان إمام أهل الجزيرة في عصره.

والحسن بن أبي الربيع الجرجاني الحافظ.

والوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل(١).

سنة أربع وستين ومائتين

* وفيها أغارت الزنج على واسط، وهرب أهلها حفاةً عراةً، ونهبت ديارهم، وأحرقت فسار لحربهم الموفق.

* وفيها غزا المسلمون الرومَ، وكانوا أربعة آلاف عليهم ابن كافور فلما نزلوا بعض المنازل تبعهم البطارقة وأحْدَقوا بهم، فلم ينجُ منهم إلا خمسمائة، واستشهد الباقون.

* وفيها توفي أحمد بن يوسف السلمي النيسابوري الحافظ. كان ممّن رحل إلى اليمن، وأكثر عن عبد الرزاق وطبقته، وكان يقول: كتبت عن عبد الله بن موسى ثلاثين ألف حديث.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/١٥: فيها مات عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد، سقط عن دابته بالميدان... فمات.

* وفيها توفي أبو زُرْعَةُ عُبيد الله بن عبد الكريم القرشيّ مولاهم الرازي الحافظ، أحد الأئمة الأعلام، في آخر يوم من السنة. رحل وسمع من أبي نُعيم والقعنبي وطبقتهما. قال أبو حاتم: لم يخلف بعده مثله علماً وفقهاً وصيانة وصدقاً. وهذا ممّن لا يرتاب فيه، ولا أعلم من المشرق والمغرب من كان يفهم هذا الشأن مثله. وقال إسحاق بن راهويه: كلّ حديث لا يحفظه أبو زرعة ليس له أصل.

* وفيها توفّي الإمام أبو موسى يونس بن عبد الأعلى المصري الفقيه المقرىء المحدث. روى عن ابن عُيينة وابن وهب، وتفقه على الشافعي، وأخذ عنه الحديث. وكان الشافعي يصف عقله ويقول: ما رأيت بمصر أعقل منه، وقرأ القرآن على ورش، وتصدر للإقراء والفقه، وكان ورعاً صالحاً عابداً كبير الشأن، وروى القراءة عنه من الأئمة جماعة منهم محمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبري الإمامان الجليلان وغيرهما، وكان محدّثاً جليلاً من أفاضل أهل زمانه، وكان من العقلاء، ذكر ذلك عنه أبو عبد الله القضاعي، وروى غير القضاعي أنّ يونس روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، وأبو عبد الرحمن النيسابوري، وأبو عبد الله بن ماجة وغيرهم من أئمة الحديث الكبار. وقال قاضي مصر محمد بن الليث: لما عزم القاضي بكّار لما ولّي، وقد استشاره في من يشاوره، عليك برجلين: أحدهما عاقل وهو يونس بن عبد الأعلى، فإنّي سعيتُ في دمه، فقدر عليّ فحقن دمي. والآخر أبو هارون موسى بن عبد الرحمن بن القاسم، فإنه رجل زاهد، فقال له بكّار: صف لي الرجلين، فوصفهما، فلما دخل مصر ودخل عليه الناس عرفهما فرفهما. وقيل: إن موسى المذكور اختصّ به القاضي بكّار، وكان يتبرك به لزهده، فقال له يوماً: يا أبا هارون؛ من أين المعيشة؟ فقال: مِنْ وقف وقفه أبي، فقال له بكار: يكفيك، قال: قد تكفيّت به. وقال: قد سألني القاضي فأريد أن أسأله، قال: سَلْ، قال: هل ركب القاضي دينٌ بالبصرة حتى توَّلى بسببه القضاء؟ قال: لا. قال: فهل رزق ولداً أحوجه إلى ذلك؟ قال: لا، ما نكحت قطّ. قال: فلك عيال كثير؟ قال: لا، قال: فهل أجبرك السلطان وعرض عليك العذاب وخوّفك؟ قال: لا. قال: فضربت آباط الإبل من البصرة لغير حاجة، ولا ضرورة. قال: للَّهِ عليّ، لا دخلت عليك أبداً، فقال: يا أبا هارون، أقلني، قال: أنت بدأت بالمسألة ولو سكتَّ لسكتُّ، ثم انصرف عنه ولم يعد إليه بعدها.

وقال يونس: قال لي الشافعيُّ: دخلت بغدادَ؟ فقلت: لا، فقال: ما رأيت الدنيا، ولا رأيتَ الناس. . وتوفي يونس بمصر، ودفن بالقرَّافة[1].

---

(١) القرافة: مقبرة في القاهرة. (معجم البلدان).

* وفيها توفّي الفقيه الإمام أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزْني المصريّ الشافعي. وكان زاهداً عابداً مجتهداً محجاجاً غوّاصاً على المعاني الدقيقة، اشتغل عليه خلق كثير، وقال الشافعي في صفة المزنيّ: ناصرُ مذهبي. وهو إمام الشافعيين وأعرفهم بطريق الشافعي وفتاواه وما ينقله عنه. صنّف كتباً كثيرة منها: (الجامع الكبير)، و (الجامع الصغير)، و (مختصر المختصر)، و (المنثور)، و (المسائل المعتبرة)، و (الترغيب في العلم)، و (كتاب الوثائق)، وغير ذلك. وكان إذا فرغ من مسألة وأودعها مختصره قام إلى المحراب، وصلّى ركعتين شكراً لله تعالى. وقال أبو العباس بن شُرَيح: يخرج مختصر المزنيّ من الدنيا عذراء لم تفتضّ. وهو أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعي، وعلى مثاله رتّبوا وبكلامه فسَّروا وشرحوا.

ولما ولي القضاء بكار بن قتيبة بمصر، وجاءها من بغداد، وكان حنفي المذهب، توقّع الاجتماع بالمزني مدّة فلم يتفق، واجتمعا يوماً في صلاة جنازة فقال القاضي بكار لبعض أصحابه: سل المزنيّ شيئاً حتى أسمع كلامه، فقال له ذلك الشخص: يا أبا إبراهيم؛ قد جاء في الحديث تحريم النبيذ، وجاء تحليله، فَلِم قدّمتم التحريم على التحليل؟ فقال المزنيّ: لم يذهب أحد من العلماء إلى أنّ النبيذ كان حراماً في الجاهلية ثم حلّل، ووقع الاتفاق على أنّه كان حلالاً، فهذا يعضّد صحّة الأحاديث بالتحريم، فاستحسن ذلك منه وقيل: وهذا من الأدلة القاطعة.

وكان في غاية من الورع، وبلغ من احتياطه أنّه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوزِ نحاس، فقيل له في ذلك فقال: بلغني أنهم يستعملون السِرجين[1] في الكيزان، والنار لا يطهّر ذلك، وقيل: إنه إذا كان فاته الصلاة في جماعة، صلّى منفرداً خمساً وعشرين صلاة استدراكاً لفضيلة الجماعة، مستنداً في ذلك إلى قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة**»، وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة، وكان مُجاب الدعوة، ولم يكن أحد من أصحاب الشافعي يحدث نفسه بالتقدم عليه في شيء من الأشياء، وهو الذي تولّى غسل الشافعي، وقيل: كان معه أيضاً الربيع، ومناقبه كثيرة. والمزنيّ نسبة إلى مُزَيْنَة بنت كلب، وفاته لستّ بقين من رمضان، ودفن بالقُرب من تربة الشافعي بالقرافة الصغرىٰ ـ رحمة الله عليهما.

سنة خمس وستين ومائتين

* فيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو حفص الحداد النيسابوري، شيخ

---

(١) السِرْجين: الزبل (كلمة فارسية).

خراسان. كان كبير الشأن صاحب أحوال وكرامات وسموّ في المقامات، وكان عجباً في الجود والسماحة. ويقول: ما استحقّ اسم السخاء مَنْ ذكر العطاء، أو لمحه بقلبه. وقد نفد مرّة بضعة عشر ألف دينار يستفك بها أسارى، وبات وليس له عشاء، ومن كلامه: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن. والفتوة أداء الإنصاف، وترك مطالبة الانتصاف. وقال: من لم يزِن أفعاله وأحواله كلَّ وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدّه في ديوان الرجال.

* وفيها توفّي محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق العلوي الحسيني، أبو القاسم الذي تلقّبه الرافضة بالحجّة وبالقائم وبالمهدي وبالمنتظر، وبصاحب الزمان. وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب، وهو عندهم خاتم الأثني عشر الإمام. وضلال الرافضة ما عليه مزيدٌ، فإنهم يزعمون أنه داخل السرداب الذي بسرّ من رأى، وأمه تنظر إليه، فلم يخرج إليها، وذلك في سنة خمس وستين، وقيل ستّ وخمسين ومائتين وهو الأصحّ، فاختفى إلى الآن، وكان عمره لما عدم تسع سنين، وقيل أربع سنين، وقيل غير ذلك في سنّه، وفي السنة التي عدم فيها. وهم ينتظرون ضالته منذ خمس مائة سنة، وما وجدوها ولا يجدونها.

قلت: والمهدي الذي وردت به الأخبار، اسمه محمدبن عبد الله، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**يُواطي اسمُه اسمي، واسمُ أبيه اسم أبي**»، وقد أوضحت فساد مذهبهم، وما هم عليه من الضلالة والخرافات والمحال في (كتاب المرهم في علم الأصول).

وفي السنة المذكورة توفي الإمام العلاّمة محمد بن سحنون المغربي المالكي، مفتي القيروان[1]، تفقّه على أبيه، وكان بارعاً مناظراً كثير التصانيف، معظّماً بالقيروان، خرج له عدّة أصحاب، ، وما خلف بعده مثله.

* وفيها توفيّ يعقوب بن الليث الصفّار الذي غلب على بلاد المشرق، وهزم الجيوش. وقام بعده أخوه عمرو بن ليث، وكانا شابين صفارين فيهما شجاعة مفرطة، فصحبا صالح بن النضر الذي كان يقاتل الخوارج بسجستان، فآل أمرهما إلى الملك، ولما مات يعقوب قام بعده أخوه بالعدل والدخول في طاعة الخليفة، وامتدت أيامه. وكان موت يعقوب بالقولنج. وكتب على قبره: هذا قبر يعقوب المسكين. وقيل أنّ الطبيب قال: لا دواء لك إلا الحقنة، فامتنع منها وخلّف أموالاً عظيمة من الذهب ألف ألف دينار ومن الدراهم خمسين ألف درهم[2].

---

(١) القيروان: مدينة في تونس تقع غربي مدينة سوسة.

(٢) في مروج الذهب للمسعودي ١١٤/٤: وخلّف في بيت ماله خمسين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف=

سنة ست وستين ومائتين

* فيها توفّي الحافظ أحد أذكياء المحدّثين أبو إسحاق إبراهيم بن أرومة الأصفهاني.

* وفيها توفّي محمد بن شجاع فقيه العراق، وشيخ الحنفيّة. تفقّه بالحسن بن زياد اللؤلوي، وصنّف واشتغل، وتوفي ساجداً في صلاة العصر، وله نحو من تسعين سنة، رحمة الله عليه.

سنة سبع وستين ومائتين

* فيها برز قائد الزنج في ثلاثمائة ألف فارس وراجل، والمسلمون في خمسين ألفاً، وفصل النهر بين الجيشين، فلم يقع بينهم واقعة. وكان قبل ذلك قد هزم الموفّقُ الزنج ـ وقائدهم العلوي غائب عنهم ـ فلما جاءته الأخبار بهزيمة جنوده اختلف إلى الكَنِيف[1] مراراً وتقطعت كبده.

* وفيها توفّي يحيى بن محمد بن عبد الله الذهلي الحافظ شيخ نيسابور بعد أبيه، وكان أمير المطوّعة المجاهدين.

* وفيها توفي الحافظ أبو بشر إسماعيل بن عبد الله العبديّ الأصفهاني.

سنة ثمان وستين ومائتين

* فيها توفي الحافظ أبو الحسن أحمد بن سيّار المروزي، مصنّف تاريخ مرو، وكان يشبّه في عصره بابن المبارك علماً وزهداً، وكان صاحب وجه في مذهب الشافعي، أوجب الأذان للجمعة، والحافظ عيسى بن أحمد العسقلاني.

* وفيها توفّي الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري مفتي الديار المصرية، تفقّه بالشافعي وأشهب، وروى عن ابن وهب وغيره من أصحاب الإمام مالك، فلمّا قدم الإمام الشافعي مصرَ، صحبه وتفقّه عليه، وحمل في المحنة إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي في بغداد، فلم يجب إلى ما طلب منه، فردّ إلى مصر، وانتهت إليه الرئاسة بها. روى عنه أبو عبد الرحمن النسائي في سننه. وقال المزنيّ: قال الشافعي: رددت لو أن لي ولداً مثله وعليّ ألف دينار لا أجد لها قضاء.

وحكى عن محمد المذكور قال: كنت أتردّد إلى الشافعي، فاجتمع قوم من أصحابنا

= دينار.

(١) الكنيف: المرحاض ـ السترة ـ الساتر ـ حظيرة من شجر للمواشي.

إلى أبي، وكان على مذهب مالك، فقالوا: يا أبا محمد، إنّ محمداً ينقطع إلى هذا الرجل، ويتردّد إليه الناس، إنّ هذا رغبة عن مذهب أصحابنا، فجعل أبي يلاطفهم ويقول: هو حَدَث، ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك، ويقول: لي في السرّ: يا بنيّ، الزم هذا الرجل، فإنّك لو جاوزت هذا البلد فتكلّمت في مسائل، فقلتَ فيها: قال أشهب، لقيل لك من أشهب. قال: فلزمت الشافعي، فلمّا قدمتُ بغدٍ، قلت في مسألة: قال أشهب عن مالك، فقال القاضي بحضرة جلسائه كالمنكرِ: ما أعرف أشهب قال: ابنُ خزيمة، ما رأيت أعرف بأقاويل الصحابة والتابعين منه. وقال غيره: له مصنّفات كثيرة.

سنة تسع وستين ومائتين

توفّي إبراهيم بن منقذ الخَوْلاني المصري صاحب ابن وهب وتوفي الأمير عيسى[1] بن شيخ الذهلي، وكان قد ولي دمشق، فأظهر الخلاف، وأخذ الخزائن، وغلب على دمشق، فجاء عسكر المعتمد، فالتقاهم ابنه ووزيره، فهزموا، فقتل ابنه، وصلب وزيره، وهزم عيسى، ثم استولى على آمل[2] وديار بكر مدّة.

سنة سبعين ومائتين

* فيها التقى المسلمون وقائد الزنج[3] الخبيث، واجتمع مع الموفّق نحو ثلاث ألف مقاتل، فالتقى الخبيث إلى جبل، ثم تراجع هو وأصحابه إلى مدينتهم، فحاربهم المسلمون فانهزم الخبيث وأصحابه، وتبعهم أصحاب الموفّق يقتلون ويأسرون، ثم استقبل هو وفرسانه، وحملوا على الناس فأزالوهم، فحمل عليه الموفّق والتحم القتال، فإذا بفارس قد أقبل ورأس الخبيث في يده، فلم يصدّقه الموفّق، فعرفه جماعة من الناس، فحينئذ ترجّل الموفق وابنه المعتضد والأمراء، فخرّوا سجّداً لله، وكبّروا، وسار الموفق فدخل بالرأس بغدادَ، وعملت القباب (بالموحدة أو قال القنان بالنون) وكان يوماً مشهوداً، وشرعوا يتراجعون الأمصار التي أخذها الخبيث. وكانت أيامه خمس عشرة سنة، قال بعض المؤرخين: قتل من المسلمين ألف ألف وخمس مائة ألف، وقتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمائة ألف، وكان الخبيث خارجيّاً يسبّ عثمان وعلياً ومعاوية وعائشة، رضي الله تعالى عنهم، وقيل كان زنديقاً يتستّر بمذهب الخوارج.

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/ ٥٠: وفيها توفي عيسى ابن الشيخ ابن السليل الشيباني، وبيده أرمينية وديار بكر.
(٢) لعلّ الصواب: آمد التي هي أكبر مدن ديار بكر، وليس آمل التي تقع في طبرستان.
(٣) انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٠ ـ ٥٣.

وفي السنة المذكورة توفّي أمير الديار المصرية والشامية: أبو العباس أحمد[١] بن طولون، وكان له أربعة عشر ألف مملوك، وكان كريماً جواداً شجاعاً مهيباً حازماً لبيباً، كان المعتزّ بالله قد ولاّه مصر، ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية والثغور في مدّة استعمال الموفق ابن المتوكل، وكان نائباً عن أخيه المعتمد على الله. وكان ابن طولون المذكور حسن السيرة ناقد البصيرة، يباشر الأمور بنفسه، ويعمّر البلاد، ويتفقّد أحوال الرعايا، ويصلح الفساد، ويحب أهل العلم ويحسن فيهم الاعتقاد. وكانت له مائدة يحضرها الخاصّ والعام في كلّ يوم من الأيام، وكان له في كلّ شهر ألف دينار للصدقة، فقال له وكيله: تأتيني المرأة وعليها الإزار وفي يدها خاتم الذهب، فتطلب منّي فأعطيها، فقال؛ مَنْ مدّ يده إليه فاعطِهِ، قال القضاعي: وكان طائش السيف، فأحصي من قتله صبراً ومن مات في سجنه، فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً، وكان يحفظ القرآن الكريم، وكان كثير التلاوة حسن الصوت، وكان أبوه من مماليك المأمون. ملك أبو العباس المذكور الديار المصرية ستّ عشرة سنةً، وبنى الجامع المنسوب إليه بين القاهرة ومصر في سنة تسع وخمسين ومائتين، على ما حكاه الفرغاني. وذكر القضاعي أنه شرع في عمارته في سنة أربع وستين، وفرغ منه في ستّة وستين ومائتين، وأنفق على عمارته مائة ألف وعشرين ألف دينار، على ما حكاه بعضهم. ـ وطولُون بسكون الواوين وضم اللام بينهما والطاء المهملة وفي آخره نون ـ وهو اسم تركي.

* وفيها توفي أبو محمد الربيع بن سليمان المرادي مولاهم المؤذّن المصري، صاحب الإمام الشافعي، روى أكثر كتبه القائل في حقّه الشافعي: الربيعُ راويتي. وقال: ما أخذ منّي أحد ما أخذ مني الربيع. وكان يقول له: يا ربيع؛ لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك. وحكى الخطيب في تاريخه قال الربيعُ بن سليمان المرادي: كنّا جلوساً بين يدي الشافعي، أنا والبويطي والمزني، فنظر إلى البويطي وقال: ترون هذا، إنه لن يموت إلا في الحديدة، ثم نظر إلى المزنيّ فقال: ترون هذا، أما أنه سيأتي عليه زمان لا يفسّر شيئاً فيخبطه، ثم نظر إليّ وقال: إنه ما في القوم أحد أنفع لي منه، ولوددت أني حَسَوْته العلم.

وفي رواية أخرى أنه قال لابن عبد الحكم: وأمّا أنت يا فلان؛ فسترجع إلى مذهب مالكٍ، والربيع هذا آخر من روى عن الشافعي بمصر، توفي في عشرة المائة، وكان إماماً ثقة صاحب حلقة بمصر. قال ابن خلّكان: رأيتُ بخطّ الحافظ عبد العظيم المنذري شعراً للربيع

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٥٦، فلما عاد أحمد بن طولون إلى أنطاكية أكل لبن الجواميس فأكثر منه فأصابه منه هيضة، واتصلت حتى صار منها ذرب، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سراً، فلم ينجح الدواء فتوفي.

المذكور وهو:

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا من صدق اللّه في الأمور نجا
من خشي اللّه لم يرَ له أذى ومن رجا اللّه كان حيثُ رجا

* وفيها توفي أبو محمد الربيع بن سليمان الجيزي صاحب الإمام الشافعي، لكنّه كان قليل الرواية عنه، وكان ثقة. روى عنه أبو داود والنسائي. وتوفّي في ذي الحجة من السنة المذكورة بالجيزة، وقبره بها كذا قاله القضاعي.

* وفيها توفّي داود بن علي الفقيه، الإمام الأصبهاني الظاهري صاحب التصانيف، سمع القعنبي وسليمان بن حرب وطبقتهما، وتفقّه على أبي ثور وابن راهَوية وكان زاهداً وناسكاً متقلّلاً كثير الورع، وكان من أكثر الناس تعصّباً للإمام الشافعي، وصنّف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحب مذهب مستقلّ بنفسه، وتبعه جمع كثير يُعرفون بالظاهريّة. وكان ولده أبو بكر على مذهبه، وسيأتي ذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد، وقيل: كان يحضر مجلسه أربعمائة طيلسانٍ أخضر، قال داود: حضر مجلسي يوماً أبو يعقوب البُوَيطي، وكان من أهل البصرة، وعليه أخرقتان، فتصدّر لنفسه من غير أن يجلسه أحد، وجلس إلي جانبي وقال: سَلْ عمّا بدا لك؟ فكأني أغضبت منه فقلت له مستهزئاً: أسألك عن الحِجامة، فبرك، ثم روى طريق (أفطر) الحاجم والمحجوم ومن أرسله ومَنْ أسنده ومن وقفه، ومن ذهب إليه من الفقهاء. وروى اختلاف طريق احتجام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأعطى الحجام أجره، ولو كان حرّاً، ما لم يعطه. وروى بطريق أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم احتجم بقرنٍ، وذكر الأحاديث الصحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة. مثل: ما مررت بملأ من الملائكة، ومثل: شفاء أمّتي في ثلاث، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا تحتجموا يومَ كذا ولا ساعة كذا. ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطبّ من الحجامة في كل زمان، وما ذكروه فيها، ثم ختم كلامه بأن قال: أول ما خرجت الحجامةُ من أصفهان. فقلت له: واللّهِ لا أحقرنّ بعدك أحداً أبداً. وكان داود من عقلاء الناس، قال أبو العباس ثعلب في حقّه: كان عقل داود أكثر من علمه. وتوفّي في ذي القعدة، وقيل في شهر رمضان، وقال ولده أبو بكر: رأيتُ أبي في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وسامحني. فقلت: غفر لك، فَبِمَ سامحك؟ فقال: يا بنيّ، الأمر عظيم، والويل كلّ الويل لمن لم يسامح.

* وفيها توفّي محمد بن إسحاق الصاغاني[1] البغدادي الحافظ الحجّة.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٢/١٩٥: هو محمد بن إسحاق بن جعفر، وقيل ابن إسحاق بن =

* وفيها توفي القاضي بكّار بن قتيبة الثقفي، يرجع في نسبه إلى الحارث بن كِلْدة الثقفي الصحابي، كان بكّار حنفيّ المذهب، تولى القضاء بمصر، وله مع ابن طولون صاحب مصر وقائع، وكان يدفع إليه كل سنة ألف دينار، غير المقرر له، فيتركها بختمها، ولا يتصرف فيها، فدعاه إلى خلع الموفّق بن المتوكل من ولاية العهد، وهو والد المعتضد، فامتنع القاضي بكّار من ذلك، فاعتقله ابن طولون، ثم طالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه كلّ سنة، فحمله إليه بختمه، وكان ثمانية عشر كيساً، فاستحيي أحمد منه، وكان يظنّ أنه أخرجها، وأنّه يعجز عن القيام بها، فلهذا طالبه، وأمره أن يسلم القضاء إلى محمد بن شاذان الجوهري، ففعل وجعله كالخليفة له، وبقي مسجوناً مدّة سنين، وكان يحدّث في السجن من طاقٍ فيه، بعد أن استأذن أصحاب الحديث، وشكوا إلى ابن طولون انقطاع السماع، وكان ابن بكار أحد البكّائين والتالين لكتاب الله عزّ وجل، وكان إذا فرغ من الحكم حاسب نفسه، وعرض عليه القصص التي حكم فيها، ويقول: يا بكّار ما يكون جوابك غداً؟ وتوفي مسجوناً وهو باقٍ على القضاء رحمة الله عليه.

سنة إحدى وسبعين ومائتين

كان ابن طولون قد خلع الموفّق من ولاية العهد ومات، وقام بعده ابنه خُمارويه على ذلك، فجهز الموفّق ولده أبا العباس المعتضد في جيش كثير، وولاّه مصر والشام. فسار حتّى نزل بفلسطين، وأقبل خمارويه، فالتقى الجمعان بفلسطين[١]، وحمي الوطيس، حتّى جرت الأرض بالدماء، ثم انهزم خُمارويه إلى مصر، ونهبت خزائنه، وكان سعدُ الأعسر كميناً لخمارويه، فخرج على المعتضد وجيشه، وهم غازون، فأوقعوا به، فانهزموا حتى وصلوا طَرَسُوس[٢] في نفر يسير، وذهبت أيضاً خزائنه، حواها سعدٌ وأصحابه.

وفي السنة المذكورة توفّي عباس بن محمد الحافظ أبو الفضل مولى بني هاشم. ومحمد بن حمّاد الظهراني الرازي الحافظ. ويوسف بن سعيد الحافظ محدّث المصِّيصة[٣].

* وفيها توفيت بوران بنت الحسن بن سهل، زوجة المأمون، وقد تقدّم ذكر زواجها منه، وما عمل أبوها من الولائم والنثار والإنفاق في عرسها في سنة اثنتين ومائتين، ولم تزل

= محمد أبو بكر الصاغاني الحافظ نزيل بغداد، طوّف وجال وأكثر الترحال وبرع في العلل والرجال، روى عنه مسلم والأربعة.

(١) انظر وقعة الطواحين في الكامل لابن الأثير: ٦/٥٨.

(٢) طرسوس: وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. (معجم البلدان).

(٣) في معجم البلدان: المصيصة: وهي مدينة على شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس.

في صحبة المأمون إلى أن توفّي عنها سنة ثمان عشرة ومائتين، وعاشت بعده إلى إحدى وسبعين ومائتين، وعمرها ثمانون سنة.

سنة اثنتين وسبعين ومائتين

* فيها توفي الحافظ أبو معين الرازي، الحسين بن الحسن. والحافظ سليمان بن يوسف محدّث حرّان[١] وشيخها. وأبو معشر المنجّم، وكان بارعاً في فنّه ماهراً فيه. وله عدّة تصانيف، وكانت له إصابات عجيبةً. حكي أنه كان متصلاً بخدمة بعض الملوك، وأنّ ذلك الملك طلب رجلاً من أكابر دولته ليعاقبه، فاستخفى، وعلم أنّ المنجم المذكور يدلّ عليه بالطريق الذي يستخرج به الخبايا، فأراد أن يعمل شيئاً لا يهتدي إليه، فأخذ طشتاً وعمل فيه دماً، وجعل في الدم هاوِنَ ذهب. وقعد على الهاون أياماً. وبالغ في طلبه الملك، فلم يجده، وعند العجز أحضر المنجّم وسأله عن موضعه، فعمل العمل الذي يستخرج به في العادة، وسكت زماناً حائراً، فقال له الملك: ما سبب سكوتك وحيرتك؟ قال: أرى شيئاً عجباً، قال: وما هو؟ قال: أرى المطلوب على جبلٍ من ذهب، والجبل في بحر من دم، ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة. فقال له: أعد نظرك وَجِدّ، فأخذ الطالع، وفعل ثم قال: ما أراه إلا كما ذكرت. فلما أيس الملك من القدرة عليه بهذه الطريق، نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أجاءه. فلما وثق بأمانه ظهر وحضر، فسأله عن الموضع الذي كان فيه، فأخبره، فأعجبه حسن احتياله، ولطافة المنجّم في استخراجه والفقيه الأديب الأوحد، أحد أوعية العلم محمد بن عبد الوهاب العبدي النيسابوري. والحافظ محمد بن عوف الطائي محدّث حمص.

* وفيها توفي سليمان بن وهب، كان شاعراً بليغاً مرسلاً فصيحاً، وله ديوان رسائل، وقد مدحه أبو تمام والبحتري، وحكي أنه بلغه يوماً أن الواثق نظر إلى أحمد بن الخطيب الكاتب فأنشد:

من الناس إنسانان ديني عليهما ... مليحان لو شاءا لقد صدقاني
خليلي أما أمّ عمرٍ فإنها ... وأمّا عن الأخرى فلا تسألاني

فقال أحمد بن الخصيب بن عمرو؛ وأما الآخر فأنا. وكذلك كان. فإنه يكتبهما بعد أيام، ولما تولّى سليمان بن وهب الوِزارة وقيل تولاها ابنه عبد الله بن سليمان، كتب إليه عبد الله بن عبد الله بن طاهر:

---

(١) حرّان: في معجم البلدان: وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم.

أبـى دهـرنـا إسعـافنا فـي نفـوسنـا   وأسعفنـا فيمـن تحـبّ وتعظـمُ
فقلـتُ لـه: نُعمـاكَ فيهـم أتمَّهـا   ودع أمـرنـا إنّ المهـمَّ المقـدّمُ

سنة ثلاث وسبعين ومائتين

فيها توفي حنبل بن إسحاق أبو علي الحافظ ابن عمّ الإمام أحمد وتلميذه.

والحافظ الكبير محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، صاحب السنن والتفسير والتاريخ. كان إماماً في الحديث، عارفاً بعلومه وجميع ما يتعلّق به،ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكّة والشام ومصر والرّيّ لكتْبِ الحديث. وكتابه في الحديث أحد الكتب الستّة التي هي أصول الحديث وأمهاته. قلت: هكذا قال الذهبي: وهو مذهب بعض المحدّثين ومذهب بعضهم، وبه قال الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله؛ إنّ أمهات الحديث خمسة: صحيحا البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي. والذين قالوا هي ستة اختلفوا، فبعضهم يقول: السادس هي سنن ابن ماجة المذكور، وبعضهم يقول هو الموطّأ.

* وفيها توفّي صاحب الأندلس محمد[١] بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأمير الأموي، وكانت ولايته خمساً وثلاثين سنة، وكان فقيهاً عالماً فصيحاً مفوّهاً، رافعاً لعلم الجهاد، قال الإمام الحافظ، بقيَ[٢] بن مخلد: ما رأيت ولا سمعتُ أحداً من الملوك أفصح منه ولا أعقل، وقال أبو مظفّر ابن الجوزي: وهو صاحب وقعة وادي سليط التي لم يُسمع بمثلها، يقال أنّه قتل فيها ثلاثمائة ألف فارس.

سنة أربع وسبعين ومائتين

* فيها توفي خلف بن محمد الواسطي الحافظ، وعبد الملك بن عبد الحميد الفقيه الميموني. ومحمد بن عيسى المدايني رحمة الله عليهم.

سنة خمس وسبعين ومائتين

* فيها توفّي أبو بكر[٣] المروزي، وكان أجلّ أصحاب الإمام أحمد، وكان إماماً في

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٦١: توفي سلخ صفر وكان عمره نحواً من خمس وستين سنة، وخلف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ١٠/ ١٨٢: بقي بن مخلد بن يريد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ، ولد في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، ومات سنة ست وسبعين ومائتين.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٦٥: هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج المرورّوذي، وهو صاحب=

الفقه والحديث، كثير التصانيف، خرج مرّة من الرباط فشيّعه نحو خمسين من بغداد إلى سامراء.

* وفيها توفي الإمام الكبير الحافظ سليمان بن الأشعث، أبو داود السجستاني الأزدي، أحد أئمة الحديث وحفّاظه ومعرفة علمه وعلله، وكان في الدرجة العالية من النّسك والصلاح، طوّف البلاد وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والحجازيين والحرميين، وجمع كتاب السنن، قديماً، فربما عرضه على الإمام أحمد بن حنبل فاستجازه واستحسنه. وعدّه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء، من جملة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل. وقال إبراهيم الحربي: لمّا صنّف أبو داود كتاب السنن، أُلِيَنَ لأبي داود الحديثَ كما ألين لداود عليه السلام الحديد. وكان يقول: كتبت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خمسمائة ألف حديث، انتخبتُ منها ما ضمّنته هذا الكتاب، يعني السنن، جمعت فيه أربعة آلاف وثمان مائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**الأعمال بالنّيات**»، والثاني قوله: «**من حُسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، والثالث قوله: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه**»، والرابع قوله: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات**». الحديث بكماله، وجاءه الشيخ الكبير الوليّ الشهير العارف بالله الخبير سهل بن عبد الله التَسْتُريّ، فقيل له: يا أبا داود، هذا سهل بن عبد الله، قد جاءك زائراً. قال فرحّب به وأجلسه فقال: يا داود؛ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: تقول قضيتها، قال: قضيتها مع الإمكان. قال: اخرج لسانك الذي حدّثت به عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى أقبّله، فأخرج لسانه فقبّله، توفي رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة منتصف شوال من السنة المذكورة. وكان رأساً في الحديث، رأساً في الفقه، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع، حتّى كان يشبه شيخه أحمد بن حنبل، رحمة الله عليهم.

سنة ست وسبعين ومائتين

* فيها توفّي الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بقي[1] بن مخلد الأندلسي، أحد الأعلام، سمع يحيى بن يحيى، ويحيى بن بكير، وأحمد بن حنبل وطبقتهم، وصنّف التفسير الكبير والمسند الكبير. قال ابن حزم أقطع. إنه لم يؤلّف في الإسلام مثل تفسيره. وكان بقي بن

= أحمد بن حنبل وعبد الله بن يعقوب بن إسحاق العطار الموصلي التميمي ـ كان أبوه خوارزمياً وأمه مروروذية.

(١) مرت ترجمته في سنة ٢٧٣ هـ.

مخلد علاّمة فقيهاً مجتهداً صوّاماً قوّاماً متبتلاً عديم المثل.

* وفيها توفّي الإمام الحافظ أحد العبّاد أبو قُلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي البصري إنه كان يصلّي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة، ويقال إنّه روىٰ من حفظه ستين ألف حديث.

* وفيها توفّي محدّث الأندلس قاسم بن محمد بن قاسم الأموي مولاهم الفقيه، تفقّه على الحارث بن مسكين وابن عبد الحكم، وكان مجتهداً لا يقلّد. قال رفيقه بقي بن مَخْلد: هو أعلم من ابن عبد الحكم. وقال ابن عبد الحكم: لم يقدُم علينا من الأندلس أعلم من قاسم.

* وفيها توفّي محدّث مكّة أبو جعفر محمّد بن إسماعيل الصائغ[1]. ومحدّث دمشق أبو القاسم يزيد بن محمد بن عبد الصمد. ومحدّث الكوفة أبو عمرو ومحمد بن حازم الغفاري الحافظ.

* وفيها توفّي أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل المروزي الإمام صاحب (كتاب المعارف)، و (أدب الكاتب) كان فاضلاً ثقة، سكن بغداد وحدّث بها عن إسحاق بن راهَويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي وأبي حاتم السجستاني وتلك الطبقة. وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه الفارسي، وله تصانيف كلّها مفيدة، منها ما تقدّم ومنها (غريب القرآن الكريم)، و (غريب الحديث)، و (عيون الأخبار)، و (مشكل القرآن)، و (مشكل الحديث)، و (طبقات الشعراء)، و (الأشربة)، و (إصلاح الغلط)، و (كتاب النفقة)، و (كتاب الخيل)، و (كتاب إعراب القرآن)، و (كتاب الأنوار)، و (كتاب المسائل والجوابات)، و (كتاب الميسر والقِداح) وغير ذلك. توفّي في أول ليلة من رجب وقيل منتصف رجب من السنة المذكورة، وقيل سنة إحدى وسبعين، وقيل بل سنة سبعين، وكان موته فجأة، صاح صيحةً سُمِعت من بُعد، ثم أغمي عليه ومات، وقيل: أكل هريسة فأصابته حرارة، فصاح صيحةً شديدة ثمّ أغمي عليه إلى وقت الظهر، ثم اضطرب ساعة ثم هدأ، فما زال يتشهّد إلى وقت السحر ثم مات. قلت: وقد تقدّم ما قيل أن أكثر أهل العلم يقولون: (أدب الكاتب) خطبة بلا كتاب و (إصلاح المنطق)، كتابٌ بلا خطبة. قال ابن خلّكان: وهذا فيه نوع تعصّب عليه، فإنّ (أدب الكاتب) قد حوى على كل شيء، وهو مفنّن، وما أظنهم حملهم على هذا القول، إلا أنّ خطبته طويلة، والإصلاح فيه قصير الخطبة، واسم كتابه المذكور (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب).

---

(١) في الوافي بالوفيات ٦/ ٢/ ٢١١: محمد بن إسماعيل الصايغ القرشي بغدادي نزل مكّة، روى عنه أبو داود. قال ابن أبي حاتم: صدوق.

سنة سبع وسبعين ومائتين

* فيها توفّي حافظ المشرق أبو حاتمٍ محمد بن إدريس الحنظلي[١] الرازي في شعبان، وكان بارع الحفظ واسع الرحلة، من أوعية العلم جارياً في مضمار البخاري وأبي زُرعة الرازي رحمة الله عليهم.

سنة ثمان وسبعين ومائتين

* فيها مبدأ ظهور القرامطة[٢] بسواد الكوفة، وهم خوارج زنادقة مارقون من الدين.

* وفيها توفّي الموفق بن المتوكل، ولي عهد أخيه المعتمد، وكان ملكاً مطواعاً وبطلاً شجاعاً ذا بأس وأيدٍ ورأي وحزم، حارب الزنج حتى أبادهم، وقل طاغيتهم، وكان أمر الجيوش إليه، ومحبباً إلى الخلق، وكان المعتمد مقهوراً معه، اعتراه نقرس فبرّح به، وأصاب رجله داء الفيل. وكان يقول: قد أطبق ديواني على مائة ألف مرتزق، وما أصبح فيهم أسوأ حالاً منّي، واشتدّ ألم رجله وانتفاخها إلى أن مات منها، وكان قد ضيّق على ابنه أبي العباس وخاف منه. فلما احتضر رضي عنه، فلما توفّي ولاه المعتمد ولاية العهد، ولقبّه المعتضد، وكان بعض الأعيان يشبّه الموفق بالمنصور في حزمه ودهائه ورأيه، قيل: وجميع الخلفاء الذين بعده من ذرّيته.

وفي السنة المذكورة توفّي عبد الملك[٣] بن الهيثم الدير عاقولي.

سنة تسع وسبعين ومائتين

* فيها منع المعتضدُ من بيع كتبِ الفلاسفة والجدل، وتهدّد على ذلك، ومنع المنجمين والقصّاص من الجلوس.

* وفيها توفّي المعتمد على الله، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة ويومين. ومات فجأة بين المغنين والندماء، فقيل: سُمَّ في رؤوس أكلها، وقيل: في كأس بالشراب. ودخل

---

(١) في الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٦/٦٧: وهو مشهور بالحنظلي لأنه كان يسكن بالري بدرب حنظلة.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٦/٦٩.

(٣) في الأنساب للسمعاني: دير العاقول: قرية كبيرة على عشرة فراسخ أو خمسة عشر فرسخاً من بغداد، ومن المحدثين المعروفين منها: أبو يحيى عبد الكريم بن الهيثم بن زياد بن عمران القطان الدير عاقولي ٢/ ٥٢٥.
ـ وجاء في الكامل لابن الأثير: ٦/٧١: وفيها توفي عبد الكريم الدير عاقولي.

عليه القاضي والشهود فلم يَرَوْا به أثراً، وكان منهمكاً في اللذات، فاستولى أخوه على المملكة وحجر عليه في بعض الأشياء، فاستصحب المعتضد الخال بعد أبيه، وكان للمعتضد شعر متوسط، وأمّه أمّ ولد.

* وفيها توفّي الحافظ ابن الحافظ زهير بن حرب النسائي. ثم البغدادي مصنّف التاريخ، وله أربع وتسعون سنة، سمع أبا نعيم وعفّان وطبقتهما.

* وفيها توفي جعفر بن محمد بن شاكر الصائغ وله تسعون سنة، وكان زاهداً عابداً ثقة ينفع الناس ويعلّمهم الحديث.

* وفيها توفّي الإمام الحافظ مصنّف الجامع في السنن أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلميّ الترمذيّ الأئمة المقتدى بهم في علم الحديث، وكان يضرب به المثل،وهو تلميذ محمد بن إسماعيل البخاري، وشاركه في بعض شيوخه، وكان ضريراً، قيلَ وُلِد أكمه. رحمه الله تعالى.

سنة ثمانين ومائتين

* فيها توفّي القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البوني الفقيه الحافظ صاحب المسند. كان بصيراً بالفقه عارفاً بالحديث وعلله، زاهداً عابداً كبير القدر من أعيان الحنفيّة. والإمام الحافظ أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي صاحب المسند والتصانيف، أخذ الفقه عن البُوَيطي، والعربيّة عن ابن الأعرابي، والحديث عن ابن المديني، وكان قائماً بالسنة مغيظاً للمبتدعة.

سنة إحدى وثمانين ومائتين

* فيها توفّي الإمام أبو بكر[1] محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي مولاهم البغدادي، صاحب التصانيف والإمام أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي الحافظ، سمع أبا مَعْمَر وأبا نعيم وطبقتهما، وصنّف التصانيف، وكان محدّث الشام في زمانه.

* وفيها توفّي العلامّة محمد بن إبراهيم الاسكندراني المالكي، صاحب التصانيف، كان إليه المنتهى في تفريع المسائل.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧٨/٦: عبيد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة، كان مؤدباً لجماعة من أولاد الخلفاء.

سنة اثنتين وثمانين ومائتين

* فيها وقع الصلح بين المعتضد وخُمارويه، وتزوّج[١] المعتضدُ بابنة خمارويه على مهر مبلغه ألف ألف درهم، فأرسلت إلى بغداد، وبنى بها المعتضد، وقدّم جهازها بألف ألف دينار، وأعطت الذي مشى في الدلالة مائة ألف درهم.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الطوسي، سمع يحيى بن يحيى التميمي فمن بعده، وكان محدّث الوقت وزاهده بعد محمد بن أسلم بطوس، صنّف المسند الكبير في مائتي جزء.

* وفيها توفّي العلاّمة أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأزدي سمع مولاهم البصري الفقيه المالكي، مات ببغداد فجأة وله ثلاث وثمانون سنة. سمع الأنصاري ومسلم بن إبراهيم وطبقتهما، وصنّف التصانيف في القراءة والحديث والفقه وأحكام القرآن والأصول، وتفقّه على أحمد بن المعدل، وأخذ علم الحديث عن ابن المديني، وكان إماماً في العربية حتى قال المبرّد: هو أعلم بالتصريف منّي.

* وفيها توفي الحافظ أبو الفضل جعفر بن محمد بن أبي عثمان الطيالسي البغدادي في رمضان، سمع عفّان وطبقته، وكان ثقة متحرّياً إلى الغاية.

* وفيها توفي الحارث أبو محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي البغدادي صاحب المسند، يومَ عرفة وله ستّ وتسعون سنة.

* وفيها توفّي الحسين بن الفضل بن عُمَير البجلي الكوفي المفسّر، نزيل نيسابور، كان آية في معاني القرآن، صاحب فنون متعبداً، قيل إنه كان يصلّي في اليوم والليلة ستّ مائة ركعة، وعاش مائة وأربع سنين. روى عن يزيد بن هارون والكبار.

* وفيها توفي أبو الجيش[٢] خُمارويْه (بضم الخاء المعجمة وفتح الميم وبعدها ألف ثم راء ثم واو مفتوحتان ثم مثناة من تحت ثم هاء مكسورة)، ابن أحمد بن طولون.

لما كان سنة ست وسبعين ومائتين تحرّك الأفشين بن محمد صاحب أرمينية والجبال في جيش عظيم، وقصد مصر، فلقيه خُمارويه في بعض عمال دمشق، فانهزم الأفشين، واستأمن أكثر عسكره، وسار خمارويه حتى بلغ الفرات ودخل أصحابه الرقة، ثم عادوا، وقد ملك من الفرات إلى بلاد النوبة، ولما مات المعتمد وتولّى المعتضد الخلافة، بادر إليه

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٦/ ٨٠.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٨١: ذبحه بعض خدمه على فراشه في ذي الحجة بدمشق.

خُمارويه بالهدايا والتّحف، فأقرّه المعتضد على عمله، وسأل خمارويه المعتضد أن يزوّج ابنته أسماء الملقبة بقطر الندى للمكتفي بالله بن المعتضد بالله، وهو إذ ذلك وليّ العهد، فقال المعتضد: بل أنا أتزوّجها، فتزوّجها في سنة إحدى وثمانين ومائتين، ودخل بها في هذه السنة، وقيل في سنة اثنتين وثمانين ومائتين ـ والله أعلم.

وكان صداقها ألف ألف درهم، وكانت موصوفة بفرط الجمال والعقل، حكي أن المعتضد خلى بها يوماً للأنس في مجلس أفرده لها، ما حضرهُ سِواها، فأخذت منه الكأس، فنام على فخذها، فلمّا استثقلته وضعت رأسهُ على وسادة، وخرجت فجلست في ساحة القصر، فاستيقظ ولم يجدها فاستشاط غضباً، ونادى بها فأجابته على قرب فقال: لم أجلل إكراماً لك؟ ألم أدفع إليك بهجتي دون سائر خصائصي؟ فتضعين رأسي على وسادة، فتذهبين؟ فقالت: يا أمير المؤمنين؛ ما جهلت قدرّ ما أنعمت به عليَّ، ولكن فيما أدّبني به أبي إذ قال؛ لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي مع النيام. ويقال إنّ المعتضد أراد بنكاحها إفتقار الطولونية، وكذا كان، فإنّ أباها جهّزها بجهاز لم يُعمل مثله حتّى قيل: إنه كان لها ألف هاون ذهباً، وشرط عليه المعتضد أن يحمل كلَّ سنة بعد القيام بجميع وظائف مصر وأرزاق أجنادها مائتي ألف دينار، فأقام على ذلك إلى أن قتله غلمانه بدمشق على فراشه، وعمره اثنتان وثلاثون سنة. وكان شهماً صارماً، وقيل قُتل قاتلوه أجمعون، وحُمل تابوته إلى مصر ودفن عند أبيه بسفح المقطّم، وكان من أحسن الناس خطّاً. ولمّا حُملت قطر الندى ابنة خمارويه إلى المعتضد خرجت معها عمّتها العباسية ابنة أحمد بن طولون مشيّعة لها إلى آخر أعمال مصر من جهة الشام، ونزلت هناك، وضربت فساطيطها، وبَنَتْ هناك قريةً فسميت باسمها وقيل لها (العبّاسية) قال ابن خلكان: وهي عامرة إلى الآن، وبها جامع حسن وسوق قائم. وماتت قطر الندى سنة سبع وثمانين ومائتين، ودفنت داخل قصر الرصافة.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ أبو محمد الفضل بن محمد الشعراني، طوّف الأقاليم وكتب الكثير، وجمع وصنّف.

* وفيها توفي العلاّمة أبو العيناء محمد بن القاسم البصري الضرير اللغوي الأخباري، صاحب النوادر والشعر والأدب. سمع من أبي عبيدة والأصمعيّ وأبي زيد الأنصاري والعتبي وغيرهم، وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لساناً، ومن ظرفاء العالم، وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء ما ليس في أحد من نظرائه، وله أخبار حسان وأشعار ملاح، وها أنا أذكر شيئاً يسيراً من ذلك.

حضر يوماً مجلس بعض الوزراء، فجرى حديث البرامكة وما كانوا عليه من الجود، فقال الوزير لأبي العيناء ـ وقد بالغ في وصفهم: قد أكثرتَ من ذكرهم، وإنما هذا تصنيف

الورّاقين وكذب المؤلفين، فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الورّاقون عليك أيّها الوزير؟ فكذّبه الوزير، وعجب الحاضرون من إقدامه عليها. وشكا إلى الوزير عبيد الله بن سليمان سوء الحال فقال له: أليس قد كتبت إلى فلان من أمرك؟ قال: نعم، قد كتبت إلى رجل قد قصّر من همته طول الفقر وذلّ الأسر ومعاناة الدهر، فأخفق سعيي وخاب طلبي، فقال عبيد الله: أنت اخترته؛ فقال: وما علي أيها الوزير في ذلك، وقد اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، فما كان فيهم رشد، واختار النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عبد الله بن أبي سرح كاتباً، فرجع إلى المشركين مرتدّاً واختار علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أبا موسى الأشعري حاكماً له، فحكم عليه. وقوله: ذلّ الأسر يعني أنه أسره عليّ بن محمد صاحب الزنج بالبصرة، وسجنه فنقب السجن وهرب. ودخل أبو العيناء يوماً على الوزير أبي الصفر فقال: ما الذي أخّرك عنّا يا أبا العيناء؟ فقال: سُرق حماري، قال: وكيف سرق؟ قال: لم أكن مع اللصّ فأخبرك، قال: فهل أتيتنا على غيره؟ فقال: أقعدني عن السير قلّة يساري، وكرهت ذلّة المكاري، ومنّة العواري. وخاصم علوياً فقال العلوي: أتخاصمني. وأنت تقول: اللهم صلّي على محمّد وعلى آل محمد؟ فقال: لكنّي أقول الطيبين الطاهرين، ولستَ منهم.

ووقف عليه رجل من العامة فقال: من هذا؟ قال: رجل من بني آدم، فقال: مرحباً بك ـ أطال الله بقاءك ـ ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع. ومرَّ بباب بعض من بغضه وهو مريض فقال لغلامه: كيف حاله؟ فقال: كما تحب، فقال: مالي لا أسمع الصراخ عليه؟ وذكر له أن المتوكل قال: لولا أنه ضريرٌ لنا دَمْناه، فقال: إن عفاني من روية الأهلّة وقراءة نقش القصوص، فأنا أصلح للمنادمة. وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به: كم عدّة المكذّبين بالبصرة؟ فقال: مثل عدد البغائين ببغداد. وقال له المتوكل يوماً: ما تقول في دارنا هذه؟ فقال: الناس بَنَوا الدار في الدنيا، وأنت بنيت الدار في دارك، فاستحسن كلامه.

سنة ثلاث وثمانين ومائتين

* فيها ظفر المعتضدّ برأس الخوارج هارون[1] الشاري (بالشين المعجمة) وجيءَ به راكباً فيلاً، وزيّنت بغداد.

* وفيها أمر المعتضد في سائر البلاد بتوريث ذوي الأرحام وإبطال دواوين المواريث[2] في ذلك، وكثر الدعاء له. وكان قبل ذلك قد أبطل النيروز وقيّد النيران وأمات

---

(١) انظر تاريخ ابن الأثير ٦/ ٨١.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٨٤، أمر المعتضد بالكتابة إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام =

سنّة المجوس.

* وفيها توفّي أبو العباس علي بن العباس المعروف بابن الرومي مولى عبيد الله بن عيسى بن أبي جعفر المنصور العباسي الشاعر المجيد المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، ويستخرجها من مكامنها، ويبرزها بأحسن صورة، ولا يترك المعنى حتّى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقي فيه بقية، وكان شعره غير مرتّب، فرتبه أبو بكر الصُّولي على الحروف، وجمعه وراق بن عبدوس من جميع النسخ، فزاد على كل نسخة ممّا هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت، وله القصائد المطوّلة والمقاطيع البديعة، وله في الهجاء والمديح كل طريق ومليح، من ذلك قوله:

كم ضنّ بالمال أقوام وعندهم ... وفر، وأعطى العطايا وهو يُدان

أراكــم ووجــوهكــم وسيــوفكــم ... فـي الحـادثـات إذا دجـون نجـوم

منهـا معـالـم للهـدى ومصـالـح ... تجلـو الـدجـىٰ والأخـريـات رجـوم

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكـون بكـاء الطفـل سـاعـةَ يـولـد

وإلا فمـا يبكيـه منهـا وإنهـا ... لأوسـعُ ممّـا كـان فيـه وأرغـد

وله من المعاني البديعة قوله:

وإذا امـرؤُ مـدح أمـرأً لِنـوالـه ... وأطـال فيـه فقـد أراه هجـاءه

لـو لـم يقـدّر فيـه بعـد المستقـى ... عنـد الـورود لمـا أطـال رشـاءه

وكذلك قوله في ذمّ الخضاب:

إذا دام للمـرء السـواد فمـا خلَـتْ ... شبيبـة ظـنّ السـواد خضـابـا

فكيـف يـروم الشيـخ أن خضـابـه ... يظـنّ سـواداً أو يخـال شبـابـا

قال بعض علماء الأدب: ما سبقه إلى هذا المعنى أحد. وله في بغداد وقد غاب عنها.

بلـد صحبـتُ بـه الشبيبـة والصّبـا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فـإذا تمثّـل فـي الضميـر رأيتـه ... وعليـه أغصـان الشبـاب تميـد

وكان سبب موته في بغداد أنّ الوزير القاسم بن عبد الله وزير المعتضد كان يخاف من هجوه، فدّس عليه ابن فراس، فأطعمه خشكنانة مسمومة، وهي في مجلسه، فلمّا أكلها أحسّ بالسمّ، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال إلى الموضع الذي بعثتني إليه. فقال:

= المواريث إلى ذوي الأرحام، وأبطل ديوان المواريث.

سلّم لي على والدي، فقال: ما طريقي على النار. فخرج من مجلسه وأتى منزله، وأقام أياماً ثم مات. وكان الطبيب يتردّد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسمّ، فزعم أنه غلط عليه في بعض العقاقير.

قال إبراهيم بن محمد المعروف بنَفْطَويه: رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت: ما حالك؟ فأنشد:

غلط الطبيب على غلط مورده ... عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلجون الطبيب وإنّما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

وكان الوزير المذكور سفّاكاً للدماء الصغيرُ والكبيرُ منه على وجلٍ، لا يعرف أحد من أرباب الأموال منه نعمةً، فلما توفّي سنة إحدى وسبعين في خلافة المكتفي، وقد نيّف على الثلاثين، قال فيه عبد الله بن الحسين بن سعد.

شربنا عشيّةَ مات الوزير ... سروراً ونشرب في ثالثِهِ
فلا رحِمَ اللّه تلكَ العظام ... ولا بارك اللّه في وارثهِ

* وفيها توفّي قدوة السالكين، وحجّة الله على العارفين، كريم المقامات وعظيم الكرامات، الولي الكبير المعظّم الشهير أبو محمد سهل بن عبد الله التُسْتَري، قدّس الله روحه، في شهر المحرّم، وله نحو من ثمانين سنة، وله كلام جليل في السلوك والمواعظ. وكان سبب سلوكه للطريق خاله محمد بن سوار، فإنه قال: كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، وكان يقول: يا سهل، اذهب ونمْ، فقد شغلت قلبي. وقال ليس يوماً خالي: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكر؟ فقال: قل بقلبك في الليل في فراشك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك: الله معي، الله ناظري، الله شاهدي، فقلت ذلك عشر ليالي، ثم أعلمته فقال: قلها كلّ ليلة سبع مرات، فقلت ذلك، ثم أعلمته فقال: قلها كلّ يوم إحدى عشرة مرّة. كذا قال بعضهم، وقال في الرسالة: قل في كلّ ليلة إحدى عشرة. وأرى هذا أصحّ وأنسب إذ الليل وقتَ الغفلة، والذكر فيه أفضل. قال: فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوته. فلمّا كان بعد سنة قال لي: احفظ ما علّمتك. ثم دُمْ عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه سينفعك في الدنيا والآخرة، قال: فلم يزل على ذلك سنين، فوجدتُ له حلاوة في سرّي، ثم قال لي يوماً خالي: مَنْ كان الله معه وهو ناظره، وشاهده كيف يعصيه، إياك والمعصية. قال: فبعثوا بي إلى الكتّاب فقلت: إنّي أخشى أن يفرق عليّ همّي، ولكن شارِطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة، فأتعلم وأرجع. فحفظت القرآن وأنا ابن ستّ أو سبع، وكنت أصوم الدهر وقوتي خبز الشعير

اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أن يبعثوا بي إلى البصرة أسأل عنها. فجئت البصرة، وسألت علماءها، فلم يشفِني ما سمعت، فخرجت إلى عَبّادان[١] إلى رجل يُعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العبادي. فسألته عنها، فأجابني، وأقمت عنده مدّة أنتفع بكلامه، وأتأدب بأدبه. ثم رجعت إلى تُسْتر[٢] فجعلت قُوْتي اقتصاراً على أن يشتري لي بدرهم، فرق من الشعير، فيطحن ويختبز، فأفطر عند السحر كلّ ليلة على أوقية واحدة بغير ملح ولا أدام. وكان يكفيني ذلك الدّرهم سنة، ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليالٍ، ثم جعلتها خمساً ثم سبعاً حتى بلغتُ خمسة وعشرين ليلة، وكنت على ذلك عشرين سنة ثمّ خرجتُ أسيح في الأرض سنين، ثم عُدْتُ إلى (تُسْتَر)، وكنت أقوم الليل كلّه.

قلت: وله من الكرامات الشهيرات ما يطول ذكره، بل يشقّ ويتعذّر حصره، من ذلك قصّته المشهورة مع يعقوب بن الليث حين أصابته علّة أعضلت الأطباء، فقيل له: ولايتك رجل صالح، يُقال له سهل بن عبد الله، فلو استدعيت به لعلّة يدعو لك، فاستدعى به، فلمّا حضر قال: ادع لي؛ فقال: كيف يُستجاب دعائي فيك، وفي سجنك محبوسون؟ فأطلق كلّ من في السجن، فقال سهل: اللهم كما أريته ذلّ المعصية فأره عزّ الطاعة، فعوفي في وقته، فعرض مالاً على سهل، فأبى أن يقبل، فقيل له: لو قبلته وفرّقته على الفقراء. فنظر إلى الحصى في الصحراء، فإذا هي جواهر فقال: مَنْ أعطِيَ مثلَ هذا أيحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟

* وفيها توفي قاضي القضاة أبو الحسن علي[٣] بن محمد بن أبي الشوارب الأموي البصري. وكان رئيساً معظّماً ديّناً خيّراً، روى عن أبي الوليد الطيالسي.

سنة أربع وثمانين ومائتين

قال محمّد بن جرير: فيها عزم المعتضد على لعن معاوية على المنابر، فخوّفه الوزير من اضطراب العامة، فلم يلتفت. ومنع القصّاص من الكلام ومن اجتماع الخلق في الجوامع، وكتب كتاباً[٤] فيه مصائب ومعائب. فقال القاضي يوسف بن يعقوب: يا أمير المؤمنين؛ أخاف الفتنة عند سماعه. فقال: إن تحرّكت العامة وضعت فيهم السيف. قال:

---

(١) عبّادان: مدينة في جنوب غرب إيران على شطّ العرب.
(٢) تُسْتَر: أعظم مدينة بخوزستان. (معجم البلدان).
(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٨٤: وكانت ولايته للقضاء بمدينة المنصور ستة أشهر.
(٤) انظر نص هذا الكتاب في الكامل لابن الأثير ٦/ ٨٥ ـ ٨٩.

فما تصنع بالعلوية[١] الذين هم في كلّ ناحية قد خرجوا عليك؟ وإذا سمع الناس هذا من فضائل أهل البيت مالوا إليهم، وصاروا أبسط الألسنة. فأمسَكَ المعتضد.

* وفيها توفّي محدّث نيسابور[٢] ومفيدها الحافظ أحمد بن المبارك المستملي، سمع قتيبة وطبقته، وكان مع سعة روايته راهبَ عصره مجاب الدعوة.

* وفيها توفّي أبو عبادة البُحتُريّ (بضمّ الموحدة والمثناة من فوق وسكون الحاء المهملة بينهما وكسر الراء)، منسوب إلى «بُحْتُر» أحد أجداده. أمير شعراء العصر وَحامِل لواء القَريض الوليد بن عبيد الطائي. أخذ عن أبي تمام الطائي، ولما سمع أبو تمام شعره قال: نُعيت إلى نفسي. وممّن ذكره المبرّد وقال: أنشدنا شاعر دهره ونسيج وحده أبو عبادة البحتري، ومدح براعته المؤرّخون، وذكروا أنّه ولد بمنبج ونشأ بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء، أوّلهم المتوكّل على الله وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهراً طويلاً ثم عاد إلى الشام. وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلبَ وضواحيها، ويتغزل بها. وقد رَوي عنه أشياء من شعره أبو العباس المبرّد، ومحمد بن أحمد الحليمي، وأبو بكر الصّولي وغيرهم. قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي: رأيتُ البحتريّ ها هنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق، اجتاز بنا في الجامع من هذا الباب، وأوْمى إلى جنبتي المسجد يمدح أصل البصل والباذنجان، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه، ثم كان منه ما كان. وحكى أبو بكر الصُّولي في كتابه الذي وضعه في أخبار أبي تمّام الطائي أنّ البحتري كان يقول: أوّل أمري في الشعر ونباهتي فيه أني ذاهب إلى أبي تمّام ـ وهو بحمص ـ فعرضت عليه شعري، وكان يجلس فلا يبقى شاعر إلاّ قصده، وعرض عليه شِعره. فلما سمع شعري، أقبل عليَّ، وترك سائر الناس. فلما تفرّقوا قال لي؛ أنت أشعر مَنْ أنشَدني، فكيف حالك؟ فشكوتُ إليه فكتب إلى أهل معرّة النعمان، وشهد لي بالحذق، وشفع لي إليهم وقال: امتدِحْهُم فصرتُ إليهم فأكرموني بكتابه، وقطعوا لي أربعة آلاف درهم، وكانت أوّل مال أصبْته. وقال أبو عبادة المذكور: أول ما رأيت أبا تمّام، وما كنت رأيته قبلها، أنّي دخلت إلى أبي سعيد محمد بن يوسف فامتدحته بقصيدتي التي أولها.

لا فـاق صـبّ مِـنْ هـوى فـأفيقـا أم خـان عهـداً أمْ أطـاع شفيقـا

فأنشدته، فلما أتممتُها سُرّ بها وقال لي: أحسن الله إليك يا فتى؛ فقال له رجل في المجلس: هذا ـ أعزّك الله ـ شِعري بحلقته، فسبقني به إليك. فتغيّر أبو سعيد وقال لي: يا

---

(١) في المصدر السابق: فما نصنع بالطالبيين؟

(٢) نيسابور: مدينة في جنوب غربي إيران في منطقة الأهواز.

فتى، قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن نمت به إلينا، ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت: هذا شِعري أعزّك الله ـ فقال الرجل: سبحان الله يا فتي؛ لا تقل هذا. ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتاً، فقال لي أبو سعيد: نحن نبلِغك ما تريد ولا تحمِل نفسك على هذا. فخرجتُ متحيّراً لا أدري ما أقول، ونويت أن أسأل عن الرجل مَنْ هو، فما أبعدت حتّى ردّني أبو سعيد ثم قال لي: جنيت عليك فاحتمل. أتدري مَنْ هذا؟ قلت: لا. قال لي: هذا ابن عمّك حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، قُم إليه، فقمت إليه فعانقته، ثم أقبل يقرّظني ويصف شِعري وقال: إنما فرجت معك. فلزمته بعد ذلك، وكبر عجبي من سرعة حفظه. ومعنى يقرّظني أي: يمدحني. قال في الصّحاح: والتقريظ مَدْح الإنسان وهو حيّ. والتأبين: مدحه مَيْتاً. وقولهم فلان يقرّظ صاحبه تقريظاً (بالظاء والضاد المعجمتين جميعاً) عن أبي زيد إذا مدحه بباطل أو حقّ. وهما يتقارظان المدح، إذا مدح كلّ منهما صاحبه. وقيل للبحتري: أيّما أشعر أنت أمْ أبو تمّام؟ فقال: جيّده خيرٌ من جيّدي، ورديئي خير من رديئه. وقال: يقال لشعر البحتري: سلاسل الذهب. وهو في الطبقة العليا، ويقال أنّه قيل لأبي العلاء المعريّ: أيّ الثلاثة أشعر، أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟ فقال: حكيمان والشاعر البحتري. قيل وما أنصفه ابن الرومي في قوله:

والفتى البحتريّ يسوق ما قال ... ابن أوس في المدح والتشبيب
كلّ بيت له يجود معناه ... فمعناه لابن أوس حبيب

وقال ابن البحتري: أنشدتُ أبا تمام شيئاً من شِعري، فأنشد بيت أوس بن حَجَر (بفتح الحاء والجيم):

إذا مُقْرَم منّا ذرا حدّنا بِهِ ... تخمّط فينا نابَ آخَرُ مُقْرَمُ

وقال: نعيت إلى نفسي، فقلت: أعيذك بالله من هذا، فقال: إنّ عمري ليس يطول، وقد نشأ لِطيّ مثلك. أما علمت أنّ خالد بن صفوان المنقريّ رأى شبيب بن شيبة وهو من رهطه يتكلم فقال: يا بنيّ؛ نعي إلى نفسي بإحسانك في كلامك، لأنّا أهل بيت، ما نشأ فينا خطيب إلا مات مَنْ قبله. قال: فمات أبو تمام بعد سنة من هذا. وقوله: ذر أحدنا به، أي: سقط، وذروت الشيء أي: طيرته وأذهبته. وذرتِ الريح التراب وغيره تذروه ذرواً وتذريه ذرياً أي سَفْته. وأذرَيتُ الشيءَ إذا ألقيته كإلقاء الحبّ للزرع. وطعنه فأذراه عن ظهر دابته أي ألقاه. وتخمّط بالخاء المعجمة والطاء المهملة يقال في الفحل إذا هدر، وفي الإنسان إذا تغضّب وتكبّر، وفي البحر إذا التطم (والمقرم) بضم الميم وسكون القاف وفتح الراء: المكرم، وكذلك القرم بفتح القاف. ومنه قيل سيد قوم مقرمُ وقال البحتري: أنشدتُ أبا تمام شِعراً في بني حميد ووصلت به إلى مال خطير، فقال لي: أحسنت، أنت أمير الشعراء

بعدي، وكان قوله هذا أحبّ إليّ من جميع ما حويته. وقال ميمون بن مهران: رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى البلاذرّي المؤرّخ فسألته عن حاله فقال: كنت من جلساء المستعين بالله، يقصده الشعراء فقال: لستُ أقبلُ إلاّ ممّن قال مثل البحتريّ في المتوكل.

لو أنّ مشتاقاً تكلّف غيرَ ما ... في وسعه لسعى إليك المنبرُ

قال فرجعت إلى بيتي وأتيته وقلت: قد قلت فيك أحسن ممّا قاله البحتريّ، فقال: هاتِه، فأنشدته:

ولو أنّ بُرد المصطفى إذ لبستَهُ ... يُظنّ لظنّ البُردِ أنّك صاحبُه

وقال فقد أعطيته ولبسته ... نعم، هذه أعطافه ومناكِبُه

فقال ارجع إلى منزلك وافعل ما آمرك به. فرجعتُ فبعث إليّ بسبعة آلاف دينار وقال: ادّخر هذه لحوادث من بعدي، ولكن على الجزاية والكفاية ما دمتُ حيّاً. قلت: ولا يخفى ما في بيتَيْهِ المذكورَين من الخروج إلى حيّز الكفر من تشبيهه بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. وللمتنبي في معنى قول البحتري في المنبر.

لو تعقلُ الشجر التي قابلتها ... مدّت محبّتُها إليك الأغصُنا

وسبقهما أبو تمام بقوله:

لوسعت نفقة لإعظام نُعمي ... لسعى نحوك المكانُ الجديدُ

والبيت الذي للبحتري من جملة قصيدة طويلة أحسن فيها يمدح بها المتوكّل على الله، ويذكر خروجه لصلاة عيد الفطر وأولها.

أخفي هوىً في الضلوعِ وأظْهِرُ ... وأُلامُ مِنْ كَمَدٍ عليك وأُعذَرُ

والأبيات التي يرتبط بها البيت المقدّم ذكر للبحتري.

بالبرّ صمْت وأنت أفضل صائم ... وبسُنّة الله الرضية تفطرُ

فانعم بيوم الفطر عيداً إنه ... يومٌ أعزّ من الزمان مشهرُ

أظهرتَ عزّ الملك فيه بجحفلٍ ... لَجِبٍ يحاط الدين فيه وينصرُ

خلنا الجبالَ تسير فيه وقد غدَت ... عدداً يسيّرها العديد الأكبر

فالخيل تصهل والفوارس تدّعي ... والبيض تلمعُ والأسِنّة تزهر

والأرض خاشعة تميد بنقلها ... والجوّ معتكِرُ الجوانب أغبر

والشمس طالعة توقد في الضحى ... طوراً ويطفئها العجاج الأكدر

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ذاك الدّجى وانجاب ذلك العِثْيَرُ
وافتنّ فيك الناظرون فإصبع يُومي إليك بها وعين تنظر
يجِدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعمِ اللّه التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك التي قد هلّلوا لما طلعتَ من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابِساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع للّه لا تزهو ولا تتكبّر
فلو أنّ مشتاقاً تكلّف غيرَما في وسعه لمشى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتُخبرُ
ووقفت في بردِ النبيّ مذكِراً باللّه تنذرُ تارة وتبشّر

وقوله: وانجاب ذلك العِثْيرَ هو بكسر العين المهملة وسكون المثلثة وفتح المثناة من تحت ـ والمراد به: الغبار. قال بعض الفضلاء: وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة، والسهل الممتنع، فللّه درّه ما أسلس قياده، وأعذب ألفاظه، وأحسن سبكه، وألطف مقاصده. وليس فيه من الحشو شيء، بل جميعه تحت، وديوانه موجود، وشعره سائر، فلا حاجة إلى الاكثار منه ها هنا لكن تذكر من وقائعه ما يستطرف.

فمن ذلك أنّه كان بحلب شخص يقال له أحمد بن طاهر الهاشمي، مات أبوه وخلّف له مقدارَ مائة ألف دينار، فأنفقها على الشعراء والوزراء وفي سبيل الله، فقصده البحتري من العراق. فلما وصل إلى حلب قيل له: إنه قد قعد في بيته لديون ركبته، فاغتم البحتري لذلك غمّاً شديداً، وبعث المِدحْة إليه مع بعض مواليه. فلما وصلته ووقف عليها بكى، ودعا بغلامٍ له وقال له: بِعْ داري، فقال له: لا تبع دارك، وتبقى على رؤوس الناس، فقال له: لا بدّ من بيعها، فباعها بثلاث مائة دينار وأنفذها إلى البحتري وكتب إليه معها هذه الأبيات:

لو يكون الحياء حسب أنت لدينا به محلّ وأهْلُ
لحثيت اللّجينَ والدرَّ واليا قوتَ حثواً وكأن ذلك بقلُ
والأديب الأريب يسمع بالعذر إذا قصّ الصديقَ المقلُ

فلما وصلت الرقعة للبحتري ردّ الدنانير وكتب إليه:

بأبي أنت أنت للبرّ أهل والمساعي بعد سعيك قبلُ
والنوال القليل يكثر إن شاء مَرجَيْك والكثير يُقِلُّ
غير أنّي ردَدْت برّكِ إذ كان ربا منك والرّبا لا يحل
فإذا ما جزيت شعراً بشعر قضي الحقّ والدنانير فضلُ

فلما عادت الدنانير إليه حلّ الصرّة وضمّ إليها خمسين ديناراً أخرى، وحلف أنه لا يرّدها عليه، وسيرّها إليه، فلما وصلت إلى البحتري أنشأ يقول:

شكرتك إنّ الشكر للسيد نعمة ... ومن يشكر المعروف بالله زائدُهُ
لكلّ زمان واحدٌ يُقتدى به ... وهذا زمان أنت لا شكّ واحدهُ

قلتُ: وحكي أنّ هذين البيتين كتبهما الشيخ الإمام محيي الدين النووي، وأرسل بهما إلى الشيخ الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد، رضي الله تعالى عنهما، لمّا بلغه أنه قيل لابن دقيق «العيد» لِمَ لا تصنّف في الفقه؟ فقال: قد صنّف الشيخ محيي الدين النووي ما فيه كفاية، أو كما قال: ومثل هذا ما حكي أيضاً أنّ الإمام حجّة الإسلام أبا حامد الغزالي قيل له: لم لا تصنّف في التفسير؟ فقال: يكفي ما صنّف فيه شيخنا الإمام أبو الحسن الواحدي رحمة الله عليهما. وكان البحتري قد اجتاز بالموصل وقيل برأس[1] عين، فمرض مرضاً شديداً. وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه، فوصف له يوماً مزورة، ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه، فقال الغلام: أصنع هذه المزورة؟ وكان بعضُ رؤساء البلد حاضراً عنده، وقد جاء يعوده فقال ذلك الرئيس: هذا الغلام ما يحسن يطبخها، وعندي طبّاخ مِنْ نعته وصفته كيْتَ وكيْتَ، وبالغ في حسن صفته، فترك الغلامُ عملها اعتماداً على قوله، وقعد البحتري ينتظر، واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها. فلما أبطأت عليه وفاتَ وقتُها وقتَ وصولها إليه، كتب إلى الرئيس:

وجدتُ وعدك زوراً في مزورة ... حلفتَ مجتهداً إحكام طاهيها
فلا شفى اللّهُ من يرجو الشفاءَ ... ولا علَتْ كفه ملتقٍ كفه فيها
فاحبس رسولك عنّي أن يجيء بها ... فقد حبستُ رسولي عن تقاضيها

قوله: طاهيها أي طابخها، فالطهي: الطبخ صرّح به في ديوان الأدب. وأخباره ومحاسنه كثيرة، ولم يزل شعره غير مرتّب حتّى جمعه أبو بكر الصُّولي، ورتّبه على الحروف. وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني، ولم يرتبه على الحروف، بل على الأنواع كما صنع بشعر أبي تمام.

وللبحتري أيضاً كتاب حماسة على مثال حماسة أبي تمام، وله (كتاب معاني الشعر). وكانت ولادته سنة ستّ وقيل خمس ومائتين. قال ابن الجوزي؛ وتوفّي وهو ابن ثمانين سنة. وقال الذهبي: ابنُ بضع وسبعين سنة، وقيل توفّي في السنة التي قبلَ هذه، وقيل في التي بعدها، وقيل في سنة ستّ وثمانين. وقال الخطيب: كان يكنّى أبا الحسن وأبا عبادة،

(١) رأس عين: أو رأس العين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنَيْسِر. (معجم البلدان).

فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر ـ على أبي عبادة، فإنها أشهر ففعل. قال ابن خلكان في تاريخه: وأهل الأدب كثيراً ما يسألون عن قول أبي العلاء المعري: وقال الوليد: الينعُ ليس بمثمرٍ، وأخطأ شرب الوحش من ثمر الينع. فيقولون: من هو الوليد المذكور؟ وأين قال: الينع ليس بمثمر؟ ولقد سألني عنه جماعة كثيرة. والمراد بالوليد هو البحتري المذكور، وله قصيدة طويلة منها:

وعيرتني سجال لعدم جاهلةً والينع غير بانٍ، ما في فرعه ثمر

وهذا البيت هو المشار إليه في بيت المَعرّي.

سنة خمس وثمانين ومائتين

* فيها وثب صالح بن مدرك الطائيّ في طيىء[1]، فانتهبوا الركب العراقي وبدّعوا، وسبوا النساء وراح للناس ما قيمته ألف ألف دينار.

* وفيها مات الإمام الحبر أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشر ـ الحربي الحافظ أحد الأئمة الأعلام، وله سبع وثمانون سنة، سمع أبا نعيم وعفّان وطبقتهما، وتفقّه على الإمام أحمد، وبرع في العلم والعمل، وصنّف التصانيف الكثيرة، وكان يشبّه بأحمد بن حنبل في وقته.

توفي السنة المذكورة توفّي إمام أهل النحو في زمانه، صاحب المصنّفات النافعات: أبو العباس المبّرد محمد بن يزيد الأزدي البصري، أخذ عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني، وتصدر للاشتغال ببغداد. وكان وسيماً مليح الصّورة فصيحاً مفوّهاً أخبارياً علاّمة ثقةً، إماماً في النحو واللغة. وله التآليف النافعة في الأدب، منها (كتاب الكامل)، ومنها (الروضة)، و (المقتضب) وغير ذلك، وأخذ عنه نفطويه وغيره من الأئمة، وكان المبّرد المذكور أبو العباس الملقّب بثعلب ـ صاحب كتاب الفصيح ـ عالمين فاضلين متعاصرين، قد ختم بهما تاريخ الأدباء. وفيهما يقول بعض أهل عصرهما، وهو أبو بكر بن أبي الأزهر، أبياتاً من جملتها قوله:

أيا طالب العلم لا تجهلَنْ وعُذْ بالمبرّد أو ثعلب
تجد عند هٰذين علم الورىٰ فلا تَكُ كالجملِ الأجربِ
علوم الخلائق مخزونة بهذين في الشرق والمغربِ

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٦٠، ٦١: فيها قطع صالح بن مدرك الطائي الطريق على الحاج بالأَجْفُر في المحرم، فحاربه أمير القافلة. . . . فكان قيمة ما أخذوه ألفي ألف دينار.

قالوا: وكان المبرد يحبّ الاجتماع بثعلب للمناظرة والاستكثار من ذلك، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه.

وحكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلّي قال: قلت لأبي عبد الله الدينوري ختْنِ ثعلب: لم يأبىٰ ثعلبُ الاجتماع بالمبرّد؟ فقال: لأنّ المبرد حسن العبارة، حلو الإشارة، فصيح اللسان، وثعلب مذهبه مذهب المعلّمين، فإذا اجتمعا في محفل، حكم للمبرد على الظاهر، إلى أن يعرف الباطن. وكان المبرد كثير الأمالي حسن النوادر.

وحكي عن بعضهم أنه رأى المبرد في المنام، وجرى له معه قصة عجيبة. وذلك أنه كان عنده (كتاب الكامل) للمبرّد، و (كتاب العقد) لابن عبد ربّه، وهو يطالع فيها، قال: فرأيت في العقد في فصل ترجمته، قوله: ما غلط فيه على الشعراء، وذكر أبياتاً نسب أصحابها فيها إلى الغلط، وهي صحيحة. وإنما وقع الغلط ممّن استدرك عليهم لعدم اطّلاعه على حقيقة الأمر فيها، ومن جملة من ذكر المبرد فقال: ومثله قول محمد بن يزيد النحوي في كتاب الروضة، وردّه على الحسن بن هانىء، يعني أبا نواس، في قوله:

وما لبكر بن وائلٍ عصَمٌ   إلا بحمقائها وكاذبها

فزعم أنه بحمقائها رجلاً، ولا يقال في الرجل حمقاً، وإنما أراد (دُغَه) بضمّ الدال وفتح الغين المعجمة العجلية، وعجل في بكر، وبها يضرب المثل في الحمق. هذا كلام صاحب العقد، وغرضه أنّ المبرد نسب أبا نواس إلى الغلط، يتوهمه أنه قصد (هَبَنَّقَة) ـ بفتح الهاء والباء الموحدة والنون المشددة والقاف ـ وبه يُضرب المثل في الحمق، فيقال أحمق من هَبَنَّقَة، ولم يقصده وإنما قصد المرأة المذكورة، فالغلط حينئذ من المبرد لا من أبي نواس، قال: فلما كان بعد ليال قلائل من وقوفي على هذه الفائدة، رأيت في المنام كأنّا قد صلّينا الظهر، فلمّا فرغنا من الصلاة، قمت لأخرجَ، فرأيت شخصاً واقفاً يصلّي، فقال لي بعض الحاضرين: هذا أبو العباس المبرّد، فجئت إليه وقعدت إلى جانبه انتظر فراغه، فلمّا فرغ سلمت عليه وقلت له: أنا في هذا الزمان أطالع في كتابك الكامل، فقال لي: رأيتَ كتابي الروضةَ؟ فقلت: لا، وما كنت رأيته قبل ذلك. فقال: قم حتّى أريك إياه. وصعد بي إلى بيته، فرأيت فيه كتباً كثيرة، فقعد يفتّش عليه، وقعدت أنا ناحية عنه، فأخرج منه مجلّداً، فدفعه إليّ ففتحته وتركته في حجري، ثم قلتُ: قد أخذوا عليك فيه، فقال: أيّ شيء أخذوا؟ فقلت: إنك نسبْت أبا نواس إلى الغلط في البيت الفلاني، وأنشدته إياه، فقال: نعم، غلط في هذا! فقلتُ: إنه لم يغلط بل هو على الصواب، ونسبوك إلى الغلط في تغليطه. فقال: وكيف هذا؟ فعرّفته ما قاله صاحب العقد، فعضّ على رأس سبّابته، وبقي

باهتاً ينظر إليّ، وهو في صورته خجلانُ، ولم ينطق بشيء. ثم استيقظت من منامي، وهو على تلك الحال، قال: ولم أذكر هذا المنام إلا لغرابته.

وحكي أنه دخل على المبرّد رجل، فأراد القيام، فقال: أنشدك الله أبا العباس، إنْ قمت، قال: فلِمَ أخْبا قيامي؟ وأنشد:

إذا مـا بصـرنـا بـه مقبـلاً ٠ حللنـا الحبـا وابتـدرنـا القيـامـا
فـلا تنكـرون قيـامـي لـه فـإنّ الكـرام تجـلّ الكـرامـا

وكانت ولادة المبرد يوم الاثنين سنة عشر وقيل سبع ومائتين، وتوفي يوم الاثنين سنة خمس، وقيل ستّ وثمانين. فلمّا مات نظم فيه وفي ثعلب، ابنُ العلاّف.

ذهـب المبـرّد وانقضـت أيـامـه وليـذهبـن إثـرَ المبـرّد ثعلـبُ
بيـت مـن الآداب أصبـح نصفُـه حزباً وباقي بيت تلك سيخرب
فابْكوا لِما سلبَ الزمانُ ووطّنوا الـدهـر أنفسكـم علـى مـا يسلـبُ
وتـزوّدوا عـن ثعلـب فبكـأس مـا شـرب المبـرد عـن قـريـب يشـرب
وأرى لكـم أن تكتبـوا أنفـاسـه إن كـانـت الأنفـاس ممّـا يُكتـبُ

قلت: وهذه الألفاظ جميعاً لفظه، إلا لفظ «بيت تلك سيخرب» فإني أبدلته عن قوله: بيتها فسيخرب، كراهةً لإدخال الفاء في سيخرب، وإن كان مما يتجوز فيه، فإن وزان لفظة، نحو قولك: زيد قائم وأبوه فسيقوم، ووزان لفظي: قام زيد وأخوه سيقوم، وهذا هو الجائز على قاعدة العربية، والرجل والمرأة المذكوران المنسوب إليهما الحمق، قيل: لأنّ الرجل شرد له بعير، فقال: من جاء به فله بعيران. فقيل له: أتجعل في بعير بعيرين؟ فقال إنكم لا تعرفون حلاوة الوجدان. فنسب إلى الحمق لهذا السبب، فسارت به الأشعار، واكتسب بذلك اشتهاراً، واستشهدوا على ذلك بما أثرت حذفه اختصاراً. وأما المرأة فسبب نسبتها إلى الحمق أنها ولدت، فصاح المولود، فقالت لامرأة: أيفتح الجَعْرُ فاهُ؟ فقالت المرأة: نعم، ويسبّ أباه، فصارت مثلاً ـ والجعرُ بفتح الجيم وسكون العين المهملة ـ وهو في الأصل روث كلّ ذي مخلب من السباع، وقد يستعمل في غيرها بطريق التجوّز، فظنّت بجهلها ولدت، أنه قد خرج منها المعتاد، فلمّا استهلّ المولود عجبت من ذلك وسألت عنه. وكان سبب نسبتها إلى الحمق، وكانت مزوّجة من بني العنبر بن عمرو بن تميم. فبنو العنبر يُدْعون لذلك بني الجعَر. قال ابن خلّكان: وهذا كلّه، وإن كان خارجاً عن المقصود، لكنها فوائد غريبة، فأحببت ذكرها.

وفي السنة المذكورة ظهر بالبحرين أبو سعيد[1] القرمطي، وقويت شوكته، وانضمّ إليه جمعٌ من الأعراب والزّنج واللصوص، حتى تفاقم أمره، وهزم جيوش الخليفة مرّات، فعاث وأفسد، وقصد البصرة، فحصنها المعتمد قبل، وذُبح أبو سعيد المذكور في حمام بقصره، وخلفه ابنه أبو طاهر، وهو في الحقيقة أبو النجس القرمطي، الذي أخذ الحجر الأسود، ولم يرجع إلا بعد سنين كثيرة، وقيل بعد عشرين سنة.

* وفيها توفي علي بن عبد العزيز أبو الحسن اللغوي المحدّث بمكّة، وقد جاوز التسعين، سمع أبا نعيم وطبقته وعمّ البغوي عبد الله بن محمد.

سنة ست وثمانين ومائتين

* فيها وقيل في التي قبلها وقيل في التي بعدها[2] توفي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز، من أهل بغداد، صحب ذا النون وأبا عبد الله التُستَري والسري وَبشر أو غيرهم. قال رحمة الله عليه: كل باطن يخالفه ظاهره فهو باطل. وقال: رأيتُ إبليس في النوم وهو يمرّ عنّي ناحية فقلت: تعال، فقال: أي شيءٍ أعمل بكم؟ أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس. قلت: وما هو؟ قال: الدنيا. فلمّا ولّى عنّي التفت إليّ وقال: غير أنّ لي فيكم لطيفةً. قلت: وما هي؟ قال: صحبة الأحداث. وقال: صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف. قالوا: لم؟ قال: لأني كنت معهم على نفسي. وقال: مررت بشابّ ميت في باب بني شيبة، ونظرت في وجهه فتبسّم، فقلت: يا حبيبي. أحياةٌ بعد الموت؟ فقال: أما علمت يا أبا سعيد أنّ الأحباء أحياء، وإنما ينقلون من دار إلى دار. قيل: وهو أول من تكلّم في علم الفناء والبقاء. وقال الجنيد: لو طالبنا الله تعالى بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخرّاز لهلكنا. وقيل لبعض المشايخ: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً، وكان رضي الله تعالى عنه ينشد أبياتاً ترجمتها.

فأجسادهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
قلوبهم جوالة بمعسكرٍ	به أهل ودِّ اللّه، كالأنجم الزهرِ
فما عرسوا إلا بقرّب حبيبهم	وما عرجوا من مسّ بؤسٍ ولا ضرٍّ

وفي سنة الست المذكورة توفّي محمد بن وضّاح، محدّث قرطبة الإمام الحافظ.

---

(١) ذكر ابن الأثير في تاريخه أن ابتداء أمر القرامطة بالبحرين كان سنة ٢٨٦ هـ. انظر ٩٢/٦.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي ٢٧٥/٧/٦: له ترجمة طويلة في تاريخ دمشق، توفي سنة ست وثمانين ومائتين.

وقيل: في التي قبلها.

سنة سبع وثمانين ومائتين

* فيها قصدت طيِّىء ركبَ العراق في رجوعه من الحج ليأخذه كالعام الماضي، وكانوا في ثلاثة آلاف وأمير الحجاج أو الأغرّ فواقعوهم يوماً وليلة[1]، والتحم القتال، وجندلت الأبطال، ثم أيّد الله الوفد، وقتل رئيس طيىء صالح بن مدرك وجماعة من أشراف قومه، وأسر خلق، وانهزم الباقون، ثم دخل الركب بالأسرى - والرؤوس على الرماح - ببغداد.

* وفيها سار العباس الغنوي في عسكر، فالتقى[2] القرمطي، فأسر العباس وانهزم عسكره، وقيل: بل أسر سائر العسكر، وضُربت رقابهم، وأطلق العباس وحده، فجاء إلى المعتضد برسالة القرمطي أنْ: كُفّ عنّا، واحفظ حرمتك.

* وفيها توفّي الإمام الحافظ أبو بكر بن عمرو بن عاصم الضحاك الشيباني البصري قاضي أصبهان، صاحب المصنّفات. وأبو سعيد الهرويّ الحافظ، شيخ هراة ومحدّثها وزاهدها.

سنة ثمان وثمانين ومائتين

* فيها توفّي مفتي بغداد، الفقيه الإمام أبو القاسم عثمان بن سعيد البغدادي الأنماطيّ صاحب المزنيّ. وهو الذي نشر مذهب الشافعي ببغداد، وعليه تفقّه أبو العباس بن شُرَيح.

* وفيها توفي الحاسب الحكيم ثابت بن قُرّة الحرّاني. كان في مبتدأ أمره صيرفياً بحرّان، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل، فمهر فيها، وبرع في الطب، وكان الغالب عليه الفلسفة. وله تآليف كثيرة في فنون من العلم، مقدار عشرين تأليفاً. وهذّب (كتاب إقليدس) الذي عرّبه حنين بن إسحاق العباديّ، ونقّحه وأوضح منه ما كان مستعجَماً. وكان من أعيان عصره في الفضائل. وجرى بينه وبين أهل مذهبه أشياء، أنكروها عليه في المذهب، فرفعوه إلى رئيسهم، فأنكر عليه مقالته، ومنعه من دخول الهيكل، فتاب ورجع عن ذلك، ثم عاد بعد مدّة إلى تلك المقالة، فمنعوه من الدخول إلى المجمع، فخرج من حرّان، فلما قدم محمد بن موسى من بلاد الرّوم راجعاً إلى بغداد، اجتمع به، فرآه فاضلاً

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٩٨: فواقعوهم بالمعدن، وقاتلوهم يومين بين الخميس والجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٦/٩٤، ٩٥.

فصيحاً، فاستصحبه إلى بغداد، فأولد بها أولاداً. وكان له ولد سُمّي إبراهيم، بلغ رتبة أبيه في الفضل، وكان من حذّاق الأطباء، ومقتدى أهل زمانه في صناعة الطبّ، وعالج مرّة للسريّ الشاعر، فأصاب العافية، فعمل فيه أبياتاً، وهي أحسن ما قيل في طبيب:

هل للعليل سوى ابن قرّة شافي ... بعد الإلّه، وهل له من كافي
أحيىٰ لنا رسمَ الفلاسفة الذي ... أوْدى، وأوضح رسم طبّ عافي
مَثُلَتْ له قارورتي فرأى بها ... ما اكتنَّ بين جوانحي وشِغافي
يبدو له الدّاء الخفيّ كما بدا ... للعين بصراً من غدير الضافي

قلت: وقد ذكرت في أبياته بيتاً طغى فيه، حيث قال: وبئس ما قال.

فكأنّه عيسى ابن مريم ناطقاً ... يهب الحياة بأيسرِ الأوصاف

ومن حفدة ثابت المذكور: ثابت بن سنان بن ثابت بن قُرّة، وكان ببغداد في أيام معزّ الدولة ابن بابويه. وكان طبيباً عالماً نبيلاً يقرأ عليه كُتُبَ أبقراط وجالينوس، وكان فكّاكاً للمعاني، سلك مسلك جدّه في نظرة الطبّ والهندسة، وجميع الصناعات الرياضية للقدماء، وما تشتمل عليه الفلسفة. وله تصنيف في التاريخ أحسنَ فيه. وقد قيل إنّ الأبيات المذكورة أولاً من نظم الزنجّي السريّ، عملها فيه ـ والله سبحانه وتعالى أعلم. والحرّاني نسبة إلى حرّان، وهي مدينة مشهورة بالجزيرة. وذكر ابن جرير الطبريّ في تاريخه أن هاران عمّ إبراهيم الخليل صلّى الله عليه وآله وسلّم عمّرها، فسمّيت باسمه، ثم إنها عرّبت فقيل: حرّان. وهاران المذكور أبو سارة زوجة إبراهيم عليه السلام. وكان لإبراهيم أخٌ يسمّى هاران أيضاً، وهو أبو لوط صلوات الله على نبيّنا وعليه، وعلى جميع النبيين. قال في الصحاح: حرّان اسم بلد، وهو فعّال، ويجوز أن يكون فعلان، فالنسبة إليه حرناني، على غير قياس، والقياس حرّاني على ما عليه العامّة.

سنة تسع وثمانين ومائتين

* فيها توفّي المعتضد(١) أبو العباس أحمد بن الموفّق، ووليُّ عهد المسلمين أبو أحمد طلحة بن المتوكّل، جعفر بن المعتصم العباسي تغيّر مزاجه من إفراط الجماع، وعدم الحمية في مرضه.

قلت: وقد ذكرتُ في آخر المجلّد الثاني من كتاب المرهم شيئاً ممّا جرى له في مرضه

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/١٠٠: توفي في ربيع الآخر ـ ليلة الأثنين ـ لثمان بقين منه، وكان مولده في ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين ومائتين.

المذكور، وما عولج به، وما لاقى بعد إخراجه من التنور الموقَّدِ بحطب الزيتون. ولم يكن في اللبثِ فيه، ولا في ترك العود إليه بصبور، . من أجل اشتداد الحرِّفية، والبرد عند الخروج منه، فلمّا أعيد فيه لأن لموته الحضور ـ وبيان هذا وغيره أوضحته في الكتاب المذكور ـ وكان شجاعاً مهيباً حازماً فيه تشيّع.

* وفيها توفّي الحافظ حسين بن محمد العتابي النيسابوري، صاحب المسند والتاريخ.

* وفيها توفّي يحيى بن أيّوب العلاّف المصري، صاحب سعيد بن أبي مريم. والحافظ أبو جعفر صاحبُ سليمان بن حرب.

سنة تسعين ومائتين

* فيها حاصرت القرامطةُ دمشقَ، فقُتل طاغيتهم يحيى[١] بن زكرَويه بالزاي في أوله فخلفه أخوه الحسين صاحبُ الشامة، فجهّز المكتفي عشرة آلاف لحربهم، عليهم الأمير أبو الأغرّ في ألف نفس، فدخل حلب، وقيل تسعة آلاف. ووصل المكتفي إلى الرقة، وجهّز الجيوش إلى أبي الأغرّ، وجاءت من مصر العساكر الطولونية، فهزموا القرامطة، وقتلوا منهم خلقاً، وقيل: بل كانت الوقعة بين القرامطة والمصريين بأرض مصر، وإنّ القرمطي صاحبَ الشامة[٢] انهزمَ إلى الشام مرّ على الرحبة[٣]، وبقي ينهب ويسبي الحريم حتى دخل الأهواز. وكان زكرويه القرمطيّ يكذب ويزعم أنّه من آل الحسين بن علي رضي الله عنهما.

* وفيها دخل عبد الله الملقّب بالمهدي المغرب متنكّراً، والطلبُ عليه من كل وجه، فقُبض عليه متولّي سِجِلْماسة[٤]، وعلى ابنه، فحاربه أبو عبد الله السبعي داعي المهدي، فهزمه ومزّق جيوشه، وجرت بالمغرب أمورٌ هائلة، واستولى على المغرب المهدي المنتسب إلى الحسين بن علي، وكان باطلَ الاعتقاد، وهو الذي بنى المَهْدِيّة[٥] في المغرب.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ أبو عبد الرحمن، عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، كان إماماً خبيراً بالحديث وعلله، مقدّماً فيه.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٠٤، يحيى المعروف بالشيخ.
(٢) في المصدر السابق: وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية.
(٣) الرحبة: هناك أكثر من واحدة بهذا الاسم لعلّها: الواقعة قرب نهر الفرات أسفل قرقيسيا.
(٤) سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان. (معجم البلدان).
(٥) المهدية: مدينة في تونس على ساحل البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس.

سنة إحدى وتسعين ومائتين

* فيها نهض جيش من طرسوس، فأدخلوا في الروم حتّى نازلوا أنطاكية وافتتحوها عنوة، وقتلوا من الروم نحو خمسة آلاف، وغنموا غنيمة لم يعهد مثلها، بحيث بلغ سهم الفارس ألف دينار.

وأمّا القرمطيّ صاحب الشامة، فعظم خطبه، والتزم له أهل دمشق بمال عظيم، حتّى يرحل عنهم وتملّك حمص وصار إلى حماة والمعرّة[١] فقتل، فعظم خطبه، وسبى وعطف إلى بعلبك[٢]، فقتل أكثر أهلها، ثم سار فأخذ سَلَمْيَة[٣]، وقتل أهلها قتلاً ذريعاً، حتّى ما ترك بها عيناً تطرف. وجاء جيش المكتفي فالتقاهم بقرب حمص، وأسر خلقاً من جنده. وركب هو وابن عمُّه[٤] وآخر، واخترقوا ثلاثتهم البريّة، فمرّوا بدالية[٥] ابن طوق فأنكرهم والي تلك الناحية، فقرّرهم، فاعترفهم صاحب الشامة، فحملهم إلى المكتفي فقتلهم وحرقهم.

وفي السنة المذكورة توفّي الإمام علاّمة الأدب أبو العباس المشهور بثعلب، أحمد بن يحيى الشيباني، مولاهم الكوفي النحوي صاحب التصانيف المفيدة، انتهت إليه رئاسة الأدب في زمانه. (قال ابن خلّكان) في تاريخه: قال أبو بكر ابن المجاهد المقرىء: قال لي ثعلب: يا أبا بكر؛ اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغل أصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمر، وفَلّيت شعري ـ ماذا يكون حالي في الآخرة. قال: فانصرف من عنده، فرأيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في تلك الليلة في المنام، فقال لي: أقرىء أبا العباس عنّي السلام وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل. وقال العبد الصالح أبو عبد الله الرودباري: أراد أنّ الكلام به يكمل. والخطاب به يحمل، وإن جميع العلوم مفتقِرة إليه.

صنّف (كتاب الفصحاء) وهو صغير الحجم كثير الفائدة و (كتاب إعراب القرآن)، و (كتاب القراءات)، و (كتاب حدّ النحو)، و (كتّاب معاني الشعر) وغير ذلك، وهي بضعة عشر مصنّفاً. وكان إمام الكوفيين في النحو واللغة، سمع من ابن الأعرابي والزّبير بن

(١) معرّة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة بين حلب وحماة. (معجم البلدان).

(٢) بعلبك في معجم البلدان: مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، ومن جهة الساحل اثنا عشر فرسخاً. وتقع شرقي لبنان قرب الحدود السورية.

(٣) سلمية: هي بليدة من ناحية البريّة من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين. (معجم البلدان) وتقع شرقي حماة.

(٤) ابن عمّه: المدّثر، الآخر: المطوّق. انظر الكامل لابن الأثير ١٠٨/٦.

(٥) في المصدر السابق: فوجّه بعض أصحابه إلى الدالية المعروفة بابن طوق ليشتري لهم.

بكّار، وروى عنه الأخفش الأصغر وابن الأنباري وأبو عمر والزاهد وغيرهم. وكان ثقة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصادِقَ اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، مقداماً عند الشيوخ منذ هو حَدَثٌ. وكان ابن الأعرابي إذا شكّ في شيء قال له: ما تقول يا أبا العباس في هذا؟! لِغزارة حفظه. قال ابن الأخباري: أنشدني ثعلب.

إذا كنت قوّة النفس ثم هجرتها فلم تلبث النفس التي أنت قُوتها
ستبقى بقاء الضبِّ في الماء أو كما يعيش لدى ديمومة البيت حوتُها

قلت: هكذا حكاه عنه ابن خلّكان. والذي نعرفه: (لو كما يعيش ببيداء المفاوزة حوتها). وكان سبب وفاته أنه خرج يوم الجمعة من الجامع بعد العصر، وكان قد لحقه صمم لا يسمعُ إلا بعد تعب شديد، فكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق فصدمته فرس، فألقته في هوّة، فأخرج منها هو كالمختلط، فحمل إلى منزله وهو على تلك الحال، وهو يتأوّه من رأسه، فمات ثاني يوم. (والشيباني) نسبة إلى شيبان، حيّ من بني بكر بن وائل.

* وفيها توفّي مقرىء أهل دمشق هارون بن موسى المعروف بالأخفش صاحب ابن ذكوان، وفيها توفّي قنبل قارىء أهل مكّة عبد الرحمن المخزومي مولاهم المكّي.

سنة اثنتين وتسعين ومائتين

* فيها خرج صاحب[١] مصر هارون بن خمارويه الطولوني عن الطاعة، فسارت جيوش المكتفي بحربه، ووقعت لهم وقعات، ثم اختلف أمراء هارون واقتتلوا. فخرج ليسكّنهم فجاءه سهم، فقتله. ودخل الأمير محمد بن سليمان قائدُ جيش المكتفي، فتملّك الاقليم، واحتوى على الخزائن، وقتل من آل طولون بضعة عشر رجلاً، وحبس طائفة، وكتب بالفتح إلى المكتفي، وقيل إنّ هارون هَمَّ بالمضيِّ إلى المكتفي فامتنع عليه امراؤه وسجنوه، فأبى فقتلوه غيلة.

* وفيها توفّي أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله البصري الحافظ صاحب السنن ومسند الوقت، وقد قارب المائة أو كمّلها، وكان محدّثاً حافظاً محتشماً كبير الشأن، قيل إنه لما فرغوا من سماع السنن عليه عمل لهم مائدة، غرم عليها ألف دينار، وتصدّق بجملة منها. ولما قدم بغداد ازْدحموا عليه، حتّى حزر على مجلسه بأربعين ألفاً وزيادة. وكان في

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٠.

المجلس سبعة مبلغون، كل واحد يبلغ الآخر.

* وفيها توفي المقرىء المحدّث إدريس[١] بن عبد الكريم.

* وفيها توفّي محدّث واسط الحافظ أبو الحسين، أسلم بن سهل. وقاضي القضاة أبو خازم، عبد المجيد بن عبد العزيز الحنفيّ، من القضاة العادلة له أخبار ومحاسن. ولما احتضر كان يقول: يا ربّ من القضاء إلى القبر، ثم يبكي.

* وفيها توفي الإمام أبو العباس محمد بن أحمد الهروي، كان فقيهاً محدّثاً صاحب تصانيف. رحل إلى الشام والعراق وحدّث عن أبي حفص الفلّاس (بالفاء) وطبقته رحمه الله تعالى.

* وفيها توفي يحيى بن منصور، أبو سعيد الهروي، أحد الأئمة في العلم والعمل، حتّى قيل: إنه لَمْ يُرَ مثل نفسه، رحمه الله تعالى.

سنة ثلاث وتسعين ومائتين

* وفيها عاثت القرامطة بالشام، وقتلوا وسبوا وبدّعوا (بحَوران)، و (طبرية)، و (بصرة)[٢]، ودخلوا (السَمّاوة)[٣] وطلعوا إلى (هيت)[٤] واستباحوها، ثم وثبت هذه الفرقة الطاغية على زعيمها أبي غانم فقتلوه، ثم جمع رأْسُ القوم زكرويه جموعاً، ونازل الكوفة وقاتله أهلها، ثم جاءه جيش الخليفة فالتقاهم وهزمهم، ودخل الكوفة يصيح قومُه: يا ثاراتِ الحسين، يعنون: صاحب[٥] الحال الذي من شامة ولد زكرويه.

* وفيها توفّي عبدان بن محمد بن عيسى المروزي، وكان فقيهاً علّامة في الفقه وغوامضه، زاهداً عابداً.

* وفيها توفّي عيسى بن محمد المروزي اللغوي، كان إماماً في العربية، روى عن إسحاق بن راهويه، وهو الذي رأى بخوارزم المرأة التي بقيت نيّفاً وعشرين سنة لا تأكل ولا تشرب.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ١١١/٦: إدريس بن عبد الكريم أبو الحسن الحداد المقرىء، ولد سنة تسع وتسعين ومائة، ومات ببغداد يوم الأضحى وهو ابن تسعين سنة.

(٢) بصرة: مدينة في العراق قرب شط العرب.

(٣) السمّاوة: بلدة في جنوب العراق على نهر الفرات بين الكوفة والبصرة.

(٤) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار. (معجم البلدان).

(٥) في الكامل لابن الأثير ١١٤/٦: ودعوا يا لثارات الحسين ـ يعنون الحسين بن ركرويه المصلوب ببغداد ـ.

قلت: وذكر الشيخ المشكور الولي المشهور صفي الدين بن أبي المنصور، أنّ امرأة بجيزة مصرٍ أقامت ثلاثين سنة لا تأكل، ولا تشرب في مكان واحد، لا تتألم بحرٍّ ولا برد.

* وفيها توفي محمد بن أسد المديني، أبو عبد الله الزاهد، ويقال أنه مجاب الدعوة، عمّر أكثر من مائة سنة، رحمه الله تعالى.

* وفيها توفّي الحافظ محمد بن عبدوس.

سنة أربع وتسعين ومائتين

* وفيها أخذ ركبَ العراق زكرويه القرمطيُّ، وقتل الناس قتلاً ذريعاً، وحوى ما قيمته ألف ألف[1] دينار، وهلك من الحجيج عشرون ألف إنسان، ووقع البكاء والنَّوح في البلدان، وعظم هذا على المكتفي، فبعث الجيش لقتاله، فالتقوا فأسِرَ زكرويه وخلقٌ من أصحابه، وكان مجروحاً فمات، وأراح الله منه بعد خمسة أيام، وحمل ميتاً إلى بغداد، وقُتل أصحابه، ثم أحرقوا وتمزّق أصحابه في البرية.

* وفيها توفّي الحافظ الكبير أبو علي صالح بن محمد الأسدي البغدادي، محدّث ما وراء النهر، نزل بخارى، وليس معه كتاب، فروى به الكثير من حفظه، وروى عن سعدويه الواسطي، وعلي بن الجعد وطبقتهما، ورحل إلى الشام ومصر والنواحي، وصنّف وخرج وعدّل. وكان صاحب نوادر ومزاح.

* وفيها توفّي الإمام إسحاق بن راهويه، روى عن أبيه وعلي بن المديني.

* وفيها توفّي الحافظ أيوب بن يحيى البجلي الرازي محدّث الري يوم عاشوراء، وهو في عشر المائة.

* وفيها توفّي الإمام، أحد الأعلام محمّد بن نصر المروزي، وكان رأساً في الفقه والحديث والعبادة. روي أنّه كان يقع الذباب على أذنه ـ وهو في الصلاة ـ فيسيل الدمُ، ولا يذبّه، كان ينتصب كأنّه خشبة.

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: كان من أعلم الناس بالاختلاف، وصنّف كتباً، وقال شيخه في الفقه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: كان محمد بن نصر عندنا إماماً، فكيف بخراسان؟ وقال غيره: لم يك للشافعية في وقته مثله.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ١١٦/٦: وكان مبلغ ما أخذوه من هذه القافلة ـ القافلة الثالثة ـ ألفي ألف دينار

* فيها توفّي الإمام موسى بن هارون أبو عمران البغدادي الحافظ، كان إمام وقته في حفظ الحديث وعلله، وقال بعضهم: ما رأيت في حفّاظ الحديث أهيب، ولا أورع من موسى بن هارون.

سنة خمس وتسعين ومائتين

* فيها توفّي الحافظ أحد أركان الحديث إبراهيم بن أبي طالب النيسابوري. قال بعضهم: إنما أخرجت نيسابور ثلاثة: محمد بن يحيى، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبي طالب.

* وفيها توفّي إبراهيم بن معقل، قاضي نَسَف[1]، وعالمها ومحدثها، وصاحب التفسير والمسند، وكان بصيراً إماماً بالحديث، عارفاً بالفقه والاختلاف. روى الصحيح عن البخاري.

* وفيها توفّي الحكم بن معبد الخزاعي الفقيه، مصنّف (كتاب السنّة) بأصبهان[2]، وكان من كبار الحنفيّة وثقاتهم.

* وفيها توفّي أبو علي[3] بن عبد الله بن محمد الحافظ، أحد أركان الحديث، مصنّف التاريخ والعلل.

* وفيها توفّي المكتفي بالله ـ أبو الحسن علي بن المعتضد ـ أحمد بن موفق بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسي، وكان جميلاً وسيماً، بديع الخلقة، معتدل القامة، درّي اللون، أسود الشعر، استخلف بعد أبيه، وكانت دولته ستّ سنين ونصفاً، وولّي بعده أخوه المقتدر ـ وله ثلاث عشرة سنة وأربعون يوماً ـ ولم يلِ أمر الأمّة صبيّ قبله.

* وفيها توفّي عيسى بن مسكين ـ قاضي القيروان وفقيه المغرب ـ أخذ عن سحنون ـ وعن الحارث بن مسكين، وكان إماماً ورِعاً خاشعاً متمكّناً من الفقه والآثار، ومستجاب الدعوة يُشبّه بسحنون في سمته وهديه. أكرهه ابن الأغلب الأمير على القضاء، فولّي ولم يأخذ رزقاً، وكان يركب حماراً، ويستسقي الماء لبيته.

---

(١) جاء في معجم البلدات لياقوت الحموي: نسف: وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق، بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة من أهل العلم منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج بن خداش النسفي، كتب الكثير وجمع السنّة والتفسير... مات سنة ٢٩٤ هـ.

(٢) أصفهان أو أصبهان: مدينة في غربي إيران جنوب البحيرة المالحة.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٠: وفيها توفي الحسين بن عبد الله بن أحمد أبو علي الخرقي.

* وفيها توفّي الإمام أبو جعفر ـ محمد بن أحمد الترمذيّ ـ كبير الشافعية في العراق قبل ابن شُريح، وكان زاهداً ناسكاً، قانعاً باليسير. قال الدارقطني: لم يكن للشافعية بالعراق أرأس ولا أورع منه، وكان صبوراً على الفقر، حدّث عن جماعة كثيرة، منهم يحيى بن بكير المصري، وروى عنه جماعة، منهم أحمد بن كامل، وكان ثقة من أهل العلم والفضل، والزهد في الدنيا، والتقلّل في المطعم، على حال عظيمة فقراً وورعاً وصبراً. روى بالإسناد أنه كان يقوت في سبعة عشر يوماً خمس حبّات أو ثلاث حبّات، فقيل له: كيف عملت؟ فقال: لم يكن عندي غيرها، فاشتريت بها لفتاً، فكنت آكل كلّ يوم واحدة.

وذكر أبو إسحاق الزجاج النحوي أنه كان تجري عليه في كلّ شهر أربعة دراهم، وكان لا يسأل أحداً شيئاً، وكان يقول: تفقّهت على مذهب أبي حنيفة، فرأيت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في مسجد المدينة عام حججتُ فقلت: يا رسول الله، تفقّهت بقول أبي حنيفة، فآخذ به؟ فقال: لا، فقلت: آخذ بقول مالك بن أنس؟ فقال: خذ منه ما وافق سنّتي، قلت: فآخذ بقول الشافعي؟ فقال: ما هو يقوله. إلا أنه أخذ بسنّتي، وردّ عليّ من خالفها، قال: فخرجت في أثر هذه الرؤيا إلى مصر، وكتبت كتب الشافعي. هكذا ذكره جماعة من أهل الطبقات والتواريخ، منهم الشيخ الإمام أبو إسحاق الشيرازي، والقاضي الإمام ابن خلّكان.

وقال الدارقطني: هو ثقة مأمون ناسك. وكان يقول: كتبت الحديث تسعاً وعشرين سنة.

* وفيها توفّي الحافظ أبو بكر محمد بن إسماعيل الإسماعيلي، أحد المحدّثين الكبار بنيسابور. له تصانيف موجودة، ورحلة واسعة.

سنة ست وتسعين ومائتين

* فيها مات ابن المعتزّ[1]، مات مخنوقاً، وذلك أنّه لما دخلت هذه السنة، والملأ يستصعبون المقتدر، ويتكلمون في خلافته، فاتفق طائفة على خلعه، وخاطبوا عبد الله بن المعتزّ، فأجاب بشرط أن لا يكون فيها حرب. وكان رأسهم محمد بن داود الجرّاح، وأحمد بن يعقوب القاضي، والحسين بن حمدان، واتفقوا على قتل المقتدر، ووزيره العبّاس بن الحسين، وفاتك الأمير. فلما كان عاشر ربيع الأول، ركب الحسين بن حمدان والوزير والأمراء، فشدّ ابن حمدان على الوزير فقتله، فأنكر قتله فعطف على فاتِك فألحقه بالوزير، ثم ساق ليثلّث بالمقتدر وهو يلعب بالصوالجة، فسمع الهَيْعة فدخل الدار، وأغلقت الأبواب. ثم نزل ابن حمدان بدار سليمان بن وهب، واستدعى ابن المعتزّ، وحضر الأمراء

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ١٢١/٦، ١٢٢.

والقضاة سوى خواصّ المقتدر، فبايعوه ولقّبوه «الغالب بالله» وقيل: الراضي بالله، وقيل المرتضي بالله، فاستوزر ابن الجراح، واستحجب عن الخادم، ونفذت الكتب لخلافته إلى البلاد، وأرسلوا إلى المقتدر ليتحوّل من دار الخلافة، ولم يكن معه غير مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وخاله الأمير، وتحصّنوا، وأصبح الحسين بن حمدان على محاصرتهم، فرموه بالنشّاب، وتناحوا ونزلوا على خيمته، وقصدوا ابن المعتزّ، فانهزم كلّ من حوله، وركب ابن المعتزّ فرساً ومعه وزيره وصاحبه، وقد شهر سيفه وهو ينادي: معاشر العامة؛ ادعوا لخليفتكم. وقصد سامراء[1] ليثبّتَ بها أمره، فلم يتبعه كثيرُ أحدٍ، وخذل فنزل عن فرسه، فدخل دار ابنِ الجصّاص، واختفى وزيره، ووقع النهب والقتل في بغداد، وقتل جماعة من الكبار، واستقام الأمر للمقتدر. ثم أُخذ ابن المعتزّ وقتل سرّاً، سلمه المقتدر إلى مؤنس الخادم، فقتله وسلّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء، وصودِر ابن الجصّاص. وقام بأعباء الخلافة الوزير ابن الفرات، ونشر العدل، واشتغل المقتدر باللعب.

وأمّا الحسين بن حمدان فأصلح أمره، وبعث إلى بعض الولايات، وابن المعتزّ المذكور وهو أبو العبّاس عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسي. أخذ الأدب عن أبي العباس المبرّد وأبي العباس ثعلب وغيرهما، وكان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر، قريب المأخذ، سهل اللفظ، جيد القريحة، حسن الإبداع للمعاني، مخالطاً للعلماء والأدباء، معدوداً من جملتهم، إلى أن جرت له الكائِنة المذكورة في خلافة المقتدر، وله من التصانيف (كتاب الزهرة والرياض)، و (كتاب مكاتبات الشعر)، و (كتاب الجوارح)، و (كتاب الصيد)، و (كتاب السرقات)، و (كتاب أشعار الملوك)، و (كتاب الآداب)، و (كتاب حليّ الأخبار)، و (كتاب طبقات الشعراء)، و (كتاب الجامع في العلم)، و (كتاب فيه أرجوزة في ذمّ الصبوح). ومن كلامه: البلاغةُ البلوغُ إلى المعنى. وكان يقول: لو قيل لي ما أحسن شعرٍ تعرفه؟ لقلت: قول العباسَ ابن الأحنف:

قد سحب الناس أذيال الظّنون بنا ... وفرّق الناسُ فينا قولَهم فِرَقا
فكاذبٌ قَدْ رمى بالظنِّ غيركم ... وصادقٌ ليس يدري أنّه صدقا

ورثاه علي بن محمد بن بسام يقول:

للّهِ درُّه من ميتٍ بمضيعةٍ ... ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو، ولا لَوْلا فتنقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب

ولابن المعتز أشعار رائقة، وتشبيهات فائقة، من ذلك قوله:

---

(١) سامرّاء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي جبلة. (معجم البلدان).

كأنّا وضوء الصبح يستعجل الدّجى   نطير غراباً ذا قوادم جَون

ـ يعني بالجون ـ بفتح الجيم ـ الأبيض، ويطلق على الأسود أيضاً لأنه من أسماء الأضداد، فشبّه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوءُ الصباح بأشخاص الغربان، ثم شرط أن يكون قوادم ريشها بيضاً، لأن ذلك البياض يقع من الظلمة في حواشيها، من حيث يلي معظم الصبح. وعمودُه ولمعُ نوره يُتخيّل منها في العين كشكل قوادم بيض، وجعل ضوء الصبح، لقوّة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنّه يدفع الدّجى ويستعجله، ولا يرضى بأن يتمهّل في حركته.

* وفيها السنة المذكورة توفّي المحدّث أبو جعفر محمد بن حمّاد.

* وفيها توفّي أحمد بن يعقوب القاضي، أحد من قام في خلع المقتدر، احتساباً ذُبح[1] صبراً.

* وفيها توفي محمد بن داود بن الجرّاح الإخباري العلّامة، صاحب المصنّفات. وكان أوحد زمانه في معرفة أيام الناس.

سنة سبع وتسعين ومائتين

* فيها توفّي الحافظ ابن الحافظ ابن الحافظ: محمد بن أحمد بن زهير بن حرب. كان أبوه يستعين به في تصنيف التاريخ.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير إمام السالكين، وقدوة العارفين أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكّي، شيخ الصوفيّة، أحد الخمسة المقتدى بهم في زمانهم، الجامعين بين علم الباطن والظاهر، صاحب التصانيف في الطريقة، كبير الشأن في أسرار الحقيقة.

* وفيها توفّي الإمام البارع محمد بن داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري الفقيه أبو بكر، أحد أذكياء زمانه صاحب (كتاب الزهرة). تصدّر للاشتغال والفتوى. كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً ـ وكان يناظر أبا العباس بن سُريح. وسيأتي ذكر شيء من ذلك في ترجمة ابن شريح.

ولما توفي أبوه داود جلس في حلقته، وكان على مذهبه، فاستصغروه فدسُّوا إليه

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٨/ ٢٧٥، ٢٧٦: أحمد ين يعقوب أبو المثنى القاضي ـ أخذه المقتدر وقتله صبراً ـ ضرب عنقه ـ قتله مؤنس الخادم يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخرة.

رجلاً وقالوا: سَلْهُ عن حدّ السّكر، فسأله: متى يكون الإنسان داخلاً في حدّ السكرانِ؟ فقال: إذا ضربت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم، فاستحسنَ منه ذلك، وعلم موضعه من العلم.

قلتُ: وهذا الذي ذكره في حدّ السّكر هو الذي نقله أصحابنا عن الإمام الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ وإن اختلفا في بعض اللفظ والعبارة، فعبارة الشافعي: إنه الذي اختلّ كلامه المنظوم، وانكشف سرّه المكتوم.

وروى الشيخ الإمام أبو إسحاق بسنده في الطبقات: إنّ ابن داوُد المذكور جاءته امرأة فقالت له: ما تقول في رجل له زوجة، لا هو يمسكها، ولا هو يطلّقها؟ فقال: اختلف في ذلك أهل العلم، فقال قائلون: يؤمر بالصبر والاحتساب، وتبعث على التطلب والاكتساب. وقال قائلون: تؤمر بالاتفاق، ولا يحمل على الطلاق. فلم تفهم المرأة قوله، وأعادت مسألتها فقال لها: يا هذه، قد أجبتك عن مسألتك، وأرشدتك إلى طلبتك، ولست بسلطان فأمضي، ولا قاضٍ فأقضي، ولا زوج فأرضي، فانصرفت ولم تفهم جوابه.

وصنّف ابن داود كتابه (الزهرة) المذكور في عنفوان شبابه، وهو مجموع أدب أتى فيه بكلّ غريبة ونادرة وشعر رائق.

واجتمع يوماً، هو وأبو العباس بن شريح في مجلس الوزير ابن الجرّاح، فتناظرا في الإيلاء، فقال له ابن شريح: أنت تقول: مَنْ كُثرت لحظاته دامت حسراته، أبصر منك بالكلام في الآيلاء. فقال له ابن داود: لَئِن قلت ذلك فإنّي أقول.

أنـزّه فـي روض المحاسـن مقلتـي ... وأمنـع نفسـي أن تنـالَ مُحـرّمـا
وأحمـل مـن ثقـل الهـوى مـا لـو أنّـه ... يُصـبّ علـى الصخـر الأصـم تهـدّمـا
وينطـق طـرفـي عـن متـرجـم خـاطـري ... فلـولا اختـلاسـي وردّه لتكلّمـا
رأيـت الهـوى دعـوى مـن النـاس كلهـم ... فمـا أنْ حيّـا صحيحـاً مُسَلّمـا

فقال له ابن شريح: ولم تفخر عليَّ؟ ولو شئت أنا أيضاً لقلتُ:

وَمُسـامـرٍ بـالفتـح مـن لحظـاتـه ... قـد بـتُّ أمنعـه لـذيـذ سنـاتـه
ظنّـاً بحسـن حـديثـه وغنـائـه ... وأكـدر اللحظـات فـي وجنـاتـه
حتّـى إذا مـا الصبـح لاح عمـوده ... ولّـى بخـاتـم ربّـه وبـراتـه

فقال ابن داود: نحفّظ الوزير عليه ذلك حتّى يقيم شاهدي عدلٍ، أنه ولّي بخاتم ربّه، فقال ابن شريح: يلزمني في ذلك ما يلزمك في قولك.

أنـزّه فـي روض المحـاسـن مقلتـي وأمنـع نفسـي أنْ تنـال محـرّمـا

فضحك الوزير وقال: لقد جمعتم ظرفاً ولطفاً وفهماً وعلماً. انتهى.

قلت: فإن اعترض معترض وقال: لا يلزم ابن داود ما ادّعاه ابن شريح في قول ابن داود: (انزّه في روض المحاسن مقلتي) البيت، لأن الروض الحقيقي لا يلزم بالنظر إليه ارتكاب محرّم. قلت: القرينة دالّة من لفظه، على أنه لم يردْ بالروض حقيقته، وإنما أراد الاستعارة المجازيّة. والشاهدُ عليه قوله في عجز البيت: (وأمنع نفسي أن تنال محرّماً)، وهو مفهوم أيضاً من صدر البيت، أعني قوله: روض المحاسن، فأضاف الروض إلى المحاسن.

وكان ابن داود المذكور عالماً في الفقه، وله تصانيف عديدة منها: (كتاب الوصول إلى المعرفة الأصول)، و (كتاب الإنذار)، و (كتاب الأعذار)، و (كتاب الانتصار) على محمد بن جرير، وعبد الله بن سرسير، وعيسى بن إبراهيم الضرير وغير ذلك.

توفي - رحمه الله - يوم الاثنين تاسع شهر رمضان من السنة المذكورة، وعمرُهُ اثنان وأربعون سنة. وفي يوم وفاته توفّي القاضي يوسف بن يعقوب الأزدي.

قلت: ونقل ابن خلّكان عنه حكاية لا تصح، فإنه قال: ويُحكى أنّه لمّا بلغته وفاةُ ابن شريح، كان يكتب شيئاً، فألقى الكراسة من يده وقال: ما كنت أحثّ نفسي وأجهّزها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته. فإنّ ظاهر هذا اللفظ أنّ ابن داود هو الذي بلغته وفاة ابن شريح، فقال هذا القول، وهذا لا يصحّ لأن ابن شريح مات بعده في سنة ستّ وثلاثمائة، اللّهم إلاّ أنْ يكون أسقط الكاتب من اللّفظ شيئاً، أعني: قال: بلغت وفاته، بإثبات التاء قبل الهاء، فأسقطها الكاتب. ومع هذا فهو بعيد أيضاً لكونه يقتضي أن الإمام المنتجب الملقّب بالبازّ الأشهب أبا العباس بن شريح، ما كان يصنّف إلا لمناظرة ابن داود الظاهري. نعم يحكى عنه أنه لمّا مات تأسف كيف تأكل الأرض مثله. والله أعلم بذلك.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ ابن الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة.

* وفيها توفي القاضي يوسف بن يعقوب. كما تقدّم.

سنة ثمان وتسعين ومائتين

* فيها توفّي السيد الجليل الشيخ العارف محمد بن مسروق الطوسيّ، أستاذ الجنيد.

* وفيها توفّي أستاذ الطريقة؛ وحامل لواء الحقيقة، سيد الطائفة، تاج العارفين،

قطب العلوم أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري الخزّاز (بالخاء المعجمة والزاي المشددة المكررة) ـ قدس الله تعالى روحه. وقيل: سنة سبع، وقيل: ستّ. صحب خاله السري السقطي، والحارث بن أسد المحاسبي وغيرهما من جلّة المشايخ. وممّن صحبه من جلّة الأئمة وأعلام الأئمة أبو العباس بن شريح الفقيه الشافعي المنتخب في العلوم المقحم للخصوم. كان إذا تكلّم في الأصول والفروع بكلام يعجب الحاضرين يقول لهم: أتدرون من أين لي هذا؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد.

وأصل الجنيد من نِهاوَند[١]، ومولده ومنشأه العراق. وكان شيخ وقته وفريد عصره. وكلامه في الطريقة وأسرار الحقيقة مشهور مدوّن، تفقّه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وقيل بل كان فقيهاً على مذهب سفيان الثوري. وسئل عن العارف من هو؟ فقال: مَنْ نطق عن شركه وأنت ساكت، وكان يقول: مذهبنا هذا مقيد بالأصول والكتاب والسنّة.

ورؤي يوماً وفي يده سبّحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبّحة؟ فقال: طريق وصلت به إلى ربّي لا أفارقه. وقال: قال لي خالي السري: تكلّم على الناس ـ وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس ـ فإنّي كنت أتّهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت في المنام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكانت ليلة الجمعة. فقال لي: تكلّم على الناس، وأتيت باب السري قبل أن أصبح، فدققت الباب فقال لي: لم تصدق حتّى قيل لك. فقعدت في غدٍ للناس بالجامع، وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلّم على الناس، فوقف عليّ غلام نصرانيّ متنكّراً وقال: أيّها الشيخ؛ ما معنى قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله**»؟ فأطرقتُ ساعة ثم رفعت رأسي، وقلت له: أسلم فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

قلت: والناس يعتقدون أنّ في هذا للجُنَيْد كرامة، وأقول: فيه كرامتان:

إحداهما: اطّلاعه على كفر الغلام.

والثانية: اطّلاعه على أنه سيسلم في الحال.

وكل ذلك باطلاع الله تعالى له تفضيلاً وإكراماً وتخصيصاً وإنعاماً، وإن لم يكن ذلك مطرّداً، فقد يعطي الكرامةُ المفضولَ، ويمنع الفاضل وعن أبي القاسم الجنيد أنّه قال: ما انتفعت بشيء انتفاعي بأبيات سمعتها، قيل له: وما هي؟ قال: مررت بدرب القرّاطين، فسمعت جارية تغنيّ من دار فأنصتُّ لها، فسمعتها تقول:

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام. (معجم البلدان).

إذا قلتُ أبدى الهجر لي حلل البلا تقولين: لولا الهْجرُ لم يطبِ الحبُّ
وإنْ قلتُ هذا القلب أحرقه الهوى تقولي الهوى الذي تشرق القلب

فصفقت وصيّحت، فبينا أنا كذلك، إذا أنا بصاحب الدار قد خرج فقال: ما هذا يا سيدي؟ فقلت: ما سمعت، فقال: أشهد أنها هبة منّي لك، فقلت: وقد قبلتها وهي حرّة لوجه الله تعالى. ثم دفعتها لبعض أصحابنا بالرباط، فولدت له ولداً نبيلاً، ونشأ أحسن نشوء، وحجّ على قدميه ثلاثين حجّة على الوحدة.

وأخبار الجنيد كثيرة، ومناقبه شهيرة، وسيرته حميدة، وكراماته عديدة. قيل: توفّي آخر ساعة من نهار الجمعة، وقيل غير ذلك، ودفن بالشونيزية عند خاله السري. وكان عند موته قد ختم القرآن، ثم ابتدأ بقراءته، فقرأ سبعين آية من البقرة ثم مات. وإنما قيل له الخزّاز لأنّه كان يعمل الخزّ، وإنما قيل له القواريري: لأن أباه كان قواريريّاً.

قلت: وذكر بعضُ المشايخ أنّه لما صنّف عبد الله بن سعيد بن كلاب كتابه الذي ردّ فيه على جميع المذاهب قال: هل بقي أحد؟ قيل له: نعم بقي طائفة يقال لها الصوفية، قال: فهل لهم من إمام يرجعون إليه؟ قيل: نعم، الأستاذ أبو القاسم الجنيد. فأرسل إليه، فسأله عن حقيقة مذهبه، فردّ عليه الجنيد الجواب، بأنّ مذهبنا إفراد القِدم عن الحدث، وهجران الإخوان والأوطان، ونسيان ما يكون وما كان. فلما سمع ابن كلاب هذا الجواب تعجّب من ذلك وقال: هذا شيء، أو قال: كلام لا يمكن فيه المناظرة. ثم حضر مجلس الجنيد وسأله عن التوحيد، فأجابه بعبارة مشتملة على معارف الأسرار والحكم فقال: أعِدْ عليّ ما قلتُ، فأعاده لا بتلك العبارة، فقال: هذا شيء آخر. فأعده عليّ، فأعاده بعبارة أخرى فقال: ما يمكننا حفظ ما تقول، فأمْلِهِ علينا، فقال: لو كنت أجريه كنت أمليه، فقال بفضله واعترف بعلو شأنه. قلت: وإلى قوله: لو كنت أجريه كنت أمليه، أشرت على لسان صاحب الحال الجاري على لسانه كلام بغير اختيار على طريق التغزل بسلْمى، ويشبّهها حيث أقول حاكياً لكلام شيخنا، قدّس الله تعالى روحه. في حال غيبته بالحال الوارد عليه:

وما قلت قولاً، غير أنّي أعزْتها لساني، فأومت للهوى يتكلّم
فأسرارها منها علمتُ، وعندما شكرت جليسي سِرّها مِنْه يعلم

أعني: يعلم الجليس السرّ الجاري على لسان المتكلّم بواسطة الهوى المشار إليه بالتكلم من جهة المحبوب المكنّى عنه سلمى تُسْتَر.

وَرُوي عن بعض المشايخ الصوفية الجلّة أنه قال: قال لي الكعبي من كبار أئمة المعتزلة ـ رأيت لكم شيخاً ببغداد يقال له الجُنَيد، ما رأت عيني مثله، كانت الكتبة يحضرونه لألفاظه،

والفلاسفة لدّقة كلامه، والشعراء لفصاحته، والمتكلّمون لمعانيه وكلامه، ناء عن فهمهم. وكان ـ رضي الله تعالى عنه ـ من صغره منطقاً بالمعارف والحكم، حتّى أن خاله السري سُئِل عن الشكر ـ والجنيد يلعب مع الصفار ـ فقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال: الشكر أن لا تستعين بنعمة على معاصيه، فقال السري: ما أخوفني عليك أن يكون حظك في لسانك. قال الجنيد: فلم أزل خائفاً من قوله هذا حتّى دخلتُ عليه يوماً، وجئته بشيء كان محتاجاً إليه فقال لي: أَبْشِرْ فإني دعوت الله عز وجل أن يسوق لي ذلك على يد مفلح، أو قال: موفق، اللهم إنا نسألك التوفيق، ونعوذ بك من الخذلان والتعويق، بجاه نبيّك الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وعن الأستاذ أبي القاسم المذكور أنه قال: دخلت الكوفة في بعض أسفاري، فرأيت داراً لبعض الرؤساء، وقد سفّ عليها النعيم، وعلى بابها عبيد وغلمان، وفي بعض رواشتها جارية تغنّي وتقول:

ألا يــا دار لا يــدخُلْــكِ حُــزْنٌ ... ولا يعبــثُ بســاكنــك الــزمــانُ
فنعــمَ الــدارُ أنــتِ لكــلّ ضيــف ... إذا مــا الضيــفُ أعْــوزه المكــان

قال: ثم مررت بعد مدّة، فإذا الباب مسودّ، والجمع مبدّد، وقد ظهر عليها كآبة الذلّ والهوان، وأنشد لسان الحال:

ذهبــت محــاسنهــا وبــان شجــونهــا ... والــدهــرُ لا يُبقــي مكــانــاً ســالمــا
فــاستبــدلــت مــن أنسهــا بتــوحُّــشٍ ... ومــن الســرور بهــا عــزاء وَغمــا

قال: فسألت عن خبرها، فقيل لي: مات صاحبها، فآل أمرها إلى ما ترى. فقرعت الباب الذي كان لا يقرع، فكلمتني جارية بكلام ضعيف، فقال لها: يا جارية، أين بهجة هذا المكان؟ وأين أنواره؟ وأين شموسه؟ وأين أقماره؟ وأين قصاده؟ وأين زوّاره؟ فبكت، ثم قالت: يا شيخ؛ كانوا فيه على سبيل العلوية، ثم نقلتهم الأقدار إلى دار القرار، وهذه عادة الدنيا، ترحل من سكن فيها، وتسيء الى من أحسن إليها. فقلت لها: يا جارية، مررت بها في بعض الأعوام، وفي هذا الروشن جارية تغنّي: (ألا يا دار لا يدخلك حزن)، فبكت وقالت: أنا والله تلك الجارية، لم يبقَ من أهل هذه الدار أحد غيري، فالويل لمن غرّته دُنياه. فقلت لها: فكيف قربك القرار في هذا الموضع الخراب؟ فقالت لي: ما أعظم جفاءك؛ أما كان هذا منزل الأحباب؟ ثم أنشأت:

قــالــوا اتغنّــي وقــوفــاً فــي منــازلهــم ... وليــس مثلــك لا يغنّــي بحملهــا
فقلتُ والقلب قد ضجّت أضالعه ... والــروح تنــزع والأشــواق تبــدلهــا

منـازلَ الحـب فـي قلبـي معظّمـة وإن خلا من نعيم الوصل منزلها
فكيـف أتـركهـا، والقلـب يتبعهـا حبّاً لمـن كـان قبـل اليـوم ينـزلهـا

قال: فتركتها ومضيت، وقد وقع شعرها من قلبي موقعاً، وأزاد قلبي تولّعاً.

قلت: ومن العبر العظيمات ممّا يناسب هذه الحكاية في سرعة الممات أنها قُرِئَت عليّ هذه الترجمة لأبي القاسم الجنيد في منزلي، في بعض الليالي، وأنا حينئذٍ في المدينة الشريفة، وكانت زوجتي زينب بنت القاضي نجم الدين الطبري تسمع قراءتها، فذكرت في تلك الليلة شيئاً من هذه الحكاية، ممّا كان على ذهني منها. ثم أردت أن أكتبها، وألحقها بالترجمة المذكورة لنسمعها في ليلة أخرى زوجتي المشار إليها، فما تيسّرت كتابتها إلا اليوم الثالث من موتها، ولا قرأنا شيئاً من هذا التاريخ في بيتها سوى ليلة، وقد نزل مرض الموت بها ـ رحمها الله تعالى وأنزلها داراً خيراً من دارها.

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الشهير أبو عثمان الحِيرِي (بكسر الحاء المهملة والراء وسكون الياء المثناة من تحت بينهما) سعيد بن إسماعيل، شيخ نيسابور في زمانه، وواعظها وكبير الصوفية بها. صحب الشيخ الكبير الجليل أبا حفصٍ النيسابوري، وكان كبير الشأن مجاب الدعوة.

سنة تسع وتسعين ومائتين

* فيها توفّي شيخ نيسابور، أبو عمرو الخفّاف، أحمد بن نصر الحافظ الزاهد. سمع إسحاق بن راهويه. وقال ابن خُزيمة يوم وفاته: لم يكن بخراسان أحفظ للحديث منه.

* وفيها توفّي أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان البغدادي النحوي، صاحب التصانيف في القراءة والغريب والنحو. وكان أبو بكر بن مجاهد يعظّمه ويطْريه ويقول: هو أنحى من الشيخين. يعني ثعلباً والمبرّد.

سنة ثلاث مائة

* فيها توفّي[1] صاحب الأندلس: أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي. وكانت دولته خمساً وعشرين سنة. ولي بعد أخيه المنذر، وكان ذا صلاح وعبادة وعدل وجهاد، يلتزم الصلوات في الجامع، وله غزوات كبار، أشهرها غزوة ابن حفصون، وكان ابن حفصون في ثلاثين ألفاً، وهو في أربعة

---

(١) في الكامل لابن الأثير ١٤٣/٦: توفي في ربيع الأول وكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وخلف أحد عشر ولداً ذكراً.

عشر ألفاً، فالتقيا فانكسر ابن حفصون، وتبعه عبد الله يأسر ويقتل حتّى لم ينجُ منهم أحدٍ وكان ابن حفصون من الخوارج.

* وفيها توفّي أبو الحسن علي بن سعيد العسكري، أحد أركان الحديث. وأبو الحسين مسدد بن قطن النيسابوري. قال الحاكم: كان مربي عصره، والمقدّم في الزهد والورع.

* وفيها توفّي أبو أحمد يحيى بن عليّ المعروف بابن[1] المنجّم. كان أوّل أمره نديم الموفّق طلحة بن المتوكل على الله، وكان الموفق نائباً عن أخيه المعتمد على الله، ولم يلِ الخلافة، ثم نادم يحيى المذكور الخلفاءَ بعد الموفّق، واختصّ بمنادمة المكتفي بالله، وعلت رتبته عنده، وتقدّم على خواصه وجلسائه. وكان متكلماً معتزليّ الاعتقاد، وله في ذلك كتب كثيرة. وكان له مجلسٍ يحضره جماعة من المتكلّمين بحضره المكتفي، وله مع المعتضد وقائع ونوادر. من ذلك أنه قال: كنت يوماً بين يَدْي المعتضد، وهو مغضب، فأقبل بدرٌ مولاه وهو شديد الغرام به، فلمّا رآه من بعيد ضحك وقال: يا يحيى؛ مَن الذي يقول من الشعراء:

في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب، وجيه حيث ما شفعا

فقلت: يقوله الحكم بن عمر والشاري. فقال: لله درّه، أنشدني هذا الشعر، فأنشدته:

وَيْلي على من أطار النوم فامتنعا ... وزاد قلبي على أوداجه وَجَعَا
كأنّما الشمس في أعطافه لمعت ... حُسناً أو البدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإنْ كثرت ... منه الذنوب، ومعذورٌ متى صنعا
في وجهه شافع يمحو إساءته ... من القلوب، وجيه حيث ما شفعا

وفي حدود الثلاث مائة توفّي أحمد بن يحيى[2] الراوَندي الملحد. وكان يلازم الرافضة والزنادقة، قال ابن الجوزي: كنت أسمع عنه العظائم حتّى رأيت في كتبه ما لم يخطر على قلب أن يقوله عاقل، فمن كتبه: (كتاب نعت الحكمة)، و (كتاب قضيب الذهب)، و (كتاب الزمرّد)، وقال ابن عقيل: عجبي كيف لم يُقتل، وقد صنّف (الدامغ) يدمغ به على القرآن، و (الزمرّدة) يزري به عيب النبوات!!!

---

(١) قي الكامل لابن الأثير ٦/ ١٤٤: في ربيع الآخر توفي يحيى بن علي بن يحيى المنجم المعروف بالنديم.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٨/ ٢٣٢: أحمد بن يحيى بن إسحاق ابن الراوندي، أبو الحسن، من أهل مرو الروز... وقيل هلك سنة ثمان وتسعين ومائتين.

وذكر بعضهم أنّ له من التصانيف ما ينيف على مائة مصنّف. قلت: والمشاهير من أهل الحقّ ينقلون عنه في كتب الأصول أشياء ينسبونه فيها إلى الزندقة والإلحاد، فلا اعتبار لمن يمدحه بالفضائل كابن خلكان وغيره.

سنة إحدى وثلاث مائة

* فيها قُتل أبو سعيد القرمطي، صاحب هَجَر[١] قتله خادم في الحمّام (روادة)[٢]، ثم خرج فاستدعى رئيساً من خواصّ أبي سعيد القرمطي، فقال: السيدُ يطلبك، فلمّا دخل قتله، ثم آخر، ثم آخر كذلك، حتّى قتل أربعة، يستدعيهم واحداً بعد واحد، ثمّ صاح النساء، فتكاثر الناس على الخادم، فقتلوه. وكان هذا الملحد قد تمكّن وهزم الجيوش، ثم هادنه الخليفة، واسمه الحسن بن بهرام.

* وفيها سار عبد الله المهدي المتغلّب على المغرب على أربعين ألفاً ليأخذ مصر، حتّى بقي بينه وبين مصر مسيرة أيّام، فحجز أمير مصر النيل، وحال الماءُ بينه وبين مصر، ثم جرت بينهم وبين جيش المقتدر حروب، فرجع المهدي إلى بَرْقَة[٣]، بعد أن ملك الإسكندرية والفَيْوم[٤].

* وفيها توفّي الحافظ العلاّمة جعفر بن محمد أبو بكر صاحب التصانيف. وكان من أوعية العلم.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده العبدي الأصبهاني، جد الحافظ الكبير محمد بن إسحاق بن منده.

* وفيها توفّي الأمير علي بن أحمد الراسي، أمير جُنْد يسابور[٥]، وخلّف ألف فرس وألف ألف دينار أو نحو ذلك.

* وفيها توفي البشامي علي بن محمد الشاعر المشهور. كان من أعيان الشعراء ومحاسن الظرفاء لَسناً مطبوعاً في الهجاء. قالوا: لم يسلم منه أمير ولا وزير ولا صغير ولا

---

(١) هجر: وهي قصبة بلاد البحرين، بينه وبين سرّين سبعة أيام. (معجم البلدان).

(٢) في الكامل لابن الأثير ١٤٧/٦: قتله خادم له ـ صقلبي ـ في الحمّام، أراده على فاحشة، فخنقه الخادم.

(٣) بَرْقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى ـ بين الاسكندرية وإفريقية. (معجم البلدان).

(٤) الفيوم: هي ولاية غربية، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، بينهما مفازة لا ماء فيها ولا مرعى، وهي منخفض من الأرض. (معجم البلدان).

(٥) جند يسابور: مدينة بخوزستان، بناها سابور بن أزدشير. (معجم البلدان).

كبير، حتّى وقع ذلك منه في أبيه وإخوته وسائر أهل بيته. ونقلوا في ذلك أشعاراً ومن شعره في غير الهجاء قوله:

وكانت بالسّراةِ لنا ليالٍ سرقناهن من رِيبِ الزمانِ
جعلناهنّ تاريخ الليالي وعنوان المسرّة والأمانِ

ومن قوله في هجاء بعض الكتّاب:

تعسَ الزمانُ لقد أتى بِعُجاب وَمَحَا رُسُومَ الظّرفِ والآدابِ
وأتى بكتّاب لو انبسطت يدي فيهم ردَدتُهم إلى الكُتّابِ

ودخل وزير المعتضد، والمعتضد يُنشدُ هجاء فيه، فلمّا رآه المعتضد استحيىٰ منه وقال: اقطعْ لسان ابن بشام. فخرج الوزير مبادراً لقطع لسانه، فاستدعاه المعتضد وقال: اقطع لسانه بالبّر والشغل، ولا تعرض له بسوء، فولاهُ البريد وبعض الأعمال والبشاميّ نسبة إلى الجَدّ والهِجاءُ الذي دخل الوزير، والمعتضد يُنشدُه هو:

قلْ لأبي القاسم المروزي قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو الشّين والمعائب
حياةُ هذا كموتِ هذا فليس تخلو مِن المصائب

يعني بأبي القاسم: أبا الوزير المذكور، وكان قد مات له ابن هو أخو الوزير. والمعنى أن حياة الوزير مصيبة، كما أنّ موت أخيه مصيبة.

* وفيها توفّي الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر، المعروف بابن الفرات. وكان وزير بني الأختل بمصر مدّة إمارة كافور، وبعد وفاة كافور. وكان عالماً ومحبّاً للعلماء، وحدّث عن محمد بن هارون الحضرمي وطبقته، وعن جماعة آخرين، وكان يُملي الحديث بمصر، وهو وزيره، وقصده الأفاضل من البلدان الشاسعة، وبسببه سار الحافظ أبو الحسن الدارقطني من العراق إلى مصر، ولم يزل عنده حتّى فرغ من تأليف مسند، وله تأليف في أسماء الرجال والأنساب وغير ذلك. ومدحه المتنبي مع كافور، وكان كثير الخير إلى أهل الحرمين. واشترى بالمدينة داراً ليس بينها وبين الضريح النبوي سوى جدار واحد، وأوصى أن يُدفن فيها، وقرّر مع الأشراف ذلك، ولمّا مات حمل تابوته، وخرجت الأشراف إلى لقائه وفاءً بما أحسن إليهم، وحجّوا به وطافوا، ووقفوا، ثم ردّوه إلى المدينة، ودفنوه بالدار المذكور، وقيل: دُفِن بالقَرَافة، وعلى قبره مكتوبٌ اسمه.

سنة اثنتين وثلاث مائة

* فيها عاد المهديّ إلى الاسكندرية، فوقعت وقعة كبيرة، قتل فيها نائبه، فردّا إلى القيروان.

* وفيها أخذت طَيِّء الركب العراقي، وتمشرق الوفد في البرية، وأسروا من النساء مائتين وثمانين[1].

* وفيها توفّي العلاّمة فقيه المغرب أبو عثمان بن حدّاد الإفريقي المالكي. أخذ عن سحنون وغيره. برع في العربية والنظر. ومالَ إلى مذهب الشافعي، وجعل يسمّي المدوّنة المزوّرة، فهجره المالكية، ثم أحبّوه لما قام على أبي عبد الله السيفي، وناظره ونصر السنّة.

* وفيها توفّي العلاّمة أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأصبهاني، إمام جامع أصبهان، أحد العباد والحفّاظ.

سنة ثلاث وثلاث مائة

* فيها توفّي الحافظ أحد الأئمة الأعلام، صاحب المصنّفات، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي، إمام عصره في الحديث، وله كتاب السنن وغيره، سكن مصر وانتشرت بها تصانيفه، وأخذ عنه الناس، وخرج إلى دمشق، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأسٍ حتّى يفضّل؟ وفي رواية أخرى: ما أعرف له فضيلة إلاّ: لا أشبع بطنك. وكان يتشيّع، فما زالوا يدفعون في خطبته حتّى أخرجوه من المسجد. وفي رواية أخرى: يدفعون في خطبته، وداسوه، ثم حمل إلى الرّملة فمات بها.

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: لما امتحن النسائي بدمشق قال: احملوني إلى مكّة، فحمل إليها فتوفّي بها. وهو مدفون بين الصفا والمرْوَة، وقال الحافظ أبو نعيم: لما داسوه بدمشق مات بسبب ذلك الدّوس وهو مقتول.

قال: وكان قد صنّف (كتاب الخصائص) في فضل عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وأهل البيت. فقيل له: ألا تصنّف كتاباً في فضائل الصحابة؟ فقال: دخلت دمشق، والمنحرف عن عليّ كثيرٌ، فأردت أن يهديهم الله تعالى بهذا الكتاب، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان موصوفاً بكثرة الجماع.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/١٥٠: في دي الحجة خرجت الأعراب من الحاجر على الحجاج فقطعوا عليهم الطريق وأخذوا من العين وما معهم من الأمتعة والجمال ما أرادوا، وأخذوا مائتين وخمسين امرأة.

قال الحافظ ابن عساكر: كان له أربع زوجات، يقسم لهنّ وجواري، وقال الدارقطني: أدرك الشهادة، وتوفيّ بمكّةٍ ونسبته إلى نَسَا[١] مدينةٍ بخراسان.

* وفيها توفّي الحافظ الكبير أبو العباس الحسين بن سفيان الشيباني بفقّه على أبي ثور. وكان يفتي بمذهبه قال الحاكم: كان محدّث خُراسان في عصره، مقدّماً بالثبت والكثرة والفهم والأدب.

* وفيها توفّي أبو علي الجبائي، محمد بن عبد الوهاب، شيخ المعتزلة.

* وفيها توفّي يموت[٢] بن المزرع بن يموت العبدي البصري، قال الخطيب هو ابن أخت أبي عثمان الجاحظ، قدم يموت المذكور بغدادَ في سنة إحدى وثلاث مائة، وهو شيخ كبير، وحدّث بها عن أبي عثمان المازني، وأبي حاتم السجستاني، وجماعة كثيرة. وروى عنه أبو بكر الخرائطي، وأبو بكر بن مجاهد المقرىء، وأبو بكر الأنباري وغيرهم. وكان أديباً أخبارياً، وله ملح ونوادر، وكان لا يعود مريضاً خوفاً من أن يُتطير من اسمه، وكان يقول: بُليتُ بالاسم الذي سمّاني به أبي فإذا عدتُ مريضاً فاستأذنتُ عليه، فقيل: مَنْ هذا؟ قلت: أنا ابن المُزرَّع، وأسقطت اسمي. وقيل إنه كان قد سمّى نفسه محمداً، ومدحه منصور بن الضرير فقال:

أنت تجيء والذي ... يكره أنْ تجيء يموت

أنت ضوء النفس بل ... أنت لروح النفس قوت

أنت للحكمة بيت ... لا خلتْ منك البيوت

ومن أخباره ما رووه عن الأصمعي قال: كنت عند الرشيد، وقد أُتي بعبد الملك بن صالح العباسي، وهو يزفل في قيوده. فلمّا نظر الرشيد إليه قال: هيه يا عبد الملك؛ كأنّي والله أنظر إلى شؤبوبها قد همع وإلى عارضها قد تبلع، وكأنّي بالوعيد أقلع عن براجم بلا عاصم، ورؤوس بلا عاصم، مهلاً مهلاً بني هاشم، فتى والله سهّل لكم الوعر، وصفّى لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتها، فخذوا حذاركم منّي قبل حلول داهية، خبوط باليد والرجل.

قال عبد الملك: أفرداً أتكلّم أم توأماً؟ قال: بل توأماً، فقال: اتّقِ الله يا أمير المؤمنين

(١) نسا: وهي مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام. (معجم البلدان).

(٢) في الكامل لابن الأثير ١٥٢/٦: يموت بن المزرع العبدي، أبو بكر، من عبد القيس ـ وهو ابن اخت الجاحظ جاء من البصرة إلى بغداد ثم قدم دمشق ثم سكن طبرية.

فيما ولاّك، وراقبه في رعاياك التي استرعاك، فقد سهلت والله لك الوعور، وجمعت على خوور، وَرجا بك الصدور. وكنت كما قال أخو جعفر بن كلاب: ومقام ضيّق فرّجته بلسان وبيان، وجدل لو يقوم القيل أو قياك في مقام كمقامي لرجل، أو قال: نفسك فأراد يحيى بن خالد البرامكيّ أن يضع مقدار عبد الملك عند الرشيد فقال له: بلغني أنك حقود، فقال عبد الملك: إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشرّ عندي فإنّهما لباقيان في قلبي، قال الأصمعي: فالتفت الرشيد إليّ وقال: يا أصمعي؛ والله لو نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً، يمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله.

ومما روى يموتُ أيضاً أن أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن المدبّر الكاتب كان إذا مدحه شاعر، ولم يرض شعره قال لغلامه: امضِ به إلى المسجد ولا تفارقه حتّى يصلّي مائة ركعة، ثمّ أطلقه. فتحاماه الشعراء من الأفراد المجيدين، فجاءه أبو عبد الله الحسن بن عبد السلام المعروف بالجمل؛ فاستأذنه في النشيد فقال: قد عرفت الشرط؟ قال: نعم، ثم أنشده.

أردنا في أبي حسنٍ مديحاً	كما بالمدح يُنتجع الولاةُ
فقلنا: أكرمُ الثقلَيْن طرّاً	ومن كفّاه دجلةُ والفراتُ
فقالوا: يقبل المدحاتِ لكن	جوائزُه عليهنّ الصلاةُ
فقلت لهم: وما تغني صلاتي	عِيالي إنما الشأن الزكاةُ
فتأمرني بكسر الصاد منها	وتصبح لي الصلاة هي الصِّلاتُ

فضحك ابن المدبّر واستطرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ فقال: من قول أبي تمّام الطائي:

هنّ الحمام وإن كسرتَ عناقه	من جابهنّ فإنّهنّ حمام

فاستحسن ذلك، وأحسن صلته، وحدّث ابن المزرّع أيضاً عن خاله أبي عثمان الجاحظ أنّه قال: طلب المعتصم جارية كانت لمحمود بن الحسن الشاعر المعروف بالورّاق ـ وكانت تسمّى بشنوى، وكان شديد الغرام بها، وبذل في ثمنها سبعة آلاف دينار، فامتنع محمود من بيعها، لأنّه كان يهواها أيضاً. فلمّا مات محمود بِيعت الجارية للمعتصم من تركته بسبعمائة دينار، فلمّا دخلت عليه قال لها: كيف رأيتِ تركتك حتّى اشتريتك من سبعة آلاف دينار بسبعمائة دينار؟ فقالت: أجل. إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريثَ فإنَّ سبعين ديناراً لكثيرةٌ في ثمني، فضلاً عن سبعمائة، فخجل المعتصم.

وقال ابن المزرّع: حدثني مَنْ رأى قبراً بالشام عليه مكتوبٌ: لا يغترّن أحد بالدنيا،

فإنّي ابن مَنْ كان يُطْلِق الريح إذا شاء ويحبسها. وبحذائه قبرٌ عليه مكتوب: كذب الماصّ بظر أمّه. لا يظنّ أحد أنه ابن سليمان بن داود عليه السلام، إنّما هو حدّاد يجمع الريحَ في الزقّ، ثم ينفخ بها الجمرَ. . قال: فما رأيت قبرين قبلهما يتشابهان. قلت: وفي هذا المعنى خطر لي وقتَ وقوفي عليه إنشاء بيت على طريق اللغز معيّراً بارتحاله عن لسان حاله نائباً عنه في مقاله:

أنا ابن الذي للريح يُمسِكُ إن يَشَا ... وَيرسلها إن شاء للنفع ثارَها

وممّا يناسب هذا مقالُ اثنين، مشهورٌ لغزهما، ضمّنته نظماً وآخرين اخترتهما لغزاً لفظاً ومعنىً، وعن لغز الأربعة أشرت في بعض القصيدات بهذه الأبيات.

من اللغز قول اثنين كلّ مجاوب ... لبعض ولاة ناظماً مترفّعا
أنا ابن الذي ذلّت رقاب الورى له ... ومخزومها منهم وهاشِمُها معا
إلى نحوها تأتي لأمرٍ مطيعةً ... فمرد بها والمال يأخذ خضّعا
وقال الفتى الثاني له في جوابه ... وقد شام برق المجد مِنْ ذاك شَعشعا
أنا ابنُ الذي لا ينزل الأرض قدرُهُ ... وإن نزلت تغلو وتعلا بمشبعا
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... وقد مَلَؤُوا الرحبَ الفسيحَ الموسّعا
وخذ ثالثاً قال اعتزّ متفاخِراً ... لمجد وجد كي يُصانَ ويُرفعا
أنا ابن الفتى دبّاج كلّ سمينةٍ ... ومزهق أرواحٍ تماض مصرّعا
ومفنٍ بشجعان القرون محصّنَا ... لسفرك أقران التسفك ضجّعا
ورابعهم قال افتخار أمّنا هيا ... بأصلٍ وفصل للسناء مُتطلّعا
أنا ابن الذي يكسو الأنامَ صنيعه ... بها وزَيُّنا مَنْ له الغير صَنّعا
يوصل وقطع مبرم في فعاله ... لما لم يصلْ في الدهر غير ويقطعا
عن الأوّلين استنجزوا وترحّلوا ... وقد سمعوا المجد الأثيل المرفّعا
فقيل ابن حجام وطباخ اعتزل ... إلى المجد كلّ باحتيالٍ ليخدعا
وقل ثالثاً يحل الجزّار فرية ... ومِنْ حائكٍ مَنْ للثلاثة رَبّعا

أعني أنّ الأولين وردا على بعض الولاة، فسألهما عن أصلهما، فأجابا بالجوابين المذكورين اللذين بين كثير من الناس مشهورين. ثم عبّرتُ عن مقالهما بنظمي المذكور، ثم أنشأت على وجه الاختراع لغزاً لاثنين آخرين ليس له عند أحد من الناس سماع، وأشَرْتُ إلى ذلك بقولي: (وخذ ثالثاً إلى الآخر)، ثم أوضحت وصف الأربعة يكون الأوّلين ابنَي حجّام وطبّاخ، والآخرين ابنيّ جزّار وحائك. وقصيدتي المذكورة هي الموسومة بنزهة النظّار، مشتملة على ستة من العلوم، ثم شرحتها شرحاً موسوماً بمنهل الفهوم المرويّ من صدى

الجهل المذموم في شرح ألسِنة العلوم، وهي المعاني والبيان والبديع والعروض والقافية والسلوك، أعني سلوك منازل الطريقة للسائرين إلى الحضرة من أولي الحقيقة.

سنة خمس وثلاث مائة

* فيها قدم رسول[١] ملك الروم يطلب الهدنة، فاحتفل للمقتدر بجلوسه له، وأقام الجيش بالسلاح، وكانوا مائة وستين ألفاً. ثم الغلمان وكانوا سبعة آلاف، وكانت الحجّاب سبعْ مائة.. وعلّقت ستور الديباج، وكانت ثمانية وثلاثين ألف ستر من البسط وغيرها، وممّا كان في الدار سبعمائة سلسلة. ثم أدخل الرسول دار الشجرة، وفيها بركة وفيها شجرة لها أغصان عليها طيور مذهّبة، وورقه ألوان مختلفة، وكلّ طائر يصفّر لوناً بحركات مصنوعة، ثم أُدخِل الفردوس، وفيها من الفرش والآلات ما لا يقوم. قلت: هذه التّسمية بالفردوس تشبيهاً بما سمّاه الملك القدّوس من الضلال وطغيان النفوس.

وفي السنة المذكورة توفّي مسند العصر أبو حنيفة[٢] البصري الجمحي الفضل بن الحباب، وكان محدّثاً متقناً أخبارياً عالماً.

سنة ست وثلاث مائة

* فيها أو قبلها: أمرّت أم المقتدر في أمور الأُمّة، ونهت لركالة حال ابنها، فإنّه لم يركب للناس ظاهراً منذ استخلف إلى سنة إحدى وثلاث مائة، ثمّ ولّي ابنه عليّاً إمرة مصر وغيرها، وهو ابن أربع سنين، وهذا من الوهن والخلل الذي دخل على الأمة. ولما كان في السنة المذكورة أمرت أمّه القهرمانة أن تجلس للمظالم، وتنظر في القصص كلّ جمعة بحضرة القضاة، وكانت تبرز التواقيع عليها خطّها.

* وفيها أقبل القائم محمد بن المهدي صاحب المغرب في جيوشه، فأخذ الاسكندريّة وأكثر الصّعيد، ثم رجع.

* وفيها توفي القاضي الفقيه الإمام، علم الأعلام، الطراز المذهّب الملقب بالباز الأشهب، حامل لواء مذهب الشافعي وناشره، ومؤيده في زمانه وناصره، أبو العباس أحمد بن عمر بن شريح[٣]، شيخ الشافعية، فقيه في زمانه، صاحب التصانيف الكثيرة

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/١٥٨: في هذه السنة ـ في المحرم ـ وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/١٥٩: الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب أبو خليفة الجمحي البصري.. ولد سنة ست ومائتين ـ اسم أبيه عمرو ولقبه الحباب.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٧/٢٦٠: ابن سريج: أحمد بن عمر بن سريج القاضي أبو العباس.

والفضائل الشهيرة. يشمل فهرستُ كتبه على أربعمائة مصنّف، أخذ الفقه عن أبي القاسم الأنماطي عن المزني، والمزني عن الشافعي. قيل وكان يفضّل على جميع أصحاب الشافعي حتّى على المزني. قال أهل الطبقات: وعنه أخذ فقهاء الإسلام من الشافعية، واشتهر مذهب الشافعي في الآفاق. وانتشر، وقام بنصرة المذهب والردّ على المخالفين، وفرع على كتب محمد بن الحسن الحنفي وكان شيخ طريقة العراق أبو حامد الأسفراييني يقول: نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون دقائقه.

قلت: وسمعت من بعض شيوخنا أنه سأله إنسان: كيف يلبّي المحرم؟ فقال: يقول لبيّك، اللهمّ لبيك، اللهم لبيك، إلى آخر التلبية المعروفة، فقال السائل؟ صِرْتَ محرَماً، فقال ابنُ سُرَيْج (تزببت حصرماً)، قلت: قاله تحكّماً، لأنّ الحصرم لا يجيء منه زبيب، وإنما قال السائل: صرتَ محرماً، لأنه قيل أن ابن سريج كان يقول: يلزم الحكم بالحكاية. والله أعلم، وكان يناظر محمد بن داود الظاهري. حكى أنّه قال له ابن داود يوماً: أبْلِعني ريقي، قال ابن سُرَيج أبلعتَكَ دجلة. وقال له يوماً: أمهلني ساعة، فقال: أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة، وقال له يوماً: أكلمك من الرِجْلِ فتجيبني من الرأس. فقال له: هكذا البقر إذا خفيت أظلافها وَهَنت قرونها.

وقال الشيخ الإمام المعروف بالفقه والإتقان أبو علي بن خيران: سمعت أبا العباس بن سُرَيج يقول: رأيت كأنّا مُطِرنا كبريتاً أحمرَ، فملأتُ أكمامي وحجري منه، فعبّر لي أن أرزق علماً عزيزاً كعزّة الكبريت الأحمر. وكان يُقال له في عصره: إن الله تعالى بعث عمرَ بنَ عبد العزيز على رأس المائة من الهجرة، فأظهر كلّ سُنّةٍ وأمات كلّ بدْعة، ومَنَّ الله تعالى على رأس المائتين بالإمام الشافعي، حتى أظهر السنة وأخفى البدعة. ومنّ الله تعالى على رأس الثلاثمائة بِكَ حتى قويت كلّ سنّة، وضعفت كلّ بدعة.

قلت: هكذا ذكر في التاريخ، ولكنّ الذي صرّح به الحافظ الإمام أبو القاسم ابن عساكر أنّ الصحيح أنّه كان على رأس الثلاثمائة الإمام أبو الحسن الأشعري، لأنه الذي ردّ على أئمة المبتدعة، ونصر مذهب أهل الحقّ والسنّة. والناسُ في ذلك الزمان إلى إقامة الحقّ والذبّ عن السّنةِ وإبطال مذاهب البدْعة بقواطع الأدلّة والبراهين المقحمة المقرّرة في علم الأصول، أحوج منهم إلى معرفة الفروع. وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري هو أولى بأنْ يكون من المجدّدين الذين على رأس كلّ مائة سنة المشار إليهم في الحديث على وجه الإبهام دون التعيين. وسيأتي ذكر مَنْ على رأس المائتين اللاتي بعدُ إن شاءَ الله تعالى.

ولابن سُرَيْج المذكور مع فضائله نظمٌ حسن، وفهم مشكور. عاش سبعاً وخمسين سنة وستّة أشهر. وكان جدّه سريجٌ رجلاً مشهوراً بالصلاح الوافر. وهو سُرَيج بن يونس بن إبراهيم بن الحارث المروزي الزاهد العابد، صاحب الكرامات. وقد تقدّم تاريخ موته في سنة خمس وثلاثين ومائتين، روى الحديث عن الحسن بن محمد الزعفراني.

وفي السنة المذكورة توفّي الفقيه الإمام أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الفقيه الشافعي الضرير. أصله من (رأس عين) البلدةِ المشهورة بالجزيرة، وأخذ الفقه عن أصحاب الإمام الشافعي، وعن أصحاب أصحابه، وله مصنفات من المذهب مليحة، منها الواجب والمستعجل والمسافر والهداية، وغير ذلك من الكتب. وله شعر جيّد ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء، وأنشد له:

عـــاب التفقّـــه قـــومٌ لا عقـــولَ لهـــم ... ومـــا عليـــه ـ إذا عـــابُـــوه ـ مـــن ضـــررِ
ما ضرّ شمسَ الضحى ـ والشمسُ طالعةٌ ... أنْ لا يـرى ضـوءهـا مَـنْ ليـس ذا بَصَـرِ

وحُكي أنه أصابته مَسغبة[١] في سنة شديدة القحط، فرقي سطح داره، ونادى بأعلى صوته: الغياث، الغياث، نحن خلجاً لكم، وأنتم تجارٌ، وإنّما يحسن المواساة في الشدة، لا حين ترخص الأسعار. فسمعه جيرانه، فأصبح على بابه مائة جملُ برّ.

وفي السنة المذكورة توفي الشيخ الكبير أبو عبد الله بن الجلاّء، أحمد بن يحيى. من أجلّ شيوخ الصوفية، صحب ذا النون المصري والكبار. كان قدوة أهل الشام، قال لأبَوَيْه: اشتهي أن تهباني لله عزّ وجلّ، فقال: قد وهبناك له فغاب عنهما مدّة من الزمان، ثم جاء في ليلة ذات مطرٍ وبرْد، فقرع عليهما الباب، فقالا: مَنْ هٰذا؟ قال: ولدكما. قالا: ليس لنا ولد، وهبناه لله عزّ وجل، ونحن قوم عرب إذا وهبنا شيئاً لا نرجع فيه.

* وفيها توفي الإمام الحافظ صاحب التصانيف أبو محمد عبدان[٢] بن أحمد الأهوازي الجوالقي.

سنة سبع وثلاث مائة

* فيها توفي أبو يعلى[٣] الموصلّي التميمي الحافظ، صاحب المسند. والحافظ الكبير

(١) المسغبة: الجوع.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦٢، عبد الله بن أحمد بن موسى بن زياد أبو محمد الجواليقي القاضي المعروف بعبدان الأهوازي، وعبدان تخفيف عبد الله، طاف البلاد في طلب الحديث، كان يحفظ مائة ألف حديث، وسمع الكثير وصنّف التصانيف.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٧/ ٢٤١: أبو يعلى الحافظ التميمي الموصلي: هو أحمد بن =

أبو بكر محمد بن هارون الروياني صاحب المسند، وله تصانيف في الفقه.

سنة ثمان وثلاث مائة

* فيها ظهر اختلال[1] الدولة العباسية، وخشيت الفتنة ببغداد، فركبت الجند، وسبب ذلك كثرة الظلم من الوزير حامد بن العباس، فقصد العامّة داره، فحاربتهم غلمانه، وكان له مماليك كثيرة، ودام القتال أياماً، فقتل خلق كثير، ثم استفحل البلاء، ووقع النهب ببغداد. وجرت فتن وحروب بمصر، وملك العبيديون جيزة الفسطاط، وخرج الخلق، وشرعوا في الحرب والحفل.

* وفيها توفي الفقيه الصالح راوي صحيح مسلم، إبراهيم بن محمد بن سفيان النيسابوري. قيل كان مجاب الدعوة.

* وفيها توفي الحافظ الكبير أبو محمد عبد الله بن محمد الدينوري، سمع الكثير وطوّف الأقاليم.

* وفيها توفي أبو الطيب، محمد بن المفضّل الضبّي الفقيه الشافعي من كبار الفقهاء ومتقدّميهم. أخذ الفقه عن أبي العباس سُرَيج، وكان موصوفاً بفرط الذكاء، وله عدّة تصانيف، وله في المذهب وجوه حسنة وأبوه أبو طالب المفضّل الضبّي اللغوي صاحب التصانيف المشهورة في فنون الأدب ومعاني القرآن. وجَدُّه سلمة بن عاصم صاحبُ الفراء وراويته، وهم أهل بيت كلّهم علماء نبلاء مشاهير، رحمهم الله تعالى، وقيل أنّ ابن الرومي هجا المفضّل المذكور فقال:

لو تلففْتَ في كساء الكسائي ... وتَفَرّيتَ فروةَ الفرّاءِ
وتخلّلت بالخليل، وأضحى ... سيبويهُ لديكَ رهنَ ضياءِ
وتلوّنتَ من سواد أبي الأسود ... شخصاً يكنّى أبا السوداء
إلا بالله أن يعدّك أهل العلم ... إلاّ في جملة الأغبياء

فلما بلغ هذا الهجاء الوزير اسماعيل بن بلبل شقّ عليه، وحرم ابن الرومي عطاياه، لأن المفضّل المذكور كان له اتصال بالوزير المذكور.

* وفيها توفّي الحافظ أبو العباس الوليد بن أبان بأصبهان، صاحب المسند والتفسير.

* وفيها توفّي المفضل الجَنَدي (بفتح الجيم والنون) اليمني.

= علي بن المثنّى بن يحيى بن عيسى بن هلال ـ غلقت له الأبواب يوم جنازته.

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ١٦٦/٦، ١٦٧.

* وفيها توفّي أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم وزير العزيز بن المعتزّ العبيدي، صاحب مصر، قالوا: وكان يعقوب أولاً يهودياً يزعم أنه من أولاد هارون بن عمران، أخي موسى ـ صلوات الله عليهما ـ وقيل بل يزعم أنّه من ولد السموأل بن عاديا اليهودي، صاحب الحصن المعروف بالأبلق، القائل على ما ذكره بعضهم نسبة إليه:

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ

في أبيات له منها:

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤمِ عرضُه فكلّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإنْ هو لم يحملْ على النفس ضمّها فليس إلى حسن الثناءِ سبيلُ

وكان يعقوبُ قد قدم به أبوه من بغداد إلى مصر، وقد تعلم الكتاب والحساب، فجعله كافور الأخشيديّ على عمارة داره، ثم لما رأى كافور نجابته وشهامته وصيانته ونزاهته وحسن إدراكه، ولم يقبل سوى قوتهِ، فتقدّم كافور إلى سائر الدواوين أن لا يمضي دينار ولا درهم إلا بتوقيعه، فوقّع في كل شيء، وكان يَبَرّ ويصلُ من اليسير الذي يأخذه. كلّ هذا وهو على دينه، ثمّ إنه أسلم يوم اثنين لثماني عشرة ليلة مضت من شعبان سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة، ولزم الصلاة ودراسة القرآن، ورتّب لنفسه رجلاً من أهل العلم شيخاً عارفاً بالقرآن والنحو، حافظاً لكتاب السّير، في مكانٍ يبيتُ عنده، ويصلّي به، ويقرأ عليه، ولم يزل حاله يتزايد مع كافور إلى أن توفّي كافور في التاريخ المذكور، وكان ابن الفرات وزيرُ كافور يحسده ويعاديه. ولما مات كافور قبض ابن الفرات على جميع الكتّاب وأصحاب الدواوين، وقبض على يعقوب في جملتهم، ولم يزل يتوصّل ويبذل المال حتّى أفرج عنه. فلمّا خرج من الاعتقال توجّه إلى بلاد المغرب، فلقي جوهراً الخادم، وهو متوجّه بالعساكر والخزائن إلى الديار المصرية ليملكها، فرجع في صحبته، وقيل بل استمرّ على قصده، وانتهى إلى إفريقية، وتعلّق بخدمة المعزّ، ثم رجع إلى الديار المصرية، فلم يزل يترقّى إلى أن تولّى الوزارة للعزيز، وعظمت منزلته، ومهد قواعد الدولة. وكان يعقوب يحبّ أهل العلم، ويجتمع عنده العلماء، ويقرأ عنده مصنّفاته في ليلة كلّ جمعة، ويحضره القضاة والفقهاء والقرّاء وأصحاب الحديث والنُّحاة وجميع أرباب الفضائل وأعيان العدول وغيرهم من وجوه الدّولة، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح. وكان في داره قوم يتلون القرآن الكريم، وآخرون يتلون الحديث والفقه والأدب حتّى الطبّ، وينصب كلّ يوم خواناً للخاصّة وموائد عديدة لمن عداهم من أهل مجلسه. وكان يجلس كلّ يوم بعد صلاة الصبح ويعرض عليه رقاع الناس في الحوائج والظلامات. وكان في خدمته قوّاد من جملتهم

القائد أبو الفتوح فضل بن صالح الذي تنسب إليه (مُنْيَة[١] القائد) وهي بليدة من أعمال الجزيرة من الديار المصرية، وكانت هيبته عظيمة، وجوده وافراً. وأكثر الشعراء من مدائحه، وكان له طيور سابقةَ، وللعزيز كذلك طيور سابقة، فسابق يوماً ببعض طيوره بعض طيور العزيز، فسبق طائر الوزير، فعزّ ذلك على العزيز فقيل له: إنه قد اختار من كل شيء أجوده لنفسه وأعلاه، ولم يبقَ منه إلاّ أدناه حتّى الحمام. وقصدوا بذلك الإغراء به حسداً منهم، لعلّه يتغير عليه، فاتصل ذلك بالوزير، فكتب إلى العزيز:

قل لأمير المؤمنين الذي ... له العلا والنسب الثاقب
طائرك السابق لكنّه ... جاء وفي خدمته حاجب

فأعجبه ذلك منه، وسرّى عنه ما كان وجده عليه.

ذكر بعضهم أنّ هذين البيتين له، وذكر بعضهم أنّهما لولّي الدولة المعروف بابن خيران. ولما مرض عادَه العزيز. وقال له: لو كنتَ تُشترى اشتريتك بملكي، وفديتك بولدي، هل من حاجة توصي بها؟ فبكى وقبّل يده وقال: أمّا فيما تحصّني فأنت أرعى لحقيّ من أن أسترعيك إياه، وأرأف عليّ من أنْ أوصيك به، ولكنّي أنصح لك ممّا يتعلق بدولتك، سالم الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانيّ بالدعوة والسكّة، ولا تبقِ على مفرح بن دغفل إن عرضت لك فيه فرصة، وماتَ، فأمر العزيز أن يُدفن في داره، وهي المعروفة بدار الوزارة بالقاهرة داخل باب النّصر في قبّة كان بناها، وصلّى عليه العزيز وألحده بيده في قبره، وانصرف حزيناً لفقده، وأمر بغلق الدواوين أياماً بعده. وكان إقطاعه من العزيز في كلّ سنة مائة ألف دينار، وذكر بعضهم أنه كُفّن خمسين ثوباً، ويقال أنّه كُفّن وحُنّط بما مبلغه عشرة آلاف دينار.

سنة تسع وثلاث مائة

* فيها أُخذت الاسكندرية، واستردّت إلى نوّاب الخليفة، ورجع العبيدي إلى المغرب.

* وفيها قضيّة الحسين بن منصور الحلاّج، وهو من أهل (البَيْضاء)[٢] بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب سهل بن عبد الله، ثم صحب أبا الحسين النوري وأبا القاسم الجنيد وغيرهم، والناس مختلفون فيه، فمنهم مَنْ يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يبالغ في

---

(١) منية القائد: وهو القائد فضل: بلد في أول الصعيد قبليّ الفسطاط، بينها وبين مدينة مصر يومان. (معجم البلدان).

(٢) البيضاء: مدينة مشهورة بفارس. وقال الأصطخري: هي أكبر مدينة في كورة اصطخر. (معجم البلدان).

تكفيره، ومنهم من يتوقف فيه. والمحقّقون اعتذروا عنه، وأجابوا عمّا صدر عنه بتأويلات، ومنهم القطب أستاذ العارفين الأكابر الذي خضعت لقدمه رقاب كلّ وليّ من بادٍ وحاضر، الشيخ الشريف الحسيب النسيب محيي الدين عبد القادر الجيلي، والشيخ الكبير العارف بالله الشهير إمام الطريقة ولسان الحقيقة الشيخ شهاب الدين السهروردي، والإمام رفيع المقام حجّة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي وغيرهم ممّن يطول ذكرهم، بل يتعذّر حصرهم.

وممن قال به وقبله وصحّح حاله وجعله أحد المحققين ولم يخرجْه عن أئمة الصوفية العارفين السالكين المرشدين الشيوخ الجلّة العارفين بالله الأئمة، الشيخُ أبو العباس بن عطا، والشيخ أبو القاسم النصر أبادي، والشيخ أبو عبد الله بن خفيف المذكور بالحسين بن منصور، عالم ربّاني.

فمن كلام الشيخ عبد القادر ـ رحمه الله ـ فيه ممّا روى الشيخ أبو القاسم عمر البزّار بالإسناد في مناقبه قال: سمعت سيّدي الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنه يقول: عثر الحسين الحلاَّج، فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده، وأنا لكل من عثر مركوبُه من أصحابي ومريديّ ومحبيّ إلى يوم القيامة آخذ:

ومن كلامه فيه أيضاً قوله: فمن مناقبه المرويّة عنه: طار طائر عقل بعض العارفين من وكره، سحره صورته، وعلا إلى السماء خارقاً صفوف الملائكة. كان بازياً من بُزاةِ الملك، مخيّط العينين بخيط ـ وخُلق الإنسان ضعيفاً ـ فلم يجد في السماء ما يحاول من الصيد، فلمّا لاحت له فريسة رأيتُ ربي زاد تحيّره في قول مطلوبه: ﴿أينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥]، عادَها بطأ إلى حظيرة خطّة الأرض، طلب ما هو أعزّ من وجود النار في قعر البحار، تلفَّتَ بعين عقله فما شاهد سوى الآثار، فكّر فلم يجد في الدارين مطلوباً سوى محبوبه، فطرب فقال بلسان شكر قلبه: أنا الحقّ، ترنّم بلحن غير معهود من البشر، صغر في روضة الوجود صغراً لا يليق ببني آدم، لحن بصوته لحناً عرضه فخفقه، نودي في سرّه يا حلاجُ، اعتقدت أن قوّتك بك؟ قال: لأنّ نيابته عن جميع العارفين ـ حسب الواحد ـ إفراد الواحد. قلْ يا محمّد؛ أنت سلطان الحقيقة، أنت إنسان عين الوجود، على عتبة باب معرفتك تخضع أعناق العارفين، في حمّى جلالتك توضع جباه الخلائق أجمعين.

ومن كلام الشيخ عبد القادر أيضاً في الحلاّج مسطوراً عنده في مناقبه المرويّة بالأسانيد قال رضي الله تعالى عنه: طار واحدٌ من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة ـ أنا الحقّ ـ رأى روض الأبدية خالياً عن الحسيس والأنيس، صفّر بغير لغة تعريضاً لخيفة، ظهر عليه عقاب الملك من مكمن أنّ الله لغنيٌّ عن العالمين، أنشب في إهابه مخلاب كلُّ نفس ذائقة الموت. قال له: شرّع سليمان الزمان، لِمَ تكلمت بغير لغتك، ثمّ ترنّمت بلحن غير معهود من مثلك؟

ادخل الآن إلى قفص وجودك، ارجع من طريق غيرة القدم إلى مضيق ذلّة الحديث، قل بلسان اعترافك ليسمعك أرباب الدعاوى: حسبُ الواحد إفراد الواحد، مناط خفض الطريق، إقامة وظائف خدمة الشرع.

ومن كلام الشيخ شهاب الدين السهرورديّ ما روينا عنه في كتابه (عوارف المعارف) بإسنادنا العالي أنّه قال: وما يحكى عن أبي يزيد ـ رحمه الله ـ قوله: سبحاني، حاشا أن يُعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلاّ على معنى الحكاية عن الله تعالى. قال: وهكذا ينبغي أن يُعتقد في الحلاّج ـ رحمه الله ـ قوله: أنا الحقّ.

وأما كلام الإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزاليّ فقد ذكر في (كتاب مشكاة الأنوار)، فصلاً طويلاً في الاعتذار عن الألفاظ التي كانت تصدر عن الحلاّج، مثل قوله: أنا الحقُّ، وقوله: ما في الجبّة إلا الله. وأمثال هذه الإطلاقات التي تنبو السمع عنها وعن ذكرها. قال ابن خلكان: وحملها كلّها على محامل حسنة، وأولها قال: وقال هذا من فرط المحبّة وشدّة الوجد. قال: وجعل هذا مثل قول القائل:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا	نحن روحان قد حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني	وإذا أبصرتني أبْصرْتنا

قلت: وهكذا اعتذر عنه وعن ما يصدر من الصوفية من الألفاظ الموهمة للحلول والاتحاد، في كتابه (المنقذ من الضلال).

قلت: وأكثر المحققين حملوا على ما يقع منهم مُخالِفاً لظواهر الشرع من الأقوال على صدوره في حال سكرهم بواردات الأحوال. وإلى ذلك أشرت بالقصيدة المسمّاة بالدرّ المنضد في جيد الملاح، في بيان الاعتذار عن ما يصدر من المشايخ أرباب الأحوال الملاح.

وقتل الحلاّج[1] وما منه في ظاهر الشرع يستباح، وكونه شهيداً عند المشايخ لأن الغائب بالحال ما عليه جناح:

وبعض عن الأكوان فإنّ بعضهم	به جاوز الإسكار حدّاً فَعَرْبَدا
فسلَّ عليه الشرعُ سيفاً حمى به	حدوداً فرى الحلاّج ماضي محدّدا
فمات شهيداً عندكم من محقّق	وكم عندهم يخرج من النهج ملحدا
ولكن فتى بسطام رفقاً بحاله	حمى عن عنايات عزيزاً ممجدا

(١) انظر قتل الحسين الحلاج في الكامل لابن الأثير ٦/١٦٧، ١٦٨.

أشرتُ في هذا إلى أن الحلاّج ظفر به سلطان الشرع الظاهر، وأبو يزيد تحصّن بدرع الحال الذي هو عن سلاح تسلّط السلطان ساتر.

قلت: وما أحسن ما أشار بعض أرباب الأحوال في وقوع الحلاّج ـ دون أبي يزيد ـ حيث قال: الحلاّجُ خرج من بحر الحقيقة إلى الساحل، وظُفِر به فأُسر، وأقيم عليه الحدّ. وأمّا أبو يزيد فإنه لم يخرج من بحر الحقيقة والتحقيق، فلم يكن لهم إلى الظفر به طريق، هذا معنى كلامه والإشارة، وإن اختلف منّا العبارة.

ومن كلام الشيخ العارف بالله تعالى السيد الجليل أبي الشموس أبي الغيث ابن جميل ـ قدّس الله روحه ـ فيما نحن بصدده من السكر لمحبّة الله تعالى والفناء عمّا سوى الله تعالى، والإشارة إلى من صدر منه مثل المقال في سكر وواردات الأحوال، قوله: هداك الله إلى شراب ماء عينٍ، مَنْ حَسَا منها حسوةً واحدةً عدم عقله، فإنْ أكثر ممّا ذكرناه ادّعى الربوبية، ودلّ على ضعفه لأنّ من كان قبلنا كان بهذا الوصف، لكن لباس ثوب العبودية لنا أكمل وأجمل، وذلك أقصى ما نروم ونطلب. فقد صرّح في كلامه هذا بأنّ مثل هذا إنّما يقع عَمَّنْ سكر بالمشرب المذكور، وضعف عن احتمال تجلّي الجمال والنور.

قلت: وممّا يختشى من مثل هذا الضعف ما يروى عن غير واحد منهم أنّهم كانوا يدافعون الأحوال الواردة عليهم، لئلا يقعوا في مثل هذا.

وكان بعضهم إذا ورد عليه الحال يدخل السوق، ويسمع كلام الناس، وما هو فيه من اللفظ. وبعضهم كان يأتي زوجته عن ذلك، وبعضهم كان يركب الفرس ويركض ويلهو به، وغير ذلك من اللّهو في الأفعال التي تنافي الأحوال. رجعنا إلى ذكر الحلاّج:
قيل أنّه سُئل عن التصوّف، وهو مصلوب فقال: هي نفسك إنْ لم تشغلها شغلتك. قلت: يعني لا بدّ لها من أن تُشغَل، فإن لم تشغلها بالطاعات ووظائف العبادات شغلتك بالخواطر المذمومات الموقِعات في الهوى والآفات. ومن الشعر المنسوب إليه على اصطلاحهم:

سكوت ثم صمت ثم خرس ... وعلم ثم وجدٌ ثم رمسُ
فطِينٌ ثم نور ثم نار ... وبرد ثم ظلٌّ ثم شمس
وحَزْنٌ ثم سهلٌ ثم قفر ... ونهرٌ ثم بحر ثم يبسُ
وسكر ثم صحوٌ ثم شوق ... وقربٌ ثم وصل ثم أنسُ
وقبض ثم بسط ثم محوٌ ... وفرق ثم جمع ثم طمسُ
وأخذ ثم ردّ ثم جذب ... ووصف ثم كسف ثم لبسُ
عبارات لأقوام تساوت ... لديهم هذه الدنيا وفلسُ

وأصـــوات وراء البـــاب لكـــنْ عبارات الورى في القربِ همسُ
وآخِــر مــا يَــؤول إليــه عبــد إذا بلــغ المــداحيــضَ نفــس
لأنّ الخلــق خــدّام الأمــانــي وحقّ الحقّ فـي التحقيـق قـدْسُ

وممّا نظمه أيضاً على اصطلاحهم وإشاراتهم قوله:

لا كنــتُ إنْ كنــتُ أدري كيــف كنــتُ ولا
لا كنــت إنْ كنــت أدري كيــف لــم أكُــن
أرسلــتَ تســأل عنّــي كيــف بِــتّ ومــا لاقيــتُ بعــدك مــنْ هَــمٍّ ومِــنْ حُــزَنِ

وقوله أيضاً:

ألقـاه فـي اليـمِّ مكتـوفـاً وقـال لـه إيّــاك إيّــاك أن تبتــلَّ بــالمــاء

وقوله أيضاً في كتابه إلى أبي العباس بن عطاء:

كتِبـتُ ولـم أكتـب إليـك وإنّمـا كتبـتُ إلـى نفسـي بغيـرِ كتـابِ
وذاك لأنّ الــروحَ لا فــرق بينهــا وبيــن محبّيهــا بفصــلِ خطــابِ
وكــلّ كتــاب صــادر منــك وارد إليــك فــلا يحتــاج ردَّ جــوابِ

وغير ذلك ممّا يجري هذا المجرى:

ومِنْ كلام الحلاّج: المدبر وهو الخارج عن أسباب الدارين. وقال: مَنْ أسكرته أنوار التوحيد حجبت عن عبادة التجريد بْل من أسكرته حقائق التجريد نطق عن حقائق التجريد. لأنّ السكران هو الذي ينطق لكلّ مكتوم، وقال بعضهم: لقيت الحلاّج يوماً في حالٍ رثّةٍ، فقلت له: كيف حالك؟ فأنشأ يقول:

لَئِـنْ أمسيـتُ فـي ثـوبٍ عـديـم لقــد بُلِــيَ علــى حــرٍّ كــريــمِ
فــلا يحــزنـك ان أبصـرتَ حــالاً يغيّــرنــي عــن الحــال القــديــمِ
فَلِـيْ نفـسٌ ستُتْلـفُ أو سترقـى ـ لعمـرُ اللّـهِ ـ فـي أمـرٍ جسيـم

قال بعضهم: سمعت الحسين بن منصور وهو على الخشبة يقول:

طلبــت المستقــرَّ بِكــلِّ أرضٍ فلــم أرَ لــي بــأرضٍ مُسْتقــرّا
أطعــت مطــامعــي فــاستعبـدتنــي فلــو أنّــي قنعــتُ لكنــتُ حُــرّا

قلت: وله كلام فائق، وشعر رائق، فيهما الكثير من الناس في مسألك المؤاخذة، مضائق، وإيراد كلّ ذلك في هذا المختصر غيرُ لائق، وحاصل الأمر أنّه أفتى أكثر علماء عصره بإباحة دمه.

ويقال: أنّ العباس بن سُرَيج كان إذا سُئل عنه يقول: هذا رجل خفي عليه حاله، وما أقول فيه شيئاً. قلت: هكذا قيل مع ابنُ سريج، توفي قبل قتل الحلّاج بثلاث سنين. ويحتمل أن يكون قال ذلك في حياته لما سُئِل عنه قبل أن يُقتل بمدّة طويلة.

وكذلك ما قيل أنّ الجنيد وابن داود الظاهري ـ من جملة مَنْ أفتى بقتله ـ لا يصح، لأنّ الجنيد توفيّ سنة ثمان وتسعين ومائتين، قبل قتل الحلّاج بإحدى عشرة سنة. ومحمد بن داود توفّي قبل قصّة الحلّاج باثنتي عشرة سنة.

رجعنا إلى ذكر الحلّاج. قالوا: وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس ـ وزير المقتدر ـ بحضرة القاضي أبي عمر، فأفتىٰ بحلّ دمه، وكتب خطّه بذلك، وكتب معه مَنْ حضر المجلس من الفقهاء. وقال لهم الحلّاج: ظهري حمى، ودمي حرام، وما يحلّ لك أن تناولوا عليّ بما يبيحه، وأنا اعتقادي الإسلام، ومذهبي السنّة وتفضيل الأئمة الأربعةِ والخلفاء الراشدين وبقيّة العشرة من الصحابة، ولي كُتبٌ في السنة موجودة في الورّاقين، فالله الله في دمي. ولم يزل يُردّد هذا القول، وهم يكتبون خطوطهم، إلى آن استكملوا ما احتاجوا إليه. وانفضّوا من المجلس، وحمل الحلاج إلى السجن. وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس، وسيّر الفتوى، فعاد جواب المقتدر بأنّ القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله فليُسلّم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم فليضربه ألفَ سوط، فإن مات وإلاّ اضربه ألف سوط أخرى، ثم يُضرب عنقه، فسلّمه الوزير إلى الشرطي، وقال له ما رسم به المقتدر، وقال له: إنْ لم يتلف بالضرب فبقطع يده ثم رجله، ثم تجزّ رقبته، وتحرق جثّته. وإن خدعك وقال لك: أنا أجري لك الفرات ودجلة ذهباً وفضة فلا تقبل ذلك منه، ولا ترفع العقوبة عنه، فتسلّمه الشرطي ليلاً وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة، فأخرجه إلى عند (باب الطاق)[1]، وهو يتبختر في قيوده.

واجتمع من العامة خلق لا يُحصى عددهم، وضربه الجلاد ألف سوط، ولم يتأوّه، بل قال للشرطي لمّا بلغ الستّمائة: ادعُ لي عندك، فإنّ لك عندي نصيحة تعدل فتح القسطنطينية. فقال له: قد قيل لي عنك أنّك تقول هذا وأكثر منه، وليس إلى رفع الضرب عنك سبيل. ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة. ثم جزّ رأسه، ثم أحرقت جثّته. ولما صار رماداً ألقاه في الدجلة، ونصب الرأس ببغداد على الجسر.

وقيل: أن أصحابه جعلوا يعِدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوماً. واتفق أن دجلة زاد تلك السنة زيادة وافرة، فادّعى أصحابه أنّ ذلك سبب إلقاء رماده فيها، وادّعى بعض أصحابه

(١) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي تعرف بطاق أسماء. (معجم البلدان).

أنّه لم يقتل، ولكن ألقي شبهه على عدوّ من أعداء الله. وشرحُ هذه القصة يطول، وفيما ذكرناه كفاية وعبرة لأولي العقول.

قلت وقد اقتصرت مع ما ذكرت عن المشايخ في هذه القضية على نقل ابن خلّكان ـ وهو أهون ـ وكلامه في الصوفية أقرب وأنسب لما ذكرناه من تأويل أكابر المشايخ عنه. على المحامل التي تقدّم ذكرها.

وأما ما نقل الذهبيّ، فذكر فيه أشياء فظيعة، وكثّر التشنيع عليه، وبالغ مبالغة لا يناسب ما قدّمنا عن المشايخ، بل يناسب اعتقاد الطاعنين عليه في شطحيات الصوفية، وما يصدر عنهم من الأحوال مشتبهاً بمضمون العقيدة التفاشية، وما يناسبه من عقائد الحشوية في السادات من أولي الأحوال السيئة.

وفي السنة المذكورة توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو العبّاس بن[١] عطاء، وكان من أجلّاء المشايخ الأكابر الجامعين بين علمَي الباطن والظاهر.

سنة عشر وثلاث مائة

* فيها ببغداد توفي الحبر البحر الإمام أحد العلماء الأعلام صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير والمصنفات العديدة والأوصاف الحميدة أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ، كان مجتهداً لا يقلّد أحداً.

قال إمام الأئمة المعروف بابن خُزيمة: ما أعلم على وجه الأرض أفضل من محمّد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة[٢].

وقال الفقيه الإمام مفتي الأنام أبو حامد الاسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً.

قلت: وناهيك بهذا الثناء العظيم والمدح الكريم من هذين الإمامين الجليلين البارعين النبيلين. ومولده بطَبَرِسْتان سنة أربع وعشرين ومائتين، وكان ذا زهد وقناعة.

توفّي في أواخر شوّال من السنة المذكورة، وكان إماماً في فنون كثيرة، منها التفسير

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٨/ ٢٤.
الصوفي الآدمي: أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء أبو العباس الآدمي الصوفي الزاهد، كان كثير العبادة والاجتهاد ينام في اليوم والليلة ساعتين.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/١٧١: بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم، ولذلك سبب وهو أن الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً.

والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنّفات مليحة في فنون عديدة، يدل على سعة علمه وغزارة فضله، وكان ثقة في نقله وتاريخه. قيل: تاريخه أصحّ التواريخ وأثبتها، وذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقات الفقهاء من جملة المجتهدين.

* وفيها أو في التي قبلها توفّي الفقيه الكبير الإمام الشهير محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، كان فقيهاً مطلعاً، ذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقات الفقهاء وقال: صنّف في اختلاف العلماء كتباً لم يصنّف أحد مثلها، واحتاج إلى كتبه الموافق والمخالف، ومن كتبه المشهورة في اختلاف العلماء (كتاب الأشراف)، وهو كتاب كبير يدل على كثرة وقوفه على مذاهب الأئمة، وهو من أحسن الكتب وأنفعها.

* وفيها: وقيل في إحدى عشرة، وقيل في ستّ عشرة وثلاث مائة، توفّي أبو إسحاق الزجّاج إبراهيم بن محمد النحوي، كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وله من التصانيف في معاني القرآن وعلوم الأدب والعربية والنوادر وغير ذلك بضع عشرة مصنّفاً. أخذ الأدب عن المبرّد وثعلب، وكان يخرط الزجاج، ثم تركه واشتغل بالأدب ونسب إليه، وعنه أخذ أبو علي الفارسي النحوي، وإليه يُنسب أبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي، صاحب كتاب الجمل في النحو.

* وفيها توفّي الإمام النحوي محمد بن العباس اليزيدي، كان إماماً في النحو والأدب ونقل النوادر وكلام العرب.

وممّا رواه أن أعرابياً هوى أعرابية، فأهدى إليها ثلاثين شاةً وزّقاً من خمر مع عبد له أسود، فأخذ العبدُ شاة في الطريق، فذبحها وأكل منها، وشرب بعض الزقّ. فلما جاءها بالباقي عرفت أنه خانها في الهديّة، فلما عزم على الانصراف سألها: هل لك حاجة؟ فأرادت إعلام سيده بما فعله فقالت له: اقرأ عليه السلام وقل له: إنّ المَرْثُوم كان عندنا مِحاقاً، وإنّ شحيماً راعي غنمنا جاء مرثوماً. فلم يدر العبد ما أرادت بهذه الكتابة. فلما بلغ سيده ذلك فطن لما أرادت، فدعا له بالهراوة وقال: لتصدقني وإلاّ ضربتك بهذه ضرباً، فأخبره الخبر فعفا عنه، وهذه من لطيف الكنايات وظريف الإشارات. والمرثوم بفتح الميم وسكون الراء وضم المثلثة: الملطّخ بالدم، وهو في الزقّ مستعمل على وجه الاستعارة. والمحاقُ بكسر الميم: ثلاث ليالٍ من آخر الشهر.

* وفيها توفّي الطبيب الماهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المشهور، ألف في الطبّ كتباً كثيرة، وكان إمام وقته في علم الطب، والمشار إليه في ذلك العصر، متقناً لهذه الصناعة، يشدّ إليه الرحال في أخذها عنه.

ومن تصانيفه: (كتاب الحاوي)، وهو من الكتب النافعة، و (كتاب الأقطاب)، و (كتاب المنصور): وهو على صغر حجمه نافع، جمع فيه بين العلم والعمل. وغير ذلك من التصانيف المحتاج إليه.

ومن كلامه: مهما قدرتَ أن تعالج بالأغذية فلا تعالج، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفردٍ فلا تعالج بمركّب.

ومن كلامه: إذا كان الطبيب عالماً، والمريض مطيعاً، فما أقلّ لبث العلّة ومِنْ كلامه: عالجْ في أول العلّة بما لا يسقط القوّة.

وحكي أنّ غلاماً من بغداد قدم الرَّيَّ، وكان ينفث الدم، وكان قد لحقه ذلك في طريقه. فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيبَ وأراه ما ينفث، ووصف له ما يجد، فأخذ الرازي مجسّة ورأى قارورة، واستوصف حاله، فنظر فيهِ أبو بكر الرازي، فأفكر فلم يظهر له دليل على علّته، فاستنظره لقيام دليل يظهر، فقامت على العليل القيامة، ويئس من الحياة، فولد الفكر للرازي: سؤاله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنّه شرب من مستنقعات وصهاريج، فقال في نفس الرازي نجدة حذقه وجودة فطنته أنّ علقة علقت به من شرب بعض تلك المياه، وأنّ ذلك الدم بسببها، وقال له: إذا جئت غداً بيتك عالجتك بما يكون سبباً لبرئك، بشرط أن تأمر غلمانك بطاعتي، قال: نعم فانصرف الرازي وجمع لهُ مِرْكنين من طُحْلب، وأحضرهما من الغد معه وقال له: ابلع؛ فامتنع، فأمر غلمانه أن يضجعوه فألقوه على قفاه، وفتحوا فمه، فجعل الرازي يدسّ الطحلب في حلقه ويكبسه كبسْاً شديداً، ويطالبه ببلعه، ويهدده بالضرب إلى أنْ بلع ما في أحد المركنين، ثم قذف ما ابتلعه، وتأمّل الرازي فإذا بالعلقة في الطحلب الذي قذفه، فنهض العليل معافىً، فلم يزل رئيس هذا الشأن. وكان اشتغاله به بعد الأربعين من عمره.

سنة إحدى عشرة وثلاث مائة

* فيها دخل أبو طاهر القرمطي[1] البصرةَ في الليل في ألف وسبعمائة فارس ـ نصب السلاليم على السور، ونزلوا فوضعوا السيف في البلد، وأحرقوا الجامع، وهرب خلق إلى الماء فغرقوا، وسبوا الحريم. قاتل الله تعالى كلّ شيطان رجيم.

* وفيها توفّي الحافظ الزاهد المجاب الدعوة أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان النيسابوري مصنّف الصحيح على شرط مسلم، والفقيه الحبر أبو بكر الخلاّل البغدادي،

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ١٧٥/٦.

ونحويّ العراق أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج. وإمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خُزيمة النيسابوري الحافظ صاحب التصانيف. رحل إلى الحجاز والشام والعراق ومصر وتفقّه على المزنيّ وغيره. قال أبو علي الحافظ: كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة. وقال ابن حَبَّان: لم أرَ مثل ابن خزيمة في حفظ الأسناد والمتن، وقال الدارقطني: كان إماماً معدوم النظير.

سنة اثنتي عشرة وثلاث مائة

* فيها عارض أبو طاهر القرمطيّ ركب العراق، ومعه ألف فارس وألف راجل، فوضعوا السيف واستباحوا الحجيج[١]، وساقوا الجمال بالأموال والحريم، وهلك الناس جوعاً وعطشاً، ونجا من نجا بأسوأ حال، ووقع النوح والبكاء ببغداد وغيرها، وامتنع الناس من الصلوات في المساجد، وَرجم الناس الوزير ابن الفرات، وصاحوا عليه أنت القرمطيّ الكبير. فأشار على المقتدر أنْ يكاتب مؤنساً الخادم ـ وهو على الرقة قد سعى ابن الفرات في اعادته إليها خوفاً منه ـ فقدم مؤنس الخادم، فركب إلى دار ابن الفرات للسلام عليه، ولم يتمّ مثل هذا من وزير، أو قال الوزير: فأسرع مؤنس إلى باب داره، وقبّل يده وخضع. وكان في حبس المحسن ـ ولد الوزير ـ جماعة في المصادرة، فخاف العزل، وأن يظهر عليه ما أخذ منهم فَسُمَّ علي بن عيسى، وذبح مؤنساً خادم حامد بن العباس وعبد الوهاب ابن ما شاء الله، فكثر الضجيج من المقتولين على بابه، ثم قبض المقتدر علىَ ابن الفرات وسلّمه إلى مؤنس، فعاتبه مؤنس، وتذلل هو له، فقال له مؤنس: الساعة تخاطبني بالأستاذ، وأمس تبعدني إلى الرقة، واختفى المحسن، ثم ظُفر به في زيّ امرأة قد خضّبت يدَيها بالحناء، فعذّب وأخذ خطّه بثلاثة آلاف دينار. ووِلّي الوزارة عبد الله بن محمد الخاقاني، فعذّب ابن الفرات، واصطفى أموالهم، فيقال أخذ منهم ألفي ـ دينار، ثم ألحّ مؤنس ونصر الخادم وهارون ابن خال المقتدر على المقتدر حتّى أذن في قتل ابن الفرات وولده المحسن، فذبحا.

عاش ابن الفرات إحدى وسبعين سنة، وكان جبّاراً فاتكاً سائساً كريماً متموّلاً يقدر على عشرة آلاف دينار، وقد ورد للمقتدر ثلاث مرات وقتل، وكان يدخل عليه من أملاكه في العام ألف ألف دينار. فكان القرمطي قد أسر طائفة من الحجّاج، منهم الأمير أبو الهَيجا عبد الله بن حمدان، فأطلقه وأرسل معه يطلب من المقتدر البصرةَ، والأهواز، فذكر أبو الهيجاء أنّ القرمطي قتل من الحجّاج ألفَيْ رجل ومائتين، ومن النساء ثلاثمائة، وفي الأسر

(١) انظر أخذ الحجاج في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٧٧.

مثلهم بَهجر.

وفي السنة المذكورة ذُبح ابن الفرات وولده المذكوران، ويقال عنه أنه كانت الأعراب كبسوا بغداد، ولمّا ولّي الوزارة في سنة أربع وثلاثمائة خُلع عليه سبع خلع، كان يوماً مشهوداً بحيث أنّه سَقَى من داره في ذلك اليوم والليلة أربعين ألف رطل ثلج[١].

* وفيها توفّي سَلَمة بن عاصم الضبي الفقيه صاحب ابن سُرَيْج، أحد الأذكياء. صنّف الكتب، وهو صاحب وجه، وكان يرى تكفير تارك الصلاة. وأبوه وجده من أئمة العربية.

سنة ثلاث عشرة وثلاث مائة

* فيها سار الركب العراقي ومعهم ألف فارس، فاعترضهم القرمطي بزُبالة[٢]، وناوشهم القتال، فرّد الناس ولم يحجّوا، ونزل القرمطي على الكوفة، فقاتلوه فغلب على البلد ونهبه، فندب المقتدر مؤنساً وأنفق في الجيش ألف ألف دينار.

* وفيها توفي الإمام اللغوي العلاّمة أبو القاسم ثابت بن حزم السرقسطيّ. قال ابن الفرضي: كان مفتياً بصيراً بالحديث والنحو واللغة والغريب والشعر، عاش خمساً وتسعين سنة.

* وفيها توفي عبد الله بن زيدان، قال محمد بن أحمد بن حماد الحافظ: لم تَرَ عيني مثله، كان أكثر كلامه في مجلسه: يا مقلب القلوب، ثبّت قلبي على طاعتك. وروي أنه مكث نحو ستين سنة، لم يضع جنبه على مضربه.

* وفيها توفي الحافظ أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي مولاهم السرّاج، صاحب التصانيف. قال أبو إسحاق المزكيّ: سمعته يقول: ختمت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اثنتي عشرة ألف ختمة، وضحيّت عنه اثنتي عشرة ألف أضحية، قال محمد بن أحمد الدقاق: رأيت السرّاج يضحّي كل أسبوع أو أسبوعين أضحية، ثم يجمع أصحاب الحديث عليها، ولقد ألّف السرّاج مستخرجاً على صحيح مسلم، وكان أمّاراً بالمعروف ونهاءً عن المنكر، عاش سبعاً وتسعين سنة.

سنة أربع عشرة وثلاث مائة

لم يحج فيها أحد من العراق خوفاً من القرامطة، ونزح أهل مكّة عنها خوفاً منهم،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٨٠: وكان إذا ولي الوزارة ارتفعت أسعار الثلج.

(٢) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، بين واقصة والثعلبية. (معجم البلدان).

وفيها توفّي أبو اللّيث نصر بن القاسم البغدادي الفرائضي، وكان ثقة.

سنة خمس عشرة وثلاث مائة

* فيها نازلت القرامطةُ الكوفةَ، فسار يوسف ابن أبي الساج[1]، فالتقاهم، فأُسِرَ يوسف، وانهزم عسكره، وقتل منهم عدّة. وسار القرمطي إلى أن نزل غربيّ الأنبار[2]، فقطع المسلمون الجسر، فأخذ يتحيّل في العبور، ثم عبر، وخرج نصر الحاجب ومؤنس، فعسكروا بباب الأنبار، وخرج أبو الهيجا ابن حمدان وإخوته، ثم ردّه القرامطة، فما صبر العسكر عليهم، ووقع عليهم الخذلان، وما كانت القرامطة سوى ألف وسبعمائة من فارس وراجل، والعسكر كانوا أربعين ألف فارس. ثم إنّ القرمطيّ قتل ابن أبي الساج وجماعة معه، وأشار إلى (هيت)، فبارز العسكر، ودخل الوزير علي بن عيسى على المقتدر وقال: قد تمكنت هيبة هذا الكافر من القلوب، فخاطب السيدة في مال تنفقه في الجيش، وإلاّ فمالك إلا أقاصي خُراسان، فأخبر أمّه بذلك، فأخرجت خمسمائة ألف دينار، وأخرج المقتدر ثلاث مائة ألف دينار. ونهض ابن عيسى في استخدام العساكر، وجدّدت على بغداد بخنادق، وعدمت هيبة المقتدر من القلوب، وشتمته الجند.

* وفيها توفّي الحافظ صاحب التصانيف أحمد بن علي بن الحسين الرازي النيسابوري.

* وفيها توفي أبو الحسن الأخفش الصغير علي بن سليمان البغدادي النحوي، أخذ عن ثعلب والمبرّد، وروى عنه المرزبانيّ وأبو الفرج المعاني وغيرهما. وكان ثقة، قال المرزباني: لم يكن بالمتّسع في الرؤية للأخبار، والعلم بالنحو، وما علمته صنّف شيئاً البتة، ولا قال شعراً، وكان إذا سُئل عن مسألة في النحو ضجر وانتهر من يسأله.

وقال أبو الحسن بن سنان: كان يواصل المقام عند أبي عليّ بن مُقْلة، وأبو عليّ يراعيه ويبّره، فشكا في بعض الأيام ما هو فيه من شدّة الفاقة، فسأله أن يعلم الوزير علي بن عيسى حاله، ويسأله إقرار رزق في جملة من يرتزق من أمثاله، فعرف الوزير أبو علي اختلال حاله، وتعذّر الوقوف عليه في أكثر أيامه، وسأله أن يجري عليه رزقاً فانتهره الوزير انتهاراً شديداً في مجلس حافل، فشقّ على ابن مقلة ذلك، وقام من مجلسه، وصار إلى منزله لإيماء نفسه. ووقف الأخفش على الصورة المذكورة فاغتمّ بها، وانتهت به إلى الحال التي

---

(١) انظر وصول القرامطة إلى العراق وقتل يوسف بن أبي الساج في الكامل لابن الأثير ٦/١٨٦ ـ ١٨٨.

(٢) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ. (معجم البلدان).

أكل الشحم، فقيل: إنه قبض على فؤاده، فمات فجأة في التاريخ المذكور. نسأل الله الكريم العفو والعافية واللطف الجميل واليسر الحصين في الدين والدنيا والآخرة، وقد تقدّم ذكر الأخفش الأكبر والأوسط في سنة خمس عشرة ومائتين.

سنة ست عشرة وثلاث مائة

* فيها دخل القرمطي الزوحية[١] بالسيف واستباحها ثم نازل الرقّة[٢]، وقتل جماعة، وتحوّل إلى هيت، فرموه بالحجارة، وقتلو صاحبه أبا الدرداء، فسار إلى الكوفة، ثم انصرف وبنى داراً سمّاها دار الهجرة، ودعا إلى المهدي وسار إليه كل مرتّب، ولم يحجّ أحد هذه السنة، واستعفي ابن عيسى من الوزارة، وولي بعده علي[٣] بن مقلة، وهو كاتب. قلت: وهذا مشكل، وقد تقدّم في سنة اثنتي عشرة وثلاث مائة أن علي بن عيسى سُمّ ولكن يحتمل أنّه سمّ ولم يمت بذلك السم.

* وفيها توفي الشيخ الكبير الولي الشهير أبو الحسن بنان[٤] الحمّال نزيل مصر وشيخها، كان ذا منزلة جليلة وأحوال جميلة وكرامات عديدة، صحب الجنيد، وحدّث عن الحسن بن محمد الزعفراني وجماعة. توفّي في رمضان وخرج في جنازته أكثر أهل مصر.

ومن كراماته أنّه جاءه إنسان، وذكر أنه ضاع له قرطاس فيه تنزيل، له صورة من المال، وسأله أن يدعو له بحفظه، فقال له: أنا رجل كبير وأشتهي الحلواء، اشترِ لي كذا وكذا منها، فذهب واشترى له منها الذي طلب، فلمّا جاءه بها تناول منها شيئاً يسيراً ثم قال: اذهب وأطعمها صِبْيانك فلمّا ذهب بها إلى بيته وجد ذلك القرطاس هو الذي ضاع له.

* ومنها أنه ألقاه بعض الخلفاء بين يدي الأسد في حال غضبه عليه، فصار الأسد يشمّه، ولم ينله بسوء، فقيل له: كيف كنت في وقت شمّ الأسد لك؟ فقال: كنت أفكر في اختلاف العلماء في طهارة[٥] لعاب السباع.

---

(١) لم أجد مكاناً بهذه التسمية في معجم البلدان، ولعلّها الرحبة، جاء في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٩١: ثم سار إلى الرحبة فدخلها ثامن المحرم بعد أن حاربه أهلها فوضع فيهم السيف.

(٢) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام. (معجم البلدان).

(٣) في الكامل لابن الأثير ١٩٢/٦: عزل علي بن عيسى عن وزارة الخليفة ورتب فيها أبو علي بن مقلة.

(٤) في الوافي بالوفيات ٢٨٩/١٠/٦: الحمّال الزاهد: بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الواسطي، أبو الحسن الزاهد الكبير، ويعرف بالحمال، نزيل مصر. أمر ابنَ طولون بالمعروف فأمر أن يلقى بين يدي السبع فجعل يشمّه ولا يضرّه...

(٥) في الوافي بالوفيات للصفدي ٢٩٠/١٠/٦: فقال: كنت أتفكّر اختلاف الناس في سؤر السباع ولعابها.

* ومنها أنه انبسط إلى اخوانه في شراء جارية فقالوا: يقدم النفر، فإذا قدم اشترينا له جارية تصلح له. فلما قدم النفر أجمع رأيهم على جارية أنّها تصلح له، فكلّموا صاحبها في بيعهم إياها فامتنع، فألحوّا عليه فقال: إنها ليست للبيع، إنها أهْدتها امرأة من سَمَرْقَنْد[١] للشيخ بنان الجمال، فحملت إليه.

* وفيها توفّي الحافظ عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرايني، صاحب المسند الصحيح، رحل إلى الشام والحجاز واليمن ومصر والجزيرة والعراق وفارس وأصبهان، روى عن يونس بن عبد الأعلى، وعلي بن حرب، ومحمد بن يحيى الذهلي، ومسلم بن الحجّاج، والمزني والربيع والحسن الزعفراني وغيرهم ممّن في طبقتهم. وعلى قبره مشهد بأسفرايين[٢]، وكان مع حفظه فقيهاً شافعياً إماماً، روى عنه جماعة، منهم أبو بكر الإسماعيلي، وحجّ خمس حجج وقال: كتب إليّ محمد بن إسحاق:

فــإن نحــن التقينــا قبــل مــوت ... سقينا النفس من غصص العتاب
وإن سبقــت بنــا أيــدي المنــايــا ... فكــم مــن غــائــب تحــت التــراب

وقال أبو عبد الله الحاكم: أبو عوانة من علماء الحديث وأثباتهم، ومن الرجالة في أقطار الأرض.

* وفيها توفّي محمد بن السري النحوي المعروف بابن السرّاج، كان أحد الأئمة المشاهير، مجمعاً على فضله وجلالة قدره في النحو والأدب، أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد وغيره، وأخذ عنه جماعة من الأعيان، منهـم السيرافي والرمّاني وغيرهما.

ونقل عنه الجوهري في الصحاح في مواضع عديدة، وله التصانيف المشهورة في النحو منها: (كتاب الأصول)، وهو من أجود الكتب المصنّفة في هذا الشأن، وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه. (وشرح كتاب سيبويه)، و (كتاب الشعر والشعراء)، و (كتاب الرياح والهواء والنار) مع كتب أخرى، ومن الشعر المنسوب إليه.

ميّـزت بيــن جمــالهــا وفعــالهــا ... فــإذا المــلاحــة بــالخيــانــة لا تفــي
حلفـت لنـا أن لا تخـون عهـودهـا ... وكــأنمــا حلفــت لنــا أن لا تفــي

---

(١) سمرقند: بلد مشهور هو قصبة الصفد. (معجم البلدان)، وتقع شرقي بخارى بين نهري سيحون وجيحون.

(٢) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. (معجم البلدان).

قلت: وهذان البيتان يحسن استعارتهما لوصف الدنيا، وقيل أنّهما لابن المعتزّ، وقيل: لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر معهما بيت ثالث وهو:

والله لا كلّمتهـــا ولـــو انّهـــا كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي

فأنشدها وزير المكتفي له فقال: لمن هي؟ قال: لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر. فأمر له بألف دينار، فوصل إليه فقال ابن الزنجي: ما أعجب هذه القصة، يعمل ابن السراج أبياتاً تكون سبباً لوصول الرزق لابن طاهر!!

سنة سبع عشرة وثلاث مائة

* فيها هجم مؤنس الخادم وأكثر الجيش على دار الخلافة، وأخرج المقتدر وأمّه. وخالته وحرمه إلى دار مؤنس، وأحضروا محمد بن المعتضد من الحبس وبايعوه، ولقّبوه القاهر بالله، وقلّدوا لابن مقلةِ وزارته، ووقع النهب في دار الخلافة ببغداد، وأشهد المقتدر على نفسه بالخلع، وجلس القاهر من الغد، وصار (نازوك)[1] حاجبه، فجاءت الجند ودخلوا، وطلبوا رزق البيعة ورزق سنة، وعظم الصياح، ثم وثب جماعة على نازوك فقتلوه، وقتلوا خادمه، ثم صاحوا فالمقتدر[2] يا منصور؛ فهرب الوزير والحجّاب والقاهر، وساروا ووصلوا إلى مؤنس ليرّد المقتدر، وسدّت المسالك على القاهر وأبي الهيجاء، ثم جاشت نفسه فقال: يا آل ثعلب، فرمي بسهم فيما بين ثدييه وأخرى في نحره ثم جزّ رأسه، وأحضروا المقتدر، وأُلقيَ بين يديه الرأس، ثم أُسِرَ القاهر، وأُتي به إلى المقتدر، فاستدناه، وقبّل جبينه وقال: أنت لا ذنب لك يا أخي ـ وهو يقول اللَّهَ اللَّه يا أمير المؤمنين في نفسي ـ فقال: واللَّهِ لا ينالك منّي سوء، فطيفَ برأس نازوك، ورأس أبي الهيجا، ثم أتىٰ مؤنس والقضاة، وجدّدوا البيعة للمقتدر، فبذل في الجند أموالاً عظيمة، وباع في بعضها ضياعاً وأمتعة، وماتت القهرمانة التي كانت تجلس للناس بدار العدل.

وحجّ بالناس منصور الدّيلمي فدخلوا مكة سالمين، فوافاهم يومَ التروية عدوُّ الله تعالى أبو طاهر القرمطي، فقتل الحاجّ قتلاً ذريعاً في المسجد وفي فجاج مكة، وقتل أمير مكة ابن محارب، وقلع باب الكعبة، واقتلع الحجر الأسود[3]، فأخذه إلى (هَجَر) ولم يَرِدْ إلاّ في سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة كما سيأتي، وكان معه تسعمائة أنفس، فقتلوا في المسجد ألفاً وسبعمائة نسمة، وقيل ثلاثة عشر ألفاً، وصعد على باب البيت وصاح:

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٠٠: نازوك صاحب الشرطة.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٠١: يا مقتدر يا منصور.

(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

أنـــا بـــاللّـــه وبـــاللّـــه أنـــا أنـــا أخلـق الخلـق وأفنيهـم أنـــا

وقيل: إنّ الذين قُتِلوا بفجاج مكة، فظاهرها ثلاثون ألفاً، وسُبي من النساء والصبيان نحو ذلك. وأقام بمكّة ستة أيام ولم يحجّ أحد.

وقال محمود الأصبهاني: دخل القرمطي وهو سكران، فصفّر لفرسه، فَبَالَ عند البيت. وقتل جماعة، ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس، فكسر منه، ثم قلعه وبقي الحجر الأسود بهَجر نيّفاً وعشرين سنة. ولما قلع الحجر الأسود قال شعراً يدلّ على عظيم زندقته حيث يقول:

فلـو كـان هـذا البيـت للّـهِ ربنـا لصبّ عليـا النـار مـن فـوقنـا صبّـا
لأنّـــا حجَجْنـــا جـــاهليـــة محلّلـة لـم تُبـقِ شـرقـاً ولا غـربـا
وإنّـا تـركنـا بيـن زمـزم والصفـا جبـابـر لا نبقـي سـوى ربّهـا ربّـا

وشعر هذا الزنديق مشهور في التواريخ، قلت: وقد أوضحت في كتاب المزهم ظهور هؤلاء القرامطة الزنادقة في أيّ السنين، وفي أيّ البلاد، ومدّة ظهورهم، وإمامهم ودعاته.

وكانت فتنتهم قد عمّت كثيراً من الآفاق منها اليمن والشام والعراق، وكان من دُعاتهم في اليمن الشيطان الزنديق علي بن فضل، ما زال يدعو إلى مذهبهم سرّاً مظهراً مذهب الرفض، وفي قلبه الكفر المحض، ويزعم أنه يدعو إلى مذهب أهل البيت وحبّهم، إلى أن أفسد خلقاً كثيراً، وملك حصون اليمن شيئاً فشيئاً، ثم ملك مدنها منها عدن وزبيد وصنعاء. فطردَ الناصر بن الهادي إمام الزيدية من (صَعْدَه)، واستولى على جبال اليمن وتهامة، وقتل خلائق لا يحصون من أهلها، فلما تمهد له الملك، وتمكن في الأرض، أظهر الزندقة والكفر المحض، وأمر جواريه أنْ يغنين بالدفوف على منبر الجند بشعره الذي تزندق فيه وألحد، وأنكر دين الإسلام وجحدَ وهو:

خـذِ الـدفّ يـا هـذه واضـربـي وغنّـي هـزاريـك ثـم اطـربـي
تـوفّـي نبـيّ بنـي هـاشـم وهـذا نبـيّ بنـي يعـربِ
فقـد حـطّ عنـا فـروض الصـلا ة وحـطّ الـزكـاة ولـم يتعـبِ
إذا النـاس صلّـوا فـلا تنهضـي وإن صـوّمـوا فكُلـي واشـربـي
ولا تطلبـي السعـيَ عنـد الصفـا ولا زورة القبـر فـي يثـربِ

وشعر طويل وكلّه في إباحة محارم الله تعالى والتحليل، وجحد الفروض التي جاء بها محكم التنزيل، محرضاً اللعين على نبذ دين الإسلام والتضليل ثم قُتل اللعين الشيطان

الرجيم، وذهب لا ردّه اللّٰه إلا إلى النار الجحيم، قتله بعض قبائل اليمن:

وكان ظهوره في الابتداء في جبل (مِسْور) بكسر الميم وسكون السين المهملة وفتح الواو وفي آخره راء ـ جبل في حراز في بلاد اليمن مشهور، وحواليه الإسماعيلية الآن متمسّكون بمذهب الضلال والغرور، ويشعلون نار الحرب والشرور، ويشتغلون للقرامطة في البلدان ذكره يطول، ولم يزالوا متظاهرين بمذهب الزندقة والضلال، إلى أنْ ذهب مذهبهم الخبيث وزال، وبقيت الإسماعيلية الباطنيّة باعتقاد مذهبهم الخبيث، يتظاهرون عندنا بالتمسك بأحكام الشرع، وعلى تعطيلها في الباطن واستباحة ما حرّم الله تعالى يصّرون. وكان ظهور مذهب القرامطة إحدى فتنتين عظيمتين في اليمن.

والفتنة الثانية: أن الشريف الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، لمّا قام في (صعدة)[1] ومخاليف صنعاء دعا الناس إلى التشيّع عند استقراره في صنعاء، وهذه الفتنة أهون من الأولى، وكلّ أهل اليمن صنفان: إمّا مفتون بهم، وإمّا مخالف لهم متمسك بأحكام الشريعة.

وفي السنة المذكورة قتل بمكة الإمام أحمد بن الحسين شيخ الحنفيّة ببغداد، وقد ناظره مرّة داود الظاهري، فقطع داود، ولكنّه معتزلي الاعتقاد.

* وفيها توفّي الحافظ الشهيد أبو الفضل محمد بن أبي الحسين الهروي، قُتل بباب الكعبة.

* وفيها توفّي المنجّم المشهور الحاسب صاحب الزّيج والأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة محمد بن جابر الرقّي البَتّاني[2] (بفتح الموحدة وتشديد المثّناة من فوق، وقيل ياء النسبة نون)، وأحد عصره في وقته. توفّي في موضع يقال له الحَضْر[3]، (بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وبعدها راء)، وهي مدينة بالقرب من الموصل، وكان صاحبها الساطِرون (بالسين والطاء والراء المهملات)، فحاصرها أزدشير أول ملوك الفرس، وأخذ البلد وقتله، وقيل إن الذي قتله سابور (بالسين المهملة والباء الموحدة) ذو الأكتاف، وهو الذي ذكره ابن هشام في سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، قالوا: والأوّل أصحّ، وكان إقامة أزدشير على حصاره أربع سنين، ولم يقدر حتى فتحت له ابنة الملك

---

(١) صعدة: مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخاً. (معجم البلدان).

(٢) بتّان: من نواحي حرّان، ينسب إليها محمد بن جابر البتّاني. (معجم البلدان).

(٣) الحضر: اسم مدينة بإزاء تكريت في البرّية، بينها وبين الموصل والفرات. (معجم البلدان).

الساطِرون، (بكسر الطاء) وسبب ذلك أنها كانت عادتهم إذا حاضت المرأة أنزلوها إلى الرّبض، وحاضت ابنة الملك المذكور، وكانت في غاية الجمال، فأنزلوها إلى الربض، فأشرفت ذات يوم فأبصرت أزدشير من أجمل الرجال، فهوته، وأرسلت إليه أن يتزوّجها وتفتح له الحصن، واشترطت عليه. فألزم لها ما طلبت، ثم اختلفوا في السبب الذي دلّته عليه حتّى فتح الحصن، فالذي قاله الطبري أنّها دلّته على طلّسم في الحصن، وكان في علمهم أنه لا يُفتح حتّى تؤخذ حمامة زرقاء، ثم يرسل الحمامة فتنزل على سور الحصن، فيقع الطلسم، فيفتح الحصن، ففعل أزدشير ذلك، واستباح الحصن حينئذ، وخرّبه وأباد أهله. وسار بينت الملك، وتزوّجها. فبينا هي نائمة على فراشها ليلاً إذ جعلت تتململ لا يأخذها النوم، فقال لها زوجها: أراك لا تنامين؟ قالت: ما نمت على فراش أحسن من هذا الفراش، وأنا أحسّ شيئاً يؤذيني. فأمر بالفراش فأبدل، فلم تنم أيضاً حتّى أصبحت وهي تشتكي جنبها، فنظر إليها فإذا ورقة آسٍ قد لصقت ببعض عكّتها، وقد عذّبتها، فعجب من ذلك وقال: أهذا الذي أسهرك؟ قالت: نعم، قال: فما كان أبوك يصنع لك؟ قالت: كان يفرش لي الديباج، ويلبِسُني الحرير، ويطعمني المخّ والزبد والشهد من أبكار النحل، ويسقيني الخمر الصافي. قال: فكان جزاء أبيك ما صنعت به؟ أنتِ إلي بذلك أسرعُ. ثم أمر بها فشدّت دوائبها إلى فرسين جامحين؛ ثم أرسلا فقطعاها. قال بعض المؤرخين: وإنما ذكرت هذه الحكاية لكونها غريبة.

* وفيها توفّي مضر بن أحمد الخبزأرزّي. كان أميّاً، وكان يخبز خبز الأرُزّ وينشد الأشعار المقصودة على الغزل، والناس يزدحمون عليه، ويتظرّفون باستماع شِعره، ويتعجّبون من حاله وأمره، وذكره جماعة من كبار المؤرخين، وأوردوا له عدة مقاطيع من شعره، فمن ذلك قوله:

خليليّ هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولى يمشي إلى عبد
أتي زائراً من غير وعد وقال لي ... أجلك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الوصل بيني وبينه ... تدور بأفلاك السعادة والسعد

وحكى الخالد بأن الشاعر المشهور - في كتاب الهدايا والتحف - الخبزأرزّي المذكور، أهدى إلى والي البصرة فصّاً وَكتبَ معه:

أُهديتَ ما لو أنّ أضعافه ... مطّرح عندك ما بانا
كمثل بلقيس التي لم يبِنْ ... إهداؤها عندَ سُليمانا
هذا امتحان لك إن ترضَه ... بانَ لنا أنّك ترضانا

والشيء بالشيء يذكره. وفي الكتاب المذكور نادرة لطيفة ظريفة، وفي ذكرها إتحاف وإظراف لسامعها، وهي أن اللباديّ الشاعر خرج من بعض مدن أذربيجان يريد أخرى، وتحته مُهْرٌ له راتع، وكانت السنة مجدبة، فضمّه الطريق وغلاماً حدثاً على حمار له، قال: فحادثته فرأيته أديباً راوية للشعر، خفيف الروح، حاضر الجواب، جيّد الحجة. فسرنا بقيّة يومنا، فأمسينا إلى خانٍ على ظهر الطريق، وطلبت من صاحبه شيئاً تأكله، فامتنع أن يكون عنده شيء، فرفقت به إلى أن جاءني برغيفين، فأخذت واحداً، ودفعت إلى الغلام الآخر. وكان غميّ على المهر أن يبيت بغير علف أعظم من غمّي على نفسي، فسألت صاحب الخان عن الشعير فقال: ما أقدر منه على حبة واحدة، فقلت: فاطلب، وجعلت له جعلاً على ذلك، فمضى وجاءني بعد زمن طويل وقال: وجدت مكّوكَيْن عند رجل، وحلف بالطلاق أنه لا ينقصهما عن مائة درهم، فقلت: ما بعد يمين الطلاق كلام، فدفعت إليه خمسين درهماً، فجاءني بمكّوك، فعلّفته على دابتي، وجعلت أحادث الفتى، وحماره واقف بغير علف، فأطرق مليّاً ثم قال: اسمع ـ أيدك الله ـ أبياتا حضرت الساعة، فقلت: هاتها فأنشد:

يا سيدي، شِعري نفاية شعركا ... فلِذاك نظمي لا يقوم بنشركا
وقد انبسطت إليك في إنشادِ ما ... هو في الحقيقة قطرة مِنْ بحركا
آنستني وبرَزْتني وقَرَيتني ... وجعلتَ أمري من مقدّم أمركا
وأريد أذكر حاجة إنْ تقضِها ... لك عند مدحك ـ ما حييتُ ـ وشكركا
أنا في ضيافتك العشيّة ها هنا ... فاجعل حماري في ضيافة مُهْركا

فضحكت واعتذرت إليه من إغفال أمر حماره، وابتعت المكّوك الآخر بخمسين درهماً، ودفعته إليه.

سنة ثمان عشرة وثلاث مائة

* فيها توفّي الحافظ الحجّة محمد[1] بن يحيى بن صاعد البغدادي مولى بني هاشم. قال أبو علي النيسابوري: لم يكن بالعراق في أقران ابن صاعد أحد أجلّ في الفهم والحفظ من ابن صاعد، وهو فوق أبي بكر بن داود فهماً.

* وفيها توفّي الحافظ عبد الله بن محمد بن مسلم الأسفرايني المصنّف.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عَروبة، الحسن بن أبي معشر محمد بن مودود السلمي

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢١٢: يحيى بن محمد بن صاعد البغدادي، وكان عمره تسعين سنة.

الحرّاني، وهو في عشر المائة.

* وفيها: وقيل في التي تليها توفّي الحسن بن علي بن عوف بن العلاّف النهرواني الشاعر المشهور. حدّث عن أبي عمرو الدوري المقرىء، وحميد بن مسعدة المصري، ونصر بن علي الجهضمي وغيرهم، وروى عنه جماعة منهم: أبو حفص بن شاهين وغيره، وكان ينادم الإمام المعتضد بالله. وحكى قال: بتّ ليلة في دار المعتضد مع جماعة من ندمائه، فأتانا خادم ليلاً فقال: أمير المؤمنين يقول: أرقت الله بعد انصرافكم. فقلت:

ولما انتهينا للخيال الذي سرى إذ الدار قفر والمزار بعيد

قد أُرتج على تمامه، فمن أجازه بما يوافق غرضي أمرت له الجائزة. قال: فأُرتج على الجماعة، وكلّهم شاعر فاضل، فابتدرت وقلت:

فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي لعلّ خيالاً طارقاً سيعود

فرجع الخادم، ثم عاد فقال: أمير المؤمنين يقول: قد أحسنتَ، وأمر لك بجائزة.

سنة تسع عشرة وثلاث مائة

* فيها استوحش[١] مؤنس من المقتدر والوزير، وجعل يمقت على المقتدر، ويتحكّم عليه في إبعاد الناس وتقريب غيرهم، ثم خرج بأصحابه إلى الموصل معارضاً، فاستولى الوزير على حواصله، وفرح المقتدر بالوزير، وكتب اسمه على السكّة. وكان مؤنس في ثمانمائة، فحارب جيش الموصل، وكانوا ثلاثين ألفاً، فهزمهم وملك الموصل في سنة عشرين. ولم يحجّ أحد من بغداد، وأخذ الديلميّ الدِينور[٢]، ففتك بأهلها، ووصل إلى بغداد من الهزم، ورفعوا المصاحف على القضيب، واستغاثوا وَسَبَوْا المقتدر، وغلقت الأسواق، وخافوا من هجوم القرامطة.

* وفيها توفي الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن القرشي محدّث دمشق. وفيها توفي الكعبي شيخ المعتزلة أبو القاسم البلخي[٣].

وفيها توفّي السيد الجليل محمد بن الفضل البلخي الواعظ. قيل مات في مجلسه أربعة أنفس.

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٦/٢١٣.

(٢) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بين الدينور وهمذان نيّف وعشرون فرسخاً. (معجم البلدان).

(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/٢١٧: أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي.

* وفيها أو قبلها توفي أبو عبد الله الزبير بن أحمد الزبيري الفقيه الشافعي المازني ـ والزبيري نسبة إلى الزبير بن العوام ـ كان إمام أهل البصرة في عصره ومدرّسها، حافظ المذهب، مع حظّ من الأدب. قدم بغداد وحدّث بها عن جماعة، وروى عنه النقاش صاحب التفسير وآخرون. وكان ثقة صحيح الرواية، وله مصنّفات كثيرة منها: (الكافي) في الفقه، و (كتاب رياضة المتعلّم)، و (كتاب النيّة)، و (كتاب الهداية)، وغير ذلك من الكتب، وله في المذهب وجوه كثيرة.

سنة عشرين وثلاث مائة

* فيها تجهّز مؤنس والعساكر إلى بغداد، فأشار الأمراء على المقتدر بالإنفاق على العساكر، فعزم على التوجّه إلى واسط في الماء ليستخدم منها ومن البصرة والأهواز، فقال له محمد بن ياقوت: اتّقِ الله ولا تسلّم بغداد بلا حرب. فلما أصبحوا ركب في موكبه ـ وعليه البردة وبيده القضيب، والقراء والمصاحف حوله، والوزير خلفه ـ فسبق بغداد إلى الشماسية[1]، وأقبل مؤنس في جيشه، وشرع القتال، فوقف المقتدر على تلّ، ثم جاء إليه ابن ياقوت وأبو العلا بن حمدان، فقال له: تقدّم، ـ وهم يستدرجونه ـ حتّى صار في وسط المصافّ في طائفة قليلة، فانكشف أصحابه، وأسر منهم جماعة، وأبلى ابن ياقوت وهارون بن غريب بلاءً حسناً، وكان معظم جيش مؤنس خادم البريد، فعطف جماعة من البريد على المقتدر، فضربه رجل من خلفه ضربة فسقط إلى الأرض، وقيل رماه بحربة وجزّ رأسه بالسيف، ورفع على رمح، ثم سُلب ما عليه، وبقي مهتوك العورة حتّى سُتر بالحشيش، ثم حفر له حفرة، فضمّته وعفى أثره، وكانت خلافته خمساً وعشرين سنة إلا بضعة عشر يوماً. وكان مسرفاً مُبذراً، ناقص الرأي، يمحق الذخائر، حتّى أنه أعطى بعض جواريه الدرّة اليتيمة، وزنها ثلاثة مثاقيل، يقال أنه ضيّع[2] من الذهب ثمانين ألف دينار.

وفي أيامه اضمحلّت دولة الخلافة العباسية وضعفت. قالوا: وكان جيّد العقل والرأي، لكنّه يؤثر اللعب والشهوات، غير ناهض بأعباء الخلافة. وكانت أمّه وخالته والقهرمانة يدخلن في الأمور الكبار والولايات والحلّ والعقد.

ولما حمل رأس المقتدر إلى مؤنس بكى وندم وقال: قتلتموه، والله لنقتلنّ كلّنا. فأظهروا أنّ قتله كان عن غير قصد، ثم بايعوا القاهر بالله الذي قد بايعوه في سنة سبعَ عشرةَ،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٢١: فنزل مؤنس باب الشماسية.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٢٢: وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيّفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة.

فصادر بعضَ أصحاب المقتدر، وعذّب أمّه ـ وهي مريضة ـ ثم ماتت وهي معلّقة بحبل. وبالغ في الظلم، فمقته القلوب. وكان ابن مقلة قد نفي إلى الأهواز، فاستحضره واستوزره.

* وفيها توفّي الحافظ محدّث الشام، أبو الحسن محمد بن عمر.

* وفيها أو قبلها أو بعدها توفّي القاضي الحافظ محمد بن يحيى المدني، قاضي عدن، نزيل مكّة. كان من جملة الحفّاظ وأكابر العلماء، سمع منه الإمامان الحافظان: مسلم بن الحجّاج النيسابوري، وأبو عيسى محمد بن سَوْرة الترمذي. أخذ عن سفيان بن عُيَيْنة الهلالي، وعبد العزيز الدراوردي، ووكيع بن الجرّاح، وأبي معاوية وغيرهم، وروى عنه الترمذيّ أنه قال: حججت ستّين حجّة ماشياً على قدمي.

* وفيها توفّي أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفِرَبْري[1]، صاحب البخاري.

* وفيها توفّي قاضي القضاة محمد بن يوسف الأزدي مولاهم، وكان من خيار القضاة حلماً وعقلاً وصلابة وذكاء وإصابة.

* وفيها توفّي الفقيه الإمام الكبير الشأن المشهور بأبي علي بن خيران الشافعي المذهب. عُرض عليه القضاء ببغداد في خلافة المقتدر، فامتنع وختم على بيته، وضيّق عليه عدّة أيام ليقبل، فلم يقبل. وكان يعاتب ابن شريح على توليته ويقول: هذا الأمر لم يكن فينا، وإنّما كان في أصحاب أبي حنيفة ـ رحمهم الله تعالى ـ وعوتب الوزير علي بن عيسى على تضييقه فقال: إنّما قصدت ذلك ليُقال: كان في زماننا مَنْ وكّل بداره لتقليد القضاء فلم يقبل.

* وفيها توفّي أمير المؤمنين المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله بن الموفّق بن المتوكل بن المعتصم العباسي، كما تقدّم ذكر قتله، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة.

* وفيها توفّي أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ـ على خلاف فيه ـ يأتي مع بعض أوصافه في سنة أربع وعشرين.

---

(١) في الأنساب للسمعاني ٤/ ٣٥٩: الفربري: هذه النسبة إلى فَرَبْر، وهي بلدة على طرف جيحون مما يلي بخارى، ينسب إليها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري ـ وقال أبو الحسين الدارقطني: فربر بلدة بخراسان منها محمد بن يوسف بن مطر الفربري ـ وكانت ولادته سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ومات يوم الأحد لثلاث خلون من شوال سنة عشرين وثلاثمائة.

سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة

* فيها بدتْ من القاهر شهامة وإقدام، فتحيّل حتى قبض على مؤنس الخادم وجماعة، ثم أمر بذبحهم[١]، ثم طيف برؤوسهم ببغداد، فاستقامت له بغداد، وأطلقت أرزاق الجند، وعظمت هيبة القاهر في النفوس، ثم أمر بتحريم القينات والخمر، وقبض على المغنّين، ونفى المخنّثين، وكسر آلات الطرب، إلا أنه قيل: كان لا يكاد يصبر من السكر، ويسمع القينات.

* وفيها توفّي أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأزدي الفقيه الحنفي المصري. برع في الفقه والحديث، وصنّف التصانيف المفيدة. قال الشيخ أبو إسحاق: انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بمصر، وقال غيره: كان شافعيّ المذهب، يقرأ على المزنيّ، فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك. وانتقل إلى جعفر بن عمران الحنفي، واشتغل عليه، فلما صنّف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم يعني المزنيّ ـ لو كان حياً لكفّر عن يمينه.

وذكر أبو علي الخليلي في كتاب الإرشاد في ترجمة المزني: إن الطحاويّ المذكور كان ابن أخت المزني، وأن محمد بن أحمد الشروطي قال: قلت للطحاوي: لم خَالفتَ خالك، واخترت مذهب أبي حنيفة؟ فقال: لأنّي كنت أرى خالي يُديم النظر في كتب أبي حنيفة، فلذلك انتقلت إليه. وصنّف كتباً مفيدة، منها: (أحكام القرآن)، و (اختلاف العلماء)، و (معاني الآثار)، و (الشروط) وله (تاريخ) كبير، وغير ذلك. ونسبته إلى (طَحَا)[٢] وهي قرية بصعيد مصر، وإلى الأزد وهي قبيلة كبيرة مشهورة من قبائل اليمن.

* وفيها توفّي أبو هاشم الجُبّائي[٣] شيخ المعتزلة، وابن شيخهم، وكان له ولد عاميّ لا يعرف شيئاً، ، فدخل يوماً على الصاحب بن عبّاد، فظنّه عالماً، فأكرمه ورفع مرتبته، ثم سأله عن مسألة فقال: لا أدري نصف العلم، فقال الصاحب: صدقت يا ولدي، لأنّ أباك تقدّم بالنصف الآخر. (والجُبَّائي) بضم الجيم وتشديد الموحدة، نسبة إلى جُبّا، قرية من

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٦/٢٢٩.

(٢) طحا: كورة بمصر شمالي الصعيد في غربي النيل، واليها ينسب أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة ابن عبد الملك بن سلمة بن سليم الأزدي الحجري المصري الطحاوي الفقيه الحنبلي. (معجم البلدان).

(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٣٤: أبو هاشم عبد السلام بن محمد أبي علي الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان. عالم بالكلام، من كبار المعتزلة، له آراء تفرّد بها، وتبعته فرقة تسمى ـ البهشمية ـ نسبة إلى أبي هاشم، مولده ووفاته ببغداد.
ـ وجاء في معجم البلد: جُبّى: وهي في طرف من البصرة والأهواز.

قرى البصرة، وقيل كورة ذات قراء.

* وفيها توفي الإمام الحافظ اللغوي العلاّمة أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، صاحب التصانيف، عاش ثمانياً وتسعين سنة. قال بعضهم: ما رأيت أحفظ من ابن دريد، ما رأيته قُرِىء عليه ديوان إلا وهو يسابق في قراءته. وقال الدارقطني: تكلّموا فيه، وتصانيفه بضع عشرة منها: (كتاب الجمهرة)، وهو من الكتب المعتبرة في اللغة. و (كتاب غريب القرآن) ولم يكمله، و (كتاب الوشاح) صغير مفيد، وله نظم رائق جدّاً. وقد قال بعضهم: ابن دريد أعلم بالشعر، وأشعر العلماء. ومن مليح شعره قوله:

عن الوجلت الخدور شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم تشرقِ
غصنٌ على دِعْصٍ تأوّد فوقه ... قمر تألّف تحت ليل مطبقِ[1]
لو قيل للحسن احتكم لم يعدها ... أو قيل خاطب غيرها لم ينطقِ
فكأنّنا من فرعها في مغرب ... وكأنّنا من وجهها في مشرقِ
تبدو فتهف بالعيون ضياؤها ... الويل حلّ بمقلة لم تطبق

أخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشيّ وعبد الرحمن بن عبد الله ابن أخي الأصمعي، وأبي عثمان سعيد بن هارون وغيرهم، وتنقّل في البلدان، فسكن البصرة وعمان ونواحي فارس وصحب ابني ميكائيل ـ وكانا يومئذ على عمالة فارس ـ وعمل لهما (كتاب الجمهرة)، وقلّداه ديوان فارس، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ الأمر إلا بعد توقيعه، فأفاد منها أموالاً عظيمة.

وكان مُبيداً لا يمسك درهماً شحّاً وكرهاً. ومدحهما بقصيدته المقصورة، فوصلاه بعشرة آلاف درهم، وهكذا، قال ابن خلكان: ابني ميكائيل.

وقال في موضع آخر من تاريخه في مدح عبد الله بن محمد بن ميكائيل وولده ـ ويقال أنه أحاط فيها بأكثر المقصورة ـ أوّلها:

إمّا تري رأسِيَ حاكى لونه ... طُرّة صبح تحت أذيال الدُّجى
واشتعل المبيضُّ في مسوّدة ... مثل اشتعال النار في جَزْل الغَضَا

ثم انتقل ابن دريد من فارس إلى بغداد سنة ثمان وثلاثمائة بعد عزل ابني ميكائيل وانفصالهما إلى خراسان، فأمر المقتدر أن يُجرى عليه كلّ شهر خمسون ديناراً، ولم تزل جارية عليه إلى حين وفاته. وكان واسع الرواية، وعرض له في رأس تسعين من عمره فالج،

---

(١) الدعص: كثيب الرمل المجتمع.

سقي له الترياق فبرىء، وصحّ ورجع إلى إسماع تلامذته، ثم عاوده الفالج، فبطلت حركته، وكان إذا دخل عليه الداخل ضجّ وتألّم. قال تلميذه ابن القالي: فكنت أقول في نفسي: عاقبه الله تعالى. لقوله في مقصورته.

مارست مَنْ لو هَوَتِ الأفلاك من جوانب الحقّ عليه ما شكا

وما كان يصيح صياحَ من يغشى، أو يُسأل بالمسائل، والداخل بعيد منه، وهو مع ذلك ثابت الذهن كامل العقل، يردّ فيما يُسأل عنه ردّاً صحيحاً، وعاش بعد ذلك عامَين. وكان كثيراً ما يتمثّل:

فواحزني أنْ لا حياة لذيذة ولا عمل ـ يرضى به اللّه ـ صالحُ

وتوفي يوم توفّي فيه أبو هاشم الجُبّائي المعتزلي. فقال الناس: مات اليوم علم اللغة والكلام (ودُرَيْد) تصغير درد، وهو الذي ليس فيه سنّ، كَسُوَيد في تصغير أسود. وكان قد قام مقام الخليل بن أحمد، وأورد أشياء، وكان يذهب بالشعر كلّ مذهب، (وشرح مقصورته) خلق من المتقدّمين والمتأخّرين، ومن أجود شروحها شرح الفقيه محمد بن أحمد اللخمي السبتي، وعارضه جماعة، ورثاه بعضهم فقال:

فقدتُ بابنِ دريد كلّ فائدة لِما عدا نالت الأحجار والتربِ
وكنت أبكي لفقد الجود منفرداً فصرتُ أبكي لفقد الجود والأدبِ

* وفيها توفّي مؤنس الخادم الملقّب بالمظفّر، وعمره نحو تسعين سنة، وكان أميراً معظّماً شجاعاً منصوراً، وقد تقدّم ذكر قتله، ولم يبلغ أحد من الخدّام منزلته إلاّ كافور الأخشيديّ صاحب مصر. وسيأتي ذكره في ترجمته ـ إن شاء الله تعالى ـ قلت يعنون في ولايات الدنيا ورفعتها عند أهلها.

سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة

* فيها قبض المماليك القاهر، هجموا عليه وهو سكران نائم، فقام مرعوباً، وهرب فتبعوه إلى السطح، وبيده سيف، ففوق[1] واحد منهما سهماً وقال: انزل وإلاّ قتلتك؛ فنزل فقبضوا عليه بعد أن قال: انزل فنحن عبيدك. وأخرجوا محمد بن المقتدر، ولقّبوه الراضي بالله، وكُحِّل[2] القاهر، ووزر ابن مقلة قال الصّولي: كان القاهر أهوج سفّاكاً للدماء، قبيح السيرة، مدمن الخمر. كان له حربة يحملها، فلا يضعها حتّى يقتل إنساناً، ولولا جودة

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٣٧: فأخذ بعضهم سهماً وقال...
(٢) كحّل: سملت عيناه.

حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل.

* وفيها اشتهر محمد بن علي الشلغماني[١] (بالشين والغين المعجمتين وقيل ياء النسبة نون)، موضعٌ ببغداد، وشاعَ أنه يدّعي الألوهية وأنه يحيي الموتى، وكثر أتباعه، وأحضره ابن مقلة عند الراضي، وسمع كلامه، فأنكر الألوهية وقال: إن لم ينزل العقوبة بعد ثلاثة، وأكثره سبعة أيام وإلا فدمي حلال. وكان قد أظهر الرفض، ثم قال بالتناسخ والحلول. وتخرّق على الجهّال، وضلّ به طائفة. وأظهر شأنه الحسين بن روح، زعيم الرافضة. فلما طُلب هرب إلى الموصل، وغاب سنتين، ثم عادوا دّعى الألوهية، فتبعه فيما قيل جماعة، منهم إبراهيم بن عون، فقبض عليه ابن مقلة، وكنس بيته، فوجد فيه رقاعاً وكتباً فيما قيل، يخاطبونه في الرقاع بما لا يخاطب به البشر، وأحضر فأَصَرَّ على الإنكار، فضعفه ابن عبدوس. وأمّا ابن أبي عون فقال: إلّهي وسيدي ورازقي، فقال الراضي: للشلغماني: أنت زعمت أنك لا تدّعي الربوبية، فما هذا؟ فقال: وما عليّ من قول ابن أبي عون. ثم أحضروه غير مرّة، وجرت لهم فصول، وأحضرت الفقهاء والقضاة، ثم أفتى الأئمة بإباحة دمه، فأحرق، ثم ضربت رقبة ابن أبي عون، ثم أحرق، وكان فاضلاً مشهوراً صاحب تصانيف أدبية، من رؤساء الكتّاب، أعني ابن أبي عون، وشلغمانة من أعمال واسط. ولم يحجّ أحد إلى سنة سبع وعشرين خوفاً من القرامطة.

* وفيها توفّي حافظ الأندلس أحمد بن خالد، قال القاضي عياض: كان إماماً في وقته في مذهب مالك، وفي الحديث لا ينازع.

* وفيها توفّي السيد الكبير الولي الشهير القدوة العارف، بحر المعارف أبو الحسين[٢] خير النساج البغدادي، وكانت له حلقة يتكلّم فيها، وعمّر دهراً، قيل إنه لقي سريا السقطي، وله أحوال كبيرة وكرامات شهيرة.

* وفيها توفي المهدي عبيد الله، والد الخلفاء الباطنية العبيدية المقبري، المدّعي.. أنه من ولد جعفر الصادق، وكان بسلمية من بلاد الشام، فبعث دعاته إلى اليمن والمغرب، وحاصل الأمر أنّه استولى على مملكة المغرب، وامتدّت دولته بضعاً وعشرين سنة، ومات

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٤١: في هذه السنة قتل أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي القراقر.
ـ وجاء في معجم البلدان: شلمغان: ناحية من نواحي واسط الحجاج، ينسب إليها جماعة، منهم أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني...

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٦/٢٤٣: خير بن عبد الله النسّاج الصوفي، من أهل سامراء، وكان من الأبدال.

بالمهديّة التي بناها، وكان يظهر الرفض ويبطن الزندقة، وقال أبو الحسن القابسي صاحب (الملخّص) الذي قتله عبيدُ الله وبنوه بعده أربعة آلاف رجل في دار النحر في العذاب، ما بين عالم وعابد ليردّهم عن الترضّي عن الصحابة، فاختاروا الموت. ومن ذلك قول بعضهم في قصيدة:

وأحَلّ دار النحر في إغلاله ... من كان ذا تقوى وذا صلوات

قلت: ولم يزل الباطنية منهم في بعض جبال اليمن، وقد جرت لهم هناك أمور وزندقة وفجور، أوضحت ذلك في (كتاب المرهم) وتقدّمت الإشارة في سنة سبع عشرة وثلاثمائة من هذا الكتاب إلى شيء من ذلك.

وفي السنة المذكور توفّي الشيخ العارف أبو بكر محمد بن علي الكتابي[1] شيخ الصوفيّة نزيل مكّة، أخذ عن أبي سعيد الخرّاز وغيره وهو مشهور.

* وفيها توفي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو علي[2] الروذباري البغدادي نزيل مصر، من كبار شيوخها في زمانه، صحب الجنيد وجماعة، وكان إماماً محقّقاً، روي عنه أنه قال: أستاذي في التصوف الجنيدُ، وفي الحديث إبراهم الحربي، وفي الفِقه ابنُ سُرَيج، وفي الأدب ثعلب. قلت: وناهيك بفضائل هولاء الأربعة المذكورين:

سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة

* فيها محنة ابن شنبوذ، كان يقرأ في المحراب بالشواذّ، فطلبه الوزير ابن مقلة، وأحضر القاضي والقرّاء - وفيهم ابن مجاهد - فناظروه، فأغلظ للحاضرين في الخطاب، ونسبهم إلى الجهل، فأمر الوزير بضربه لكي يرجع، فضرب سبع درر وهو يدعو على الوزير، فتوبوه غضْباً، وكتبوا عليه محضراً، وكان ممّا أُنكر عليه: فأمضوا إلى ذكر الله وذَرُوا البيع، وكان أمامهم ملك يأخذ كلّ سفينة صالحة غصباً. وهذا الأنموذج ممّا روي ولم يتواتر.

* وفيها توفّي قتيبة شيخ الحنابلة البرنهاري (بالباء الموحدة والراء المكررتين)، فنودي أنْ لا يجتمع اثنان من أصحابه، وحبس منهم جماعة واختفى هو.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٤/١١١، أبو بكر الكتّاني الصوفي: محمد بن علي بن جعفر أبو بكر الكتّاني، أصله من بغداد وجاور بمكّة....

(٢) في الأنساب للسمعاني ٣/١٠٠: الروذبار: هي في بلاد متفرقة منها موضع على باب الطابرانة بطوس يقال لها الروذبار، منها أبو علي محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري، من كبار الصوفية، سكن مصر... لزم الجنيد وصحبه وصار أحد أئمة الزمان...

* وفيها أخذ القرمطي أبو طاهر الركبَ العراقي، وانهزم الأمير لؤلؤ وبه ضربات، وقتل خلق من الوفد، وسبيت الحريم، وهلك محمد بن ياقوت في الحبس بعدما طلب الجند أرزاقهم، وأغلظوا له، وقبض الراضي بالله عليه، وعظم شأن الوزير ابن مقلة وتفرّد بالأمور.

* وفيها توفّي الحافظ أبو بشر أحمد بن محمد الكندي المروزي، روى عن محمود ابنْ آدم وطائفة، وهو أحد الوضّاعين الكذّابين، مع كونه محدّثاً إماماً في السنّة والردّ على المبتدعة.

* وفيها توفّي نفطوية النحوي، أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطيّ، صاحب التصانيف الحسان في الآداب، وكان بارعاً فصيحاً في الخطاب، ولا يكاد يخلو ذو فضل من أين يُطعن فيه ويُعاب، ولهذا هجاه بعض الناس ببيتين الثاني منهما:

أحرقه اللّه بنصف اسمه وَصيّر الثاني صُراخاً عليه

وعجز الأول: فليجتهد أن لا يرى نَفْطَويه، وصدره[1] كرهت ذكره فحذفته، روى عن شعيب بن أيوب وطبقته.

* وفيها توفّي الحافظ الجوّال الفقيه أبو نعيم عبد الملك بن محمد الجرجاني، سمع علي بن حرب وعمر بن شَبَّة وطبقتهما، قال الحاكم: كان من أئمة المسلمين. وقال أبو علي النيسابوري: ما رأيت بخراسان بعد ابن خزيمة مثل أبي نعيم، كان يحفظ المرفوعات والمراسيل، كما نحن نحفظ المسانيد. عمّر إحدى وثمانين سنة.

* وفيها توفّي أبو عبيد المحاملي القاسم بن إسماعيل أخو القاضي حسين.

سنة أربع وعشرين وثلاث مائة

* فيها قبض[2] على الوزير ابن مقلة، وأحرقت داره، وضرب وأُخذ خطّه بألف ألف دينار، وجرت عظائم من الضرب والتعليق وغير ذلك، وجرت أمور طويلة يخالف فيها أهل الدولة، وبطلت الوزارة والدواوين، وضعف أمر الخلافة، وبقي الراضي بالله صورة.

* وفيها توفّي مفتي العراق أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، وكان

---

(١) البيت الأول:
من سرّه أن لا يرى فاسقاً فليجتهد ألاّ يرى نفطويه
انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٥٠.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٥١.

بصيراً بالقراءة وعللها ورجالها، عديم النظير.

* وفيها توفّي أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي المعروف بجَحْظَة (بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الظاء المعجمة وبعدها هاء) على خلاف فيه تقدّم، كان صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة، وقد جمع المرزبانيّ أخباره وأشعاره، وكان من ظرفاء عصره، وله أشعار رائقة منها قوله:

أيا ابن أناس مول الناس جودهم فأصبحوا حديثاً للنوال المشهد
فلم يخلُ من إحسانهم لفظ مخبر ولم يخلُ من تقريطهم دفن دفتر

وكان مشوّه الخلق، وفي ذلك يقول ابن الروميّ مشيراً إلى قبح صورته وحسن منادمته.

يا رحمة لمنادمته تحمّلوا علم العيون للذّة الآذان

التقريظ مدح الإنسان وهو حيّ، والتأبين مدحه ميتاً.

* وفيها توفي الفقيه الشافعي الحافظ صاحب التصانيف والرحلة الواسعة، عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري، سمع محمد بن يحيى الذّهلي، ويونس بن عبد الأعلى. قال الحاكم: كان إمام عصره للشافعية بالعراق، ومن أحفظ الناس للفقهيات واختلاف الصحابة. وقال الشيخ أبو إسحاق؛ كان زاهداً يفتي الناس أربعين سنة، لم ينم اللّيل، يصلّي الصبح بوضوء العشاء، وجمع بين الفقه والحديث.

سنة خمس وعشرين وثلاث مائة

* فيها دخل القرمطي[1] الكوفة فعاث فيها.

* وفيها توفّي الحافظ البارع المصنّف أحمد بن أحمد بن محمد بن الحسن، تلميذ مسلم.

سنة ست وعشرين وثلاث مائة

* فيها قبض الراضي بالله على ابن مقلة، وقطع[2] يده حين أخذ يكاتب في بعض أمور السلطنة والمضاهاة لبعض أهل الدولة. ثم بعد أيام قطع ابن وائق لسانه، لكونه كاتب

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٦٢: فيها وافى أبو طاهر القرمطي الكوفة، فدخلها في شهر ربيع الآخر فخرج ابن رائق في جمادى الأولى وعسكر بظاهر بغداد، وسيّر رسالته إلى القرمطي فلم تغنِ شيئاً.

(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٦/٢٦٥.

بعض الأمراء، فأقبل بجيوشه من واسط، ودخل بغداد، فأكرمه الراضي ولقبه أمير الأمراء، وولاّه الحضرة، وضعف عن قتاله ابن واثق. . . فاختفى.

* وفيها توفّي عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن الحجّاج الناسخ المصري.

* وفيها توفّي محمد بن القاسم المحاربي.

سنة سبع وعشرين وثلاث مائة

* فيها توفّي الحافظ العالم عبد الرحمن ابن الحافظ الجامع، محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي (بالراء) وقد قارب التسعين، وقال أبو يعلى الخليلي: أخذ علم أبيه وأبي زُرعة، وكان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال صنّف في الفقه واختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار، قال: وكان زاهداً يعدّ من الأبدال.

* وفيها توفّي محمد بن جعفر الخرائطي، مصنّف مكارم الأخلاق ومساوئها، وغير ذلك.

* وفيها توفّي مبرمان النحوي، شرح سيبويه، وما أتمّه، وهو محمد بن علي العسكري، أخذ من المبرّد.

سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة

* فيها التقى سيف الدولة ابن حمدان الدمشقي ـ قاتله الله ـ فهزمه.

* وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو سعيد الأصطخري، الحسن بن أحمد شيخ الشافعية بالعراق، روى عن سعدان بن نصر وطبقته، وصنّف التصانيف، وعاش نيفاً وثمانين سنة، وكان موصوفاً بالزهد والقناعة، وله وجه في المذهب، تولّى حسبة بغداد، واستقضاه المقتدر على سجستان، فسار إليها، ونظر في مناكحاتهم، فوجد معظمها على غير اعتبار الولي، فأنكرها وأبطلها عن آخرها. وكان ورعاً، وهو من نظراء أبي العباس ابن سريج وأقران علي بن أبي هُبيرة.

* وفيها توفّي الفقيه الواعظ، أحد الأئمة، أبو علي الثقفي محمد بن عبد الوهاب النيسابوري، عاش أربعاً وثمانين سنة، سمع في كبره من موسى بن نصر الرازي وأحمد بن ملاعب وطبقتهما. وكان له جنازة لم يعهد مثلها، وهو من ذرّية الحجّاج. قال الفقيه أبو الوليد: دخلت على ابن سريج، وسألني عن من درست الفقه؟ قلت: على أبي علي الثقفي، قال: لعلّك تعني الحجّاجي الأزيرق؟ قلت: نعم، قال: ما جاءنا من خراسان أفقه منه،

وقال أبو بكر الضبعي: ما عرفنا الجدل والنظر حتّى ورد علينا أبو علي الثقفي في العراق، وذكره السلمي في طبقات الصوفية.

* وفيها توفّي أبو الحسن محمد بن أحمد بن شِنبوذ المقرىء البغدادي، أحد الأئمة، من مشاهير القرّاء وأعيانهم، وكان دَيِّناً، وقيل كان فيه سلامة صدر وحمق منفرداً بقراءة من الشواذّ، وكان يقرأ بها في المحراب، فأنكر عليه ذلك، وبلغ علمه أبا علي ابن مقلة الوزير، فاستحضره واعتقله في داره أياماً، ثم استحضر القاضي أبا الحسين عمر بن محمد، والمقرىء أبا بكر المعروف بابن مجاهد وجماعة من أهل القران، وأحضر ابن شنبوذ المذكور، ونواظر في حضرة الوزير، فأغلظ في الحديث للوزير وللقاضي وللمقرىء ابن مجاهد، ونسبهم إلى قلّة المعرفة وغيرهم، بأنّهم ما سافروا في طلب العلم كما سافر، واستشار القاضي أبا الحسين المذكور، فأمر الوزير ابن مقلة بضربه، فأقيم، وضُرب سبع درر، فدعا ـ وهو يُضرب ـ على الوزير ابن مقلة بأن يقطع الله تعالى يده، ويشتّت شمله، وكان الأمر كذلك، كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى. وأنكر ما كان ينكر عليه من الحروف التي كان يقرأ بها ممّا هو شنيع، وقال فيما سوى ذلك، فرابَهُ قوم، فاستتابوه فقال: إنه قد رجع عمّا كان يقرأ، وإنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وكتب عليّ الوزير محضراً بما قاله، وكتب بخطّه ما يدلّ على توبته.

وممّا حكي أنّه كان يقرأ: فامضوا إلى ذكر الله، وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وليكن منكم فئة يدعون إلى الخير وغير ذلك[1].

* وفيها توفي الوزير أبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة ـ الكاتب المشهور ـ كان في أول أمره يتولّى بعض أعمال فارس، ويجبي خراجها، وتنقلّت أحواله إلى أن استوزره الإمام المقتدر، فخلع عليه، فبقي في الوزارة سنتين وشهرين، ثم نفاه إلى بلاد فارس بعد أن صادره، ثم استوزره الإمام القاهر بالله، فأرسل إليه إلى فارس رسولاً يجيء به، ورتب له نائباً، فوصل يوم الأضحى من سنة عشرين وثلاثمائة، ولم يزل وزيره إلى أن اتهمه بالمعاضدة على الفتك به. وبلغ ابنَ مقلة الخبر فاستتر.

ولما ولّي الراضي بالله سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فاستوزره أيضاً، وكان المظفّر بن ياقوت مستحوذاً على أمور الراضي. وكان بينه وبين ابن مقلة وحشة ـ وقرر ابن ياقوت مع الغلمان أنه إذا جاء قبضوا عليه، وأنّ الخليفة لا يخالفه في ذلك، وربما سرّه. فلمّا حصل

(١) وجاء أيضاً في الكامل لابن الأثير ٢٤٣/٦: وتكون الجبال كالصوف المنفوش. تبّت يدا أبي لهب وقد تبّ. . . .

ابن مقلة في دهليز دار الخلافة وثب الغلمان عليه، ومعهم ابن ياقوت، وقبضوا عليه، وأسلموه إلى الراضي يعرّفونه صورة الحال، وعدّوا له ذنوباً وأسباباً تقتضي ذلك، فردّ جوابهم وهو يستصوب ما فعلوا، واتّفق رأيهم على توزير عبد الرحمن بن عيسى بن داود الجرّاح، وقلّده الراضي الوزراة، وسلّم إليه ابن مقلة، فضربه بالمقارع، وجرى عليه من المكاره بالتعليق وغيره من العقوبة شيء كثير، وأخذ خطّه بألف ألف دينار، ثم خلص، وجلس بطّالاً في دار.

ثم إن ابن رائق استولى على الخلافة، وخرج عن طاعتها، فاستماله الراضي، وفوّض إليه تدبير المملكة، وجعله أمير الأمراء، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وقوي أمره، وعظم شأنه، وتصرّف برأيه، وأحاط على أملاك ابن مقلة وضياعه وأملاك ولده أبي الحسن، فأخذ ابن مُقلة في السعي بابن رائق، وكتب إلى الراضي يشير عليه بإمساكه، وضمن له متى فعل ذلك، وقلّده الوزارة فاستخرج له ثلاثمائة ألف ألف دينار، وكانت مكاتبة على يد ابن هارون المنجّم النديم، فأطمعه الراضي بالإجابة إلى ما سأل، فلمّا استوثق ابن مقلة من الراضي ركب من داره - وقد بقي من رمضان ليلة واحدة، واختار هذا الطالع لأنّ القمر يكون تحت الشعاع، وهو يصلح للأمور المستورة - فلما وصل إلى دار الخليفة لم يمكنه من الوصول إليه، ووجه إلى ابن رائق، وأخبره بما جرى، وأنه احتال على ابن مقلة حتّى حصّله في أسره، ثم أظهر الراضي أمر ابن مقلة، وأخرجه من الاعتقال، وحضر صاحب ابن رائق وجماعة من القوّاد، وتقابلا فالتمس ابن رائق قطع يده التي كتب به المطالعة، فقطعت يده اليمنى، وردّ إلى مجلسه. ثم ندم الراضي على ذلك، وأمر الأطباء بمداواته، فداووه حتّى برىء. وكان ذلك نتيجة دعاء ابن شنبوذ المقرىء بقطع يده كما تقدّم.

وقال أبو الحسن ثابت بن سنان الطبيب: كنت إذا دخلت إليه في تلك الحال سألني عن أحوال ولده، فأعرّفه استتاره وسلامته، فتطيب نفسه، ثم يتوجّه على يده ويقول: كتبت بها القرآن الكريم مرّتين، تُقطع كما تقطع اللصوص. فأسلّيه وأقول: هذا انتهاء المكروه، فينشدني:

إذا ما مات بعضك فابك بعضاً   فإنّ البعض من بعضٍ قريب

ثم عاد وأرسل الراضي من بعد قطع يده، وأطمعه في المال، وطلب الوزارة وقال: إنّ قطع اليد ليس بعد قطع اليد، وليس ممّا يمنع الوزارة. وكان يشدّ القلم على ساعده ويكتب، ثم أمر بعض التمين إلى ابن رائق يقطع لسانه أيضاً، فقطع فأقام في الحبس مدّة طويلة ولم يكن له من يخدمه، وكان يستسقي الماء لنفسه من البير، فيجذب بيده اليسري جذبة ونعمه الأخرى. وله أشعار في شرح حاله، من ذلك قوله:

ما سئمتُ الحياة لكن توثقتُ بإيمانهم فزالت يميني
وليس بعد اليمين لذّة عيش يا حياتي بانت يميني فبيني

ومنه أيضاً:

لست ذا ذلّة إذا عصى الدهر ولا شامخاً إذا أو أتاني

ومن ذلك:

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة في شامخ من عزّة المترفّع
قالت له النفس العروف بقدرها ما كان أولاني بهذا الموضع

ولم يزل على هذه الحالة إلى أن توفّي في موضعه، ودفن في مكان، ثم نبش بعد زمان وسلّم إلى أهله. وهو أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين إلى هذه الصورة، هو وأخوه على خلاف فيه، وله ألفاظ منقولة مستعملة، من ذلك قوله: إذا أحببت تهالكت، وإذا اتعظت أهلكت، فإذا رضيت أبدت، وإذا غضبت أبرت.

ومن كلامه: يعجبني من يقول الشعر تأدّباً لا تكسّباً، ويتعاطى الغناء تطرّباً لا تطلّباً قيل: وله كل معنى مليح في النظم والنثر. وكان ابن الرومي الشاعر يمدحه، فمن معاتبة المقولة فيه قوله:

أن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم
كذا قضى للأقلام مُذْ برئت إن السيوف لها مذ ارهفت خدم
وكل صاحب سيف دائم أبداً ما زال يتبع ما يجري به القلم

وكان أخوه الحسن بن علي بن مقلة كاتباً أديباً بارعاً، قيل: والصحيح أنه صاحب الخطّ، وفي عزل ابن مقلة من الوزارة، قال بعض الشعراء:

يقال العزل للأحرار حيض نجاة اللّه من أمر بغيض
ولكنّ الوزير أبا عليّ من اللائي يئسن من المحيض

* وفيها توفّي العلامة إمام اللغة صاحب المصنّفات أبو بكر محمد ابن الأنباري النحوي اللغوي، عمّر سبعاً وخمسين سنة، سمع في صغره من الكُديمي ـ بضم الكاف ـ وإسماعيل القاضي، وأخذ عن أبيه وثعلب وطائفة.

قال أبو علي القالي: كان شيخنا أبو بكر يحفظ فيما قيل ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن، وقال محمد بن جعفر التميمي: ما رأيت أحفظ من ابن الأنباري، ولا أغزر بحراً

منه. روي عنه أنه قال: أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً.

قال: وحدّث أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن العظيم بأسانيدها. وقيل: إنه أملى غريب الحديث في خمسة وأربعين ألف ورقة، وكان علاّمة وقته في الآداب وأكثر الناس حفظاً لهما. وكان صدوقاً ثقة ديّناً خيّراً، من أهل السنة. وصنّف كتباً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل، وكان يملي في ناحية من المسجد، وأبوه في ناحية أخرى.

* وفيها توفّي الأستاذ أبو الحسن[1] المزيّن، العارف بالله الولي الكبير، شيخ الصوفية، صحب الجُنيد وسهل بن عبد الله، وجاور بمكّة، وله مناقب كثيرة ومحاسن شهيرة، وممّا حكي عنه أنه قال: كنت بمكّة، فوقع لي إرادة السفر إلى المدينة، فلمّا بلغتُ بير ميمون، وجدت شاباً يجود بنفسه، فقلت له: قل لا إله إلاّ الله؛ ففتح عينيه، ونظر إليّ وقال:

أنا إن متّ فالهوى حشو قلبي وبداء الهوى يموت الكرام

ثم خرجت روحه، فغسلته وكفّنته، وصلّيت عليه ودفنته، فسكن ما كان في نفسي من خاطر السفر، فرجعت إلى مكة ـ وكان بعد ذلك يوبّخ نفسه ويقول: حجامٌ يلقّن أولياء الله الشهادة!! واشوقاه. وقوله: بير ميمون يعني أنها البير المسماة اليوم بالنوارية، والله أعلم بالصواب. وبعض الناس يسمّيها بير ميمونة، وهي قريبة من قبرها.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير: أبو محمد المرتعش، عبد الله بن محمد النيسابوري، أحد مشايخ العراق، صحب الجنيد وغيره، ومن كلامه: الإرادة حبس النفس عن مراداتها، والإقبال على أوامر الله تعالى، والرضوان بموارد القضاء، وقيل له: إنّ فلاناً يمشي على الماء فقال؛ عندي مَنْ مكّنه الله تعالى من مخالفة الهوى، هو أعظم من المشي في الهواء، وكان يقال له: إشارات الشبليّ، ونكت المرتعش، وحكايات الخُزَيمي.

* وفيها توفّي أحمد بن محمد بن عبد ربّه القرطبي ـ صاحب «العقد»[2]، الأموي مولاهم. كان رأس العلماء المكثرين، والاطلاع على أخبار الناس. حوى كتابه من كل شيء، وله ديوان شعر جيد، ومن شعره:

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٧٥، فيها توفي علي بن محمد أبو الحسن المزين الصغير، أصله من بغداد، صحب الجنيد وسهلاً التستري، وجاور بمكّة حتى توفي.

(٢) وجاء في المرجع السابق أيضاً: وفيها توفي أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب أبو عمرو القرطبي... صاحب العقد الفريد في الأخبار.

إن الغــوانــي لــو رأينـك طـاويـاً — بـردَ الشبـاب طـويـنَ عنـك وِصـالا
وإذا دعــونــك عمّهــن فــإنّــه — نسجَـتْ يـزيـدك عنـدهـنّ خيـالا

والقرطبي نسبة إلى قرطبة، وهي مدينة كبيرة من بلاد الأندلس، وهي دار مملكتها.

سنة تسع وعشرين وثلاث مائة

فيها: استخلف المتقي لله، وتوفّي الراضي بالله أبو إسحاق[١] محمد. وقيل: أحمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله العباسي. وكانت أمّه جارية رومية، وهو آخر خليفة ـ له شعر مدوّن ـ وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش، وآخر خليفة خطب يوم الجمعة إلى خلافة الحاكم العباسي، فإنه خطب أيضاً مرتين، وآخر خليفة جالسَ الندماء، ولكنه كان مقهوراً مع أمرته، وكان سمحاً كريماً محبّاً للعلماء والأدباء، سمع الحديث من البغوي ـ وعمره إحدى وثلاثون سنة.

* وفيها توفّي يوسف بن يعقوب بن إسحاق التنوخي الأنباري الأزرق الكاتب، وله نيّف وتسعون سنة. وأبو نصر محمد بن حَمدويه المروزي.

سنة ثلاثين وثلاث مائة

* فيها حدث الغلاء المفرط والوباء ببغداد، وبلغ الكـرّ مائتين وعشرة دنانير، أكلوا الجيف. وفيها وصلت الروم، فأغارت على أعمال حلب، وبدعوا، وسبوا عشرة آلاف[٢] نسمة. وفيها أقبل أبو الحسين علي بن محمد بن البريدي بالجيوش، فالتقاه المتقي وابن رائق ـ إلى الموصل، واختفى وزيره أبو إسحاق القراريطي، ووقع النهب في بغداد، واشتدّ القحط حتّى بلغ الكرّ ثلاثمائة وستة عشر ديناراً، وهذا شيء لم يُعهد بالعراق. ثم عمّ البلاء بزيادة دجلة، فبلغت عشرين ذراعاً، فغرق الخلق.

وأما ناصر الدولة ابن حمدان فإنّه جاءه محمد بن رائق، فوضع رجله في الركاب، إذ وثب به الفرس، فوقع فصاح ابن حمدان: لا يفوتنّكم، فقتلوه، ثم دفن[٣]، وعفى قبره، وجاء ابن حمدان إلى المتّقي، فقلده المتقي مكان ابن رائق، ولقّبه ناصر الدولة، ولقّب

---

(١) في مروج الذهب للمسعودي ٤/٢٣١: الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر، ويكنّى أبا العباس... وفي الكامل لابن الأثير ٦/٢٧٦: الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر...

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٨٨: وفيها في ربيع الآخر وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخرّبوا البلاد، وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٨٤: فقتلوه وألقوه في دجلة.

أخاه علياً سيف الدولة. وعاد وهما معه، وهرب البريدي من بغداد، وكان مدّة استيلائه عليها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ثم نهب البريدي وعاد، فالتقاه سيف الدولة بقرب المدائن، ودام القتال يومين، وكان الهزيمة على ابن حمدان والأتراك، ثم كانت على البريدي، وقتل جماعة من أمراء الديلم، وأسر آخرون، وهرب البريدي إلى واسط بأسوأ حال، وساق وراءه سيف الدولة، ففرّ إلى البصرة.

وفي رجب من السنة المذكورة توفّي الفقيه الكبير الإمام الشهير أبو بكر الصيرفي الشافعي، صاحب المصنّفات في المذهب، وصاحب وجه فيه. كان من جلّة الفقهاء، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سُرَيج، واشتهر بالحذق في النظرة والقياس وعلم الأصول، وله في أصول الفقه كتاب لم يسبق إليه. قال أبو بكر القفال: كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي، وهو أول من انتدب من أصحابنا للشروع في علم الشروط، وصنّف فيه كتاباً، أحسن فيه كلّ إحسان. والصيرفي نسبة مشهورة لمن يصرف الدنانير والدراهم.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير أبو يعقوب النهـرجوري[١]، شيخ الصوفية. صحب الجنيد وغيره، وجاور مكّة، وكان من كبار العارفين ـ رحمه الله تعالى.

* وفيها توفّي الإمام الكبير القاضي أبو عبد الله المحاملي الشهير، الحسين بن إسماعيل الضبّي البغدادي. عاش خمساً وتسعين سنة. قال أبو بكر الداوُدي: كان يحضر مجلس المحاملي عشرةُ آلاف رجل.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبد الله، محمد بن عبد الملك القُرطبي. ألّف كتاباً على سنن أبي داود، وكان بصيراً بمذهب مالك.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف الهروي، من أعيان الشافعية والراحلين في طلب الحديث، عاش مائة سنة.

* وفيها توفّي الزاهد العابد، صاحب المسجد المشهور بظاهر باب شرقي[٢]، يقال اسمه مفلح، وكان من الصوفية العارفين.

* وفيها وقيل بعدها ـ على ما حكاه ابن الهمداني في ذيل تاريخ الطبري ـ توفّي

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٢٨٩/٦: أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري ـ نسبة إلى نهرجـور ـ بلد بين الأهواز وميسان، شيخ الصوفية، مات بمكة ـ صحب سهل بن عبد الله والجنيد وغيرهما.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٢٨٩/٦: وممن توفي هذه السنة من الأعيان أبو صالح مفلح الحنبلي واقف مسجد أبي صالح ظاهر باب شرقي من دمشق ـ واسمه مفلح بن عبد الله أبو صالح المتعبّد. توفي في جمادى الأولى.

ببغداد ـ وقيل بل في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ـ الشيخ الإمام ناصر السنة، وناصح الأمة، إمام أئمة الحقّ، ومدحض حجج المبدعين المارقين، حامل راية منهج الحقّ ذي النور الساطع والبرهان القاطع، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سلام بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، عبد الله بن قيس الأشعري الصحابي رضي الله عنه. قلت هذا، ذكر اسمه ونسبه، وذكر الإمام السمعاني الأشعري نسبه إلى أشعر، أحد أجداده، وهو ثبت بن داود بن يشجب. قال: وإنما قيل له أشعر لأنّ أمه ولدته والشعر على يديه. انتهى.

قلت: نسبته المعروفة المتفّق عليها إلى أبي موسى الأشعري الصحابيّ، وهو من الأشاعر: قبيلة من اليمن، ونسلهم إلى الآن باقٍ، ، وهم عرب يسكنون قريباً من زَبِيد[١]، مشهورون بالنسب المذكور.

وأمّا ذكر مناقبه، وما ورد في السنّة من الأحاديث الدالّة على شرف أصله وكبر مجلسه، وما أمره به النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في منامه، من النظر في سنّته واتباعه لها ونصرته لمذهب الحق، وما شهد له به العلماء من الفضيلة والسيرة الجميلة، وما عرف به من العلم والعمل والعبادة والتقلّل من الدنيا والزهادة، وعقوبة من أساء الظنّ به، واعتقد بطلان مذهبه وفساده، وبيان صحّة اعتقاده واعتداله وسداده، وما رُئي له في المنام، ممّا يدل على أنه لمذهب الحقّ والهدى إمام، وأمر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم باتباعه واتباع أصحابه للمسائل التي سأله في منامه، وما ورد عليه من الأمر باقتدائهم في جوابه، وما مدحه به العلماء الأحبار من الفضائل بالنثر والأشعار، وغير ذلك ممّا لا يدخل تحت قيد الانحصار، فإنه يحتاج في تدوين الجملة إلى تصانيف مفردة مستقلّة كبار.

وقد صنّف في ذلك كتاباً نفيساً الإمام الحافظ المحقّق المسند الماهر، صاحب تاريخ الشام في ثمانين مجلداً، وأبو القاسم المعروف بابن عساكر صنّفه في مجلّد، وقد اختصرته في كتاب سمّيته (الشاش المعلم شاووش، كتاب المرهم المعلّم بشرف المفاخر العليّة في مناقب الأئمة الأشعرية)، ذكرت فيه نبذة من مناقبهم الجليلة، ومحاسنهم الجميلة، وسيرهم الحميدة، وعقائدهم السديدة التي وافقوا فيها عقيدة إمام الأئمة أبي الحسن الأشعري المذكور، ناصر الحق البارع القامع للبدع المشكور. وحذفت ما ذكر ابن العساكر من الروايات والأسانيد في تآليفه وجمعه، رغباً في الاختصار، وهرباً من الملل في الإكثار، فجاء كتابي من كتابه قدر رُبعه.

---

(١) زبيد: مدينة مشهورة باليمن (معجم البلدان). وتقع على الطريق الواصلة بين تعزّ والحديدة.

قلت: وممّا يدل على جلالة قدره وارتفاعه وكثرة مصنّفاته، فقد روى الحافظ أبو القاسم بسنده أنها عدّت تراجمهم، ففاقت على ثلاثمائة وثمانين مصنّفاً، منها (كتاب الفضول) في الردّ على المحدّثين والخارجين عن الملّة، كالفلاسفة والتابعين والدهريين وأهل التشبيه والقائلين بقدم الدهر، على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، وردّ فيه على البراهمة واليهود والنصارى والمجوس. وهو كتاب مشتمل على اثني عشر كتاباً.

وكذلك (كتاب الموجز) يشتمل على اثني عشر كتاباً، على حسب تنوّع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملّة، كالفلاسفة والداخلين، وردٌّ على سائر أنواع المبتدعين في كتبه، تعميماً وتخصيصاً.

ومما يدلّ على ذلك أيضاً خطبة كتابه الذي صنّفه في تفسير القرآن والردّ على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان. قال: أما بعد، فإنّ أهل الزيغ والبدع والتضليل تأولوا القرآن على رأيهم، وفسروه على أهوائهم تفسيراً، لم يزل الله تعالى به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا رووه عن رسول ربّ العالمين، ولا عن أهل بيته الطيّبين، ولا عن السلف المتقدّمين من الصحابة والتابعين، افتراء على الله، قد ضلّوا وما كانوا مهتدين، ثم قال في أثناء كلامه: وشيوخهم الذين قلّدوهم، فأضَلّوهم وما هَدوهم. قال: ورأيت الجبائيّ قد ألّف كتاباً في تفسير القرآن، أوّلَه على خلاف ما أنزله الله عزّ وجلّ لغة أهل قريةٍ المعروفة بِجُبّا، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن المفسّرين. وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنّه استغوى بكتابه كثيراً من العوامّ، واستنزل به عن الحقّ كثيراً من العظام، لم يكن للتشاغل به وجه.

ثم ذكر المواضع التي أخطأ فيها الجُبّائي في تفسيره، وبيّن ما أخطأ فيه من تأويله القرآن بعون الله تعالى وتيسيره، وكلّ ذلك مما يدّل على جلّة وكثرة علمه، وظهور فضله، جزاه الله تعالى عن جهاده في دينه بلسانه الحسنى، وأحلّه بإحسانه في مستقرّ جنانه. المحلّ الأسنى. واسم كتابه الذي ألّفه في تفسير القرآن (المتحفون).

قال الإمام الماهر في الفقه: محمد بن موسى بن عمّار، فيما روى عنه الثقات الأخيار والعلماء الأحبار. ذكر لي بعض أصحابنا أنه رأى من تفسيره المذكور طرفاً ـ وكان بلغ فيه سورة الكهف ـ وقد أنهى مائة كتاب، ولم يترك آية يتعلّق بها يدّعي، إلا بطل تعلقه بها، وجعلها حجّة لأهل السنّة، وبيّن المجمل، وشرح المشكل، أو قال: المستشكل. قال: ومن وقف على تآليفه رأى أنّ الله تعالى قد أمدّه بإمداد توفيقه، وأقامه لنصرة الحقّ والذبّ عن طريقه.

وكلّ من تعلّق اليوم بمذهب السنّة، وتفقّه في معرفة أصول من سائر المذاهب، نُسب إلى أبي الحسن الأشعري، لكثرة تآليفه، وكثرة قراءة الناس لها، ولم يكن أوّل متكلّم بلسان أهل السنّة، إنما يجري على سنن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجّة وبياناً، ولم يبتدع مقالة اخترعها، ولا مذهباً انفرد به.

ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نسب إلى مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه؟ ومَنْ كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي، ومالك إنما جرى على سنن مَن كان قبله، وكان كثير الاتباع، إلا أنّه زاد المذهب بياناً وبسطاً وحجّة وشرحاً وألف كتابه الموطّأ.

وأمّا ما أخذ عنه من الأسمعة والفتاوى، فنسب إليه لكثرة بسطه وكلامه فيه، وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري، لا فرق، فليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه وتأليفه في نصرته، فنجب في تلاميذه خلق كثير من المشرق. وكانت شوكة المعتزلة بالعراق شديدة، وأعظم ما كانت المحنة زمن المأمون والمعتصم، فتورّع عن مجادلتهم أحمد بن حنبل، فموّهوا بذلك على الملوك وقالوا: إنهم يعنون أهل السنة، يفرّون من المناظرة لِما يعلمون من ضعفهم على نصرة الباطل، وأنّه لا حجّة بأيديهم، وشنعوا بذلك عليهم، حتى امتُحن في زمانهم أحمد بن حنبل وغيره، حتّى أخذ الناس حينئذ بالقول بخلق القرآن، حتّى ما كان تُقبل شهادة شاهد، ولا يستقضي قاضٍ، ولا يفتي مفتٍ إلاّ يقول بخلق القرآن.

قال: وكان في ذلك الوقت جماعة من المتكلّمين، كعبد العزيز المكيّ، والحارث المحاسبي، وعبد الله بن كلاب، وجماعة غيرهم، وكانوا أولي زهد، لم يُرَ واحد منهم أنْ يطأ لأهل البدع بساطاً، ولا أن يداخلهم. وكانوا يردّون عليهم، ويؤلّفون الكتب في إدحاض حججهم، إلى أن أنشأ بعدهم، وعاصر بعضهم ابنَ أبي بشر الأشعري، يعني الشيخ أبا الحسن المذكور، فصنّف في هذا العلم لأهل السنّة التصانيف، وألّف لهم التآليف، حتّى أدحض الله تعالى حجج المعتزلة، وكسر شوكتهم. وكان يقصدهم بنفسه. ويناظرهم، فكلّم في ذلك وقيل له: كيف تخالط أهل البدع، وتقصدهم بنفسك، وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أهل رئاسة، منهم الوالي والقاضي. ولرئاستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا لا ينزلون إليّ، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحقّ، ويعلمون أنّ للسنّة ناصراً بالحجة؟

قال: وكان أكثر مناظراته مع الجُبّائي المعتزلي، وله معه في الظهور عليه مجالس كثيرة، فلمّا كثرت تآليفه، ونصر مذهب أهل السنة وبسّطه، تعلّق بها أهل السنّة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية. فأهل السنّة بالمشرق والمغرب بلسانه يتكلّمون، وبحجّته يحتجّون.

وأما أتباعه، فقد ذكر الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتابه، من أعيانهم، قريباً من ثمانين إماماً، ثم أردفتهم من جلّة الأئمة ما صار للمائة تماماً. فمن اقتدى به، وتبعه في الاعتقاد من المحقّقين النظّار النقّاد، ممّن جمع بين العلم والدين، وأقام قواطع الحجج والبراهين، كالإمام أبي بكر الباقِلّاني، والأستاذ أبي إسحاق الاسفرايني، والإمام ابن فورك، والشيخ الإمام أبي إسحاق الشيرازي، وأبي المعالي إمام الحرمين الجويني، والإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، والإمام عزّ الدين بن عبد السلام، والشيخ الإمام محيي الدين النواوي، والإمام تقيّ الدين بن دقيق العبد، وغير هؤلاء العشرة من ذوي المناقب الشهيرة.

وكذلك جماعة من أكابر المشايخ الجلّة العارفين السالكين الربانيين المربين، كالشيخ أبي عبد الله القرشي، والأستاذ أبي القاسم القشيري، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وغيرهم من منابع الأسرار ومطالع الأنوار. وكان حاملَ رأيه من ماله من المناقب، وناصر مذهبه دون المذاهب، الإمام المحقّق الحبر البارع ذو البرهان القاطع، والعلم الواسع، البحر الطامي، القاضي أبو بكر الباقلّاني. وهو الذي رجّح غير واحد من العلماء، أنه هو الذي كان على رأس المائة الرابعة لاحتياج الناس في قمع المبتدعين إلى علم أصول الدين.

قالوا: وكان على رأس (المائة الأولى) من الذين أشار صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحديث: «**إن الله يحدث على رأس كلّ مائة سنة لهذه الأمّة، من يجدّد لها أمر دينها**»، عمرُ بن عبد العزيز، وعلى رأس (المائة الثانية) محمد بن إدريس الشافعي، وعلى رأس (المائة الثالثة) أبو الحسن الأشعري، وعلى رأس (المائة الرابعة) القاضي أبو بكر الباقلّاني، وعلى رأس (المائة الخامسة) أبو حامد الغزالي. كلّ هؤلاء المذكورين نصّ عليهم الإمام الحافظ ابن عساكر وغيره من الأئمة، ونص على الأولين الإمام أحمد بن حنبل، ولم ينصّ على المائتين الأخريين، لأنُه لم يدركها، وقد قيل أنه كان على رأس (المائة السادسة) فخر الدين الرازي، وعلى رأس (المائة السابعة) تقي الدين بن دقيق العبد. والله أعلم.

وكان الشيخ أبو الحسن المذكور شافعياً، يجلس في أيام الجمع في بدايته، في حلقة الفقيه الإمام أبي إسحاق المروزي الشافعي، في جامع المنصور.

قال الحافظ أبو نعيم: أخبرنا الأستاذ الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي. وقال: سمعت عبد الله بن محمد بن طاهر الصوفي يقول: رأيت أبا الحسن الأشعري في مسجد البصرة، وقد أبهَتِ المعتزلة في المناظرة، فقال له بعض الحاضرين: قد عرفنا تبحّرك في

علم الأصول، وأريد أن أسألك عن مسألة في الفقه، قال: اسأل عمّا شئت، فقال له: ما تقول في الصلاة بغير الفاتحة: قال: حدّثنا زكريا بن يحيى قال: حدّثنا عبد الجبار قال، حدّثنا سفيان، قال: حدّثني الزهري عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**».

وحدّثنا زكريا قال: حدّثنا بندار قال: حدثني يحيى بن سعيد بن جعفر بن ميمون قال: حدّثني أبو عثمان عن أبي هريرة قال: أمرني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن أنادي بالمدينة أنه لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب. قال: فسكت القائل، ولم يقلّ شيئاً.

قال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: وفي هذه الحكاية دلالة ظاهرة على أنّ أبا الحسن كان يذهب مذهب الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: كذلك ذكر أبو بكر بن فورك، يعني الإمام المشهور في كتاب طبقات المتكلّمين، وذكر غيره عن أئمتنا وشيوخنا الماضين.

وروى الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر المذكور، بسنده إلى الإمام الأستاذ أبي إسحاق الاسفرايني قال: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر، وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي يقول: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الأشعري كقطرة في البحر.

قلت: يعني بالباهلي المذكور شيخه، وشيخ الإمام ابن فورك، وتلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري. كما روى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، بسنده إلى القاضي أبي بكر الباقلاّني قال: كنت أنا والأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني، والأستاذ ابن فورك معاً في درس الشيخ أبي الحسن الباهلي، تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري، قال: وكان من شدّة اشتغاله بالله تعالى مثل والِهٍ أو مجنون، وكان يدرّس لنا في كلّ جمعة مرة واحدة، وكان منّا في حجاب، يرخي الستر بيننا وبينه كي لا نراه. انتهى. قلت: وإنّما لم أترجم لهذا السيد المذكور ـ يعني أبا الحسن الباهلي ـ لأنّي لم أقف على تاريخ موته.

وفيه مثل ما ذكر عنه في تدريسه في الجمعة مرّة، سمعت من بعض أهل الخير والصلاح أنّه كان يقيم في جبل (عَدَن) رجلٍ مشتغل بالله تعالى، وله معرفة بالغة في النحو، وكان ينزل إلى عدنَ يوماً في الجمعة، يشتغل الناس عليه في النحو.

والمشتغلون بالله والعلم على ثلاثة أقسام: منهم من لا يشتغل بالخلق بالكليّة، لا بعلم ولا بعمل. ومنهم من يشتغل بالعلم وبالعمل معاً دائماً. ومنهم من يشتغل بهما أو بأحدهما في نادر من الأوقات، كهذين السيدين المذكورين.

ومن القسم الأول: الفقيه الإمام أحد الأولياء الكرام العالي المقام، صاحب الكرامات العظام، الشيخ سفيان اليمني الحضرمي، ترك الاشتغال لمّا قيل له: إذا أردتنا فاترك القولين والوجهين.

ومن القسم الثاني: الفقيهان الإمامان الكبيران السيّدان الوليّان الشهيران، صاحبا المقامات العلية والكرامات الرضية، والمناقب العديدة والمحاسن الحميدة، زين الزمن وبركة اليمن: أبو الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي، وأبو العباس أحمد بن موسى المعروف بابن عجيل. رضي الله عنهما.

رجعنا إلى ما كنّا نحن بصدده، قال إمام المحدّثين عمدة المسندين الحافظ الكبير السيد الشهير، قدوة الأئمة الأكابر أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمه الله ـ فكفى أبا الحسن فضلاً أن يشهد بفضله مثل هؤلاء الأئمة، وحسبه فخراً أن يثني عليه الأماثل من علماء الأمة، ولا يضرّ قدح مَنْ قدح فيه لقصور الفهم ودناءة الهمّة، ولم يبرهن على ما يدّعيه في حقه، إلا بنفس الدعوى ومجرّد التهمة.

وقال الإمام الحافظ الحبر المحقّق الماهر، والبحر الخضمّ الطامي الزاخر، المشتمل على نفيس الدرر وعوالي الجواهر، الجامع بين المعقول والمنقول، والفروع والأصول. الصافي من سائر البدع، النقيّ أحمد بن الحسين، المكنّى بأبي بكر البيهقي في أثناء رسالته: (الحسناء البالغة المرضية في مكاتبة العميد واستعطافه لنصرة الأشعرية). ثم إنّه أعزّ الله تعالى نصره ـ صرف كلمته العالية إلى نصرة دين الله تعالى، وقمع أعداء الله عز وجلّ، بعدما تقرّر للكافّة حسنُ اعتقاده بتقرير خطباء أهل مملكته، على لعن مَنْ استوجب اللعن من أهل البدع ببدعته. فألقوا في سمعه ما فيه مساءة أهل السنّة والجماعة كافّة، ومصيبتهم عامة، من الحنفية والمالكية والشافعية، الذين لا يذهبون في التعطيل مذهب المعتزلة، ولا يسلكون في التشبيه طرق المجسّمة من مشارق الأرض ومغاربها، ليتسلوه بالأسوة معهم في هذه المسمّاة، بما يسوءهم من اللعن والقمع في هذه الدولة المنصورة، يثبّتها الله تعالى إن شاء، ونحن نرجوا عثوره عن قريب، على ما قصدوا وقوعه على ما أرادوا، ليستدرك بتوفيق الله عزّ وجل ما يدر منه فيما ألقي إليه، ويأمر بعزل من زور عليه، وقيح صورة الأئمة بين يدين، وكأنه خفي عليه ـ أدام الله تعالى عزّه ـ حال شيخنا أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله تعالى ورضوانه ـ وما يرجع إليه من شرف الأصل وكبر المحلّ في العلم والفضل، وكثرة الأصحاب من الحنفية والمالكية والشافعية الذين رغبوا في علم الأصول، وأحبّوا معرفة أوائل العقول. وفضائل الشيخ أبي الحسن الأشعري ومناقبه أكثر من أن يمكن حصرها في هذه الرسالة، لما في الإطالة من خشية الملالة.

قلت: فهذا ما اقتصرت على ذكره من رسالته المليحة البالغة في الذبّ والنصرة والنصيحة، وكذلك الرسالة الأخرى في ذلك، البالغة في البلاغة والملاحة والبيان والفصاحة، للإمام الأستاذ العارف بالله، السالك بحر العلوم، وعَلَم العلماء الأعلام شيخ الشيوخ، أدلاء الطريقة وجمال الشريعة والحقيقة، زين الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، قدّس الله روحه، وبلّ ثراه بماء الرحمة، ونوّر ضريحه.

ومن جملة كلامه فيها قوله: ظهر ببلد نيسابور من قضايا التقدير، في مفتتح سنة خمس وأربعين وأربعمائة من الهجرة، ما دعا أهل الدين إلى شقّ طراز خيرهم، وكشف قناع سرّهم، بل طلب الملّة الحنيفية يشكو عليلها، ويبدي عويلها، وينصب أعرابي رحمة الله عليه على من يسمع شكواها، ويصغي ملائكة السماء حين تبدّت شجواها، ذلك مما أحدث من لعن إمام الدين، وسراج ذي اليقين، ومحيي السنّة وقامع البدعة، وناصر الحق وناصح الخلق، الزكي الرضي أبي الحسن الأشعري، قدّس الله روحه، وسقي بماء الرحمة ضريحه، وهو الذي ذبّ عن الدين بأوضح حجج، وسلك في قمع المبتدعة وسائر أنواع المبتدعة أبين نهج، واستبذل وسعه في التصفّح عن الحق، وأورث المسلمين بعد وفاته. كتبه الشاهدة بالصدق.

قلت: وهذا ما اقتصرت على ما ذكره أيضاً من رسالة الأستاذ المذكور في الذبّ عن الشيخ أبي الحسن الإمام المشكور، ونصرة مذهبه الظاهر الزاهر بالشرف والعزّ المنصور الذي قلت في معالي شرفه المشهور:

له منهج من نوره الكون باهج ... مضى لهدى الأشعرية مشعرُ
له بيضُ رايات العلى مع أئمةٍ ... عزيز بحمد اللّه ما زال يُنصَرُ
عقيدة حقّ قد ذهبَّ بجمالها ... عن السنّة الغرّاء، والحق يسفرُ

ومن كلام الأستاذ المذكور في الذبّ عن الإمام شيخ السنّة الناصر، ما ذكر الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر قال: دفع إليّ عبد الواحد بن عبد الأحد بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن القشيري الصوفي الغيسابوري بدمشق مكتوباً بخطّ جدّه الإمام أبي القاسم القشيري، وأنا أعرف الخطّ، فوجدت فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. اتّفق أصحاب الحديث أنّ أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، مذهبه ومذهب أصحاب الحديث، تكلّم في أصول الديانات وعلى طريقة أهل السنّة، وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين عن الملّة سيفاً مسلولاً، ومن طعن فيه أو قدح فيه أو لعنه أو سبّه، فقد

بسط لسان السوء في جميع أهل السنّة، بذلنا خطوطنا طائعين بذلك في هذا الكتاب، من ذي القعدة سنة ستٍّ وثلاثين وأربعمائة.

والأمر على هذه الجملة المذكورة في هذا الذكر كتبه عبد الكريم بن هوازن القشيري، وفيه: خطّ أبي عبد الله الخبازي المقرىء. كذلك يعرفه محمد بن علي الخبازي، وهذا خطّه، وبخط الإمام أبي محمد الجويني. الأمر على هذه الجملة المذكورة فيه، وكتبه عبد الله بن يوسف وبخطّ أبي الفتح الشاشي، الأمر على الجملة التي ذكرت، وكتبه بضرب محمد بن الشاشي.

قلت: وذكر جماعة من الأئمة، قريباً من عشرين، منهم أبو الفتح الهروي، وأبو عثمان الصابوني، والشريف البكري، ومنهم: الشيخ أبو إسحاق الشيرازي. وهذا لفظه فيما نقله الإمام الحافظ ابن عساكر، الجواب: وبالله التوفيق، إنَّ الأشعرية هم أعيان أهل السنّة، وأنصار الشريعة، انتصبوا للردّ على المبتدعة من القدريّة والرافضيّة وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن عن أهل السنة، وإذا رفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين، وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كلّ أحد.

وكتب إبراهيم بن علي الفيروزأبادي، وكذلك الإمام قاضي القضاة الدامغاني، والإمام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي، وغيرهم، وقال الإمام أبو القاسم المذكور، بعد أن ذكر خطوط الجميع: هذه الخطوط على من ذلك الدّرج. ونقلها غيري من الفقهاء. قلت: فهذا ما أردت الاقتصار عليه في ترجمته، وهو قليل بالنسبة إلى جلالته، وإنّما أرخيت العنان في ذلك إرخاء، لكوني رأيت بعض المؤرخين قد أعرض عن التعرّض لذكره، وبعضهم ذكره بأوصاف يسيرة لا تليق بقدره، معرضاً عن ذكر فضائله ومرتبته العليّة، لكونه ـ رضي الله تعالى عنه ـ منائياً بمذهبه الجامع بين المعقول والمنقول والحشوية، الواقفين مع ظواهر المنقول. وإن كان مستحيلاً في العقول، ومجانباً لعكسه ـ أعني مذاهب المبتدعة القائلين بالمعقول دون المنقول ـ متوسّطاً بين الطرفين المذمومين، سالكاً للنهج الأوسط المحمود، ومنبعه في كلِّ صدور وورود ـ رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ومن فضله الكريم في دار النعيم جازاه.

سنة إحدى وثلاثين وثلاث مائة

* فيها قلّل ناصر الدولة ابن حمدان رواتب المتّقي، وأخذ صناعته، وصادر العمال، وكرهه الناس، وزوج بنته بابن المتقي على مائتي ألف[1] دينار، وهاجت الأمراء (بواسط)

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٢٩٣: وكان الصداق ألف ألف درهم، والحمل مائة ألف درهم.

على سيف الدولة، فهرب، وسار أخوه ناصر الدولة إلى الموصل، فنهبت داره، وبَرَح خلق كثير من بغداد ـ من تتابع الفن والخوف ـ إلى الشام ومصر.

* وفيها توفّي أبو علي، حسن بن سعد بن إدريس الحافظ القرطبي، وكان فقيهاً صالحاً.

* وفيها توفي الشيخ العارف محمد بن إسماعيل الفرغاني الصوفي، وكان من العابدين، وله نزهة حسنة، ومعه مفتاح منقوش، يصلّي ويضعه بين يديه، كأنه تاجر، وليس له بيت، بل ينطرح في المسجد، ويطوي أياماً.

* وفيها توفّي الشيخ الجليل أبو محمود، عبد الله بن محمد بن منازل النيسابوري، المجرّد على الصدق والتحقيق. صحب حمدون القصّار، وحدّث بالمسند الصحيح عن أحمد بن سلمة النيسابوري، وكان له كلام رفيع في الإخلاص والمعرفة.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير أبو الحسن، علي بن محمد بن سهل الدينوري. كان صاحب أحوال ومواعظ، ومن كلامه: من أيقن أنّه لغيره، فماله أن يبخل بنفسه.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبيد الله بن محمد بن مخلد العطّار الدوري، له تصانيف.

سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة

* فيها كاتب المتّقي بني حمدان، ليحكم توزون (بالمثناة من فوق وبين الواوَين زاي) على بغداد. فقدم الحسين بن سعيد بن حمدان في جيش كثيف، فخرج المتّقي والهاً ـ ووزيره ـ وساروا إلى (تكْريت)[1] ظنّاً أنّ سيف الدولة يراقب قدوم سيف[2] الدولة على المتّقي. وأشار بأن يصعد إلى الموصل. فتألّم المتّقي وقال: ما على هذا عاهدتموني. فتقلّل أصحابه، وبقي في طائفة، وجاء توزون فاستعدّ للحرب ببغداد، فجمع ناصر الدولة جيشاً من الأعراب والأكراد، وسار إلى تكريت، ثم وقع القتال أياماً؛ فانهزم الخليفة والحمدانية إلى الموصل، ثم عملوا مصافّاً أخرى، فانهزم سيف الدولة، فتبعه توزونُ، فانهزم بنو حمدان والمتّقي إلى نَصِيبين، واستولى توزون على الموصل، وأخذ من أهلها مائة ألف دينار مصادرة، فراسل الخليفةُ تُوزون في الصلح واعتذر بأنّه ما خرج من بغداد إلاّ لما قيل

(١) في معجم البلدان لياقوت الحموي: تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، وهي غربي دجلة.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٩٥: وانحدر سيف الدولة وحده إلى المتقي لله بتكريت، فأرسل المتقي إلى ناصر الدولة يستدعيه ويقول له: لم يكن الشرط معك إلاّ أن تنحدر إلينا، فانحدر فوصل إلى تكريت.

أنك اتّفقت، أنت والبريدي عليّ، والآن قد آثرتَ رضاي، فصالح ابني حمدان، وأنا أرجع إلى داري. فأجاب إلى الصلح، ولم يحجّ الركب لموت القرمطيّ الطاغية أبي طاهر (بهجر) من جدري أهلكه، وأراح الله تعالى منه العباد والبلاد. وقام بعده أبو القاسم القرمطي.

* وفيها توفّي الحافظ أبو العباس، أحمد بن محمد الكوفي الشيعي، أحد أركان الحديث. وكان آية من آيات الله تعالى في الحفظ، حتّى قال الدارقطني: أجمع أهل بغداد أنه لم يرد بالكوفة من زمن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلى زمن ابن عقدة أحفظ منه. قال: وقد سمعته يقول: أنا أجيب في ثلاثمائة ألف حديث من حديث أهل البيت وبني هاشم.

وروي عن ابن عقدة أنّه قال: أحفظ مائة ألف حديث بأسنادها، وأذاكر بثلاثمائة ألف حديث. وقال أبو سعيد الماليني[1]: تحوّل ابن عقدة مرة، وكانت كتبه ستّمائة جمل، وقال بعض المحدّثين: قد ضعّفوه واتهمه بعضهم بالكذب، وقال بعضهم: كان يملي عليّ مثالب أصحابه فتركته.

* وفيها توفّي الإمام أبو العباس، أحمد بن محمد بن الوليد التّيميّ المصريّ، صنّف (كتاب الانتصار) لسيبويه على المبرّد. وكان شيخ الديار المصرية في العربية، مع أبي جعفر النحاس.

سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مائة

* فيها حَلَفَ توزون أيماناً صعبة للمّتقي؛ فسار من (الرقة) واثقاً بأيمانه، فلمّا قَرب من الأَنْبار جاء توزون، وتلقّاه، وقبّل الأرض، وأنزله في مخيّم ضُرب له. ثم قبض على الوزير أبي الحسن بن علي بن مقلة، وكُحِّل المتّقي، فصاح المسلمون، فصرخ النساء، فأمر توزون بضرب الزّباب[2] حول المخيّم، وأُدخل بغداد مسمولاً مخلوعاً، وبويع عبد الله بن المكتفي، ولقّب بالمستكفي بالله، فلم يحلِ الحول على توزون.

* وفيها تملّك سيف الدولة بن حمدان (حلب) وأعمالها، وهرب متوّليها[3] إلى مصر، فجهّز الإخشيذ (بكسر الهمزة وبالخاء والشين والذال المعجمات والياء المثناة من

---

(١) في الأنساب للسمعاني ١٧٩/٥: الماليني نسبة إلى مالين، وهي في موضعين: أحدهما قرى مجتمعة على فرسخين من هراة يقال لجميعها مالين، والأخرى مالين قرية من قرى باخرز. ومن الأولى أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد...

(٢) في الكامل لابن الأثير ٣٠١/٦: فأمر توزون بضرب الدبادب. (جمع دبداب وهو الطبل).

(٣) في الكامل لابن الأثير ٣١٢/٦: فلما نازلها ـ حلب ـ فارقها يأنس المؤنسي وسار إلى الإخشيد.

تحت بعد الشين) ـ ومعناه في لسان الترك ملك الملوك ـ جيشاً، فالتقاهم سيف الدولة، فهزمهم وأسر منهم ألف نفس، ثم سار إلى دمشق فملكها، وسار الإخشيذ ونزل على (طَبَريّة) فخامر خلق من عسكر سيف الدولة إلى الإخشيذ، فانكسر سيف الدولة وجمعُه، فقصده الإخشيذ، فالتقاه، فانهزم سيف الدولة، ودخل الإخشيذ حلب. وأصاب بغداد قحط لم يُرَ مثله، وهرب الخلق، وكان النساء يخرجن عشرين عشرين، وعشرة عشرة، تمسك بعضهم ببعض، بصحن الجوعَ الجوع، ثم تسقط الواحدة بعد الواحدة ميتة.

* وفيها توفّي أبو علي اللؤلؤي، محمد بن أحمد البصري، راوي السنن عن أبي داود.

سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة

* فيها دَثَرت بغداد، وتداعت إلى الحراب من شدّة القحط والفتن والجور.

* وفيها اصطلح سيف الدولة والإخشيذ، وصاهره، وتقرّر لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية، وقصد معزّ الدولة بغداد، فاختفى الخليفة، وتسلّلت الأتراك إلى الموصل، وأقامت الديلم ببغداد، ونزل معزّ الدولة بباب الشمّاسية، وقدّم له الخليفة التقاديم والتحف، ثم دخل إلى خدمة الخليفة وبايعه، فلقَّبه يومئذ معزّ الدولة، ولقّب أخوَيْه: عليّاً: عماد الدولة، والحسن: ركن الدولة، وضربت لهم السكّة، واستوثقت المملكة لمعزّ الدولة؛ فلما تمكن كحل المستكفي بالله، وخلعه من الخلافة، لكونِ (عَلَم القهرمانة) كانت تأمر وتنهي، فعملت دعوة عظيمة، حضرها خرشيد مقدّم الديلم وعدّة أمراء، فخاف معزّ الدولة من غائلتها، ولأنّ بعض الشيعة كان يثير الفتن، فآذاه الخليفة ـ وكان معزّ الدولة متشيعاً ـ فلمّا كان في جمادى الآخرة، ودخل الأمراء إلى الخليفة، ودخل معزّ الدولة، فتقدّم اثنان وطلبا من المستكفي رزقهما، فمدّ لهما يده ليقبّلاها، فجذباه إلى الأرض، وسحباه[1]، فوقعت الصيّحة، فنهبت دور الخلافة، وقبضوا على (علم) وخواصّ الخليفة، وساقوا الخليفة ماشياً. وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر، وصار ثلاثة خلفاء مكحولين: هو والذي قبله، والقاهر. ثم أحضر معزّ الدولة أبا القاسم الفضل بن المقتدر، فبايعه، ولقّبه المطيع لله، وقرّر له معزّ الدولة كلّ يوم مائة دينار للنفقة، وانحطّت رتبة الخلافة إلى هذه المنزلة.

قلت: ما صار للخليفة من الخزائن، وما يدخل من جميع الدنيا؟

إجراء هذه القدر للنفقه، مع شدّة الغلاء. فإنّهم في هذه السنة في شعبان منها، كانوا ببغداد يأكلون الميتات والآدميين، ومات الناس على الطرق، وبيع العقار بالرغيفَين،

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٥.

واشتروا للمطيع كرّ دقيق بعشرة آلاف درهم.

قلت: والكرّ على ما قيل ستة آلاف رطل بغدادي، فعلى هذا يكون قيمة كلّ رطل دِرْهَمين إلاّ ثلث درهم ـ وهذا الغلاء ـ وإن كان شديداً ـ فقد وقع بمكّة ما هو أشدّ منه، بلغ من الرطل الدقيق نحو درهمين في سنة ستّ وسبعمائة. بلغ في الزمن القديم على ما أخبرني مَنْ أثق به من شيوخ المجاورين ـ فوق أربعة دراهم، وقع ذلك في زمانه. وبلغ في تهامة اليمن نحو هذا المبلغ، قُبيل التاريخ المذكور، وقبل ابتداء إنشاء تاريخي هذا بسنة.

* وفيها توفّي الإخشيذ محمد بن طفج، ملك مصر والشام ودمشق والحجاز وغيرها، التركي الفرغاني، صاحب سرير الذهب، وأصله من أولاد ملوك فَرْغانة[1]، ولاّه المقتدر دمشق، فسار إليها، ولم يزل بها إلى أن ولاّه القاهر بالله مصر في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثمائة، ثم ضمّ إليه الراضي بالله الجزيرة والحرمين وغير ذلك من البلاد المذكورة، ثم ضمّ إليه المتّقي لله والحجاز وغير ذلك، مع ما تقدّم. والإخشيذ لقب لقّبه به الراضي، وهو لقب ملوك فرغانة، وتفسيره (ملك الملوك) كما تقدّم. وكل من ملك مُلْكَ الناحية لقّبوه بهذا اللقب، كما لقّبوا كل من ملك بلاد فارس (كسرى)، وملك الترك (خاقان)، وملك الروم (هرقل)، وملك الشام (قيصر)، وملك اليمن (تبّع)، وملك مصر (فرعون)، وملك الحبشة (النجاشي) وغير ذلك.

وقيصر: كلمة فرنجية تفسيرها بالعربية: شقّ عنه. وسببه أن أمه ماتت عنه من المخاض، وشقّ بطنها، وأخرج، فسمّي قيصر.

وكان يفتخر على غيره من الملوك بذلك، ودعي للإخشيذ على المنابر بهذا اللقب، واشتهر به، وصار كالعلم عليه. وكان ملكاً حازماً كثير التيقّظ في حروبه، ومصالح دولته، وحسن التدبير، مكراراً للجند، شديد القوى.

وذكر بعضهم أن جيشه كان يحتوي على أربعمائة ألف رجل، وله ثمانية آلاف مملوك، ويحرسه في كل ليلة ألفان منهم، ويوكل بجانب خيمته الخدمُ إذا سافر، ثم لم يثق مع ذلك حتّى يمضي إلى خيم الفرّاشين ينام فيها، ولم يزل على مملكته إلى أن توفّي في الساعة الرابعة من يوم الجمعة، لثمان بقين من ذي الحجّة في السنة المذكورة بدمشق. وحمل تابوته إلى بيت المقدس ودفن فيه. وكانت ولادته يوم الاثنين منتصف رجب من سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد، وهو أستاذ كافور الاخشيذي المشهور، فاتك المجنون، ثم قام كافور المذكور بتربية ابني مخدومه أحسن قيام، وهما: أبو القاسم وأبو الحسن. وستأتي ولاية

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان. (معجم البلدان).

كافور، وما يتعلق به. وأقام الجند بعد كافور أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيذي، وجعل خليفته في تدبير أموره الحسن بن عبد الله، وهو ابن عمّ أبيه وفيه يقول المتنبي:

إذا صلتُ لم أترك مصالاً لفاتك ... وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم
وإلا فخانتني القوافي عافني ... عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

وفي قصيدة طويلة يقول فيها:

أرى دون ما بين الفرات وَبَرْقة ... سراباً لمشي الخيل فوق الجماجم
وطعن عصاريف كأنّ أكفّهم ... عرفن الردينيّات قبل العواصم
وهم يحسنون الكرّ في حومةِ الوغى ... وأحسن منه كَرّهم في المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ... ويحتملون الغرم عن كلّ غارم
حبيسون إلا أنّهم في نزالهم ... أقلّ حياء من شفاء الصوارم
ولولا احتقار الأسْد شبّهتها بهم ... ولكنهم معدودة في البهائم

وكان امتداده له في ولايته الرّملة، وانقراض دولة الإخشيذ في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. ودخل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر وسيأتي ذكره.

* وفيها توفّي قاضي القضاة أبو الحسن أحمد بن عبد الله الخرقي.

* وفيها توفّي الوزير العدل علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي الكاتب، وزر مرّات للمقتدر، ثم للقاهر. وكان محدّثاً عالماً ديّناً خيّراً، عالي الأسناد، روى عن أحمد بن بديل، والحسن الزعفراني وطائفة، قيل: وكان في الوزراء كعمر بن عبد العزيز في الخلفاء.

قال القاضي أحمد بن كامل: سمعت الوزير عليّ بن عيسى يقول: كسبت سبعمائة ألف دينار، أخرجت منها في وجوه البرّ ستّمائة ألف دينار وثمانين ألف دينار. وآخر من روى عنه ابنه عيسى في أماليه.

قلت: ومما يدلّ على فضله وما خصّته به العناية قضيتان ذكرتهما في كتابي روض الرياحين:

إحداهما: أنّ بعض المضطرّين من أهل الخير المشغولين، رأىٰ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في النوم في وقت ضرورة وهو يقول له: إذا أصبحت اذهب إلى الوزير علي بن عيسى، وقل له: بإمارة ما صلّى عليّ عند قبري كذا وكذا من مرّة يدفع إليك كذا وكذا، وعيّن شيئاً كثيراً من الصلاة عليه ومن المال. فلمّا أصبح ذهب إلى الوزير المذكور ـ ومعه المقرىء بن مجاهد المشهور ـ فقال الوزير لابن مجاهد: ما حاجتك يا أبا بكر؟ فقال: يُدني

الوزير هذا الشيخ ويسمع كلامه، فسأل ذلك الشيخ عن قصّته، فأعلمه بضرورته، وما قال له النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد رفعت عينا عليّ بن عيسى، وقال: صدق رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وصدقت أيها الشيخ، هذا شيء لم يكن أُطلع عليه إلا الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم. ثم استدعى بالكيس، فعدّله ألفاً، ثم عدد ألفاً آخر وقال: هذا شكر ما ذكرت عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأشكّ في ألف ثالث دفعه إليه بشارة.

وأما القضية الثانية: فما ذكروا أنه ركب علي بن عيسى الوزير يوماً في موكبه، فصار الغرباء يقولون: من هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة: إلى كم تقولون من هذا، من هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله، فابتلاه بما ترون. فسمعها علي بن عيسى، فرجع إلى منزله، واستعفى من الوزارة، وذهب إلى مكّة فجاور بها.

وفي السنة المذكورة توفّي الإخشيذ التركي الفرغاني ملك مصر والشام ودمشق وغيرها.

* وفيها توفي القائم بأمر الله، أبو القاسم نذار[١] بن المهدي ـ عبيد الله الداعي الباطني. صاحب المغرب، وقد سار مرتين إلى مصر ليملكها، فما قدر له دخول الإسكندرية في المرتين معاً وتملّكها.

وفي الثانية: جاء بعسكر عظيم، وبلغ (الجِيزة) فوردت الأخبار بذلك إلى بغداد، فجهز المقتدر مؤنساً الخادم إلى محاربته بالرجال والأموال، فجدّ في السير، فلمّا وصل إلى مصر التقيا، وجرت بين العسكرين حروب لا توصف، ووقع في عسكر القائم الوباء والغلاء والأهوال، فمات الناس والخيل، فرجع إلى إفريقية ومعه عسكر مصر. وكان وصوله إلى (المهدية) في رجب سنة سبع وثلاثمائة، وفي أيامه خرج أبو يزيد مُخْلد بن كندار[٢] الخارجي، وجرت له أمور يطول شرحها ـ ومات في المهدية.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير صاحب المعارف السنيّة والأحوال القوية: أبو بكَر الشبلي دلف بن جحدر، اشتغل في أول أمره بالفقه، وبرع في مذهب مالك، ثم سلك وصحب الجنيد وغيره من مشايخ عصره، وكان نسيج وحده حالاً وطرفاً وعلماً، وقيل: تاب في ابتداء أمره في مجلس خير النساج. ومجاهداته في أول أمره فوق الحدّ،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٣١٧: في هذه السنة توفي القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدي العلوي صاحب إفريقية لثلاث عشرة مضت من شوال.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٠٢: ابن كنداد.

ويقال أنه اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السهر، وكان يبالغ في تعليم الشرع، وإذا دخل رمضان جدّ في الطاعات ويقول: هذا شهر عظّمه ربّي عزّ وجلّ، فأنا أولى بتعظيمه.

ودخل يوماً على شيخه الجنيد، فوقف بين يديه، وصفّق بيديه وأنشد:

عوّدوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصدّ والصدّ أصعب
زعموا حين عاتبوا أنّ ذنبي فَرْطُ حبّي لهم وما ذاك أذنب
ألا وحقّ الخضوع عند التلاقي ما جزاء مَنْ يحبّ إلاّ يحبب

فقال الجنيد: نعم يا أبا بكر. وكانت امرأة الجنيد عنده حاضرة، فأرادت أن تستتر منه، فقال لها الجنيد: لا عليك، وهو غائب لا يراك. ثم بكى بعد إنشاده فقال الجنيد: استتري منه الآن فقد حضر.

وقال بعضهم: دخلت على الشبليّ يوماً في داره، وهو يصيح ويقول: على بعدك لا يصبر من عادته القرب، ولا يقوى على هجرك من تيّمه الحبّ، فإن لم ترك العين فقد أبصرك القلب.

وقال الشبلي: رأيتُ معتوهاً عند جامع الرصافة يقول: أنا مجنون، أنا مجنون، فقلت له: لم لا تصلّي؟ فأنشأ يقول:

يقولون زرنا واقض واجب حقّنا وقد أسقطت حالي حقوقهم عني
إذا هم رأوا حالي فلم يأنفوا لها ولم يأنفوا منها أنفت لهم منّي

وقال بعضهم: دخلت على الشبلي، فرأيته ينتف شعر حاجبه بالملقاط، فقلت له: يا سيدي؛ إنك تفعل هذا، وألمه يعود إليّ، فقال: ظهرت لي الحقيقة فلم أستطع حملها، فإذا دخل على نفسي الألم لكي يستتر عنّي، فلا وجدت الألم، ولا هي استترت عنّي، ولا أنا أطيق حمّلها. وكان أبوه من حجّاب الدولة، وله مقالات وحكايات وعجيبات، ذكرت شيئاً منها في غير هذا الكتاب.

وقد سأله بعض الفقهاء عن مسألة في الحيض امتحاناً فأجابه، وذكر فيها ثمانية عشر قولاً للعلماء، وكان قد أراد تخجيله وإظهار جهله في مجلسه بين الخلق، لكون خلقتهم بطلت باجتماع الناس على الشبلي، ولم يكن عند ذلك الفقيه من الأقوال المذكورة سوى ثلاثة.

سنة خمس وثلاثين وثلاث مائة

* فيها تملّك سيف الدولة دمشق بعد موت الإخشيذ، فحاربه جيوش مصر، فدفعته

إلى (الرقّة) بعد حروب وأمور واصطلح ـ معزّ الدولة بن بويه، وناصر الدولة بن حمدان.

* وفيها توفّي الفقيه الإمام أبو العباس[1] ابن القاصّ الطبري الشافعي، وله مصنّفات مشهورة، تفقّه على الإمام أبي العباس بن سُريج.

* وفيها توفّي العلاّمة الأخباري الأديب، صاحب التصانيف محمد بن يحيى البغدادي الصُّولي الشطرنجي، قال ابن خلّكان: كان أحد الأدباء الفضلاء المشاهير، روى عن أبي داود السجستاني، وأبي العباس ثعلب والمبرّد وغيرهم.

وروى عنه الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني، والإمام أبو عبد الله المرزباني وغيرهما ونادم المكتفي ثم المقتدر ثم الراضي، وكان أغلب فنونه أخبار الناس، وله رواية واسعة ومحفوظات كثيرة، وكان حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، مقبول القول، وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج، لم يكن في عصره مثله في معرفته، والناس الآن يضربون به المثل، فيقولون لمن يبالغون في حسن لعبه: فلان يلعب الشطرنج مثل الصُّولي.

قال ابن خلّكان: ورأيت خلقاً كثيراً يعتقدون أنّ الصُّولي هو الذي وضع الشطرنج ـ وهو غلط، فإنّ الذي وضعه (صِصَّهْ) ـ بالصاد المهملة المكررة بكسر الأولى منها وفتح الثانية وتشديدها وسكون الهاء في آخره ـ ابن داهر الهندي، وضعه للملك (شِيْرام) ـ بكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها والراء المكررة بعد الياء والميم ـ، وكان (أزدَشير) ـ بفتح الهمزة والدال وسكون الراء بينهما وكسر الشين المعجمة وسكون المثناة من تحت وفي آخره راء، ابن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة، قد وضع (النّرد)، ولذلك قيل له (النردير) نسبة إلى واضعه المذكور، وجعله مثلاً للدنيا وأهلها، فرتّب الرقعة اثني عشر بعدد شهور السنة، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كلّ شهر، وجعل الفصوص مثل القدر، ويقبله أهل الدنيا فالكلام في هذا يطول ويخرج عمّا نحن بصدده، فافتخرت الفرس بوضع النرد على ملك الهند، وكان ملك الهند يومئذٍ بَلْهَيْت (بفتح الموحدة وسكون اللام وفتح الهاء وسكون المثناة من تحت وبعدها مثناة من فوق على ما ضبطه بعض الناسخين) والله أعلم بصحّة ذلك.

قلت: واسم الملك المذكور مخالف لما تقدّم، من أن اسم الملك الذي وضع له شِيرام، ويحتمل أن يكون أحد اللفظين اسماً له، والآخر لَقَباً. فلمّا وضع الشطرنج المذكور

(١) في الكامل لابن الأثير ٣١٩/٦: أبو العباس أحمد بن أبي أحمد بن القاص الطبري القاضي الفقيه صاحب أبي العباس بن سريج، كان إماماً فقيهاً صنّف في مذهب كتاب المفتاح، أدب القاضي، المواقيت، التلخيص. وكان أبوه يقصّ على الناس الأخبار والآثار. تولى هو قضاء طرسوس وتوفي بها.

قَضَتْ حكماء ذلك العصر بترجيحه على النرّد، ويقال أن (صِصَّه) لما وضعه وعرضه على الملك المذكور أعجبه، وفرح به كثيراً، وأمر أن يكون في بيت الديانات، ورآها أفضل ما عمل، لأنّها آلة الحرب، وعز الدين والدنيا، وأساس لكلّ عدل، وأظهر الشكر والسرور على ما أنعم عليه في ملكه بها. وقال لصِصَّه: اقترح عليَّ ما تشتهي، فقال: اقترحت أن تضع حبّة بُرٍ في البيت الأول، ولا تزال تضعفها في كل بيت حتّى تنتهي إلى آخرها، فمهما بلغ تعطيني. فاستصغر الملك ذلك، وأنكر عليه كونه قابله بالبُرّ واليسير التافه الحقير، وكان قد أضمر له شيئاً كثيراً فقال: ما أريد إلاّ هذا، وأصرّ على ذلك، فأجابه إلى مطلوبه، وتقدّم له به، فلمّا قيل لأرباب الديوان أحسبوه قالوا: ما عندنا حبّ يفي بهذا، ولا بما يقاربه. فلمّا قيل للملك ذلك استنكر هذه المقالة، وأحضر أرباب الديوان، وسألهم فقالوا: لو جمع كلّ حبّ من البُرّ في الدنيا، ما بلغ هذا القدر، فتعجّب من مقالهم، وطالبهم بإقامة البرهان على ذلك، فقعدوا وحسبوه، وظهر لي صدق قولهم، فقال الملك: لصِصَّه: أنت في اقتراحك، ما اقترحت أعجب حالاً من وضعك الشطرنج.

قال ابن خلّكان: وطريق هذا التضعيف أن يضع الحاسبُ في البيت الأول حبّة، وفي الثاني حبّتين، وفي الثالث أربع حبّات، وفي الرابع ثماني حبّات، وهكذا إلى آخره، فكلّما انتقل إلى بيت أضعف ما قبله، وأثبته فيه. قال: ولقد كان في نفسي شيء من هذه المبالغة، حتّى اجتمع لي بعض حسّاب الاسكندرية، وذكر لي طريقاً يتبيّن صحّة ما ذكروه، وأحضر لي ورقة بصورة ذلك، وهو أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، وأثبت فيه اثنتين وثلاثين ألفاً وسبع مائةٍ وثماني وستين حبّةٍ، وقال: يجعل هذه الجملة مقدار قدح، قال: فغيّرناها، فكانت كذلك، والعهدة عليه في هذا النقل، ثم ضاعف القدح في البيت السابع عشر، وهكذا حتّى بلغ بيته في البيت العشرين، ثم انتقل إلى الويبات ومنها إلى الأرادب، ولم يزل يضاعفها حتّى انتهت في الأربعين إلى مائة ألف أردبّ، وأربعة وسبعين ألف أردب وسبع مائة واثنتين وستين أردباً وثلاثين أردباً. وقال: يجعل هذه الجملة في شونة[1]، فقال: يجعل هذه مدينة؛ فإن المدينة لا يكون فيها أكثر من هذه الشُوَن، وأيّ مدينة يكون فيها هذه الجملة من الشُوَن؟ ثم ضاعف المدن حتّى انتهت إلى بيت الرابع والستين، وهو آخر أبياته، دفعه الشطرنج إلى ستّة عشر ألف مدينة وثلاثمائة وأربع وثمانين مدينة، وقال: نعلم أنْ ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد، فإنّ دور كرة الأرض معلوم بطريق الهندسة، وهو ثمانية آلاف فرسخ، بحيث لو وضعنا طرف حبل على أيّ موضع ـ كان من الأرض ـ وأدرنا الحبل على كرة الأرض، حتى انتهينا بطرف الآخر إلى ذلك الموضع من

(١) الشونة: مخزن الغلّة.

الأرض، والتقى طرف الحبل، فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل، وهي ثمانية آلاف فرسخ. قال: وذلك قطعيٌّ لا شك فيه.

وقد أراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك، وكان معروفاً بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أنّ دور كرة الأرض عشرون ألف ميل. فسأل بني موسى بن شاكر ـ وكانوا قد اجتهدوا في معرفة علم الهندسة وغيرها من علم الأوائل ـ فقالوا: نعم، هذا قطعيّ، فقال: أريد منكم أن تعلموا الطريق الذي ذكره المتقدّمون، حتّى يبصر هل ينجز ذلك أم لا. فسألوا عن الأراضي المتساوي البلاد فقيل لهم: صحراء سِنجار[1] في غاية الاستواء، وكذلك وطْأة الكوفة، فأخذوا معهم جماعة ممّن يثق المأمون إلى أقوالهم، ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة، وخرجوا إلى صحراء سنجار، فوقفوا في موضع منها، وأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات، وضربوا في ذلك الموضع وتداً، وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف. إلى يمين أو شمال، بحسب الإمكان، فلمّا فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً آخر، وربطوا فيه حبلاً آخر، ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول، ولم يزل دأبهم ذلك، كلّما فرغ الحبل ضربوا وتداً، وربطوا فيه طرف ذلك الحبل الذي فرغ، وطرف حبل آخر، ومشوا إلى جهة الشمال حتى انتهوا إلى موضع، أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور، فوجدوا قد زاد عن الارتفاع الأول درجة. فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال، فبلغ ستّة وستين ميلاً وثلثَيْ ميل.

ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلاثمائة وستون درجة، لأنّ الفلك مقسوم باثني عشر برجاً، كلّ برج ثلاثون درجة، فضربوا عدد درج الفلك الثلاث مائة والستين، في ستّة وستين ميلاً وثلثين التي هي حصّة كلّ درجة، فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل، وهي ثمانية آلاف فرسخ، وهذا محقّق لا شكّ فيه، فلمّا عاد بنو موسى إلى المأمون، وأخبروه بما صنعوا ـ وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل ـ طلب تحقيق ذلك في موضع آخر أيضاً، فصيّرهم إلى أرض الكوفة، ففعلوا فيها كما فعلوا في سنجار، فتوافق الحسابان، فعلم المأمون صحّة ما حرّره القدماء في ذلك. انتهى كلام ابن خلّكان في ذكر مساحة دور كرة الأرض.

قلت: فعلى هذا يكون دور كرة الأرض مسيرة ألف مرحلة، وذلك مسيرة ثلاث سنين إلا ثمانين يوماً في مسير النهار دون الليل، أو الليل دون النهار، لأنّ المرحلة ثماني فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، كما هو معلوم في حساب مسافة القصر الشرعية. ولكنّ هذا ينافي ما قد اشتهر أن الأرض مسيرة خمسمائة سنة، مع أن طول الشيء أقلّ من دوره، وتعلم من

---

(١) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. (معجم البلدان).

ذلك أيضاً أنّ في كلِّ ثلاث مراحل إلا خمسة أميال وثلث في السير إلى جهة الشمال يرتفع القطب درجة، ويكون عرض البلد الذي انتهى إليها زائداً بدرجة على عرضٍ التي ابتدأ بالسير منها، بالثلاث المراحل المذكورة، إذ كانت المرحلة أربعاً وعشرين ميلاً، كما قدّروها في مسافة القصر.

وممّا يدلّك على صحّة هذا، أن عرض (المدينة المشرّفة) تزيد على عرض مكّة المعظّمة بثلاث درج، والله أعلم. وهذا لعمري يخالف ما قيل في الأثر، وورد في الخبر أنّ الأرض مسيرة خمسمائة عام، والله سبحانه العلاّم.

رجعنا إلى كلام ابن خلّكان وقال: يعلم ما في الأرض من المعمور، وهو قدر ربع الكرة بطريق التقريب، وقد انتشر الكلام، وخرجنا عن المقصود، ولكنّه ما خلا عن فائدة ـ أحببت إثباتها، ليقف عليها من يستنكر ما قالوه في تضعيف الخبر المذكور في رقعة الشطرنج، يعني أنّه يبلغ قدره إلى ما ذكر، وإن كان ذلك مما يستنكر.

ثم قال: ولنرجع إلى حديث الصُّولي: حكى المسعودي في كتاب مروج الذهب قال: وقد ذكر أنّ الصّولي في بدء دخوله على الإمام المكتفي لعب مع الماوردي بالشطرنج، وكان الماوردي متقدّماً عند المكتفي، متمكّناً من قبل[1]، معجباً به للّعب، فلمّا لعبا جميعاً بحضرة المكتفي حمد المكتفي حسن رأيه في الماورديّ، وتقدّم الحرمة[2] والألفة على نصرته وتشجيعه وتنبيهه، حتّى أدهش ذلك الصُّوليّ في أول وهلة. فلمّا اتصل اللعب بينهما، وجمع له الصّولي همّه وقصْده بكليته، غلبه غلبة لا يكاد يردّ عليه شيئاً، وتبيّن حسن لعب الصّولي للمكتفي، فعدل عن هواه ونصرته للماوردي، وقال له: عاد ماء وردِكَ بولاً.

قال ابن خلّكان: وأخبار الصّولي، وما جرى له أكثر من أن تحصَى، ومع فضائله والاتفاق على تفننه في العلوم، وخلاعته وظرافته، ما خلا من منتقص، هجاه هجّواً لطيفاً، وهو أبو سعيد العُقَيْليّ (بضم العين المهملة وفتح القاف) فإنّه رأى له بيتاً مملوءاً كتباً، قد صنّفها، وجلودها مختلفة الألوان، وكان يقول: هذه كلّها سماعي. وإذا احتاج إلى معاودة شيء منها قال: يا غلام؛ هات الكتاب الفلانيّ، فقال أبو سعيد المذكور هذه الأبيات:

إنمـا الصـولـي شيـخ ... أعلـم النـاس خـزانـة
إن سـألنـاه بعلـم ... طلـب منـه إبـانـة

---

(١) في مروج الذهب للمسعودي ٤/ ٢٣٢: كان الماوردي اللاعب مقدّماً عنده، متمكّناً من قلبه معجباً بلعبه.

(٢) في مروج الذهب للمسعودي: ٤/ ٢٣٢: وفي نسخة أخرى: وتقدم الخدمة.

قـــال يـــا غلمـــان هـــاتـــوا رزمـــة العلـــم فـــلانـــة

توفّي رحمه الله سنة خمس، وقيل سنة ستّ وثلاثين وثلاثمائة بالبصرة مستتراً، لأنه روى خبراً في حقّ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فطلبه الخاصّة والعامّة ليقتلوه، فلم يقدروا عليه. وكان قد خرج من بعد مضايقة لحقته.

وفي السنة المذكور توفّي الحافظ أبو سعيد الشاشي، صاحب المسند، محدّث ما وراء النهر.

سنة ست وثلاثين وثلاث مائة

* فيها توفّي الحافظ أبو الحسين بن المنادي[١]. صنّف وجمع وسمع من جدّه وخلق كثير.

* وفيها توفّي أبو طاهر المحمدأبادي، ومحمد بن الحسن النيسابوري، أحد أئمة اللسان، كان إمام الأئمة. ابن خُزيمة إذا شكّ في لغة سأله عنها.

* وفيها توفي أبو العباس الأثرم محمد بن أحمد المقرىء البغدادي.

سنة سبع وثلاثين وثلاث مائة

* فيها كان الفرق ببغداد، فبلغت دجلة إحدى وعشرين ذراعاً، وهلك خلق كثير تحت الهدم. وفيها قوي معزّ الدولة على صاحب الموصل ابن حمدان، وقصده، فقرّ ابن حمدان إلى (نصّيبين) ثمّ صالحه على ثمانية آلاف ألف في السنة ـ وفيها: خرجت الروم وهرب سيف الدولة عن (مَرْعَش)[٢] وملكوها. وهي بالعين والشين المعجمتين، كذا ضبطها بعضهم.

* وفيها توفّي الشيخ العارف بالله أبو إسحاق شيبان القرميسيني، صحب أبا عبد الله المغربي والخواص وغيرهما. ومن كلامه قوله: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية، وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة.

سنة ثمان وثلاثين وثلاث مائة

* فيها تعذّر خروج ركب العراق للحجّ، وفيها توفي المستكفي بالله عبد الله ابن

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٢٩: أبو الحسين بن المنادي أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن يزيد... توفي في المحرّم عن ثمانين سنة.

(٢) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. (معجم البلدان).

المكتفي بالله علي بن المعتضد بالله، أحمد.

* وفيها توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بُوَيْه الديلمي (بضم الموحدة وفتح الواو وسكون المثناة من تحت والهاء). كان أبوه صياداً، ليست معيشته إلاّ من صيد السمك، وكانوا ثلاثة إخوة: عماد الدولة، وركن الدولة، ومعزّ الدولة، والجميع ملكوا، وكان عماد الدولة ـ وهو أكبرهم سبب سعادتهم وانتشار صيتهم، واستولى على البلاد وملوك العراقَيْن والأهواز وفارس، وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة، ثم لمّا ملك عضد الدولة بن ركن الدولة، اتسعت مملكته، وزادت على ما كانت لأسلافه.

وذكر هارون بن العباس المأموني في تاريخه: أنّ عماد الدولة المذكور اتّفقت له أسباب عجيبة، كانت سبباً لثبات مملكته، منها أنّه اجتمع أصحابه في أول ملكه، وطالبوه بالأموال، ولم يكن معه ما يرضيهم، وأشرف على الانحلال، فاغتمّ لذلك. فبينا هو يفكر، قد استلقى على ظهره في مجلسه، إذ رأى حيّة خرجت من موضع من سقف من ذلك المجلس، ودخلت في موضع آخر منه، فخاف أن يسقط عليه، فدعا الفرّاشين، وأمرهم بإحضار سُلَّم وأن تُخرج الحية، فلمّا صعدوا وبحثوا عن الحيّة، وجدوا ذلك السقف يُفضي إلى غرفة بين سقفين، فعرّفوه ذلك، فأمرهم بفتحها، ففتحت، فوجد فيها عدّة صناديق من المال والصياغات، قدر خمسمائة ألف دينار، فحمل المال إلى بين يديه، فسرّ به فأنفقه في رجاله، وثبت أمره بعد أن كان قد أشفى على الانخرام، ثم إنه قطع ثياباً، وسأل عن خيّاط حاذق، فوصف له خياط كان لصاحب البلد فأمر بإحضاره ـ وكان أطروشاً[1] ـ فوقع له أنّه قد سُعيَ به إليه في وديعة كانت عنده لصاحب البلد، وأنه طلبه لهذا السبب، فلمّا خاطبه حلف أنه ليس عنده إلاّ اثني عشر صندوقاً لا يدري ما فيها، فعجب عماد الدولة من جوابه، ووجّه معه من حملها، فوجدوا فيها أموالاً وثياباً بجملة عظيمة، وكانت هذه من الأسباب الدالّة على قوّة سعادته، ثم تمكنت حاله، واستقرت فيها قواعده.

* وفيها توفّي أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد النحوي المصري. ناظر ابنَ الأعرابي وَنفطويه، وله تصانيف كثيرة مفيدة منها: (تفسير القرآن الكريم)، و (كتاب إعراب القرآن)، و (كتاب الناسخ والمنسوخ)، و (التفاحة) في النحو و (كتاب في الاشتقاق)، و (تفسير أبيات سيبويه)، ولم يسبق إلى مثله، وفسّر عشرة دواوين وأملاها، و (كتاب في شَرْح المعلّقات السبع)، و (كتاب طبقات الشعراء) وغير ذلك، وهي بضعة عشر مصنّفاً، ممّا يتعلّق بالنحو والأدب، ونحو ذلك مما يرجع إلى العربية.

---

(١) الأطروش: الأصمّ.

* وفيها توفّي الإمام الحافظ علي بن حِمشاذ (بالشين والذال المعجمتين وبينهما ألف وفي أوله حاء مهملة مكسورة وميم مكسورة مشددة) النيسابوري. رحل وطوّف وصنّف، وله مسند كبير وتفسير. (توفّي) فجأة في الحمّام. قال أحمد بن إسحاق الضبعي: صحبت علي بن حِمِشاذ في الحضر والسفر، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

* وفيها توفّي الفقيه الصالح محمد بن عبد الله بن دينار النيسابوري. قال الحاكم: كان يصوم النهار، ويقوم الليل، ويصبر على الفقر، ما رأيت في مشايخنا لأصحاب الرأي أعبد منه.

* وفيها توفّي الحسن أخو الوزير علي بن مقلة.

سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة

* فيها دخل سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم في ثلاثين ألفاً، فافتتح حصوناً، وسبى وغنم. فأخذت الروم عليه الدروب، واستولوا على عسكره قتلاً وأسراً، ونجا هو في عدد قليل، وتوصّل من سلم بأسوأ حال[١].

* وفيها أعادت القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، وكان بعض الأمراء قد دفع فيه لهم خمسين ألف دينار فأبوا.

* وفيها توفّي الحافظ أبو محمد، أحمد بن محمد الطوسيّ. قال الحاكم: كان أوحد عصره في الحفظ والوعظ، وأخرج صحيحاً على وضع مسلم.

* وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني. صنّف في الزهد وغيره، وصحب العبّاد، وكان من أكبر الحفّاظ حديثاً، قال الحاكم: هو محدّث عصره، مجاب الدعوة، لم يرفع رأسه إلى السماء ـ فيما بلغنا ـ نيفاً وأربعين سنة.

* وفيها توفّي القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد العباسي.

* وفيها توفي أبو نصر، محمد بن محمد التركي الفارابي الحكيم المشهور، صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما من العلوم. قيل: هو أكبر فلاسفة المسلمين، لم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه، والرئيس أبو علي بن سينا بكتبه تخرّج، وبكلامه انتفع في تصانيفه. (خرج) أبو نصر المذكور من بلده، ولم يزل تنتقل به الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد، وهو يعرف اللسان التركي وعدّة لغات غير العربي، فشرع في اللسان العربي،

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٣٤.

فتعلّمه، وأتقنه غاية الإتقان، ثم اشتغل بعلوم الحكمة، ولما دخل بغداد كان فيها أبو بشر قسطا بن يونس الحكيم المشهور، وهو شيخ كبير يعلّم الناس فنّ المنطق، وله إذ ذاك صيت عظيم، وشهرة وافية، ويجتمع في حلقته كلّ يوم خلق كثير وهو يقرأ كتاب أرسطاطاليس ليس في المنطق، ويملي على تلامذته شرحه، فكتب عنه وفي شرحه سبعون سِفراً، ولم يكن في ذلك الوقت أحد مثله في فنّه.

وكان في تآليفه حسن العبارة، لطيف الإشارة. وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل، حتّى قال بعض علماء هذا الفنّ: ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلاّ من أبي بشر، يعني: شيخه المذكور. وكان أبو نصر يحضر مجلسه من جملة تلامذته، فأقام بذلك برهة ثم ارتحل إلى مدينة حَرّان.

* وفيها توفّي ابن خيلان[1] (بالخاء المعجمة والياء المثناة من تحت) الحكيم النصراني، فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً، ثم قفل راجعاً إلى بغداد، وقرأ بها علوم الفلسفة، وتناول جميع كتب أرسطاطاليس، وتمهّر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها، ويقال أنه وجد (كتاب النفس) لأرسطاطاليس عليه مكتوب بخطّ أبي نصر الفارابي: قرأت هذا الكتاب مائتي مرّة.

ونُقل عنه أنّه كان يقول: قرأت (السماع الطبيعي) لأرسطاطاليس ربعين مرّة، وأرى أنّي محتاج إلى معاودة قراءته، (وروي) عنه أنه سُئل: مَن أعلم بهذا الشأن: أنت أم أرسطاطاليس؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته، ذكره أبو العباس ابن خلكان حاكياً له عن أبي القاسم بن صاعد القرطبي في كتاب (طبقات الحكماء).

وحكي عنه أنه قال: إنّي في التحقيق على جميع علماء الفلاسفة الإسلاميين، وشرح غامضها، وكشف سرّها، وقرب تناولها، وجمع ما تحتاج إليه منها على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التعاليم، وأوضح الغُفْل فيها من عواد المنطق الخمسة، وعرف طريق استعمالها، وكيف يصرف صورة القياس في كلّ مادّة، وجاءت كتبه في الغاية الكاملة والنهاية الفاضلة.

قلت: قوله الغُفْل (هو بضم الغين المعجمة وسكون الفاء، يقال: أرض غُفْل، لا علم بها ولا أثر عمارة، ودابة غفل: لا سِمة عليها، ورجل غُفْل: لم يجرّب الأمور، ذكره الجوهري، ثم له بعد ذلك كتاب شريف، لم يسبق إليه في إحضار العلوم والتعريف

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٣٧: وكان ـ الفارابي ـ تلميذ يوحنا بن حيلان، وكانت وفاة يوحنا أيام المقتدر بالله.

بأغراضها، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلّاب العلوم كلّها عن الاهتداء به. انتهى كلام ابن صاعد.

قال ابن خلكان: ولم يزل أبو نصر ببغداد مكبّاً على الاشتغال بهذا العلم والتحصيل له، إلى أن برز، أو قال: برع فيه، وفاق أهل زمانه. قال: ورأيت في بعض المجاميع أنّ أبا نصر لمّا ورد على سيف الدولة ـ وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف ـ فأدخل عليه، وهو بزيّ الأتراك ـ وكان ذلك دأبه دائماً ـ فوقف، فقال له سيف الدولة اقعد فقال: حيث أنا أمْ حيث أنت؟ فقال حيث أنت، فتخطّى رقاب الناس حتّى انتهى إلى مسند سيف الدولة، وزاحمه فيه، حتّى أخرجه عنه، وكان على رأس سيف الدولة مماليك، ولهم معهم لسان خاص يسارّهم به، قلّ أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللسان: أنّ هذا الشيخ قد أساء الأدب، وإنّي سائله في أشياء، إن لم يعرف بها فأحرقوا به. فقال له أبو نصر بذلك اللسان: أيّها الأمير، اصبر، فإنّ الأمور بعواقبها، فتعجّب سيف الدولة وقال له: أتحسن بهذا اللسان؟ فقال: نعم، أحسن بأكثر من سبعين لساناً، فعظم عنده، ثم أخذ يتكلّم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كلّ فنّ، فلم يزل كلامه يعلو، وكلامهم يسفل، حتّى صمت الكلّ، وبقي يتكلّم وحده. ثم أخذوا يكتبون ما يقوله، وصرفهم سيف الدولة، وخلا به فقال: هل لك أن تأكل؟ قال: لا، قال: فهل تشرب؟ قال: لا، قال: فهل تسمع؟ قال: نعم، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، فحضر كلّ من هو من أهل هذه الصناعة بأنواع الملاهي، فلم يحرّك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو نصر، وقال له: أخطأت، فقال له سيف الدولة: وهل تحسن في هذه الصّنعة شيئاً؟ قال: نعم، ثم أخرج من وسطه خريطة، وفتحها، وأخرج منها عيداناً، فركّبها، ثم ضرب بها، فضحك كلّ من في المجلس، ثم فكّها وغيّر تركيبها، وضرب بها، فبكى كلّ من في المجلس، ثم فكّها وركّبها تركيباً آخر، وضرب بها، فنام من في المجلس حتّى البواب، فتركهم نياماً وخرج.

ويقال إن الآلة المسماة بالقانون من وضعه، وهو أول من ركّبها هذا التركيب، وكان منفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان زاهداً في الدنيا، لا يحتمل بأمر مكسب، ولا مكفّ، ولم يزدْه سيف الدولة على أربعة دراهم في كلّ يوم لقناعته.

سنة أربعين وثلاث مائة

* فيها جمع سيف الدولة جيشاً عظيماً، ودخل في بلاد الروم، فغنم وسبى سبياً كثيراً، وعاد سالماً. وذلّت القرامطة، فأمن الوقت، وحجّ الركب.

* وفيها توفّي ابن الأعرابي المحدّث الصوفي القدوة أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد

البصري، نزيل مكّة، روى عن إسحاق الزعفراني. وخلق كثير، وجمع وصنّف، ورحل إليه.

* وفيها توفّي الفقيه الإمام الكبير أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي، إمام عصره في الفتوى والتدريس، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سُريج، وبرع فيه، وانتهت إليه الرئاسة بالعراق بعد ابن شريح، وصنّف كتباً كثيرة و (شرح مختصر المزني) وأقام ببغداد زمناً طويلاً يدرّس ويفتي، ونجب من أصحابه خلق كثير، وإليه ينسب درب المروزي ببغداد. ثم ارتحل إلى مصر في آخر عمره، فأدركه أجله فيها، ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي.

* وفيها توفّي العلاّمة شيخ الحنفيّة بما وراء النهر، أبو محمد عبد الله بن محمد البخاري، وكان محدّثاً رأساً في الفقه، صنّف التصانيف. وقال الحاكم: هو صاحب عجائب عن الثقات، وقال أبو زُرعة: هو ضعيف.

* وفيها توفّي أبو القاسم الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي، صاحب التصانيف، أخذ عن اليزيدي وابن دريد وابن الأنباري، وصحب أبا إسحاق إبراهيم بن السري الزجّاج، وإليه نسب، وبه عرف. وسكن دمشق، وانتفع به الناس، وانتفع بكتابه خلق لا يحصون.

فقيل: إنه جاور بمكّة مدّة، كان إذا فرغ الباب طاف أسبوعاً، ودعا بالمغفرة، وأنْ ينتفع بكتابه قارئه. قلت: وأخبرني بعض فضلاء المغاربة أنّ عندهم لكتابه مائة وعشرين شرحاً، قال ابن خلّكان: وهو كتاب نافع، لولا طوله بكثرة الأمثلة.

قلت: ولعمري إنّ كتابَيْن قد عظم النفع بهما، مع وضوح عبارتهما، وكثرة أمثلتهما، وهما (جمل الزجّاجي) المذكور، و (الكافي في الفرائض) للصروفي، من أهل اليمن رضي الله تعالى عنه، هما كتابان مباركان ما اشتغل أحد بهما إلا انتفع ـ خصوصاً أهل اليمن ـ بكتاب الكافي المذكور، وبالجمل في بلاد الإسلام على العموم، وما ذكر عن مصنّفه من الطواف والدعاء قد ذكر عن غير واحد من المصنّفين، ومنهم الإمام الشيخ شهاب الدين السهروردي في تصنيف عقيدته، وبعضهم جعل الصلاة عوضاً عن الطواف بعد كل مسألة، على ما قيل.

ومنهم الإمام الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتابه (التنبيه)، والله أعلم بصحّة ذلك عنهم ـ ولعمري إنّ صحّ ذلك ـ وهو من الهمم العالية في الاهتمام بصلاح الدين، والنفع العام للمسلمين، والتوفيق الخاص من رب العالمين.

توفي الزجاجي ـ رحمه الله ـ في شهر رمضان، وقيل في رجب في (طبريّة)، وقيل في

دمشق، في السنة المذكورة، وقيل في سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة، والله أعلم.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ الإمام، محدّث الأندلس، أبو محمد قاسم بن أصبغ القرطبيّ، صنّف كتاباً على وضع سنن أبي داود، وكان إماماً في العربية.

* وفيها توفّي أبو الحسن الكرخي[١] شيخ الحنفية بالعراق، وانتهت إليه رئاسة المذهب، وخرج له أصحاب أئمة. وكان إماماً قانعاً متعفّفاً عابداً صوّاماً قوّاماً كثير القدر.

سنة إحدى وأربعين وثلاث مائة

* فيها ظهر رجل وامرأة من التناسخيّة، يزعم الرجل أنّ روح عليّ ـ رضي الله عنه ـ انتقلت إليه. وتزعم المرأة أنّ روح فاطمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ انتقلت إليها. وآخر يدّعي أنّه جبريل، فضربهم الوزير المهلّبي[٢]، فتعزّزوا بالانتماء إلى أهل البيت. وكان بعض الولاة إذ ذاك شيعيّاً، فأمر بإطلاقهم. وفيها أخذت الروم مدينة سَروج[٣].

* وفيها توفّي طاهر المنصور، إسماعيل بن القائم بن المهدي العبيدي الباطني، صاحب المغرب. حارب مخلداً الأباضي[٤] الذي قد قمع بني عبيد، واستولى على ممالكه، فأسره وسلخه بعد موته، وحشى جلده. وكان المنصور المذكور بطلاً شجاعاً فصيحاً مفوّهاً، يرتجل الخطب. وكان سبب موته أنه أصابهم مطر، نزل فيه بَرَد كبير، وهبّت ريح شديدة، فأوهن ذلك جسمه، واشتدّ عليه البرد، ومات أكثر من معه، فأراد أن يدخل الحمّام، فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، فلم يقبل منه، ودخل الحمام فنالت الحرارة الغريزيّة منه، ولازمه السهر، فأقبل إسحاق يعالجه، والسهرُ باقٍ على حاله، فاشتدّ ذلك عليه، فقال لبعض الخدم: أما بالقيروان طبيب يخلّصني من هذا؟ فقيل: هنا شابّ قد نشأ، يقال له إبراهيم، فأمر بإحضاره، فحضر، فعرفه، وشكا ما به، فجمع له أشياء منوّمة، وجعلت في قنيّنة على النار، وكلّفه شمّها. فلمّا أدمن شمّها نام، وخرج إبراهيم مسروراً بما فعل، وجاء إسحاق ليدخل عليه فقالوا: هو نائم، فقال: إذا كان قد صنع له شيئاً ينام به فقد مات، فدخلوا عليه، فوجدوه قد مات، فأرادوا قتل إبراهيم، فقال إسحاق: ما له ذنب، إنّما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض، وما عرّفتموه ذلك، إنّي كنت

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٣٣٩/٦: أبو الحسن الكرخي: عبد الله بن الحسين بن لال، الفقيه الحنفي المشهور، كان فقيهاً وأديباً بارعاً عارفاً بالأصول والفروع، انتهت إليه رئاسة السادة الحنفية في زمانه، وانتشر تلامذته في البلاد، وكان عظيم العبادة والزهد.

(٢) هذه الحادثة وردت عند ابن الأثير في عام ٣٤٠ هـ. انظر ٣٣٩/٦.

(٣) سَروج: بليدة قريبة من حرّان من ديار مضر. (معجم البلدان).

(٤) في الكامل لابن الأثير ٣٤١/٦: حارب خالد بن كنداد الأباضي الذي كان قد قمع بني عبيد...

أعالجه، وأنظر في تقوية الحرارة الغريزيّة، وبها يكون النوم، فلمّا عولج بما يطفئها علمت أنه قد مات، ثم دفن بالمهديّة.

سنة اثنتين وأربعين وثلاث مائة

* فيها توفّي العلاّمة أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيّوب، شيخ الشافعية بنيسابور، سمع بخراسان والعراق والحجاز والجبال، فأكثر وبرع في الحديث، وأفتى نيّفاً وخمسين سنة، وصنّف الكتب الكبار في الفقه والحديث، قال محمد بن حمدون: صحبته عدّة سنين، فما ترك قيام الليل، وقال الحاكم: كان يضرب المثل بعقله ورأيه، وما رأيت في جميع مشايخنا أحسن صلاة منه، وكان لا يدع أحداً يغتاب في مجلسه.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير إبراهيم بن أحمد الرقّي الواعظ، شيخ الصوفية أخذ عن الجماعة وجنيد.

* وفيها توفّي أبو القاسم علي بن محمد التنوخي القاضي الحنفي، وكان من أذكياء العالم، راوية الأشعار، عارفاً بالكلام والنحو، وله ديوان شعر، ويقال أنه حفظ ستّمائة بيت في يوم وليلة.

* وفيها توفّي الناشىء الأصغر: علي بن عبد الله بن وصيف الشاعر المشهور. كان متكلّماً بارعاً، وهو من كبار الشيعة، وله تصانيف عديدة وأشعار حميدة، منها قوله:

إنـي ليهجـرنـي الصّـديـق تجنّبـاً ... فـأُريـه أنّ لهجـره أسبـابـا
وأخـاف إن عـاتبتـه أغـريتـه ... فـأُري لـه تـرك العتـاب عتـابـا
وإذا بُليـت بجـاهـلٍ متغـافـل ... يدعو المحال من الأمور صوابا
أوليتـه منّـي السكـوت وربّمـا ... كان السكوت عن الجواب جوابا

وقوله:

إذا أنـا عـاتبـت الملـوك فـإنّمـا ... أخـطّ بـأقـلام علـى المـاءِ أحـرُفـا
وهبْـه ارعـوى بعـد العتـاب، ألـم تكـن ... مـودّتـه طبعـاً فصـار تكلّفـا؟

وكان المتنبيّ ـ وهو صبي ـ يحضر مجلسه في الكوفة، وكتب من إملائه من قصيدة له:

كـأنَ سنـانَ ذابلـهِ ضميـر ... فليـس عـن القلـوب لـه ذهـاب
وصـارِمُـه كبيعتـه لحـم ... مقـاصـدهـا مـن الخلـق الـرقـاب

فنظم المتنبيّ هذا وقال:

كـأنّ الهـام فـي الهيجـا عيـون وقـد طبعـت سيـوفـك مـن رقـاد
وقـد صغـن الأسنّـة مـن همـوم فمـا يخطـرن إلا فـي فـؤاد

سنة ثلاث وأربعين وثلاث مائة

* فيها توفّي شيخ الكوفة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني[١]. قال ابن حمّاد[٢] الحافظ: كان شيخ المِصْرِ، والمنظور إليه، ومختار السلطان والقضاة، صاحب جماعة وفقه وتلاوة.

سنة أربع وأربعين وثلاث مائة

* فيها توفّي العلاّمة أبو الفضل القشيري البصري المالكي، صاحب التصانيف في الأصول والفروع.

* وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الحدّاد، شيخ الشافعية، صاحب التصانيف الحسنة المفيدة، ولد يوم وفاة المزني، وسمع من النسائي، وكان صاحب وجه في المذهب، متبحّراً في الفقه، متفنّناً في العلوم، معظّماً في النفوس، وعاش ثمانين سنة، وكان يصوم صوم داود، ويختم في اليوم والليلة، وكان حدّاداً، صنّف (كتاب الفروع) في المذهب، وهو كتاب صغير الحجم كثير الفائدة، تصدّى جماعة من الأئمة الكبار لشرحه، كالقفّال المروزي، والقاضي أبي الطيب الطبري، والشيخ أبي علي السجزي، قيل وشرحه أحسن الشروح. أخذ ابن الحدّاد الفقه عن أبي إسحاق المروزي، وكان فقيهاً محقّقاً غوّاصاً على المعاني، تولّى القضاء بمصر، والتدريس والفتاوى، وكانت الرعايا تعظّمه وتكرّمه. وكان يقال في زمنه: عجائب الدنيا ثلاثة: غضب الجلاّد، ولطافة ابن السماد، والردّ على ابن الحدّاد.

* وفيها توفّي أبو النّضر محمد بن محمد الطوسي الشافعي مفتي خراسان. كان أحد من اعتنى بالحديث، ورحل فيه، وصنّف كتاباً على وضع مسلم، وكان قد جزّأ الليل: ثلثاً للتصنيف، وثلثاً للتلاوة، وثلثاً للنوم. قال الحاكم: كان إماماً بارع الأدب، ما رأيت أحسن صلاة منه، كان يصوم النهار، ويقول بالليل، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويتصدّق بما فضل عن قُوْتِهِ.

---

(١) في الأنساب للسمعاني ٣/ ٤٨٥: وهو من شيبان أهل الكوفة... مات لسبع بقين من رمضان.
(٢) في الأنساب للسمعاني: ٣/ ٤٨٥: محمد بن أحمد بن حماد بن سفيان الحافظ.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني، محدّث نيسابور، صنف المسند الكبير، وصنّف على الصحيحين. ومع براعته في الحديث والعلل والرجال، لم يرحل من نيسابور.

* وفيها توفّي الحافظ الأديب المفسّر أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري النيسابوري.

سنة خمس وأربعين وثلاث مائة

* فيها غلبت الروم(١) على طرسوس، وقتلوا وسبوا وأحرقوا قراها.

* وفيها توفّي الفقيه الإمام شيخ الشافعية في عصره، أبو علي الحسن بن الحسين بن أبي هريرة الفقيه الشافعي. أخذ عن أبي العباس بن سريج، وأبي إسحاق المروزي. وشرح مختصر المزنيّ، وعلّق عنه الشرح أبو علي الطبري، وله مسائل في الفروع، ووجه في المذهب، درس ببغداد، وتخرّج عليه خلق كثير، وانتهت إليه إمامة العراقَيْن، وكان معظّماً عند السلاطين والرعايا، إلى أن توفّي في رجب من السنة المذكورة.

* وفيها توفّي الحافظ العلاّمة أبو الحسن القزويني(٢) القطّان. سرد الصوم ثلاثين سنة، وكان يفطر على الخبز والملح، ورحل إلى العراق واليمن، وروى عن أبي حاتم الرازي وطبقته.

* وفيها توفّي الإمام اللغوي الزاهد صاحب ثعلب، أبو عمرو محمد بن عبد الواحد البغدادي المعروف بالمطرّز. قيل: أنّه أملى ثلاثين ألف ورقة في اللغة من حفظه، وكان آية في الحفظ والذكاء. استدرك على كتابِ الفصيح ـ كتابِ شيخه ثعلب ـ جزءاً لطيفاً سمّاه (فايت الفصيح)، وشرحه أيضاً في جزء آخر، وله (كتاب اليواقيت)، و (كتاب النوادر)، و (كتاب التفاحة)، و (كتاب فايت العين)، و (كتاب فايت الجمهرة)، و (كتاب تفسير أسماء الشعراء)، و (كتاب القبائل)، وكتب أخرى تنيف الجميع على عشرين كتاباً. وكان لسعة روايته وغزارة حفظه يكذّبِهِ أدباء زمانه في أكثر نقل اللغة، ويقولون: لو طار طائر لقال: حدّثنا ثعلب عن ابن الأعرابي، ويذكر في معنى ذلك شيئاً. وأمّا روايته الحديث، فإن المحدّثين يصدّقونه ويوثقونه. وكان أكثر ما يمليه من التصانيف يلقّنه بلسانه من غير صحيفة يراجعها، وكان يُسأل عن شيء قد تواطأت الجماعة على وضعه، فيجيب عنه، ثم يُترك

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٥١: في جمادى الآخرة سار الروم في البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل. . .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٥٢: علي بن إبراهيم بن سلمة بن بحر أبو الحسن القزويني الحافظ، مولده سنة أربع وخمسين ومائتين.

سنة، ويُسأل عنه فيجيب بذلك الجواب بعينه.

وممّا جرى له في ذلك أنّهم سألوه: ما البيطرة عند العرب؟ فقال: كذا وكذا، فتضاحكوا سرّاً، وتركوه شهراً، ثم أمرُّوا شخصاً سأله عن اللفظة بعينها فقال: أليس سألتَ عن هذه المسألة مدّة كذا وكذا، وأجبت عنها بكذا وكذا؟ فتعجّبوا من فطنته واستحضاره للمسألة والوقت.

وكان لمعزّ الدولة غلام اسمه خَواجا، وكان المطرّز المذكور قد بلغ من إملاء (كتاب اليواقيت) إلى ذكر الخبر، فقال: اكتبوا ياقوتة، وخواجا، (الخواج في أصل لغة العرب الجوع) ثم فرّع على هذا باباً وأملاه، فعدّ الناس ذلك كذباً عظيماً، ثم تتبّعوه في كتب اللغة، فوجدوا عن ثعلب عن ابن الأعرابيّ: الخواج، الجوع.

وكان المطرّز المذكور يؤدّب ولد القاضي محمد بن يوسف، فأملأ يوماً على الغلام مسائل في اللغة، وذكر غريبها، وختمها ببيتَين من الشعر، وحضر ابن دريد وابن الأنباري، وابن مقسم عند القاضي المذكور، فعرض عليهم تلك المسائل، فما عرفوا شيئاً، وأنكروا الشعر، فقال لهم القاضي: ما تقولون فيها؟ فقال ابن الأنباري: أنا مشغول بتصنيف مشكل القرآن، ولست أقول شيئاً. وقال ابن مقسم مثل ذلك، واحتجّ باشتغاله بالقراءات. وقال ابن دريد: هذه المسائل من موضوعات المطرز لا أصل لشيء منها في اللغة. ثم انصرفوا، فبلغ المطرز ذلك، فاجتمع بالقاضي، وسأله إحضار دواوين جماعة من قدماء الشعراء عينهم، ففتح القاضي خزائنه، وأخرج له تلك الدواوين، فلم يزل المطرز يعمد إلى كلّ مسألة، ويخرج لها شاهداً من بعض تلك الدواوين، ويعرضه على القاضي، حتّى استوفى جميعها، ثم قال: هذان البيتان أنشدناهما ثعلب بحضرة القاضي، وكتبهما القاضي بخطّه على ظهر الكتاب الفلانيّ، فأحضر القاضي الكتاب، فوجد البيتين على ظهره بخطّه، كما ذكر بلفظه.

وقال رئيس الرؤساء: وقد رأيت أشياء كثيرة ممّا أنكر عليه، ونسب فيه إلى الكذب، فوجدتها مدوّنة في كتب أهل اللغة، وخاصة في غريب أبي عيد، وقال عبد الواحد بن علي بن برهان الأسدي، لم يتكلّم في علم اللغة أحد من الأولين والآخرين أحسن من كلام أبي عمرو الزاهد ـ يعني المطرز ـ وله (كتاب غريب الحديث) صنّفه على مسند الإمام أحمد بن حنبل، وكان ابن برهان المذكور يستحسنه جدّاً، وله شِعر رائق.

* وفيها توفي الوزير محمد بن علي البغدادي الكاتب، وكان من الصلحاء وإليه المنتهى في المعروف. قيل: إنه أعتق في عمره ألف رقبة، وأنفق في حجّة حجّها مائة ألف دينار، وبلغ ارتفاع مداخله بمصر من أملاكه في العام أربع مائة ألف دينار.

* وفيها توفّي المسعودي[١] المؤرّخ.

سنة ست وأربعين وثلاث مائة

* فيها قلّ المطر، ونقص البحر نحواً من ثمانين ذراعاً، فظهر فيه جبال وجزائر وأشياء لم تعهد، وكان بالري زلازل عظيمة، وخسف ببلد الطالَقان[٢] في ذي الحجّة، ولم يفلت من أهلها إلا نحو من ثلاثين رجلاً، وخسف بخمسين ومائة قرية من قرى الري، فيما نقل بعض المؤرخين قال: وعلقت قرية بين السماء والأرض، ونحن فيها نصف يوم، ثم خسف بها.

* وفيها توفّي يوم عاشوراء أبو القاسم إبراهيم بن عثمان القيرواني، شيخ المغرب في النحو واللغة، حفظ كتاب سيبويه، والمصنّف الغريب، وكتاب العين وإصلاح المنطق، وغير ذلك.

* وفيها توفّي الحافظ الكبير أبو يعلى عبد المؤمن بن خلف السيفي. رحل وطوّف، ووصل إلى اليمن، ولقي أبا حاتم الرازي وخليفته، وكان مفتياً ظاهرياً أثرياً، وفيه زهد وتعبّد.

* وفيها توفّي أبو العباس المحبوبي محمد بن أحمد بن محبوب المروزي، محدّث (مَرو) وشيخها ورئيسها.

* وفيها توفي مسند الأندلس، الفقيه الإمام المالكيّ وهب بن ميسرة التميمي. كان محققاً في الفقه، بصيراً بالحديث وعلله، مع زهد وورع.

سنة سبع وأربعين وثلاث مائة

* فيها فتكت الروم ـ خذلهم الله تعالى ـ ببلاد الإسلام، وقتلوا خلائق، وأخذوا عدّة حصون بنواحي آمِد[٣] وفارِقين[٤]، ثم وصلوا إلى قِنّسرين[٥]، فالتقاهم سيف الدولة بن

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٦/٣٥١: هو علي بن الحسين بن علي، الشيخ الإمام العلامة أبو الحسن المسعودي صاحب التاريخ المسمّى بمروج الذهب ـ أصله من بغداد ثم أقام بمصر إلى أن مات فيها في جمادى الآخرة، وكان معتزلياً ـ كما قال الذهبي ـ.

(٢) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مر والروذ وبلخ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر. (معجم البلدان).

(٣) آمد: أعظم مدن ديار بكر (معجم البلدان). وتتبع حالياً تركيا، وتقع شرقي نهر الفرات.

(٤) فارقين: ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر. (معجم البلدان)، وتقع شمال شرقي آمد.

(٥) قنّسرين: مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص. (معجم البلدان).

حمدان، فعجز عنهم، وقتلوا معظم رجاله، وأسروا أهله، ونجا هو في عدد يسير.

* وفيها سار معزّ الدولة[1]، واستولى على إقليم الجزيرة، وفرّ بين يديه صاحبها ناصر الدولة، فقدم على أخيه سيف الدولة بحلب، وجرت أمور طويلة، ثم إنّ سيف الدولة راسل معزّ الدولة يستعطفه، فعقد له على الموصل، وكان ناصر الدولة قد نكث بمعزّ الدولة مرّات، ومنعه الحمل والخراج.

* وفيها توفّي الحافظ البارع أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، صاحب تاريخ مصر: تاريخ كبير للمصريين، وتاريخ صغير يختصّ بالغرباء الواردين فيها، وذيلهما أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي، وبنى عليهما.

وأبو سعيد المذكور حفيد يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي، والناقل لأقواله الجديدة. كان خبيراً بأحوال الناس ومطّلعاً على تواريخهم، ولما توفّي رثاه عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني الحسّاب المصري النحويّ العروضيّ بقوله:

ثبّتّ علمك تصنيفاً وتقريباً ... وعدْت بعد الزيد لعيسى مندوبا
أبا سعيد ـ وما نالوك ـ أن تشرب ... عنك الدواوين تصديقاً وتصويبا
ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتّى رأيناك في التاريخ مكتوبا

مع أبيات أخرى حذفتها اختصاراً.

* وفيها توفّي الحافظ أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي، والد الحافظ تمام.

* وفيها توفي الأمير تميم المعزّ الحميري، رفعوا نسبه إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر. قالوا: وهو هود عليه السلام بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، هكذا ذكره العماد في الجزيرة، وتميم المذكور ملك إفريقية، وما والاها بعد أبيه المعزّ. وكان حسن السيرة، محمود الآثار، محبّاً للعلماء، معظّماً لأرباب الفضائل، حتّى قصدته الشعراء من الآفاق. وجدّه المثنّى بن المسور أول من دخل منهم إلى إفريقية. وقال أبو الحسن بن رشيق القيروانيّ في الأمير تميم المذكور.

أصحّ وأوعى ما سمعناه في الندا ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السنون عن الحيا ... عن البحر عن كفّ الأمير تميم

ولتميم المذكور أشعار كثيرة حسنة منها.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير: ٦/٣٥٣.

سـل المطـر العـام الـذي عـمّ أرضكـم أجـاء بمقـدار الـذي فـاض مـن دمعـي
إذا كنـت مطبـوعـاً علـى الصـدّ والجفـا فمـن أيـن لـي صبـر فـأجعلـه طبعـي

سنة ثمان وأربعين وثلاث مائة

* فيها عمل الخطيب عبد الرحيم بن نباتة خطبة الجهاد، يحرّض المسلمين على غزو الروم، وكانوا قد ظفروا بسريّة فأسروها، وأسروا أميرها محمد بن ناصر الدولة بن حمدان، ثم أغاروا على (الرّهَا)[1] وحرّانَ، وقتلوا وسبوا، وكرّوا على ديار بكر.

* وفيها توفّي الفقيه الحافظ صاحب التصانيف، شيخ الحنابلة السجاد أحمد بن سليمان، وكان له حلقتان: حلقة للفتوى، وحلقة للإملاء. وكان رأساً في الفقه، ورأساً في الحديث، قيل: كان يصوم الدهر، ويفطر على رغيف، ويترك منه لقمة، فإذا كان ليلة الجمعة أكل تلك اللقم، وتصدّق بالرغيف. قلت: ومثل هذا من الفقيه عزيز كثير، ومثله مذكور عن بعض أهل الرياضة من الفقراء المجرّدين الذي هو في حقّهم قليل حقير.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير أبو محمد جعفر بن محمد بن نصر، شيخ الصوفية ومحدّثهم. سمع من أبي أسامة، وعلي بن عبد العزيز البغوي وطبقتهم، وصحب الجنيد وأبا الحسن النوري، وأبا العباس بن مسروق. وكان إليه المرجع في علم القوم وتصانيفهم وحكاياتهم، وحجّ ستّاً وخمسين حجّة، وعاش خمساً وتسعين سنة.

سنة تسع وأربعين وثلاث مائة

* فيها أوقع غلام سيف الدولة بالروم، فقتل وأسر، وفرح المؤمنون.

* وفيها وقعت وقعة هائلة ببغداد بين أهل السنّة والرافضة، وقويت الرافضة ببني هاشم ومعزّ الدولة، وعطّلت الصلوات في الجوامع، ثم رأى معزّ الدولة المصلحة في القبض على جماعة من الهاشميين، فسكتت الفتنة.

* وفيها حشد سيف الدولة، ودخل بلاد الروم، فأغار وفتك وسبى، ورجعت إليه جيوش الروم، فعجز عن لقائهم، فوفي[2] ثلاثمائة، وذهبت خزانته، وقتل جماعة من أمرائه. وفيها كان إسلام الترك، قال ابن الجوزي: أسلم من الترك مائتا ألف.

---

(١) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. (معجم البلدان).
(٢) العبارة غير واضحة. في الكامل لابن الأثير: ٣٥٨/٦: ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليه قتلاً وأسراً، وتخلّص هو في ثلاثمائة رجل.

* وفيها توفّي أبو الفوارس الصابوني، أحمد بن محمد السندي الفقيه المعمّر، مسند ديار مصر، عن يونس بن عبد الأعلى والمزنيّ والكبار.

* وفيها توفّي الفقيه العلاّمة أبو الوليد، حسان بن محمد القرشي الأموي النيسابوري، شيخ الشافعية بخراسان، وصاحب شريح صاحب التصانيف، وكان بصيراً بالحديث وعلله، وأخرج كتاباً على صحيح مسلم، وهو صاحب وجه في المذهب، وقال الحاكم: هو إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد مَنْ رأيت من العلماء وأعبدهم.

* وفيها توفّي الحافظ أحد الأعلام أبو علي الحسين بن علي بن يزيد النيسابوري. قال الحاكم: هو أوحد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكرة والتصنيف.

* وفيها توفّي الحافظ أبو أحمد العتباني محمد بن أحمد قاضي أصفهان. قال الحافظ أبو نعيم: كان من كبار الحفاظ.

سنة خمسين وثلاث مائة

قالوا فيها بنى معزّ الدولة ببغداد دار السلْطنة في غاية الحسن والكبر، غرم عليها ثلاثة عشر ألف ألف درهم، وقد درست آثارها في حدود الستمائة، وبقي مكانها تأوي إليه الوحوش، وبعض أساسها موجود، فإنّه حفر لها في الأساسات نيّفاً وثلاثين ذراعاً.

* وفيها توفّي أبو شجاع فاتك الكبير، المعروف بالمجنون، كان روميّاً أُخذ صغيراً هو وأخ له وأخت لهما من بلاد الروم، فتعلّم بفلسطين، وهو ممّن أخذه الإخشيذ من سيّده بالرملة كرهاً بلا ثمن، فأعتقه صاحبه، وكان معهم حرّاً في عدة المماليك، وكان كريم النفس بعيد الهمّة شجاعاً، كثير الإقدام، ولذلك قيل له المجنون. وكان رفيق الأستاذ كافور في خدمته الاَخشيذ، فلمّا مات مخدومهما، وتعزّز كافور في تربية ابن الأخشيذ، أنف فاتك من الإقامة بمصر، كي لا يكون كافور أعلى رتبة منه، ويحتاج إلى أن يركب في خدمته. وكانت الفيّوم وأعمالها إقطاعاً، فانتقل ـ واتّخذها سكناً له، وهي بلاد وبية كثيرة الوخم، فلم يصحّ بها له جسم، وكان كافور يكرمه ويخافه فزعاً منه، وفي نفسه منه ما فيها، واستحكمت العلّة في جسم فاتك وإخوته، فاحتاج إلى دخول مصر للمداواة، فدخلها.

وبها دخل المتنبي ضيفاً للأستاذ كافور، وكان يسمع فاتك كثرة سخائه، غير أنّه لا يقدر على قصد خدمته خوفاً من كافور، وفاتك يسأل عنه ويراسله السلام، ثم التقيا في الصحراء مصادقةً من غير ميعاد، وجرى بينهما مفاوضات، فلمّا رجع فاتك إلى داره حمل للمتنبي في ساعته هدية قيمتها ألف دينار، ثم أتبعها بهدايا بعدها، فاستأذن المتنبى كافوراً

في مدحه، فأذن له، فمدحه بقصيدة من غرر القصائد، أولها:

لا خيــل عنــدك تهــديهــا ولا مــال   فليسعـد النطـقُ إنْ لـم يسعـد الحـال

وما أحسن القول فيها:

كفــاتــك ودخــولُ الكــاف منقصــةٌ   كــالشمـس قلـتُ ومـا للشمـس أمثـال

لما توفّي رثاه المتنبي، وكان قد خرج من مصر، بقصيدة أولها:

الحــزن يعلــق والتحمّــل يــردع   والــدمــع بينهمــا عصــيّ طيّــع

وما أرقّ قوله:

إنّـي لأجْبُـنُ مِـن فـراق أحبّتـي   وتحـسُّ نفسـي بـالحِمـام فـأشجُـعُ
ويـزيـدنـي غضـب الأعـادي قَسْوةً   ويُلـمّ بـي عتْـبُ الصـديـق فـأجزعُ
تصفـو الحيـاة لجـاهـل أو غـافـلٍ   عمّـا مضـى منهـا ومـا يتـوقّـعُ
ولمـن يغـالـطُ فـي الحقـائـق نفسـه   ويسـومهـا طلـبَ المحـال فتطمَـعُ

* وفيها توفي الفقيه أبو علي الحسن بن القاسم الطبري الفقيه الشافعي، أخذ عن أبي علي بن أبي هريرة، وسكن ببغداد، ودرس بها بعد شيخه أبي علي بن أبي هريرة، وصنّف التصانيف (كالمحرر في النظر) وهو أول ـ كتاب صنّف في الخلاف)، و (المجرد في الخلاف)، و(الإيضاح)، و (العدّة) كلاهما في الفقه، وصنّف كتاباً في أصول الفقه. (والطَبَرِيُّ) نسبة إلى طَبْرستان، والنسبة إلى طبريّة طبْرانيّ، وهو صاحب وجه في المذهب.

* وفيها توفّي خليفة الأندلس الناصر لدين الله أبو المظفّر عبد الرحمن بن محمد الأمويّ. وكانت دولته خمسين سنة، وقام بعده ولده المستنصر بالله، وكان كبير القدر كثير المحاسن. أنشأ (مدينة الزهراء)، وهي عديمة الحسن في النظير، غرم أهلها من الأموال ما لا يحصى، ولما بلغه ضعف أحوال الخلافة بالعراق، ورأى أنه أمكن منهم والي تلقّب باللقب المذكور.

* وفيها توفّي فاتك[1] أبو شجاع الرومي الإخشيذي، رفيق الأستاذ كافور وأحد أمراء الدولة، وكان كافور يخافه، وقد مدحه المتنبي، فوصله فاتك بألف دينار.

سنة إحدى وخمسين وثلاث مائة

* فيها نازل طاغية الروم مدينة (عَيْن زَرْبة)[2] بضمّ الزاي وسكون الراء وفتح

---

(١) تقدم ذكر وفاته في العام نفسه.

(٢) عين زربى: هو بلد بالثغر من نواحي المصّيصة. (معجم البلدان).

الموحدة ـ في مائة ألف وستين ألفاً، فأخذها وقتل خلقاً لا يحصون، وأحرقها ومات أهلها في الطرقات جوعاً وعطشاً، إلا من نجا بأسوأ حال، وهدم حولها نحواً من خمسين حصناً أخذ بعضها بالأمان، ورجع فجاء سيف الدولة على عين زَرْبة، وأخذ بتلافي الأمر، وبلمّ شمثها، واعتقد أنَّ (بعضها بالأمان)[1] الطاغية لا يعود، فدهمه الملعون، ونازل حلب بجيوشه، فلم يقاومه سيف الدولة، ونجا في نفر يسير. وكانت داره بظاهر حلب، فدخلها الملعون، ونزل بها، واحتوى على ما فيها من الخزائن، وحاصر أهل حلب، إلى أن انهدمت ثلمة من السور، فدخلت الروم منها، فدَفعهم المسلمون عنها، وبنوها في الليل، ونزلت أعوان الوالي إلى بيوت العوام، فنهبوا فوقع الصائح في الأسوار: الحقوا منازلكم، فنزلت الناس حتّى خلت الأسوار، فبادرت الروم، فتسلقوا، وملكوا البلد، ووضعوا السيف في المسلمين حتّى كلّوا وملّوا، واستباحوا حلب، ولم ينجُ إلاّ من صعد إلى القلعة.

وأمّا بغداد، فرفعت المنافقون رؤوسها، وقامت دولة الرافضة، وكتبوا على أبواب المساجد لعْنَ معاوية، ولعن من غصب فاطمة حقّها، ولعن من نفى أبا ذر، فمحاه أهل السنّة بالليل، فأمره معزّ الدولة بإعادته، فأشار إليه الوزير المهلبي أن يكتب: ألا لعنة الله على الظالمين لآل محمد، ولعن[2] معاوية فقط.

وأنزل الروم من مَنْبج الأمير أبا فراس بن سعيد بن حمدان، وبقي في أسرهم سنين.

* وفيها توفّي قاضي الحرمين وشيخ الحنفية في عصره أبو الحسين أحمد بن محمد النيسابوري، ولي قضاء الحجاز مدّة، وكان تفقّه على أبي الحسين الكرخي، وبرع في الفقه.

* وفيها توفّي المهلّبي الوزير في قول.

* وفيها توفّي دعلج[3] أبو محمد السِجّزي. قال الحاكم: أخذ عن أبي خزيمة مصنّفاته، وكان يفتي بمذهبه، وقال الدارقطني: لم أرَ في مشايخنا أثبت من دعلج، وقال الحاكم: لم يكن في الدنيا أيسر منه، اشترى بمكّة دار العباس بثلاثين ألف دينار، وقيل:

---

(١) هذه العبارة ليس مكانها هنا ـ بل هي مكرّرة.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير: ٧/ ٤.
(٣) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٥: دعلج بن أحمد السجزي المعدّل، ولد سنة ستين ومائتين، سمع بخراسان وحلوان وبغداد والبصرة والكوفة، كان من أوعية العلم، روى عن الحاكم والدارقطني... توفي في جمادى الآخرة عن أربع أو خمس وتسعين سنة ـ والسجزي نسبة إلى سجستان.

كان الذهب في داره بالقفاف، وكان كثير المعروف والصلاة.

* وفيها توفّي الحافظ أبو الحسن عبد الباقي بن قانع بن مرزوق، صنّف التصانيف.

* وفيها توفّي أبو بكر النقّاش، محمد بن الحسن الموصلي، ثم البغدادي المقرىء المفسّر صاحب التصانيف في التفسير والقراءات.

سنة اثنتين وخمسن وثلاث مائة

* فيها يومَ عاشوراء، ألزم معزّ الدولة أهل بغداد النوح والمأتم، وأمر بغلق الأبواب، وعلّقت عليها المسوح، ومنع الطباخين من عمل الأطعمه، وخرجت نساء الرافضة منشراتِ الشعر، مسمحات الوجوه، يلطمن ويفتنّ الناس. قيل: وهذا أول ما نيح عليه.

* وفيها يومَ ثامن عشر ذي الحجّة الرافضة عيد الغدير: (غديرُ خُمّ) بضم الخاء المعجمة، ودقّت الكوسات، وصلّوا بالصحراء صلاة العيد.

* وفيها أو في التي قبلها توفّي الوزير المهلبي الحسن بن محمد، على الخلاف المتقدّم، وكان وزير معزّ الدولة بن بُوَيْه ـ بضم الموحدة وفتح الواو وسكون المثناة من تحت وفي آخره هاء الديلمي، وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلوّ الهمّة وفيض الكف، على ما هو مشهور به، وكان في غاية الأدب والمحبّة لأهله، وكان قبل اتّصاله بمعزّ الدولة في شدّة عظيمة من الضرورة، ولقي في سفره مشقّة صعبة، اشتهى اللحم، فلم يقدر عليه فقال ارتجالاً:

ألا موتٌ يباع فأشتريه ... فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي ... يخلّصني من الموت الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد ... فودّي أنني ممّا يليه
ألا رحم المهيمن نفس حرّ ... تصدّق بالوفاء على أخيه

وكان بمصر له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي، وقيل أبو الحسن العَسْقلانيّ، فلمّا سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحماً، وطبخه وأطعمه، وتفارقا، وتنقلب بالمهلبيّ الأحوال، وتولّى الوزارة ببغداد لمعزّ الدولة، وضاقت الأحوال برفيقه في السفر، الذي اشترى له اللحم، وبلغه وزارة المهلبيّ، فقصده، وكتب إليه.

ألا قلْ للوزير فديت نفسي ... مقالة مُذْكِرٍ ما قدْ نسيه
أتذكر إذْ تقول لضيق عيشٍ ... ألا موتٌ يُباع فأشتريه؟

فلمّا وقف عليها تذكره، وهوته أريحية الكرم، فأمر له في الحال ـ بسبعمائة درهم ـ

ووقّع في ورقته ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٦١]، ثم دعا به، وخلع عليه، وقلّده عملاً يرتفق به، ومن المنسوب إلى الوزير المذكور في وقت الإضافة من الشعر، ما كتبه إلى بعض الرؤساء قوله، وقيل أنه لأبي نواس:

ولو أني استزدتك فوق ما بي ... من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عُرضت على الموتى حياة ... لعيشٍ مثل عيشي لم يزيدوا

وقال أبو إسحاق الصابي، صاحب الرسائل: كنت يوماً عند الوزير المهلبي، فأخذ ورقة وكتب، فقلت:

يديها يد برعت جوداً بنائلها ... ومنطق درّة في الطرس ينتثر
فخاتم كامن في بطن راحته ... وفي أناملها سحبان مستتر

وكان من رجال الدهر عزماً وحزماً وسؤدداً وعقلاً وشهامةً ورأياً.

* وفيها توفّي علي بن إسحاق البغداي الزاهي الشاعر المشهور، كان وصّافاً محسناً، كثير الملح، حسن الشعر في التشبيهات وغيرها.

ومن قوله في تشبيه البنفسج.

ولا زور ديّةٌ تزهو بزرقتها ... بين الرياض على جمر اليواقيت
كأنها فوق قاماتٍ ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

ويروى: فوق طاقات، ومن محاسن شعره:

وبيض بألحاظ العيون كأنّما ... هززْنَ سيوفاً أو سَلْلن خناجرا
تصدّين لي يوماً بمنعرج اللوى ... فغادرنَ قلبي بالتصبر غادرا
سفرن بدوراً وانتقبن أهلّة ... ومِسْنَ غصوناً والتفتن جآذِرا
واطلعْنَ في الأخبار بالدرّ أنجماً ... جعلن لحيات القلوب صرائرا

وهذا تقسيم ظريف، قد استعمل جماعة من الشعراء، لكنّهم قصرت بهم القريحة عن بلوغ هذه الصنيعة. ونحوه قول المتنبي:

بدت قمراً ومالت خوطَ بانٍ ... وفاحت عنبر أورثت غزالا

قلت: ولست أدري أيّهما سلك طريق الآخر تابعاً له في هذه المآخذ، وهما متعاصِران. توفي المتنبي بعده في سنة أربع.

ومن التقسيم الحسن أيضاً قول بعض الشعراء:

وسـائلـةٍ تسـائـل عنـك قلنـا لهـا فـي وصفـك العجبَ العجيبـا
رنـا ظبيـاً وغنّـى عنـدليبـاً ولاح شقـائقـاً ومشـى قضيبـا

وأمّا نسبة الزاهي فقال السمعاني: ولست أدري نسبة الزاهي المذكور إلى أيّ شيء، لكنّ جماعة نسبوا هذه النسبة إلى قرية من قرى نيسابور.

* وفيها توفّي ابن المنجّم علي بن عبد الله الشاعر المشهور، ذو نسب عريق في ظرفاء الأدباء، وندماء الخلفاء، يفضون إليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم. وله أشعار حسان منها:

بينـي وبيـن الـدهـر فيـك يمجّـه سيطـول إن لـم يجْبـهِ اعتـاب
يـا غـائبـاً لـوصـالـهِ وكتـابـهِ هـل يـرتجـى مـن غيبتيـك إيـاب؟
لـولا التعلّـل بـالـرجـاء لتقطّعـت نفـس عليـك شعـارهـا الأوصـاب
لا بـأس مـن روح الإلـه فـربّمـا يصـل القطيـع ويحضـر الغيّـاب

* وفيها توفّي الحافظ، أحد أركان الحديث بالأندلس، أبو القاسم خالد بن سعد، صنّف التصانيف، وكان عجباً في معرفة الرجال والعلل. وقيل كان يحفظ الشيء من فرد مرّة، وورد أنّ المستنصر بالله قال: إذا فاخَرَنا أهل المشرق بيحيى بن معين نحن فاخرناهم بخالد بن سعد.

سنة ثلاث وخمسين وثلاث مائة

* فيها تحارب[1] معزّ الدولة وناصر الدولة أمير الموصل، فانهزم أولاً ناصر الدولة، ثم انتصر وأخذ حواصل معزّ الدولة ونقله، وأسر عدّة من الأتراك.

* وفيها توفّي الحافظ البارع أبو سعيدٍ أحمد بن محمد، والسيد الجليل الشيخ أبي عثمان[2] سعيد بن إسماعيل الحبري النيسابوري شهيداً بطرسوس. صنّف التفسير الكبير والصحيح على رسم مسلم، وغير ذلك.

* وفيها توفي الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمزة بأصْبهان في رمضان، وهو في عشر الثمانين، قال أبو نعيم لم يُرَ بعد عبد الله بن مظاهر في الحفظ مثله، جمعَ

(١) انظر الكامل لابن الأثير: ٩/٧ ـ ١٠.
(٢) في الكامل لابن الأثير: ١٣/٧: وفيها توفي أحمد بن محمد بن الزاهد أبي عثمان سعيد الحيري النيسابوري شهيد طرسوس ـ وله خمس وستون سنة ـ . . .

الشيوخ والمسند.

* وفيها توفّي أبو الفوارس: شجاع بن جعفر الواعظ ببغداد وقد قارب المائة.

* وفيها توفّي الحافظ أبو علي محمد بن هارون بن شعيب الأنصاري الدمشقي.

سنة أربع وخمسين وثلاث مائة

* فيها توفّي المتنبيّ، الشاعر العصر الملقّب بأبي الطيب، أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي نسباً الكوفي، ثم الكندي منزلاً، قدم الشام في صباه، وجال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب، ومهر فيها، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلعين على غريبها ووحشيّها، فلا يُسأل عن شيء إلا ويستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتّى قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب الإيضاح والتكملة قال له: كم لنا من الجموع على وزن (فِعْلَى) ـ بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام؟ ـ فقال المتنبي في الحال: (حِجْلى) و (ظِرْبى). قال أبو علي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً، فلم أجدْ.

قلت: وناهيك به.معرفة، في حقّ من يقول الإمام الجليل في العربية له هذه المقالة، ويشهد له بهذه الشهادة السنيّة. قال بعضهم: (وحِجْلى) جمع حجلة، وهو الطائر المسمّى القَبَج: بفتح القاف وسكون الموحدة وبالجيم. (والظِرْبى): بكسر الظاء المعجمة وسكون الراء وبعدها موحدة: جمع ظُربان، على وزن قُطران، وهي دُوَيبة منتنة الرائحة. وأما شعر المتنبي فكثرة شعره تغني عن مدحته.

قال ابن خلّكان: والناس في شعره على طبقات: فمنهم من يرجّحه على شعر أبي تمام ومن بعده، ومنهم من يرجح أبا تمام عليه، قال: واعتنى العلماء بديوانه فشرخوه، وذكروا أن أحد مشايخه الذين أخذ عنهم قال: وقفت له على أكثر من أربعين شرحاً، ما بين مطوّلات ومختصرات، ولم أرَ هذا بديوان غيره. وقال: ولا شكّ أنّه رزق من شعره السعادة التامة. انتهى.

قلت: ولأهل الفضل من المتقدمين والمتأخرين خلاف كثير في تفضيل جماعة من الشعراء، بعضهم على بعض، وقد أوضحت ذلك في آخر الجزء الثاني من كتابي (الموسوم بمنهل المفهوم في شرح ألسنة العلوم).

وعن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: اتفقوا على أنّ أشعر الشعراء امرؤُ القيس والنابغة وزهير. قلت: يعني بذلك من الشعراء القدماء، ومعلوم أنّ كثيراً من الشعراء البارعين حذقوا

بعد أبي عمروٍ كأبي تمام والبحتري والمتنبيّ، قال: وكان يشبّه ثلاثة من شعراء الإسلام بثلاثة من شعراء الجاهلية: الفرزدق بزهير، وجرير يالأعشى، والأخطل بالنابغة، فامرىء القيس من اليمن والنابغة، وزهير إذا رعب، وامرء القيس إذا ركب، والأعشى إذا طرب، أو قال: غضب.

وسُئل الشريف الرضيّ عن هؤلاء الثلاثة فقال: أمّا أبو تمّام فخطيب منبر، وأمّا أبو العبادة فواصف جود، وأمّا المتنبي فقائد عسكر، أو قال: منذر عسكر.

وقال بعض المتأخّرين: ليس في العلم أشعر منه، وأمّا مثله فقليل، وقال أبو عمرو: قلت لجرير: ما تقول في الفرزدق؟ قال: أهجانا وأمدحنا، قلت: فما تقول في ذي الرمّة؟ قال: نقط عروس وأبعار ظباء. قلت: فالأخطل؟ قال: أثنى للقمر والخمر. قلت: فما تقول فيك؟ قال أنا مدينة الشعر الذي أقول:

غيّضــنَ مــن عبــراتهــن وقلْـن لـي ... مــاذا لقيــت مــن الهــوى وَلقينــا؟

وقال أبو حاتم السجستاني: قيل لابن هرمة: (بسكون الراء) مَن أشعر الناس؟ قال: من إذا لعب لعب، وإذا جدّ جدّ، مثل جرير يقول:

غيّضــن مــن عبــراتهــن وقلــن لــي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟

ثم جاء فقال:

إنّ الــذي حــرم الخــلافــة تغلبــاً ... جعــل النبــوّة والخــلافــة فينــا

مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم ... يـا جـرز تغلـب مـن أبٍ كـأبينـا؟

هـذا ابـن عمـيّ فـي دمشـق خليفـة ... لـو شئـتُ سـاقكـم إلـى قطينـا

قلت: وقد تقدم في تاريخ موت جرير نحو من هذا، مع زيادة في سنة عشر ومائة، وتقدّم هناك تفسير الحرز والقطين.

وذكر بعض أئمة النحو أن أهل البصرة كانوا يقدّمون امرؤ القيس، وأن أهل الكوفة كانوا يقدّمون الأعشى، وإن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدّمون زهيراً.

وقال النابغة: ما تهاجى شاعران قطّ في جاهلية ولا إسلام، إلاّ وغلب أحدهما صاحبه، غير الفرزدق وجرير، فإنّهما تهاجيا نحو ثلاثين سنة، ولم يغلب واحد منّهما الآخر، وقال الأصمعي: قيل لحسّان: مَنْ أشعر الناس؟ قال: أشعرهم رجلاً أو قبيلة؟ قالوا: بل قبيلة؟ قال: هُذَيل، قال الأصمعي: فهم أربعون شاعراً سلفاً، وكلّهم يعدو على رجليه ليس فيهم فارس، وقال أبو حاتم: سألت الأصمعي: مَنْ أشعرهم؟ قال اللابغة

الذبياني، وما قال الشعر إلاّ قليلاً، والنابغة الجعدي قال الشعر ثلاثين سنة ثم نبغ، فالشعر الأول من قوله جيّد بالغ، والآخر كأنه مسروق، وقال: تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، وكان يكابر، وأمّا جرير فله ثلاثمائة قصيدة، وما علمت سرق شيئاً قطّ إلا نصف بيت، ولا أدري لعلّه وافق شيءٌ شيئاً. قلت: يعني أشاروا إليه في قولهم: قد يقع الحافر على الحافر.

رجعنا إلى ذكر المتنبي: ذكروا أنّه مدح عدّة ملوك، وقيل إنه وصل إليه من ابن العميد ثلاثون ألف دينار، ومن عضد الدولة صاحب شِيراز[١] مثلها. وأمّا تلقّبه بالمتنبي، فذكروا أنّه ادّعى النبوّة في بادية[٢] السّماوَة، وتبعه خلق كثير في تلك الناحية من كلب وغيرهم، فعند ظهور هذه الدعوى العظيمة التي تكذّبها الآية الكريمة والأحاديث الصحيحة وإجماع الأمة بالأقوال الصريحة، خرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيذ، فأسره، وتفرّق أصحابه، وحبسه طويلاً ثم استتابه، وأطلقه وقيل غير ذلك، قالوا وادّعاء النبوّة أصحّ. ثم التحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان في سبع وثلاثين وثلاثمائة، ثم فارقه ودخل مصر سنة ستّ وأربعين وثلاثمائة، فمدح كافوراً الإخشيذيّ، وكان يقف بين يديه وهو محتمل بسيف ومنطقة ويركب بحاجبين من مماليكه، وهما بالسيوف والمناطق، ولمّا لم يُرضِه هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجّه كافور في طلبه رواحل إلى جهات شتّى فلم يلحق، وكان كافور قد ولاّه بولاية بعض أعماله، فلمّا رأى تعاطيه في شعره السموّ بنفسه خافه، وعوتب فيه فقال: يا قوم منْ ادّعى النبوة بعد محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، أما يدّعي المملكة مع كافور الإخشيذي؟ فحسبكم.

قال أبو الفتح بن جنيّ: كنت أقرأ ديوان أبي الطيّب عليه، فقرأت عليه قوله في كافور القصيدة التي أولها:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ... ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ
وفيما يدور الشعر عنّي أقله ... ولكنّ قلبي يأتيه القوم قلّب

قال: فقلت له تعز عليّ كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة؟ فقال: حذّرناه وأنذرناه فما نفع، ألست القائل فيه:

أخا الجود أعطِ الناس ما أنتَ مالك ... ولا تعطينّ الناسَ ما أنت قائل

فهذا الذي أعطاني كافور بسوء تدبيره وقلّة تميزه.

وكان لسيف الدولة مجلس بحضرة العلماء كلّ ليلة يتكلّمون بحضرته، فوقع بين

(١) شيراز: وهي قصبة بلاد فارس. (معجم البلدان)، وتقع جنوب إيران قرب الخليج العربي.
(٢) بادية السمّاوة: هي بين الكوفة والشام. (معجم البلدان).

المتنبي وابن خالويه النحويّ كلام، فوثب ابن خالويه على المتنبي، فضرب وجهه بمفتاح كان بيده، فشجّه فخرج ودمه يسيل على ثيابه، فغضب وخرج إلى مصر، وامتدح كافوراً ثمّ رحل عنه، وقصد بلاد فارس، ومدح عضد الدولة الديلميّ، فأجزل جائزته. ولمّا رجع من عنده قاصداً إلى بغداد ثم إلى الكوفة في شعبان لثمانٍ خلَوْن منه، عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدّة من أصحابه، وكان مع المتنبي أيضاً جماعة من أصحابه، فقاتلوهم فقُتل المتنبي وابنه مُحَسّد (بضم الميم وفتح الحاء والسين المشددة بين المهملتين) وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية، في موضع يقال له الصافية، وقيل خيال الصافية، من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دَير العَاقُول، بينهما مسافة ميلين.

وذكر ابن رشيق في (كتاب العمدة) في باب منافع الشعر ومضارّه أنّ أبا الطيب لمّا فرّ حين رأى الغلبة، قال له غلامه: لا يتحدّث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعـــرفنـــي والحـرب والضـرب والقـرطـاس والقلـم

فكرّ راجعاً حتّى قتل.

وكان سبب قتله هذا البيت، وذلك يوم الأربعاء لستّ بقين، وقيل لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقيل يوم الاثنين لثمانٍ بقين، وقيل لخمس بقين. ومولده سنة ثلاث وثلاثمائة بالكوفة، في محلّة تسمّى كِنْدة، فنسب إليها. وليس هو من كِندة التي هي قبيلة، بل هو جُعْفي القبيلة (بضم الجيم وسكون العين المهملة وبعدها فاء) ولما قتل المتنبي رثاه القاسم بن المظفّر بقوله:

لا رعـى اللّـه شـرب هـذا الـزمـان إذ دهـانـا فـي مثـل ذاك اللسـان
مـا رأى النـاس ثـانـي المتنبّـي أيّ ثـانٍ يـرى أنكـر الـزمـان
كـان مِـنْ نفسـه الكبيـر فـي جيـش وفـي كـربـادي سلطـان
لـو يكـن جـاء مـن الشعـر أنبـى ظهـرت معجـزاتـه فـي المعـانـي

قلت: وهذا البيت الأخير غيّرت ألفاظ مصراعه الأول إلى هذه الألفاظ المذكورة، عدولاً عن بشاعة لفظه، وما يتضمّن ظاهره من الكفر الموافق لما ادّعاه المتنبيّ، فإنه قال في المصراع المذكور:

وهـو فـي شعـره نبـيّ ولكـن ظهـرت مُعجـزاتـه فـي المعـانـي

ويحكى أن المعتمد بن عبّاد اللخمي صاحب قُرْطبة وأشبيلية أنشد يوماً بيت المتنبي وهو من جملة قصيدته المشهورة:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معنى المطيّ ورازمه

وجعل يردّده استحساناً له وفي مجلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهيون الأندلسي، فأنشد ارتجالاً:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنّما تجيد العطايا واللُّهى تفتح اللَّهى
تنبّا عجباً للقريض ولو درى بأنّك تدري شعره لَتَألَّها

قلت: يعني بالبيت الثاني أنّ المتنبي إنما تنبأ، أيّ ادعى النبوّة إعجاباً منه بعشره، ولو درى أنك ستدري شعره وتستحسنه لناله، أي: ادّعى الإلهية.

وقوله في البيت الأول: (واللُّهى تفتح اللهى) الأولى: بضم اللام، جمع لهوة بالضم، وهو ما يجعل في الرّحى من الحب. والثانية (بفتح اللام)، جمع لَهاة، وهي الهيئة المطبقة في أقصى سقف الفهم، واستعار بذلك استعارة حسنة، يعني إنما تُفتح تلك اللَّها لأجل ما يوضع في فمه من المآكل الطيبة، والمراد إنما يجيد شعره ما يأخذه من أموال السلاطين والولاة. وذلك الذي حمله على تجويد شعره. ولقد أبدع عبد الجليل المذكور في هذين البيتين من ثلاثة أوجه:

الأول: الارتجال، والثاني: ما تضمّنا من المعاني الحسنة المطابقة للحال، والثالث ما ضمّنه من الجناس الحسن.

وقيل: المتنبي أنشد لسيف الدولة في الميدان قصيدة (لكل امرىء مِنْ دهره ما تعوّدا)، فلما عاد سيف الدولة إلى داره، استعاده إياها، فأنشدها قاعداً. فقال بعض الحاضرين مِمّن يريد أنْ يكيد أبا الطيب: لو أنشدها قائماً لأسمع، فأكثر الناس لا يسمعون، فقال أبو الطيب: أما سمعت أولها (لكلّ امرىء من دهره ما تعوّدا)، وهذا من مستحسن الأجوبة. ومحمود أخباره ومستحسن آثاره نحوت فيها نحو الاختصار، فلم أذكر شيئاً ممّا له من المدائح والأشعار استغناءً بما فيها من الاشتهار.

وفي السنة المذكورة توفّي العلاّمة الحبر الحافظ صاحب التصانيف أبو حاتم محمد بن حبّان (بكسر الحاء المهملة وتشديد الموحدة) التميمي البستي، وكان من أوعية العلم في الحديث والفقه واللغة والوعظ وغير ذلك حتّى الطب والنجوم والكلام، ولي قضاء سَمَرْقند ثم قضاء نَسَا، وغاب دهراً عن وطنه ثم ردّ إلى بُسْت[1] وتوفيّ فيها.

* وفيها توفي المحدّث محمد بن عبدالله بن إبراهيم البغدادي الشافعي. قال

(١) بُسْت: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وأظنّها من أعمال كابل. (معجم البلدان).

الخطيب: كان ثقة ثبْتاً، حسن التصانيف، قال: ولما منعت الديلم الناس من ذكر فضائل الصحابة كتبوا السبّ على أبواب المساجد، وكان يتعمّد إملاء أحاديث الفضائل في الجامع.

سنة خمس وخمسين وثلاث مائة

* فيها أُخذ ركب مصر والشام، وهلك الناس، وتمزّقوا في البراري، أخذتهم بنو سليم.

* وفيها توفي الحافظ أبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سليم التميمي البغدادي. روي عنه أنه قال: أحفظ أربعمائة ألف حديث، وأذاكر ستّمائة ألف حديث. وذكر الدارقطني أنه خلط وأنه شفي.

* وفيها توفّي أبو الحكم منذر بن سعيد البلّوطي قاضي الجماعة بقُرطبة، وكان ظاهري المذهب فطناً مناظراً ذكياً بليغاً مفوّهاً شاعراً كثير التصانيف، قوّالاً للحق، ناصحاً للخلق، عزيز المثل ـ رحمه الله تعالى.

* فيها توفّي أبو محمد مسلم بن معمر بن ناصح الذُّهلي الأديب بأصبهان.

سنة ست وخمسين وثلاث مائة

* فيها أقامت الرافضة المآتم على الحسين على العادة المارّة في هذه السنوات.

* وفيها توفّي السلطان(١) معزّ الدولة أحمد بن بويه الديلمي، وكان في صباه يخطب، وأبوه يصيد السمك، فما زال يترقّى في مراقي الدنيا إلى أن ملك بغداد نيّفاً وعشرين سنة، ومات بالإسهال وكان حازماً سائساً مهيباً رافضياً عالماً، وقيل أنه رجع في مرضه عن الرفض، وندم على الظلم، وهو عمّ عضد الدولة وعماد الدولة وركن الدولة، وسيأتي ذكرهم بعد إن شاء الله تعالى.

* وفيها توفّي أبو محمَد المغفلي (بفتح الغين المعجمة والفاء المشددة) أحمد بن عبد الله الهروي، أحد الأئمة. قال الحاكم: كان إمام أهل خراسان بلا مدافعة، وكان فوق الوزراء، وكانوا يصدرون عن رأيه.

* وفيها توفّي أبو علي(٢) إسماعيل بن القاسم البغدادي النحوي الأخباري، صاحب

---

(١) أنظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٧/٢١، ٢٢.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/٢٦: وفيها توفي صاحب كتاب الأمالي: إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هرون بن عيسى. أبو علي القالي. منسوب إلى قالي قلا: بلد من أعمال أرمينية، كان مولده بميافارقين.. سمع الحديث من أبي يعلى الموصلي.. وأخذ النحو واللغة عن ابن دريد وأبي بكر =

التصانيف، ونزيل الأندلس بقرطبة، في ربيع الآخر. أخذ الأدب عن ابن كبريت وابن الأنباري، وسمع من أبي يعلى الموصلي والبغويّ وطبقتهما، وألف (كتاب البارع) في اللغة، في خمسة آلاف ورقة، لكن لم يتمّه.

* وفيها توفي صاحب (كتاب الأغاني) أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأموي المرواني، الأصبهانيّ الأصل، البغدادي المنشأ، الكاتب الأخباري. كان أديباً نسّابة علاّمة شاعراً، كثير التصانيف وقال بعض المؤرخين: ومن العجائب أنه مرواني شيعيّ وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير روى عن كثير من العلماء.

قال التنّوخي: كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة ما لم أرَ قطّ من يحفظ مثله، ويحفظ دون ذلك من علوم أخرى. منها: اللغة والنحو والخرافات والسّير والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة والطبّ والنجوم والأشربة وغير ذلك. وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان الظرفاء الشعراء. وله المصنّفات المستملحة، منها (كتاب الأغاني) الذي وقع الاتفاق عليه أنّه لم يُعمل في باب مثله، يقال أنه جمعه في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه.

وحكي، عن الصاحب بن عبّاد أنه كان يستصحب في أسفاره وتنقلاته، حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب الأغاني لم يكن بعده يستصحب سواه، مستغنياً به عنها. ومنها (كتاب القيان)، و (كتاب الإماء الشواعر)، و (كتاب الدرايات)، و(كتاب دعوة التجار)، و (كتاب مجرد الأغاني)، و (كتاب الألحانات وأدب الغرباء)، وكتب صنّفها لبني أمية ـ ملوك أندلس وسيّرها إليهم سرّاً. منها (كتاب نسب بني عبد شمس) و (كتاب أيام العرب)، ألف وسبع مائة يوم. و (كتاب التعديل والانتصاف) في مآثر العرب ومثالبها، و (كتاب جمهرة النسب)، و (كتاب نسب بني شيبان)، و (كتاب نسب المهالبة)، و (كتاب نسب بني تغلب ونسب بني كلاب)، و (كتاب المغنين الغلمان) وغير ذلك. وكان منقطعاً إلى الوزير المهلبيّ، وله فيه مدائح، من قوله قوله:

ولمّا انتجعنا لائذينَ بِظلّه أعانَ، وما عنا، ومَن وما منا
ورّدنا عليه معترين فراشنا ورّدنا نداه مجدبين فأخصبنا

وله فيه من قصيدة يهنىء فيها بمولود جاءه من سرّية رومية:

أسعد بمولود أتاك مباركاً كالبدر أشرق جنح ليل مقمرِ

= الأنباري ونفطويه.

سعدٌ لوقتٍ سعادة جاءت به أمّ حصان من بنات الأصفرِ
متبجّج في ذر ولي شرف الورى بين المهلّب - منتماه - وقيصرِ
شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى حتّى إذا اجتمعا أتتْ بالمشتري

وأشعاره كثيرة، ومحاسنه شهيرة، وكانت ولادته سنة أربع وثمانين ومائتين.

* وفيها توفّي سيف الدولة الأمير الجليل الشأن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الجزريّ، صاحب الشام، توفي بحلب وعمره بضع وخمسون سنة. وكان بطلاً شجاعاً أديباً شاعراً جواداً ممدحاً وقال أبو منصور الثعالبي في كتاب (يتيمة الدهر): كان بنو حمدان ملوكاً، وجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للشجاعة، وعقولهم للراحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم، حضرته مقصد الوفود، ومطلق الجود، وقبلة الآمال ومحلّ الرحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء. قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديباً شاعراً مجيداً محبّاً لجيّد الشعر، شديد الاهتزاز له. وكان كلّ من أبي محمد وعبد الله بن محمد الغيّاض الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمساطي، قد اختار من مدائح الشعر لسيف الدولة عشرة آلاف بيت.

ومن محاسن شعر سيف الدولة في وصف قوس قزح الأبيات الآتيات، وقد أبدع فيه كلّ الإبداع، وقيل إنها لأبي الصقر القميصي، والقول الأول ذكره الثعالبيّ في كتاب اليتيمة.

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمضِ
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمِن بين منقضٍّ علينا ومنفضِ
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجود كنارِ الحواشي على الأرضِ
يطرزها قوس السحاب بأصفر على أحمر في أخضرٍ تحت مبيضِ
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائل مصبّغة، والبعض أقصر من بعض

قال ابن خلكان: وهذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقية، والبيت الأخير أخذ معناه أبو علي الفرج بن محمد المؤدّب البغدادي، فقال في فرس أدهم محجل: لبس الصبيح والدجنة بردَين فأرخى برداً وقلص برداً وقيل إنها لعبد الصمد بن المعدل.

وكانت له جارية من بنات ملوك الروم في غاية الجمال، فحسدها بقية الخطايا، لقربها منه ومحلّها من قلبه، وعُزم على إيقاع مكروه بها من سمّ أو غيره، فبلغه الخبر، وخاف عليها، فنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً وقال:

راقبتنـي العيـون فيـك فـأشفقـت ولـم أخـلّ قـطّ مـن إشفـاق
ورأيـت العـدوّ يحسـدْنـي فيـك محـداً يـا أنفـس الأعـلاقِ[1]
فتمنّيـت أنْ تكـونـي بعيـداً والـذي بيننـا مـن الـودّ بـاقِ
ربّ هجـر يكـون مـن خـوف هجـر وفـراقٍ يكـون مـن خـوف فـراقِ

قال ابن خلكان: رأيت هذه الأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري، والله تعالى أعلم لمن هي، منهما ومن شعره أيضاً:

أقبّلـه علـى جـزع أكثـر بـالطـائـر الفـزعِ
رأى مـاء فـأطعمـه وخـاف عـواقـب الطمـع
وصـادف خِلسـة فَـدّنـا ولـم يلتـذّ بـالجـزع

ويحكى أن ابن عمّه أبا فراس كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه، فقال سيف الدولة: أيكم يجيز قولي، وليس له إلا سيدي، يعني أبا فراس:

لـك جسمـي بِعِلّـه فـدمـي لِـمْ تُحِلُّـهْ

فارتجل أبو فراس وقال:

إن كنـتَ مـالكـاً فَلِـيَ الأمـرُ كلُّـهْ

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بأعمال مَنبج المدينة المعروفة، تغلّ ألفي دينار كلّ سنة ومن شعر سيف الدولة أيضاً:

تجنـي علـي الـذنـب والـذنـب ذنبـه وعـاتبنـي ظلمـاً وفـي شقـه العتـب
إذا بـرم المـولـى بخـدمـة عبـده يجنـي لـه ذنبـاً وإن لـم يكـن ذنـب
وأعـرض لمـا صـار قلبـي بكفّـه فهـلا جفـانـي حيـن كـان لـي القلـب

وذكر الثعالبي في اليتيمة أن سيف الدولة كتب إلى أخيه ناصر الدولة:

رضيـت لـك العليـا وإن كنـت أهلهـا وقلـتُ لهـم بينـي وبيـن أخـي فـرق
ولـم يـك لـي عنهـا نكـول وإنمـا تحـافيـت عـن حقّـي فتـمّ لـك الحـق
ولا بـدّ لـي مـن أن أكـون مصلّيـا
إذا كنـتُ أرضـى أن يكـون لـك السبـق

ويحكى أن سيف الدولة كان يوماً بمجلسه، والشعراء ينشدونه، فتقدّم إنسان رثّ

(١) الأعلاق: مفردها العلق، وهو النفيس من كل شيء، لتعلّق القلب به.

الهيئة وهو بمدينة حلب فأنشده:

أنت عليٌّ هذه حلبُ ... قد نفذ الزاد وانتهى الطلبُ
بهذه هجر البلاد وبالأمير ... تزهو على الورى العربُ
وعبدُك الدهرُ قد أضرّ به ... إليك من جور عبدك الهربُ

فقال سيف الدولة: أحسنت والله، وأمر له بمائتي دينار، وقال أبو القاسم عثمان بن محمد قاضي عين زُرْبة (بالزاي ثم الراء ثم الموحّدة) حضرتُ مجلس الأمير سيف الدولة بحلب، وقد وافاه القاضي أبو نصر محمد بن محمد النيسابوري، وقد طرح في كمّه كيساً فارغاً، ودرجاً فيه شعر، استأذن في إنشاده، فأذن له فأنشد قصيدة أولها:

جنابك معتاد وأمرك نافذ ... وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من شعره ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً، وأمر له بألف درهم، فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه.

وكان أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم المعروف بالخالد من الشعراء المشهورين، أبو بكر أكبرهما، وقد وصلا إلى حضرة سيف الدولة، ومدحاه فأنزلهما وقام بواجب حقّهما، وبعث لهما مرّة وصيفاً ووصيفة، ومع كلّ واحد منهما بدرة، وتخت ثياب من عمل مصر، فقال أحدهما من قصيدة طويلة:

لم يعد شكرك في الخلائق مطلقاً ... إلا ومالُكَ في النوال حبيس
حولتنا شمساً وبدراً أشرقت ... بهما الدنيا الظلمة الحنديس
رسالة أتانا وهو حسناء يوسف ... وغزالة هي بهجة بلقيس
وهذا ولم تقنع بذا وبهذه ... حتىّ بعثت المال وهو نفيس
أتت الوصيفة وهي تحمل بدرة ... وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وحَبوتنا ممّا أحادث حوله ... مصر وزادت حسنة بئيس
فَغَدًا لنا من جودك المأكول ... والمشروب والمنكوح والملبوس

فقال سيف الدولة: أحسنت إلا في لفظة المنكوح، فليس ممّا يخاطب الملوك بها.

ومن أشعار سيف الدولة، وقد جرت بينه وبين أخيه وحشة، فكتب إليه سيف الدولة:

لست أجفو وإن جفيتَ ولا ... أترك حقّاً عليّ في كلّ حالِ
إنما أنت والدٌ، والأبُ ... الجافي يجازي بالصبر والاحتمالِ

وكتب إليه مرة أخرى ما تقدّم من قوله قريباً: (رضيت لك العليا وإن كنت أهلها).

وكان الذي لقيهما ناصر الدولة وسيف الدولة. الخليفة المتقي لله، وعظّم شأنهما، وكان الخليفة المكتفي بالله قد ولّى أباهما عبد الرحمن بن حمدان الموصل وأعمالها. وناصر الدولة أكبر سنّاً من سيف الدولة، فملك الموصل بعد أبيه، وكان أقدم منزلة عند الخلفاء.

فلما توفي سيف الدولة تغيّرت أحواله كما سيأتي في ترجمته. وأخبار سيف الدولة كثيرة مع الشعراء، خصوصاً مع المتنبي والسري الرفاء واليامي والببغا. ولو أراد تلك الطبقة في تعدادهم طوّل. وكانت ولادته يوم الأحد سابع عشر ذي الحجّة، سنة ثلاث وثلاث مائة، وقيل سنة إحدى وثلاث مائة. وتوفي يوم الجمعة ثالث ساعة وقيل رابع ساعة، لخمس بقين من صفر، السنة المذكورة بحلب وقد نقل إلى فارقين[١] ودفن في تربة.

وكان قد جمع له من بعض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً وعمله بقدر الكفّ، وأوصى أن يوضع خدُّه عليها في لحده، فنفذت وصيته في ذلك، وكان تملكه بحلب في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابي صاحب الإخشيذ:

قلت ولعله المراد بقول الشاعر:

ما زلت أسمع والركبان تخبرني عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر
حتّى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

على ما ذكر بعض أهل المعاني والبيان، أنه أحمد بن سعيد، والذي ذكره ابن خلكان وغيره أنه جعفر بن فلاح، وإن قائلهما ابن هانىء الأندلسي، وغلط من قال خلاف هذا، والبيتان المذكوران في ترجمة جعفر المذكور في سنة ستين وثلاثمائة.

وملك بعد سيف الدولة ولده سعدُ الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة. وطالت مدته أيضاً في المملكة، ثم عرض له قولنج أشرف منه على التلف، وفي اليوم الثالث من عافيته واقع جاريته، فلما فرغ منها سقط عنها، وقد جفّ شقّه الأيمن، فدخل عليه طبيبه، فأمر أن يسحق عنده الندّ[٢] والعنبر، فأفاق قليلاً، فقال الطبيب له: أرني مجسّك، فناوله يده اليسرى، فقال: أريد اليمنى، فقال: ما تركت اليمين يميناً، وكان قد حلف وغدر.

وتوفّي ليلة الأحد لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة، وعمره أربعون سنة وست أشهر وعشرة أيام، وتولى بعده ولده أبو الفضل سعد ولم يذكروا تاريخ وفاته، وبموته انقرض ملك بني سيف الدولة.

---

(١) أي: ميافارقين.
(٢) الندّ: عود يتبخّر به.

وفي السنة المذكورة، وقيل في العام الآتي توفي أبو المسك كافور الحبشي الأسود الخادم الإخشيذي، صاحب الديار المصرية. اشتراه الإخشيذ صاحب مصر والحجاز والشام، فتقدّم عنده حتّى صار من أكبر قوّاده، لعقله ورأيه وشجاعته، ثم صار أتابك[1] ولده الأكبر أبي القاسم[2] بعده وكان صبياً فبقي الاسم لأبي القاسم ولد الكافور، فأحسن سياسة الأمور إلى أن مات أبو القاسم سنة تسع وأربعين وثلاث مائة. وأقام كافور في الملك بعده وتولّى بعده أخوه أبو الحسن عليّ، فاستمر كافور على نيابته وحسن سيرته إلى أن توفّي عليٌّ المذكور سنة خمس وخمسين ثلاث مائة، وقيل بل أربع وخمسين.

ثم استقلّ كافور بالمملكة من هذا التاريخ وكان وزيره أبو الفضل جعفر ابن الفرات، وكان يرغب في أهل الخير ويعظّمهم، وكان شديد السواد، اشتراه الإخشيذ بثمانية عشر ديناراً على ما قيل.

وكان أبو الطيّب المتنبي قد فارق سيف الدولة بن حمدان مغاضباً ـ كما تقدّم ـ وقصد مصر، وامتدح كافوراً بمدائح حسانٍ، فمن ذلك قوله في أول قصيدة، وقد وصف الخيل:

قواصد كافور تدارك غيره ... ومن قصد البحر استقلّ السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه ... فحلّت بياضاً خلفها ومآقيا

فأحسن في هذا إحساناً بلغ الغايات القصوى، قلت: ولديَّ أنّه لو قال: (يومين بحراً تاركين سواقيا) ومَنْ قصد البحر إلى آخره، كان أحسن وأنشد أيضاً القصيدة التي يقول فيها:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ... وإن لم أشأ تُملى عليَّ فأكتبُ
إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه ... ويَمّم كافوراً فما يتغرَّب

ومن جملتها:

ويصلحك في ذي العبد كلّ حبيبة ... خلاني فأبكي من أحبّ وأندبُ
أحسّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مغربُ
فإن لم يكن إلا أبو المسك أوْهم ... فإنّك أحلى في فؤادي وأعذبُ
وكلّ امرىء يؤتى الجميل يحبّه ... وكلّ مكان ينبت العز أطيبُ

ومن قصيدة هي آخر شيء أنشده:

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة ... وإن كان قرباً بالبعاد خبابُ

---

(١) أتابك: لفظة سلجوقية تعني والد الأمير. (أنظر الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٨٧٧).

(٢) أبو القاسم أنوجور. (انظر الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٤).

وهـل نـافعـي أنْ تـرفـع الحجـب بيننـا ... ودون الـذي أمليـت منـك حجـابُ
وفـي النفـس حـاجـات وفيـك فطـانـة ... سكـوتـي بيـان عنهمـا وخطـابُ
ومـا أنـا بـالبـاغـي علـى الحبّ رشـوة ... ضعيـفُ هـوىً يُبْغـى عليـه ثـوابُ
ومـا شئـت إلا أنْ أدلّ عـواذلـي ... علـى أنّ رأيـي فـي هـواك صـوابُ
وأعلـم قـومـاً خـالفـونـي فشـرّقـوا ... وغـرّبـت إنـي قـد ظفـرتُ وخـابـوا
جـرى الخلـف إلاّ فيـك أنـك واحـد ... وأنـك ليـثٌ والملـوك ذبـاب
وأنّ مـديـح النـاس حـقّ وبـاطـل ... ومـدحُـك حـقّ ليـس فيـه كـذاب
إذا نلـتُ منـك الـودّ فـالمـال هيّـن ... وكـلّ الـذي فـوق التـراب تـراب
ومـا كنـتُ لـولا أنـت إلاّ مهـاجـراً ... لـه كـلَّ يـومٍ بلـدة وصحـابُ
ولكنّـك الـدنيـا إليـك حبيبـة ... فمـا عنـكَ لـي إلا إليـك ذهـاب

وأقام المتنبي بعد إنشاد هذه القصيدة بمصر سنة لا يلقى كافوراً غضباً عليه، يركب في خدمته خوفاً منه، ولا يجتمع به، واستعدّ للرحيل في الباطن، وجهّز جميع ما يحتاج إليه، وقال في يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الداليّة التي هجا كافوراً فيها، وفي أخرها:

مَـنْ علّـم الأسـود المخصـيَّ تكـرمـة ... أأمّـه البيـض أمْ آبـاؤهُ الصِّيْـدُ

وله فيه من الهجوّ كثير، تضمّنه ديوانه، ثم فارقه، وبعد ذلك دخل إلى عضد الدولة.

وذكر بعضهم قال: حضرت مجلس كافور الإخشيذي، فدخل رجل ودعا له، فقال في دعائه: أدام الله تعالى أيام مِولانا (بكسر الميم) من أيام، فتكلّم جماعة من الحاضرين في ذلك وعابوه، فقام رجل من أوساط الناس، وأنشد مُرتجلاً:

لا غـروَ إنْ لحـن الـداعـي لسيّـدنـا ... أوْ غـصّ مـن دهـش بـالـريـق أو نهـرِ
فتلـك هيبـة حـالـت جـلالتهـا ... بيـن الأديـب وبيـن القـول بـالحَصـرِ
وإن يكـن خفـض الأيـام مـن غلـط ... فـي مـوضـع النصب لا عـن قلّـة النظـر
فقـد تفـاءلـتُ مـن هـذا لسيـدنـا ... والفـأل مـأثـورة عـن سيـد البشـر
بـأنّ أيـامـه خفـض بـلا نصـب ... وأنّ أوقـاتـه صفـو بـلا كـدر

قوله بالحَصر (بفتح الحاء والصاد المهملتين): العيّ، وهو أيضاً ضيق الصدر وأخبار كافور كثيرة، ولم يزل مستقلاً بالأمر بعد أمور يطول شرحها إلى أن توفي يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى من السنة المذكورة بمصر على القول الصحيح، ودفن بالقرافة، وقبّته هناك مشهورة، ولم تطل مدّته في الاستقلال على ما ظهر من تاريخ موت علي بن

الأخشيذ إلى هذا التاريخ. وكانت بلاد الشام في مملكته أيضاً مع مصر، وكان يدعى له على المنابر بمكّة والحجاز جميعه، والديار المصرية وبلاد الشام، من دمشق وحلب وأنطاكيّة، وطرسُوس ومصّيصة وغير ذلك، وعاش نيّفاً وستين سنة.

سنة سبع وخمسين وثلاث مائة

لم يحجّ الركب فيها لفساد الوقت وموت السلاطين في الشهور الماضية.

* وفيها توفّي الحافظ صاحب التصانيف أبو سعيد النخعي البسري.

* وفيها توفي المتّقي لله أحمد بن الموفق العباسي المخلوع المسمول العينين، توفّي في السجن، وكانت خلافته أربع سنين، وكان فيه صلاح وكثرة صلاة وصيام، ولم يكن يشرب، وفي خلافته انهدمت القبة الخضراء المنصورية التي كانت فخر بني العباس.

* وفيها توفّي الحافظ المحدّث عمر بن جعفر البصري رحمه الله.

* وفيها توفّي أبو فراس الحارث بن أبي العلاء، سعيد بن حمدان، ابن عمّ سيف الدولة. قال الثعالبي في وصفه: كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً، وكرماً ومجداً، وبلاغة وبراعة، وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة والحلاوة ومعه ذو الطبع وسمة الظرف وعزّة الملك ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتزّ. وأبو فراس يعدّ أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام، وكان ابن عبّاد يقول بُدىء الشعر بملك، وخُتم بملك، يعني امرىء القيس وأبا فراس. وكان المتنبي يشهد له بالتقدّم والتبريز، ويتحامى جانبه، ولا يمتري لمماراته، ولا يجتزي لمجازاته، وإنما لم يمدحه ومدح مَنْ دونه من آل حمدان، إعظاماً له وإجلالاً، لا إغفالاً وإخلالاً، وكان سيف الدولة يعجب جدّاً بمحاسن أبي فراس، ويميّزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته، ويستخلفه في أعماله. وكانت الروم قد أسرته في بعض وقائعها، وهو جريح قد أصابه سهم، بقي نصله في فخذه، وأقام في الأسر أربع سنين في قسطنطينية، وأسرته الروم مرّة قبلها، وذهبوا إلى قلعة يجري الفرات تحتها، ويقال أنه ركب فرسه، وركض برجله، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات.

وقيل أنه لمّا مات سيف الدولة عزم على التغلّب على حمص، فاتّصل خبره بأبي المعالي بن سيف الدولة وغلام لأبيه، فأنفذ إليه من قاتله، فأخذ وقد ضُرب ضربات فمات في الطريق، وقيل: بل مات من حرب بينه وبين موالي أسرته، وقال بعضهم: كان أبو فراس خال أبي المعالي، فقلعت أمّ أبي المعالي عينها، لمّا بلغها وفاته، وقيل: بل لطمت وجهها، فقلعت عينها. وقيل: بل قتله غلام سيف الدولة، ولم يعلم أبو المعالي، فلمّا بلغه الخبر

شقّ عليه. والله تعالى أعلم أيّ ذلك كان.

وله ديوان شعر من جملته قوله:

قد كنتَ عدّتي التي أسطو فيها ويدي إذا اشتدّ الزمان وساعدي
فَرُميتُ منك بضدّ ما أمّلته والمرءُ يشرب بالزلال البارِدِ

وله:

أساء فزادته الإساءة حظوةً حبيب على ما كان منه حبيب
يعددني الواشون منه ذنوبه ومن أين للوجه المليح ذنوب

وله:

ونحن أناس لا توسّط بيننا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن خطب الحسناءَ لم يغلِها المهر

وله:

كانت مودّة سلمان له نسباً ولم يكن بين نوح وابنه رحم

سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة

* فيها كان خروج الروم من الثغور، فأغاروا وقتلوا وسبوا، ووصلوا إلى حمص، وعظم المصائب، وجاءت المغاربة مع القائد جوهر المغربيّ، وأخذوا ديار مصر، وأقام الدعوة لبني عبيد الرافضة، مع أن الدعوة بالعراق في هذه المدّة رافضية، وشعارهم قائم يوم عاشوراء ويوم الغدير، وستأتي قصة القائد جوهر المذكور، إن شاء الله تعالى.

* وفيها توفي ناصر الدولة الحسن بن أبي الهيجا، عبد الله بن حمدان التغلبي، صاحب الموصل. وكان أخوه سيف الدولة يتأدّب معه لسنّة ومنزلته عند الخلفاء، وكان هو كثير المحبة لسيف الدولة، فلمّا توفي حزن عليه ناصر الدولة، وتغيّرت أحواله، وضعف عقله، فبادره ولده أبو ثعلب الغضنفر، عمدة الدولة، فحبسه في حصن السلامة، ومنعه من التصرّف، وقام بالمملكة، ولم يزل ناصر الدولة معتقلاً إلى أن مات.

* وفيها توفي أبو القاسم زيد بن علي العجل العجلاني الكوفي، شيخ الإقراء ببغداد.

* وفيها توفي محدّث دمشق محمد بن ابراهيم القرشي الدمشقي، وكان ثقة مأموناً جواداً مفضلاً، أخرج له الحافظ ابن منده ثلاثين جزءاً.

سنة تسع وخمسين وثلاثين ومائة

* فيها توفّي الفقيه الإمام الشافعي أحمد بن محمد المعروف بابن القطّان، أخذ الفقه عن ابن سُريج، ثمّ من بعده عن أبي إسحاق المروزّي، وأخذ عنه العلماء، وله مصنّفات في أصول الفقه وفروعه، انتهت إليه الرياسة.

* وفيها توفي الفقيه مسند أصفهان، أحمد بن بندار السّفار، وأحمد بن يوسف بن خلاّد النصيبيني.

* وفيها توفي المحدّث الحجّة أبو علي بن الصواف البغدادي، قال الدارقطني: ما رأت عيناي مثله ومثل آخر بمصر.

سنة ستين وثلاث مائة

* فيها لحق المطيعَ فالج أبطل نصفه وأثقل لسانه. وأقامت الشيعة عاشوراء باللطم والعويل والأنواح، وعيدَ الغدير بالكوسات واللّهو والأفراح.

* وفيها توفّي جعفر بن الكُتامي[1] (بضم الكاف وبعدها مثلثة) الذي ولي دمشق للباطنية، وهو أول نائب وليها لبني عُبيد وكان أحد قوّاد المعزّ العبيديّ، وكان قد سار إلى الشام، فأخذ الرملة ثم دمشق، بعد أن حاصر أهلها أياماً، ثم قدم لحربه الحسن[2] بن أحمد القرمطيّ الذي تغلّب قبله على دمشق ـ وكان جعفر مريضاً ـ فأسره القرمطي وقتله. وكان رئيساً جليل القدر ممدوحاً. وفيه يقول أبو القاسم محمد بن هانىء الأندلسي الشاعر المشهور:

كانت مساءلة الركبانِ تخبرني ... عن جعفر بن فلاح طيّب الخبرِ
حتّى التقينا فلا والله ما سمعتْ ... أذني بأحسن ممّا قد رأى بصري

قلت: وبعضهم يرويه بأطيب، وبعضهم يقول عن أحمد بن سعيد أعني: الممدوح، والناس يقولون هما لأبي تمّام.

قال ابن خلكان: هو غلط، بل هما لمحمد بن هانىء المذكور، وقال يرويهما عن أحمد بن سعيد وداود وليس كذلك بل عن جعفر بن فلاح. انتهى.

* وفيها توفّي الحافظ العلم مسند العصر أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/٤٢: جعفر بن فلاح.
(٢) وفي الصفحة السابقة: الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي.

اللخمي الطبراني في ذي القعدة بأصبهان، وله مائة سنة وعشرة أشهر، وكان ثقة صدوقاً، واسع الحفظ، بصيراً بالعلل والرجال والأبواب، كثير التصانيف. وأول سماعاته بطبّرية، ثم رحل إلى القدس، ثم إلى حمص وجَبلة[١] ومدائن الشام. وحجّ ودخل اليمن، وردّ إلى مصر، ثم رحل إلى العراق وأصفهان وفارس. وروى عن أبي زُرْعة الدمشقي وغيره من تلك الطبقة.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عمرو بن مطر النيسابوري، وكان متعفّفاً قانعاً باليسير، يحيي الليل، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجتهد في متابعة السنّة.

* وفيها توفّي الآجُري محمد بن الحسين البغدادي الفقيه المحدّث، كان صالحاً عابداً. روى عن جماعة، منهم أبو شعيب الحرّاني، وأحمد بن يحيى الحلواني، والفضل بن محمد الجَنَدي (بفتح الجيم والنون) وخلق كثير. وصنّف في الحديث والفقه كثيراً، وروى عنه جماعة من الحفّاظ، منهم: أبو نعيم الأصفهاني صاحب كتاب (حلية الأولياء)، جاور بمكّة وتوفّي بها. وقيل أنه لما دخلها أعجبته فقال: اللهم ارزقني الإقامة بها سنة، وسمع هاتفاً يقول له: بل ثلاثين سنة، فعاش بها ثلاثين سنة، ثم توفّي رحمه الله.

* وفيها توفّي أبو القاسم[٢] بن أبي يعلى الهاشمي الشريف لمّا أخذ العُبَيْديّون دمشق، ثم قام هذا الشريف، وقام معه أهل الغوطة والسبات[٣]، واستفحل أمره في ذي الحجّة سنة تسع وخمسين، وطرد عن دمشق متولّيها، ولبس السواد، وأعاد الخطبة لبني العباس، فلم يلبث إلا أياماً حتى جاء عسكر المغاربة، وحاربوا أهل دمشق، وقتل بين الفريقين جماعة، ثم هرب الشريف في الليل، وصالح أهل البلد العسكر، وأُسر الشريف عند (تَدْمُر[٤])، أسره جعفر بن فلاح على جمل، وبعث به إلى مصر.

* وفيها توفي الشيخ العارف أبو الحسن بن سالم البصري، وكان له أحوال ومجاهدات، وعنه أخذ الأستاذ الشيخ العارف أبو طالب المكّي ـ صاحب القوت ـ وأبو الحسن المذكور آخر أصحاب شيخ الشيوخ العارفين سهل بن عبد الله التُستَري وفاة.

* وفيها توفّي الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين، المعروف بابن العميد. كان وزير

---

(١) جبلة: قلعة مشهورة بسواحل الشام قرب اللاذقية. (معجم البلدان).

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٤: أبو القاسم محمد بن أبي يعلى الهاشمي الشريف.

(٣) السبات: لا يوجد مكان بهذه التسمية حول دمشق. ولعلّها: الشباب، جاء في تاريخ ابن الأثير: ٧/ ٤٤: قام هذا الشريف بدمشق، وقام معه أهل الغوطة والشباب.

(٤) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برّية الشام. (معجم البلدان) وتقع وسط البادية السورية شرقي مدينة حمص.

ركن الدولة ابن بويه، وكان متوسّعاً في علوم الفلسفة والنجوم، وإمام الأدب والترسّل، فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان كامل الرئاسة، جليل المقدار. ومن بعض أتباعه الصاحب ابن عبّاد، ولأجل صحبته قيل له: الصاحب، وكانت له في الرئاسة اليد البيضاء، وفي براعته في الكتابة قيل: بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. وقصده جماعة من مشاهير الشعراء بالمدائح، منهم المتنبي، مدحه بقصيدته التي أولها:

بــــاذٍ هـــواكَ صبـــرتَ أو لا تصبِـــرا وبُكَـــاكَ إنْ لـــم يجـــرِ دمعـــك أو جـــرى

وقلت وفي إعراب قافية هذا البيت وقع بحث، وحاصله أنّ الألف هنا منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة. فأعطاه ثلاثة آلاف دينار. ولما مات ابن العميد رتّب ركن الدولة مكانه ابنه ذا الكتابتين: أبا الفتح عليّاً، وكان جليلاً نبيلاً ثريّاً. ثم قبض عليه ركن الدولة في آخر الأمر، وصادره حتّى بلغة عتاب العذاب. نسأل الله تعالى العافية من غرور الدنيا، وما فتنت به كل مصاب.

* وفيها توفي الحافظ أبو محمد الرامَهُرْمُزِي(١). والجابريّ عبد الله بن جعفر الموصلي.

* وفيها توفي أبو عبد الرحمن: عبد الله بن عمر المروزي الجوهري، محدّث مَرْو.

* وفيها توفّي أبو جعفر الدراوردي محمد بن عبد الله بن بردة. حدّث بهَمَذَان.

سنة إحدى وستين وثلاث مائة

* فيها أُخذ ركب العراق، اعترضته بنو هلال، وقتلوا خلقاً. وبطل الحجّ إلا طائفة نجت، ومضت مع أمير الركب الشريف أبي أحمد الموسوي، والد الشريف المرتضى.

* وفيها توفّي الحافظ أبو عبد الله: محمد بن الحارث بن أسد الخشني القيرواني، مصنّف (كتاب الاختلاف والافتراق) في مذهب مالك و (كتاب الفتيا)، و (كتاب تاريخ الأندلس)، و (كتاب تاريخ إفريقية)، و (كتاب النسيب).

سنة اثنتين وستين وثلاث مائة

* فيها توفّي عالم البصرة الإمام الكبير أبو حامد المروزي: أحمد بن عامر الشافعي

---

(١) الرامهرمزي: هذه النسبة إلى رامهرمز وهي إحدى كور الأهواز من بلاد خوزستان، والمشهور بالنسبة إليها القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ـ عاش إلى قرب الستين وثلاثمائة. (الأنساب للسمعاني ٣/ ٣٠).

صاحب التصانيف، وصاحب أبي إسحاق المروزي. تفقّه به أهل البصرة.

* وفيها توفي أبو إسحاق المزكي(١) النيسابوري قال الحاكم: هو شيخ نيسابور في عصره، وكان من العباد المجتهدين المحاجّين المنفقين على العلماء والفقراء، وكان مثرياً متموّلاً، دفن بنيسابور.

* وفيها توفّي الأمير الأديب الممدوح بمقصورة ابن دُرَيد: إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكائيل.

* وفيها توفّي أبو جعفر البلخي الهِنْدُواني(٢)، الذي كان من براعته في الفقه يقال له أبو حنيفة الصغير. توفّي ببُخارى، وكان شيخ تلك الديار في زمانه.

* وفيها توفي ابن فضالة المحدّث الأموي، مولاهم الدمشقي.

* وفيها توفي حامل لواء الشعر بالأندلس أبو الحسن محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي الشاعر المشهور. قيل: إنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي، وقيل: بل هو من ولد أخيه روح، وكان أبوه هانىء من قرية من قرى المهديّة بإفريقية. وكان شاعراً أديباً، فانتقل إلى الأندلس، فولد بها محمد المذكور بمدينة أشبيلية، ونشأ بها واشتغل، وحصل له حظّ وافر من الأدب، وعمل الشعر فمهر فيه. وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل بصاحب أشبيلية، وحظي عنده. وكان منتهكاً للحرمات ومنهمكاً في اللّذات، متّهماً بالعقائد الفلسفيات. ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل أشبيلية، وساءت المقالة في حقّ الملك بسببه، واتّهم بمذهبه أيضاً، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدّة، ينسى فيها خبره، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاماً. وحديثه طويل، وخلاصته أنه خرج فلقي جوهراً القائد، مولى المنصور، فامتدحه، ولم يزل يرحل ويمتدح ولاة الأمر إلى أن نمي خبره إلى المعزّ أبي تميم معدّ بن المنصور العُبيدي، فلما انتهى إليه بالغ في الإنعام عليه، ثم توجّه المعزّ إلى الديار المصرية ـ كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى ـ فشيّعه ابن هانىء المذكور، ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهّز وتبعه. فلما وصل إلى بَرْقَة، أضافه شخص من أهلها، فأقامه عنده أياماً في مجلس الأنس، فيقال أنهم عربدوا عليه، فقتلوه، وقيل: خرج من تلك الدار وهو سكران، فنام في

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٥٠: ممن توفي هذه السنة إبراهيم بن محمد بن شجنونة بن عبد الله المزكي، أحد الحفاظ، أنفق على الحديث وأهله أموالاً جزيلة، وعقد له مجلس للإملاء بنيسابور..

(٢) هو محمد بن عبد بن محمد أبو جعفر البلخي الهندواني ـ أبو حنيفة الصغير ـ... والهندواني نسبة إلى باب هندوان: محلّة ببلخ. (الكامل لابن الأثير ٧/ ٥٠).

الطريق، وأصبح ميتاً، ولم يعرف سبب موته. وقيل أنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكّة سرواله، وكان ذلك في بكرة يوم الأربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة اثنتين وستين وثلاث مائة، وعمره ستّ وثلاثون سنة، وقيل اثنتان وأربعون سنة ـ رحمه الله ـ هكذا قيّده صاحب كتاب أخبار القيروان، وأشار إلى أنه كان في صحبة المعزّ، وهو مخالف لما ذكرته أولاً من تشيّعه للمعزّ ورجوعه لأخذ عياله. ولما بلغ المعزّ وفاته بمصر أسف عليه كثيراً وقال: هذا الرجل كنانة جودٍ إن تفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك. وله في مُعزٍّ عزيز المدائح ونحتُ الشعر، فمن ذلك قصيدته النونية التي أولها:

هل من أعتقه عالج بيرين — أم منهما بقرُ الحدوجِ العينُ
ولمن ليالي باذ منا عهدها — مذكر إلا أنهن شجونُ
والمشرقات كأنهن كواكب — والناعمات كأنهن غصون
أومى لها المجان صفحة خدّه — وبكى عليها اللؤلؤ المكنون

قلت قوله: الحدوج المراد بالحدوج هنا جمع: حدج وهو مركب من مراكب النساء مثل المحفّة.

قال ابن خلكان: وديوانه كبير، ولولا ما فيه من الغلوّ في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين. وليس للمغاربة من هو في طبقته لا من متقدّميهم ولا متأخّريهم، بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة، وكانا متعاصرين، وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه. قال: ويقال أنّ أبا العلاء المعرّي، كان إذا سمع شعره يقول: ما أشبّهه إلاّ برحى يطحن قُروناً، لأجل القعقعة في ألفاظه، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ. قال: ولعمري ما أنصفه في هذا المقال، وما حمله على هذا إلا فرط تعصّبه للمتنبي، قال: وبالجملة فما كان إلا من المحسنين في النظم، والله أعلم، انتهى.

وقال في أول ترجمته (أبو نوّاس الأندلسي) فكنّاه بكنية أبي نواس الحسن بن هانىء الحكمي العراقي، وهذا محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي، فقد اتّفقا في اسم الأبوين، وهو هانىء، وقد يتوّهم مَنْ لا يدري التاريخ والنسب أنهما أخوان، كما ذكر ذلك في بعض الناس ـ فيما مضى ـ متوهّماً لاتفاق اسم الأبوين، أو مقلداً متوهّماً، ولو اطلع على التاريخ لعلم بطلان ذلك، فإن هذا المغربي توفّي في سنة اثنتين وستين وثلاث مائة، وذلك المشرقيّ توفّي في سنة ستّ وتسعين ومائة، فبينهما مائة وستّ وستون سنة، والأخوانِ لا يتباعد ما بينهما هذا التباعد في مثل زمانهما، هذا من حيث التاريخ.

وأما من حيث النسب، فلما ذكروا أنّ المغربي أزدي، والمشرقيّ حكميّ، ولعل ابن هانىء المغربي المذكور وهو الذي وقع بينه وبين المتنبي ما يحكى من القصة العجيبة عنده وصوله إلى قابس[1] لمدح صاحب الإفريقية. وقد ذكرتهما في آخر علم البديع من (كتاب منهل المفهوم في شرح ألسنة العلوم) فإنّ الشاعر الذي ذكروا أنّه ردّ المتنبي عن ملاقاة صاحب الأندلس، ومدحه بالجملة التي ذكرها داهية في المكر، فإنّه حكى أن المتنبي لما خيّم بإزاء قصره في زيّ أمير في الحشمة والغلمان والخدم والخيل والأتباع والحشم، فزع صاحب قابس من ذلك، وسأل عنه، فلمّا قيل له: إنه شاعر أتى ليمدحك، كره ذلك وقال: أي شيء يُرضي صاحب هذه الهيئة، ويقنعه من الجائزة؟ فقال شاعره: أنا أردّه عنك، وغالب ظنّي أنهم قالوا إنه ابن هانىء، فقال له؟ بأي وجه تردّه عني؟ فقال: بوجه جميل، فقال: افعل فأخذ شاة رديئة ولبس لباس بدوي، وجعل يقود الشاة متوجّهاً إلى جهة منزل المتنبي، وهو في مخيم كأنّه مخيم أمير، فلما قرب منه قال: طرّقوا إلى الأمير، فصاروا يضحكون عليه، ويتعجّبون منه. فلما وصل إليه وهو يقود الشاة في تلك الهيئة التي اتصف هو وشاته بها ضحك منه، هو ومن حوله، وقال له: ما هذه الشاة؟ قال: هذه جائزتي من الملك. قال: جائزة؟ قال: نعم، قال: جائزة علام ذا؟ قال: على مدحي له. فتعجّب من ذلك وقال: عسى أن تكون جائزته على قدر مدحه، ثم قال له: أسمعني مدحك له، كيف قلت فيه؟ قال: قلت:

ضحك الزمان وكان قدماً عابساً ... لمّا فتحت يجد عزمك قايسا
أنكحتها عذراء وما أمهرتها ... إلا فتى وصوارماً وفوارسا
من كان بالسمر العوالي خاطباً ... جلبت له بيض الحصون عرائسا

فتحيّر المتنبي عند سماع شعره وقال: أنا ما أقدر أقول مثل هذا الذي أجازك عليه بهذه الشاة، فارتحل راجعاً من حيث جاء، هكذا حكى لي بعض أهل الخير ممّن له إلمام ومعرفة ببعض الشعراء من جهة المغرب، أو ما يقرب منها، بهذا اللفظ أو ما يقرب منه معناه. ولكن ما رأيت أحداً من المؤرّخين ذكر للمتنبي دخولاً إلى بلاد المغرب. والله أعلم.

سنة ثلاث وستين وثلاث مائة

* فيها ظهر ما كان المطيع يستره من الفالج، فثقل لسانه، فدعا حاجب السلطان

---

(١) قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر غربي طرابلس الغرب. (معجم البلدان).

عزُّ الدولة[١] إلى خلع نفسه، وتسليم الخلافة لولده الطائع لله، ففعل ذلك، وأتيت على خلعه قاضي القضاة.

* وفيها أقيمت الدعوة بالحرَمين للمعزّ العبيدي، وقطعت خطبة بني العباس، ولم يحجّ ركب العراق لأنهم وصلوا إلى بعض الطريق، فرأوا هلال ذي الحجّة، وأعلموا أن الماء معدوم قدّامهم، فعدلوا إلى مدينة النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم فزاروا، ثم رجعوا.

* وفيها توفّي الحافظ أبو الحسين الشهيد محمد بن أحمد بن سهل الرملي، سلخه صاحب مصر المعزّ، وكان قد قال: لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم ورميت بني عُبيد بتسعة، فبلغت القائد جوهراً، فلما ظفر به قرّره، فاعترف وأغلظ لهم، فقتلوه، وكان عابداً صالحاً زاهداً قوالاً بالحق.

* وفيها توفّي الحافظ محدّث الشام أبو العباس محمد بن موسى السمسار الدمشقي.

* وفيها توفي صاحب المعزّ العبيدي وقاضيه النعمان بن محمد، المكنّى بأبي حنيفة، كان من أوعية العلم والفقه والدين والنقل، على ما لا مزيد عليه، كذا ذكر بعض المؤرخين وغير ذلك، وذكر بعض المؤرّخين أنه كان في غاية الفضل من أهل القرآن، والعلم بمعانيه، وعالماً بوجوه الفقه، وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر والمعرفة بأيام الناس، مع عقل وإنصاف، وألّف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف، وأملح أسجع، وعمل في المناقب والمثالب كتاباً حسناً، وله ردود على المخالفين لأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن شريح وكتاب اختلاف الفقهاء ينتصر فيه لأهل البيت، وقصيدة فقهية. وكان ملازماً صحبة المعزّ، ووصل معه إلى الديار المصرية أول دخوله إليها من إفريقية، ولما مات صلّى عليه المعزّ.

سنة أربع وستين وثلاث مائة

* فيها أو بعدها ظهرت العيّارون واللصوص ببغداد، واستفحل شرّهم حتّى ركبوا الخيل، وتلقّوا بالقواد، وأخذوا الضريبة من الأسواق والدروب، وعمّ البلاء (وفيها) قطعت خطبة الطائع لله ببغداد خمسين يوماً، فلم يخطب لأحد، لأجل شعث وقع بينه وبين عضد الدولة عند قدومه العراق، فإن عضد الدولة قدم من شيراز، فأعجبته مملكة العراق، فاستمال الأمراء، وجرت أمور يطول ذكرها.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٥٣/٧: فانكشف حاله لسبكتكين هذه الدفعة، فدعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع لله.

* وفيها توفّي الحافظ أبو بكر ابن السنّي[١] الدينوري، صاحب (كتاب عمل اليوم والليلة)، رحل وكتب الكثير، وروى عن النسائي وأبي حنيفة وطبقتهما، وبينما هو يكتب، وضع القلم، ورفع يديه يدعو الله تعالى، فمات.

* وفيها توفي المطيع لله الفضل بن المقتدر: جعفر بن المعتضد العباسي. والأمير جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي، كان شيخاً كثير العطاء مؤثراً لأهل العلم، وفيه يقول الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي:

المذنقان من البرية كلّها ... جسمي وطرف بابليّ أجوَرُ
والمشرقات النيّرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير جعفرُ

قلت وقوله هذا استقي من منهل الشاعر، ويستدل بنجوم نظمه الزواهر في قوله:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... هو في آفاق الأسهار سائر
شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

سنة خمس وستين وثلاث مائة

* فيها توفّي الشيخ الكبير إسماعيل بن نجيد الإمام النيسابوري، شيخ الصوفية بخراسان، أنفق أمواله على الزهّاد والعلماء، وصحب الجنيد وأبا عليّ عثمان الحيري، وسمع إبراهيم بن محمد البوشنجي، وأبا مسلم الكجيّ وطبقتهما، وكان صاحب أحوال ومناقب.

* وفيها توفي الحافظ أحد أركان الحديث أبو علي[٢] الماسرجسي، رحل إلى العراق ومصر والشام. قال الحاكم: هو سفينة عصره في كثير الكتّاب، صنّف المسند الكبير مذهّباً معلّلاً، جمع حديث الزهري جمعاً لم يُسبق إليه، وكان يحفظه مثل الماء. وصنّف كتاباً على البخاري وآخر على مسلم.

* وفيها توفّي الحافظ الكبير أبو أحمد عبد الله بن محمد بن القطّان الجرجاني، مصنّف الكامل في الجرح.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٣٦٢/٧/٦: الحافظ ابن السني: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط مولى جعفر بن أبي طالب، أبو بكر ابن السني الدينوري الحافظ، سمع النسائي وغيره، وروى عنه جماعة.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٧٩: أبو علي الماسرجسي هو الحسين بن محمد بن أحمد بن ماسرجس النيسابوري، أسلم على يد عبد الله بن المبارك ـ وكان نصرانياً ـ.

* وفيها توفّي الحاكم أبو عبد الله. وفي ستّ وستين عند السمعاني، وفي ستّ وثلاثين عند الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

* وفيها توفي الإمام النحرير الفاضل الشهير المعروف بالقفال[1] الكبير، الشاشي، الفقيه الشافعي، إمام عصره بلا منازع، وفريد دهره بلا مدافع، صاحب المصنّفات المفيدة والطريقة الحميدة. كان فقيهاً محدّثاً أصولياً لغوياً شاعراً، لم يكن بما وراء النهر للشافعيين مثله في وقته، رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام والثغور، وأخذ الفقه عن ابن سُريج، وهو أول من صنّف الجدل الحسن من الفقهاء، وله (كتاب في أصول الفقه)، وله شرح الرسالة، وعنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده روى عن أكابر من العلماء. منهم: الإمامان الكبيران محمد بن جرير الطبري، وإمام الأئمة محمد بن خزيمة وأقرانهما، وروى عنه جماعة من الكبار، منهم: الحاكم، وأبو عبد الله بن منذر، وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم.

قلت وهذا القفّال الشاشي المذكور، قد يشبه على بعض الناس بقفّال وشاشي آخرين، وها أنا ذا أوضح ذلك أيضاً بالغاً ممّا أوضحت ذلك في نظيره في الثلاثة النحويين المسمّين بالأخفش.

اعلم أنّهم ثلاثة قفال شاشي: وهو هذا، وقد ذكرنا عن من أخذ ومن أخذ عنه، وهو والد القاسم صاحب كتاب (التقريب)، وقيل إنه صاحب (كتاب التقريب) لا ولده، وللشكّ في ذلك يقال: قال صاحب التقريب، وأبو حامد الغزالي قال في كتاب الرهن: لما ذكر صاحب التقريب قال: أبو القاسم، فغلّطوه في ذلك وقالوا: صوابه القاسم، والتقريب المذكور قليل الوجود في أيدي الناس، وهناك تقريب آخر يكثر وجوده في أيدي الناس، وهو لسليم، وبه تخرّج فقهاء خراسان. والشاشي (بشينين معجمتين بينهما ألف نسبة إلى الشاش مدينة وراء النهر سَيْحون ـ خرج منها جماعة من العلماء).

وإذا علم أنّ القفال هو الشاشي، فاعلم أنّ هناك قفالاً آخر شاشي وشاشياً، غير قفال. وثلاثتهم يكنّون بأبي بكر، ويشترك اثنان منهم في اسمهما دون اسم أبيهما، واثنان في اسم أبيهما. فالقفال غير الشاشي هو القفال المروزي، وهو عبد الله بن أحمد، وعنه أخذ القاضي حسين والشيخ أبو محمد الجويني وولده إمام الحرمين. وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في سنة سبع عشرة وأربع مائة.

---

(١) وفي المصدر السابق أيضاً: محمد بن علي بن إسماعيل أبو بكر الشاشي الفقيه الشافعي المعروف بالقفال الكبير، والشاشي نسبة إلى شاش: مدينة وراء نهر جيحون (٧/ ٧٩).

والشاشي غير القفال هو فخر الإسلام محمد بن أحمد، مصنّف المستظهري شيخ الشافعية في زمانه. تفقّه على محمد بن بنان الكازروني، ثم لزم الشيخ أبا إسحاق وابن الصبّاغ ببغداد، وصنّف وأفتى، ووليّ تدريس النظامية، ودفن عند الشيخ أبي إسحاق، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في سنة سبع وخمسمائة التي توفي فيها. فهذا الكلام فيهم قد أوضحته جدّاً حتّى عن حدّ البيان تعدّى. والقفال الشاشي المذكور في سنة خمس وستّين وثلاثمائة، المذكور صاحب وجه في المذهب، وممّن نبّه على الخلاف في أنّ كتاب التقريب له أو لولده الإمام العجلي، وشرح مشكلات الوجيز والوسيط، ذكر ذلك في (كتاب التيمّم).

قلت: وإنما بسطت الكلام في هذا، وخرجت إلى الإسهاب الخارج عن مقصود الكتاب، لاحتمال أنّه اتّفق عليه من يحتاج إليه من الفقهاء. ونسأل الله تعالى التوفيق وسلوك الطريق الصواب.

وقال الحليمي: كان شيخنا القفّال أعلم من لقيته من علماء عصره، وفي وفاته اختلاف.

* وفيها توفّي المعز لدين الله: أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بن المهدي العُبيدي، صاحب المغرب والديار المصرية. ولما افتتح مولاه جوهرُ سَجْلماسة مع فاس[١]، وسعه إلى البحر المحيط، وخطب له في بلاد المغرب، وبلغه موت كافور الاخشيذي صاحب مصر، جهّز جوهر المذكور الجيوش والأموال، قيل خمسمائة ألف دينار، أنفقها على جميع قبائل المغرب حتّى البربر، فأخذ الديار المصرية، وبنى مدينة القاهرة المغربية، وكان مستظهراً للتشيع، معظّماً لحرمة الإسلام، حليماً كريماً، وقوراً حازماً سرياً، يرجع إلى إنصاف مجرى الأمور على أحسن أحكامها. ولمّا كان منتصف شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة، وصلت البشارة بفتح الديار المصرية، ودخول عساكره إليها، وانتظام الحال بمصر والشام والحجاز، وإقامة الدعوة له بهذه المواضع، فسرّ بذلك سروراً عظيماً، واستخلف على إفريقية، وخرج متوجّهاً إلى ديار مصر بأموال جليلة المقدار، ورجاء عظيمة الأخطار، فدخل الإسكندرية لستّ بقين من شعبان من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وركب فيها ودخل الحمام. وقدم عليه قاضي مصر أبو طاهر، وأعيان أهل البلاد، وسلّموا عليه، وجلس لهم عند المنارة، وخاطبهم بخطاب طويل يخبرهم أنّه لم يرد فيه بدخول مصر لزيادة مملكته وللمال، وإنّما أراد إقامة الحجّ والجهاد، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة،

(١) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب. (معجم البلدان) وتقع شمالي المملكة المغربية شرقي مدينة الرباط.

ويعمل بما أمره به جدّه صلّى الله عليه وآله وسلّم. ووعظهم حتى بكى بعض الحاضرين، وخلع على القاضي وبعض الجماعة، وحملهم، ثم ودّعوه وانصرفوا. ورحل منها في أواخر شعبان، ونزل يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة على جزيرة ساحل مصر، فخرج إليه القائد جوهر، وترجّل عند لقائه، وقبّل الأرض بين يديه، وأقام هناك ثلاثة أيام، ثم رحل ودخل القاهرة، ولم يدخل مصر، وكانت قد زيّنت له، وظنّوا أنه يدخلها وأهل القاهرة لم يستعدوا للقائه لظنّهم أنه يدخل مصر أو لا يدخلها ولما دخل القاهرة دخل القصر، ثم دخل مجلساً منه، وخرّ فيه ساجداً لله عزّ وجلّ، ثم صلّى فيه ركعتين، وانصرف الناس عنه، وفي يوم الجمعة لثالث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة، عزل المعزّ القائد جوهراً عن داود بن مصر وجباية أموالها وممّا يُنسب إلى المعزّ من الشعر:

لله مــا صنعــتْ بِنــا تلــك المحــاجــر أمضى وأقضى في النفوس من الحناجر
ولقــد تعبــت بينكــم تعــب المهــاجــر فــي الهــواجــر

وكانت ولادته بالمهديّة يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وتوفي يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، من السنة المذكورة بالقاهرة المشهورة.

سنة ست وستين وثلاثمائة

* فيها حجّت جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان، وصار حجّها يضرب به المثل، فإنها أغنت المجاورين، وقيل كان معها أربعمائة كجاوة[1] لا يُدرى في أيّها هي، لكونهن كلهنّ في الحسن والزينة يشتبهن، ونثرت على الكعبة لما دخلتها عشرة آلاف دينار.

* وفيها مات ملك القرامطة الحسن بن أحمد بن أبي سعيد القرمطي، الذي استولى على أكثر الشام، وهزم جيش المعزّ، وقتل قائدهم جعفر بن فلاح، وذهب إلى مصر، وحاصرها شهراً قبل مجيء المعزّ، وكان يظهر الطاعة للطائع لله، وله شعر وفضيلة، ولد بالأحساء[2] ومات بالرملة.

* وفيها توفّي ابن المرزبان أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي الفقيه الشافعي، كان فقيهاً ورعاً من جملة العلماء. أخذ الفقه عن أبي الحسن بن القطّان، وعنه أخذ الشيخ أبو حامد الأسفراييني أول قدومه بغداد.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٩٠: إنها أعملت أربعمائة محمل ـ وكان لا يدرى في أيّها هي.
(٢) الأحساء: مدينة بالبحرين معروفة مشهورة، كان أول من عمرها وجعلها قصبة هجر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي. (معجم البلدان).

وحكي عنه أنه قال: ما أعلم أن لأحدٍ عليّ مظلمة. ومفهومه أنه لم يغتبْ أحداً. إذ الغيبة من جملة المظالم. درس ببغداد، وله وجه في المذهب الشافعي، ومعنى (المِرزُبان) بكسر الراء وضم الزاي: صاحب الجدّ، وهو لفظ فارسيّ، في الأصل اسم مَنْ كان دون الملك.

* وفيها توفّي المستنصر بالله أبو مروان صاحب الأندلس عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني. وكان مشغوفاً بجمع الكتب والنظر فيها، بحيث أنه جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ولا بعده حتّى ضاقت خزائنه.

* وفيها توفّي القاضي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الشافعي. كان فقيهاً أديباً شاعراً، ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب (طبقات الفقهاء) وقال: له ديوان شعر، وهو القائل:

يقولون لي فيك انقباض وإنّما ... رأوا رجلاً عن موقف الذلّ أحْجما

من قصيدة له طويلة، وذكره الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر فقال: هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم، وقبّة تاج الأدب، وفارس عسكر الشرع، مجمع خطّ ابن مقلة إلى نَثر الجاحظ، ونظم البحتريّ. وقد كان في صباه اقتبس من العلوم والأدب، ما صار به في العلوم علماً وفي الكمال عالماً، ومن شعره:

وقال توصّل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أنّ الخضوع هو الفقرُ
وبيني وبين الحال شبان حرّما ... عليّ الغنى: نفس الأبيّة والفقر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خير من وقوفي بها الضررُ

وله في الصاحب بن عبّاد:

ولا ذنب للأفكار أنت تركتها ... إذا احتشدت لم تنتفع باحتشادها
سبقتَ بأفراد المعاني وألّفتْ ... خواطرك الألفاظ بعد شرادِها
فإن نحن حاولنا اختراع بديعة ... حصلنا على مسروقها ومعادِها

وله فيه يهنئه بالعافية:

وفي كلّ يوم للمكاره روعة ... لها في قلوب المكرمات وجيب
تقسّمت العلياءُ جسمَك كلّه ... فمِن أينَ للأسقام فيك نصيبُ
إذا ألمتْ نفس الوزيرِ تألّمتْ ... لها أنفس تحيى بها وقلوبُ

وله:

مـا تطعمـت لـذّة العيـش حتّـى صـرْت للبيـتِ والكتـابِ جليسـا
ليس شيء أعزّ عندي من العلم فمـا أبتغـي سـواه أنيسَـا
إنّمـا الـذلّ فـي مخـالطـة النـاس فـدعهـم وعـشْ عـزيـزاً رئيسـا

قال ابن خلكان: وشعره كثير، وطريقه سهل، وله (كتاب الوساطة) بين المتنبي وخصومه، أبان فيه من فضل عزيز، وإطّلاع كثير، ومادّة متوفّرة.

وفيها توفي الرجل الصالح المقرىء أبو الحسن محمد النيسابوري السرّاج. قال الحاكم: قل مَنْ رأيت أكثر اجتهاداً وعبادة منه. توفّي يوم عاشوراء رحمه الله.

سنة سبع وستين وثلاثمائة

* فيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو القاسم النصرأباذي[١]، شيخ الصوفية والمحدّثين في خراسان صحب الشبلي وأبا علي الروذباري، وسمع ابن خُزيمة وابن صاعد وكان صاحب فنون من الفقه والحديث والتاريخ وعلم سلوك الصوفية. وحجّ وجاور بمكّة سنتين، ومات بها قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا القاسم النصر أبادي يقول: إذا بدا لك شيء من بوادي الحقّ، فلا تلتفتْ معه إلى جنّة، ولا إلى نار، فإذا رجعت عن تلك الحال، فعظّم ما عظّمه الله تعالى.

وقيل أن بعض الناس يجالس النسوان، ويقول: أنا معصوم في رؤيتهنّ، فقال: ما دامت الأشباح باقية فالأمر والنهي باقٍ أو قال: باقيان والتحليل والتحريم مخاطب به.

وقال: التصوّف ملازمة الكتاب والسنّة، وترك الأهواء والبدع، وتحريم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

* وفيها توفّي معزّ الدولة الديلمي، والغضنفر عمدة الدولة ابن الملك ناصر الدولة بن حمدان.

* وفيها توفي القاضي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قُرَيْعَة (بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحت وبعدها عين مهملة) البغدادي قاضي السِنْديّة (بكسر

(١) في الأنساب للسمعاني: ٥/٤٩٢، ٤٩٣: النصرأباذي: هذه النسبة إلى محلة بنيسابور، وهي من أعالي البلد، منها أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه العارف النصْرأباذي الواعظ.. خرج إلى مكة منذ سنة خمس وستين، وجاور بها، ... ثم توفي بها في ذي الحجة من سنة سبع وستين، ودفن بالبطحاء عند تربة الفضيل بن عياض.

السين والدال المهملتين وسكون النون بينهما وتشديد الياء المثناة من تحت وبعدها هاء) وهي قرية بين بغداد والأنبار، وينسب إليها سندواني، ليحصل الفرق بين هذه النسبة والنسبة إلى بلاد السند المجاورة لبلاد الهند.

وقال ابن خلّكان: وكان من أحد عجائب الدنيا في سرعة البداهة بالجواب في جميع ما يسأل عنه، في أصحّ لفظ وأملح سجع، وله مسائل وأجوبة مدوّنة في كتاب مشهور بأيدي الناس. وكان رؤساء ذلك العصر وفضلاؤه يلاعبونه، ويكتبون إليه بالمسائل الغريبة المضحكة، فيكتب الجواب، من غير توقّف ولا تلبّث، مطابقاً لما سألوه، وكان الوزير أبو محمد المهلبي، يغري به جماعة يضعون له من الأسئلة الهزليّة على معانٍ شتى من النوادر الظريفة، ليجيب عنها بتلك الأجوبة.

فمن ذلك ما كتبه إليه العباس بن المعلّى الكاتب، ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهوديّ زنى بنصرانية، فولدت ولداً جسمه للبشر، ووجهه للبقر ـ وقد قبض عليها ـ فيما يرى القاضي فيهما؟ فكتب جوابه بديهاً، هذا من أعدل الشهود على الملاعين اليهود بأنّهم أُشربوا حبّ العجل في صدورهم، حتّى خرج من أيورِهم، وأرى أنْ يناط برأس اليهود رأس العجل، ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل، ويسحبا على الأرض، وينادى عليهما: ظلمات بعضها فوق بعض والسلام.

ولمّا قدم الصاحب بن عبّاد إلى بغداد، حضر مجلس الوزير أبي محمد المهلبي ـ وكان في المجلس القاضي أبو بكر المذكور ـ فرأى من ظرفه وسرعة أجوبته مع لطافتها ما عظّم تعجبه، فكتب الصاحب إلى أبي الفضل بن العميد كتاباً يقول فيه: وكان في المجلس شيخ خفيف الروح يُعرف بالقاضي ابن قُرَيْعَة، جاراني في مسائل خِفْتها، يمنع من ذكرها، إلاّ أني استظرفت من كلامه، وقد سأله كهل بيطار بحضرة الوزير أبي محمد عن حدّ القفاء، فقال: ما اشتمل عليه جربانك، ومازحك فيه إخوانك، وأدّبك فيه سلطانك، وباسطك فيه غلمانك، فهذه حدود أربعة وجميع مسائله على هذا الأسلوب، وقوله: جُربّانك (هو لفظ فارسي بضم الجيم والراء وتشديد الموحدة وبالنون بين الألف والكاف): لبنة الثوب، وهي: الخرقة العريضة التي فوق القبّ تستر القفا. قال ابن خلّكان: ولولا خوف الإطالة لذكرت جملة منها، وقد سرد محمد بن شرف القيرواني الشاعر المشهور، في كتابه الذي سمّاه (أبكار الأفكار) عدّة مسائل، وجواباتها من هذه المسائل.

وفيها توفي ابن قوطيّة محمد[1] بن عمر الأندلسي. كان من أعلم زمانه باللغة

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٤/٢٤٢: ابن القوطية اللغوي: محمد بن عمر بن عبد العزيز أبو بكر ابن القوطية هي جدّة أبي جدّه، وهي سارة بنت المنذر من بنات الملوك القوطية... صنف: =

والعربية، وكان مع ذلك حافظاً للحديث والفقه والخبر والنوادر، راوياً للأشعار والآثار، لا يلحق شاوه، ولا يشقّ غباره، روى عنه الشيوخ والكهول. وكان قد لقي مشايخ عصره بحضرة الأندلس، وأخذ عنهم، وصنّف الكتب المفيدة في اللغة، منها كتاب (تصاريف الأفعال) وهو الذي فتح هذا الباب، فجاء من بعده ابن القطّاع، ولقد أعجز من يأتي بعده، وفاق من تقدّمه، وكان مع هذه الفضائل من العباد النسّاك، وكان جيّد الشعر، صحيح الألفاظ واضح المعاني، حسن المطالع والمقاطع، إلاّ أنه ترك ذلك ورفضه.

حكى الأديب الشاعر يحيى بن هذيل التميمي أنه توجّه يوماً إلى ضيعة له بسفح جبل قُرْطُبَة، وهي من بقاع الأرض الطيبة المونقة، فصادف ابن القوطيّة المذكور صادراً عنها، وكانت له أيضاً هناك ضيعة، قال: فلمّا رآني خرج عليّ واستبشر بلقائي، فقلت له على البداهة مداعباً له:

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه له ... ومَنْ هو الشمس، والدنيا له فلك

قال فتبسّم وأجاب بسرعة:

من منزلٍ يعجب النسّاكَ خلوتُه ... وفيه سترٌ على الفتّاك إن فتكوا[1]

قال: فما تمالكت أن قبّلت يده، إذ كان شيخي، ومجدّته، ودعوت له. و (القوطية) (بضم القاف وسكون الواو وكسر الطاء المهملة وتشديد المثناة من تحت وبعدها هام) جدّة جدّ نسبة إلى قوط بن حام بن نوح عليه السلام، وقوط أبو السودان والهند والسند، وكانت القوطيّة المذكورة وفدت إلى هشام بن عبد الملك في الشام متظلّمة من عمّها، فتزوجها عيسى بن مزاحم، وسافر بها إلى الأندلس.

سنة ثمان وستين وثلاثمائة

* فيها توفّي أبو سعيد الحسين بن عبيد الله. وقال بعضهم: ابن عبد الله بن المرزباني السيرافي[2] النحوي. كان من أعلم الناس بنحو البصريين، وشرح كتاب سيبويه، وأجاد فيه، وشرح مقصورة ابن دريد، وله تصانيف أخرى، وتصدّر لإقراء القراءات والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي، وكان نزهاً عفيفاً جميل

= كتاب تصاريف الأفعال، المقصور والممدود.

(١) في الوافي بالوفيات: ٦/٤/٢٤٢... وفيه ستر عن الفتّاك إن فتكوا.

(٢) في الأنساب للسمعاني: ٣/٣٥٧: السيرافي: نسبة إلى سيراف، وهو من بلاد فارس مما يلي خد كرمان على طرف البحر. ومنها: أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان القاضي السيرافي النحوي. /

السيرة حسن الأخلاق، رأساً في النحو، قرأ القراءات على ابن مجاهد، واللغة على ابن دريد، والنحو على ابن السرّاج. وكان ورعاً يأكل من النّسْخ، وينسخ الكراس بعشرة دراهم لبراعة خطّه. يذكر عنه الاعتزال، ولم يظهر منه، والله أعلم به، وكان كثيراً ما ينشد في مجلسه.

أسكُنْ إلى سكن تُسَرُّ به ... ذهب الزمان وأنت منفردُ
ترجو غداً وغدا كحاملةٍ ... في الحيّ لا يدرون ما تلدُ

وكان بينه وبين أبي الفرج صاحب الأغاني ما جرت به العادة من التنافس بين الفضلاء، فعمل فيه أبو الفرج شعراً ذكره ابن خلّكان ـ كرهتُ ذكره:

والسيرافي بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وبعد الراء والألف فاء نسبةً إلى مدينة سِيْراف.

* وفيها توفي الشيخ الزاهد العائد أبو أحمد محمد بن عيسى النيسابوري، راوي صحيح مسلم عن ابن سفيان. قال الحاكم: هو من كبار عبّاد الصوفيّة، يعرف مذهب سفيان وينتحله.

* وفيها توفي أبو الحسن محمد بن محمد النيسابوري، الحافظ المقرىء العبد الصالح الصدوق. سمع بمصر والشام والعراق وخراسان، وصنّف في العلل والشيوخ والأبواب. قال الحاكم: صحبته نيّفاً وعشرين سنة، فما أعلم أنّ الملك كتب عليه خطيئة.

* وفيها وردت الدعوة العباسية على يد بعض أهل الدولة من العراقين، حارب المصريين والتقى هو وجوهر العبيدي، فانكسر جوهر، وذهب إلى مصر، وصادف العزيز صاحب مصر قد جاء في نجدته، فردّ معه، فالتقاهم عسكر العراق، فأخذوا مقدّمه أسيراً، ثم مَنّ عليه العزيز، وأطلقه.

* وفيها توفّي أبو طاهر محمد بن محمد بن نقية، وزير عزّ الدولة بن بويه. وكان من جملة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء، وكان قد حمل عزّ الدولة على محاربة ابن عمّه عضد الدولة، فالتقيا على الأهواز، وكُسر عزّ الدولة، فنسب ذلك إلى رأيه ومشورته. وفي ذلك يقول أبو غسان الطبيب بالبصرة.

أقام على الأهواز خمسين ليلة ... يدبّر أمر الملك حتى تدمّرا
فدبّر أمراً كان أوّله عمى ... وأوسطه بلوى وآخره خسرا

ولما قبض عليه سمل عينيه، فلزم بيته، ثم إنّه طلبه بعد ذلك، ورماه بين أرجل

الفيلة، فمات من ذلك، فصلبه، ولم يزل مصلوباً إلى أن توفّي عضد الدولة، فأنزل عن الخشبة، ودفن في موضعه، فقال فيه أبو الحسن ابن الأنباري:

لـم يلحقـوا بـك عـاراً إذا صُلبتَ بلـى ... بـاؤا بمثـلـك ثـمّ استـرجعـوا نـدمـا
واتّفقـوا أنهـم فـي فعلهـم غلطـوا ... وأنهـم نصبـوا مـن سـؤدد علمـا
فـاسترجعـوك ووارَوا منـك طـودَعُـلا ... بـدفنـه دفنـوا الأفضـال والكـرمـا
لئـنْ بليـتَ لَمَـا تبلـى بـذاك، ولا ... تُنسـى، وكـم هـالـكٍ يُنسـى إذا قَـدُمـا
تقـاسـم النـاس حسـن الـذكـر فيـك كمـا ... مـا زال مـالـك بيـن النـاس منقسمـا

سنة تسع وستين وثلاثمائة

* فيها توفّي الشيخ الكبير أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، شيخ الصوفية، نزيلُ صُور[1]، شيخ الشام في وقته.

* وفيها توفّي الإمام الكبير أبو سهل الصعلوكي: محمد بن سليمان النيسابوري الفقيه، شيخ الشافعية بخراسان. قال فيه الحاكم: أبو سهل الصعلوكي الشافعي اللغوي المفسّر النحوي المتكلّم المفتي الصوفي خير زمانه، وبقية أقرانه. (ولد) سنة تسعين ومائتين، واختلف إلى ابن خزيمة، ثم إلى أبي علي الثقفي، وناظر، وبرع، وسمع من أبي العباس السرّاج وطبقته، ولم يبق موافق ولا مختلف إلاّ أقرّ بفضله وتقدّمه. وحضره المشايخ مرّة بعد أخرى، ودرّس، وأفتى في نيسابور وأصفهان وبلاد شتّى، وقال الصاحب بن عباد: ما رأى أبو سهل مثل نفسه، ولا رأينا مثله. (قلتُ): لأبي سهل مناقب كثيرة، وفضائل شهيرة، ذكرت شيئاً منها في (الشاش المعلم شاوش كتاب المرهم).

وفي السنة المذكورة توفي النقّاش[2] المحدّث الحافظ غير المقرىء.

سنة سبعين وثلاثمائة

* فيها رجع عضد الدولة من همدان، فلمّا قرب من بغداد بعث إلى الخليفة الطائع لله أن يتلقّاه، فما وسعه التخلّف لضعف الخلفاء حينئذ، وقوّة المملوك المتصرّفين في البلدان. وما جرت عادة بذلك قطّ، أي بلقاء الخلفاء لهم، قال قبل دخوله مَن تكلّم أو دعا له قُتل.

---

(١) صور: مدينة مشرفة على بحر الشام. (معجم البلدان) إحدى مدن لبنان الساحلية، وتقع جنوب البلاد شمالي الحدود الفلسطينية.

(٢) في الوافي بالوفيات: ٦/ ٤/ ١١٤: أبو بكر النقاش المحدّث: محمد بن علي بن الحسن بن أحمد أبو بكر النقاش نزيل تنّيس ـ وهو راوي نسخة فُليح، كان أحد أئمة الحديث ـ وفي تاريخ ابن الأثير ٧/ ١٠٤: سمع منه الدارقطني.

فما نطق مخلوق. قلت: هكذا أطلق بعضهم، ولم يبيّن من هو القابل ذلك منهما، هل نهى عضد الدولة أن يُدعى للخليفة؟ أو نهى الخليفة أن يُدعى لعضد الدولة؟ في ذلك احتمالان آخران: أحدهما أن يكون نهى الخليفة عن الدعاء لنفسه خوفاً أن يغار عضد الدولة، ويظهر منه غيظ وغضب. والثاني أن يكون الناهي هو عضد الدولة، نهى أن يدعى له تواضعاً للخليفة. والله أعلم بحقيقة ذلك، أيّهما كان هو الناهي عن أن يدعى لنفسه. فقد أحسن في ذلك. وفي السنة المذكورة توفي شيخ الحنفية ببغداد الفقيه أحمد بن علي صاحب أبي الحسن الكرخي، وإليه انتهت رئاسة المذهب. وكان مشهوراً بالزهد والدين، عرض عليه قضاء القضاة فامتنع. وله عدّة مصنّفات.

* وفيها توفّي محمد بن الحسن بن رشيق المصري.

* وفيها توفّي النحوي اللغوي، صاحب التصانيف، وشيخ أهل الأدب: الحسين بن أحمد الهمداني، المعروف بابن خالويه، دخل بغداد، وأدرك جلّة من العلماء مثل ابن الأنباري، وابن مجاهد المقرىء، وأبي عمر والزاهد، وابن دريد، وقرأ على السيرافي، وانتقل إلى الشام، واستوطن حلب، وصار بها أحد أفراد الدهر في كلّ قسم من أقسام الأدب، وكانت الرحلة إليه من الآفاق. وآل حمدان يكرمونه، ويدرسون عليه، ويقتبسون منه. وهو القائل: دخلت يوماً على سيف الدولة، فلمّا مثلت بين يديه قال لي: اقعد، ولم يقل: اجلس. فتبيّنت بذلك إعلاقه بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب.

قال ابن خلّكان وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم اقعد وللنائم والساجد اجلس. وعلله بعضهم بأنّ القعود هو الانتقال من العلو إلى السّفلى، ولهذا قيل لمن أصيب برجله مُقعد. والجلوس هو الانتقال من السفل إلى العلوِ. ولهذا قيل: لنجد جلساً لارتفاعها، وقيل لمن أتاها: جالس، وقد جلس منه قول مروان بن الحكم لمّا كان والياً بالمدينة يخطب الفرزدق:

قل للفرزدق، والسفاهةُ كاسمها إن كنتَ تاركَ ما أمرتكَ فاجلِس

أي اقصد الجلسا، وهي بحذو هذا البيت من جملة أبيات، وهذا كلّه في غير موضعه لكن للكلام شجون.

ولابن خالَويه المذكور كتاب كبير في الأدب سمّاه (كتاب ليس) وهو يدلّ على اطّلاع عظيم، فإنّ مبني الكلام من أوله إلى آخره على أنه ليس في كلام العرب[1] كذا. وله كتاب لطيف سمّاه (الآل)، وذكر في أوله أن الآل ينقسم الى خمسة وعشرين قسماً، وما اقتصر

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٠٧/٧: كتاب ليس، يقول فيه: ليس في كلام العرب كذا إلاّ كذا...

فيه، وذكر فيه الأئمة الاثني عشر، وتاريخ مواليدهم، ووفاتهم وأمّهاتهم، والذي دعاه إلى ذكرهم أنه قال في جملة أسام الآل وآل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم بنو هاشم. وله (كتاب الاشتقاق)، و (كتاب الجمل في النحو)، و (كتاب القراءات)، (كتاب إعراب ثلاثين سورة من الكتاب العزيز)، و (كتاب المقصور والممدود)، (كتاب المذكر والمؤنث)، و (كتاب الألقاب)، و (كتاب شرح مقصورة ابن دريد)، و (كتاب الأسد) وغير ذلك، ولابن خالويه المذكور مع أبي الطيّب المتنبي المذكور مجالس ومباحث عند سيف الدولة، وقد تقدّم في ترجمة المتنبي بعض ما جرى بينه وبينه في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، حتى غضب المتنبي، وارتحل إلى كافور الإخشيذي صاحب مصر. ولابن خالويه شعر حسن، ومنه على ما نقله الثعالبي في كتاب (اليتيمة):

إذا لم يكن صدر المجالس سيداً   فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل: مالي رأيتك راجلاً   فقلت له: من أجل أنك فارس

* وفيها توفّي الإمام العلامة صاحب المصنّفات الكبار الجليلة المقدار (كتهذيب اللغة) وغيره: اللغوي النحوي الشافعي: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي الأزهري. بقي في أسر القرامطة مدة طويلة، وكان متّفقاً على فضله وثقته ودرايته وورعه. وروى عن أبي العباس ثعلب وغيره. وأدرك ابن دريد، ولم يروِ شيئاً واحداً عن نفطويه، وعن ابن السرّاج النحوي. وكان قد رحل وطوف في أرض المغرب في طلب اللغة، فخالط قوماً يتكلموا بطباعهم البدوية، ولا يكاد يوجه في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فاستفاد من محاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً ونوادر كثيرة وقع أكثرها في (كتاب التهذيب)، وسبب مخالطته لهم أنه كان قد أسرته القرامطة، وكان القوم الذين وقع في سهمهم عرباً نشؤوا في البادية ينقون[1] مساقط الغيث، ويرعون الغنم، ويعيشون بألبانها. وكان جامعاً لأشتات اللغات، مطّلعاً على أسرارها ودقائقها. وتهذيبه المذكور أكثر من عشر مجلدات، وله تصنيف في غريب الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من اللغة المتعلقة بالفقه.

* وفيها توفي الحافظ أبو بكر محمد بن جعفر البغدادي الملقّب غُندر (بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة في آخره راء) المحدّث المشهور، رحّال جوّال، توفي بأطراف خراسان غريباً، سمع بالشام والعراق ومصر والجزيرة.

* وفيها توفي الإمام المتكلّم في الأصول، صاحب التصانيف الكثيرة، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي، صاحب الشيخ الإمام أبي الحسن

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٠٧/٧، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عرباً نشؤوا في البادية يتتبّعون مساقط الغيث.

الأشعري، وليس بابن مجاهد المقرىء. وعنه أخذ القاضي أبو بكر الباقلاني، وكان ديّناً صَيناً خيّراً ذا تقوى.

سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

* فيها توفي الإمام الجامع الخبر النافع ذو التصانيف الكبار في الفقه والأخبار: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني، الحافظ الفقيه الشافعي المعروف بالجرجاني، وكان حجّة، كثير العلم، حسن الدين.

* وفيها توفي شيخ المالكية بالمغرب: أبو محمد عبد الله بن إسحاق القيرواني. قال القاضي عيّاض: ضربت إليه آباط الإبل من الأمصار، وكان حافظاً فصيحاً بعيداً عن التصنّع والرياء.

* وفيها توفّي الإمام الكبير الفقيه الشهيد الزاهد: أبو زيد محمد بن أحمد المروزي الشافعي، كان من الأئمة الأجلاء، حسن النظر، مشهوراً بالزهد، حافظاً للمذهب، وله فيه وجوه غريبة روى الصحيح عن الفربري، وحدّث بالعراق ودمشق ومكّة، وسمع منه الحافظ أبو الحسن الدارقطني، ومحمد بن أحمد المحاملي، قال أبو بكر البزار: عاد الفقيه أبو زيد من نيسابور إلى مكّة، فما أعلم أنّ الملائكة كتبت عليه ـ يعني خطبته ـ وكان في أوّل أمره فقيراً، ثم أقبلت عليه الدنيا في آخر عمره، وقد تساقطت أسنانه، وبطلت حاسة الجماع، فيقول مخاطباً للنعمة: لا باركَ الله فيك، ولا أهلاً بك، ولا سهلاً، أقبلتِ حيث لا ناب ولا نصاب. (ومات) بمرو في رجب وله تسعون سنة.

قال الحاكم: كان من أحفظ الناس لمذهب الشافعي، وأحسنهم نظراً، وأزهدهم في الدنيا. وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: هو صاحب أبي إسحاق المروزي، أخذ عنه أبو بكر القفّال المروزي وفقهاء مرو.

* وفيها توفي الشيخ الكبير العارف أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، شيخ إقليم فارس، صاحب الأحوال والمقامات. قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: هو اليوم شيخ المشايخ، تاريخ الزمان، لم يبق للقوم أقدم منه سنّاً، ولا أتمّ حالاً، متمسك بالكتاب والسنّة، فقيه على مذهب الشافعي. كان من أولاد الأمراء، وتزهّد. توفي ثالث رمضان، وله خمس وتسعون سنة، وقيل عاش مائة وأربع سنين.

سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة

* فيها توفي عضد الدولة ابن الملك ركن الدولة، وهو أول من خوطب بـ (شاهنشاه)

في الإسلام، وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة، وكان أديباً فاضلاً محباً للفضلاء، مشاركاً في فنون من العلم، وله صنّف أبو علي الفارسي (الإيضاح)، و (التكملة) في النحو، وقصده الشعراء من البلاد كالمتنبي وأبي الحسن السلامي، ومدحوه بالمدائح الحسنة. وكان شيعياً غالياً، شهماً، مطاعاً، حازماً ذكياً، متيقظاً مهيباً سفاكاً للدماء، له عيون كثيرة تأتيه بأخبار البلاد القاصية، وليس في بني عمّه مثله، وكان قد طلب حساب ما يدخله في العام، فإذا هو ثلاثمائة ألف ألف وعشرون ألف درهم، وجدّد مكوساً ومظالم. ولما نزل به الموت كان يقول: ما أغنى عنّي ماليه، هلك عنّي سلطانيه. وله أشعار ومنها قوله في قصيدة هذه الأبيات التي لم يفلح بعدها:

ليس شرب الروح إلا في المطر ... وغناء من جَوارٍ في السحر[1]
غانيات سالبات للنهى ... ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الأملاك غلّاب القدر

نعوذ بالله من غضب الله ومن مثل هذا القول.

وممّن حكى هذه الأبيات عنه أبو منصور الثعالبي في كتاب (يتيمة الدهر)، وإليه ينسب المارستان العضدي ببغداد، غرم عليه مالاً عظيماً، قيل وليس في الدنيا مثل تزيينه، وهو الذي أظهر قبر علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ بزعمه بالكوفة، وبنى عليه المشهد، ودفن فيه. وللناس في هذا القبر اختلاف كثير، وأصحّ ما قيل فيه أنه مدفون بقصر الإمارة بالكوفة كرم الله وجهه.

وممّا يمدح الشعراء عضد الدولة قول المتنبي في قصيدة له:

أروح وقد ختمت على فؤادي ... بحبّك أن يحلّ به سواكا

ومنها:

فلو أني استطعت غضَضْتُ طرفي ... فلم أنظرْ به حتّى أراكا

وقول السلامي:

وبشرت آمالي بملكٍ هو الورى ... ودارٍ في الدنيا ويومٍ هو الدهر

وقد أخذ هذا المعنى القاضي الأرجاني في قوله:

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ١١٤: ليس شرب الكأس... وفي ابن خلكان وابن كثير: ليس شرب الراح...

لو زرته فرأيت الناس في رجل والدهرَ في ساعة والأرض في دار

ولكن أين الثرى من الثريا؟ وكذلك هذا المعنى موجود في قول المتنبي:

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

لكنه ما استوفاه، فإنه ما تعرض لذكر اليوم الذي جعله السلامي ـ وهو الدهر ـ ومع هذا فليس له طلاوة بيت السلامي الذي هو السحر الحلال.

في السنة المذكورة أو في غيرها من عشر الثمانين توفي الإمام الكبير الفقيه الشافعي الشهير إمام مروٍ، ومقدّم الفقهاء الشافعية في زمانه ومكانه، أبو عبد الله محمد بن أحمد الفارسي المروزي الخِضري (بكسر الخاء وسكون الضاد المعجمتين وبالراء) وكان من أعيان تلامذة أبي بكر القفّال المروزي، أقام بمروٍ ناشراً فقه الشافعي، وكان يضرب به المثل في قوّة الحفظ، وقلّة النسيان، وله في المذهب وجوه غريبة، نقلها الخراسانيون عنه. وروي عن الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ صحيح لدلالة الصبي على القبلة، وقال معناه: أن يدلّ على قبلة تشاهد في الجامع، فأما موضع الاجتهاد فلا يُقبل.

وذكر الإمام أبو الفتوح العجلي في كتاب شرح (مشكلات الوجيز والوسيط) إن الإمام أبا عبد الله الخضري المذكور سئل عن قُلامة ظفر المرأة، هل يجوز للرجل الأجنبي النظر إليها؟ فأطرق طويلاً ساكتاً، وكانت تحته ابنة الشيخ أبي علي (الشَبَوي) بفتح الشين المعجمة والموحدة، فقالت له: لِمَ تفكر؟ قد سمعت أبي يقول في جواب هذه المسألة: إن كانت من قلامة أظفار اليدين جاز النظر إليها، وإن كانت من أظفار الرجلين لم يجزْ، لأنها عورة. ففرح الخضري وقال: لو لم أستفدّ من اتصالي بأهل العلم إلا هذه المسألة لكانت كافية. انتهى كلام أبي الفتوح العجلي.

وقال أبو العباس ابن خلّكان: هذا التفصيل بين اليدين والرجلين فيه نظر، فإنّ أصحابنا قالوا: اليدان ليستا بعورة في الصلاة، فأما بالنسبة إلى نظر الأجنبي فما نعرف بينهما فرقاً. انتهى كلام ابن خلكان.

قلت: كلام ابن خلّكان المذكور ليس بصواب من وجهين: أحدهما قوله: قالوا اليدان ليستا بعورة، ولم يقل: الكفّان. والثاني، قوله: ما يعرف بينهما فرقاً، فإنه وإن كان لم يطّلع على الفرق، وما في ذلك من الخلاف، فإنه قال ذلك على وجه الاعتراض، وكان حقّه أنْ لا يقول مثل هذا إلا بعد اطلاعه على كلام الأصحاب، فالمسألة منصوص عليها.

قال الإمام الرافعي: النظر إلى وجه الأجنبية وكفّيها، إن خاف الناظر، فيه حرام، وإن

لم يخف فوجهان. (قال أكثر الأصحاب) لا سيما المتقدّمون. لا يحرم بقول الله تعالى ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ [سورة النور: الآية ٣١] وهو مفسّر بالوجه والكفّين، لكن يكره، قال ذلك الشيخ أبو حامد وغيره. والثاني يحرم، قاله الاصطخري وأبو علي الطبري، واختاره الشيخ أبو محمد والإمام، وبه قطع صاحب المهذّب ووجهه الروياني باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات، وبأنّ النظر مظنة الفتنة، وهو محرّكة الشهوة، فاللائق بمحاسن الشرع سدّ الباب والإعراض عن تفاصيل الأحوال كالخلوة بالأجنبية. انتهى كلام الإمام الروياني. قلت: وقد علم من هذا بما حكته زوجة الخضري عن أبيها صواب على الوجه الأول والله أعلم.

سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

في أولها ظهرت وفاة عضد الدولة. وكانت قد أخفيت حتى أحضروا ولده صمصام الدولة، فجلس للعزاء، ولطموا عليه في الأسواق أياماً، وجاء الطائع إلى صمصام الدولة، فعزّاه ثم ولاّه الملك، وعقد له لوائين ولقّبه شمس الدولة، وبعد أيام جاء الخبر بموت مؤيّد الدولة أخي عضد الدولة. ولد بجرجان وولي مملكته أخوه فخر الدولة الذي وزر له إسماعيل بن عبّاد.

* وفيها القحط الشديد ببغداد، وبلغ حساب الغرارة الشامية أربعمائة درهم.

قلت وقد بلغت الغرارة الحجازية بمكّة إلى هذه القيمة المذكورة، وهي نحو من ثلث الشامية، في سنة ستّ وستين وسبع مائة.

* وفيها توفي الأمير أبو الفتح[1] الصنهاجي نائب المعزّ العبيدي على المغرب. وكان محمود السيرة، حسن السياسة، ولي القيروان اثنتي عشرة سنة، وكانت له أربعمائة سريّة، يقال أنه ولد: له في فرد يوم سبعة عشر ولداً. وكان استخلاف المعزّ له عندما توجّه إلى الديار المصرية في سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وأوصاه بأمور كثيرة، وأكّد عليه في فعلها، ثم قال: إنْ نسيتَ ما أوصيتك به فلا تنسَ ثلاثة أشياء: إيّاك أن ترفع الجبايا عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تُوَلِّ أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحقّ بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً. وأمر بالسمع والطاعة له.

* وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير: أبو عثمان المغربي الصوفي سعيد بن سلم. قال: هكذا (ابن سلم) ذكر في بعض النسخ، وفي بعضها (ابن سلام) بزيادة ألف بعد

---

(١) في الكامل بن الأثير ٧/ ١٢١: في هذه السنة لسبع بقين من ذي الحجة توفي يوسف بُلُكِّيْن ابن زِيْرِّي صاحب إفريقية... وهو الذي استخلفه المعزّ بن المنصور العبيدي على إفريقية.

اللام، نزيل نيسابور.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: لم نرَ مثله في علوّ الحال وصون الوقت. وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ سمعت الأستاذ أبا بكر بن فورك ـ رحمه الله ـ يقول: كنت عند أبي عثمان المغربي حين قرب أجله، فلمّا تغير عليه الحال أشرنا على عليّ بالسكوت، ففتح الشيخ أبو عثمان عينيه وقال: لم لا يقول على شيء؟ فقلت لبعض الحاضرين: سلوه، وقولوا: علامَ يسمع المستمع، فإني أحتشمه في هذه الحالة؟ فسألوه فقال: إنما يسمع من حيث يسمع.

ومن كلامه ـ رضي الله تعالى عنه: التقوى هي الوقوف على الحدود، لا يُقصّر فيها ولا يُتعدّاها، وقال: من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء، ابتلاه الله تعالى بموت القلب.

قلت: وقد سمعت من أهل العلم والفضل بيتين في مدح سعيد بن سلم، لا أدري: أهو هذا المذكور أو غيره، وقد تضمّنا لمدح عظيم بالغ، وهما:

ألا قلْ لساري الليل لا تخشَ ضلّة ... سعيد بن سلم ضوء كلّ بلاد
لنا سيدٌ أربى على كلّ سيدٍ ... جوادٌ، حثى في وجه كلّ جواد

قلت: وقوله: حتى في وجه كلّ جواد: يحتمل معنيين: أحدهما وهو الأظهر ـ والله أعلم ـ أنه بمعنى: حثى التراب في وجهه معناه حقره. والثاني: أن يكون جاد على كل جواد، وحثى في وجهه من المال ما يراد.

لما أمليت هذين الوجهين ذكر بعض مَن حضرني من الأصحاب أنه يحتمل معنى ثالثاً، وهو أنّ الجواد السابق من الخيل إذا سبق حثى التراب بحافره في وجه المسبوق. وهو معنى حسن غريب يحتمل أن قائله مصيب.

* وفيها توفي الفضل بن جعفر الرجل الصالح المؤذّن بدمشق: أبو القاسم التميمي.

سنة أربع وسبعين وثلاثمائة

فيها توفّي العلامة أبو سعيد، عبد الرحمن بن محمد بن خشكا الحنفي الحاكم بنيسابور.

* وفيها توفي خطيب الخطباء أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نُباتة (بضم النون وبالموحدة وفتح المثناة من فوق بعد الألف) الفارقي اللخمي، العسقلاني المولد، المصري الدار، مصنّف الخطب المشهورة. ولي خطابة حلب لسيف الدولة، كان

إماماً في علوم الأدب، ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنه ما عُمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه، وجودة قريحته. وذكروا أنه سمع على المتنبي بعض ديوانه في خدمة سيف الدولة، وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فلهذا أكثر من خطب الجهاد ليحضّ الناس، ويحثّهم على الجهاد. كان رجلاً صالحاً، ورأى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو في المقابر، فأشار بيده إلى القبور وقال: كيف قلت يا خطيب؟ كيف قلت يا خطيب؟: لا يخبرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مرّة، فلم يفقدوا من أعمالهم ذرّة، والى عليهم الدهر إليه برّة أن لا يجعل لهم إلى دار الدنيا كرّة كأنهم لم يكونوا للعيون قرّة، ولم يعهدوا في الأحياء مرّة، أسكتهم الله الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم، وسيجدّدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم.

ثم نقل صلّى الله عليه وآله وسلّم في فيه، فاستيقظ من منامه على وجهه أثر نور وبهجة لم يكن قبل. وقصّ رؤياه على الناس، وقال: سمّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خطيباً. وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوماً لا يستطعم طعاماً ولا شراباً من أجل تلك التفلة وبركتها. وهذه الخطبة التي فيها هذه الكلمات: تُعرف بالمناسبة لهذه الواقعة.

وذكر بعضهم أنه ولد في سنة خمسين وثلاثمائة، (وتوفّي) في السنة المذكورة، أعني سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

وعن بعضهم أنه قال: رأيت الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته، وقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: رفع لي ورقة، وفيها سطران بالأحمر. وهما: قد كان أمِنَ لك من قبل ذا، واليوم أضحى لك أمنان، والصفح لا يحسن عن محسن، وإنّما يحسن عن جانٍ. قال: فانتبهت من النوم وأنا أكرّرهما.

* وفيها توفّي تميم بن معزّ بن المنصور بن القائم بن المهدي، كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب، وهو الذي بنى القاهرة. وكان تميم المذكور فاضلاً شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً، ولم يلِ المملكة، لأنّ ولاية العهد كانت لأخيه العزيز، تولاّها بعد أبيه. وللعزيز أيضاً أشعار جيدة، ذكرها أبو منصور الثعلبي في اليتيمة. ومن شعر تميم المذكور:

أما والذي لا يملك الأمر غيره ... وهو بالسرّ المكتّم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً ... فأعد أنها عندي أشرّ وآلم
وفي كل ما تبكي العيون أقله ... وإن كنت منه دائماً أتبسّم

ومنه:

وما أم خشف ظلّ يوماً وليلة ... ببلقية بيداء ظمآن صاديا

تهيم فلا تدري إلى أين تنتهي ... مولّهة خبرى تجوب الفيافيا
أضرّ بها حرّ الهجير فلم تجد ... لغلّتها من بارد الماء ساقيا
فلمّا دنت من خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح طاويا
فأوجع مني يوم شدّت حمولهم ... ونادى منادي الحي أنْ لا تلاقيا

ولما توفي غسله القاضي أبو محمد بن النعمان، وكفّنه في ستين ثوباً، وحضر أخوه العزيز الصلاة عليه.

قلت: قد قدّمت في سنة سبع وأربعين ترجمة تميم بن المعزّ، وليس هو هذا، بل ذلك حميريّ وأفقه. هذا في اسمه واسم أبيه قد تشبّهان، فلهذا انتبهت عليه. والمتقدّم هو الممدوح بالبيتين المتقدّمين في ترجمته، أعني قول ابن رشيق في أوّلهما أصح، وفي آخرهما عن كفّ الأمير تميم.

سنة خمس وسبعين وثلاثمائة

* فيها توفّي الحافظ أبو زُرعة أحمد بن الحسين الرازي الصغير، رحل وطوّف وجمع وصنّف.

* وفيها توفّي أبو مسلم ابن مهران الحافظ العابد العارف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مهران البغدادي. رحل إلى البلدان، منها خراسان والشام والجزائر وبُخارى وصنّف المسند، ثم تزهّد وانقبض عن الناس، وجاور بمكّة. وكان يجتهد أن لا يظهر للمحدّثين، ولا لغيرهم. قال ابن أبي الفوارس: صنّف أشياء كثيرة، وكان ثقة زاهداً ما رأينا مثله.

* وفيها توفّي الإمام الشهير الفقيه الكبير أبو القاسم عبد العزيز بن عبد الله الداركي الشافعي نزيل نيسابور ثمّ بغداد. انتهى إليه معرفة المذهب، قال أبو حامد الأسفراييني: ما رأيت أفقه منه، وقال غيره: كان صاحب وجه في المذهب، تفقّه على أبي إسحاق المروزي، وحدّث عن جدّه لأمّه الحسن بن محمد الداركي. ودَارَك من قرى أصفهان.

* وفيها توفّي الأبهري القاضي، أبو بكر التميمي، صاحب التصانيف، وشيخ المالكية العراقيين. سئل أن يلي قضاء القضاة، فامتنع ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة ست وسبعين وثلاثمائة

* فيها وقع قتال بين الديلم وكانوا تسعة عشر[1] ألفاً وبين الترك، وكانوا ثلاثة آلاف،

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ١٣٠: ابن الديلم اجتمعوا مع شرف الدولة في خلق كثير بلغت عدّتهم=

فانهزمت الديلم، وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف، وكانوا مع صمصام الدولة، وكانت الترك مع أخيه، شرف الدولة، فخفّوا به وقدموا به بغداد، فأتاه الخليفة الطائع طائعاً يهنئه، ثم خفي خبر صمصام الدولة فلم يعرف[1].

* وفيها توفي الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي البلخيّ. سمع الكثير، وخرج لنفسه معجماً، وحدّث بصحيح البخاري عن الفربري.

* وفيها توفي الواعظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن شاذان الصوفي الرازي.

سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

* فيها رفع شرف الدولة عن العراق مظالم كثيرة، فمن ذلك أنه ردّ على الشريف أبي الحسين محمد بن عمر جميع أملاكه، وكان مبلغها في العام ألفي ألف وخمسمائة[2] درهم، وكان الغلاء ببغداد دون الوصف.

* وفيها توفي الإمام النحوي أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي، اشتغل ببغداد، ودار البلاد، وأقام بحلب عند سيف الدولة ابن حمدان. وكان إمام وقته في علم النحو، وجرت بينه وبين المتنبي مجالس، ثم انتقل إلى بلاد فارس، وصحب عضد الدولة، وتقدّم عنده، وعلتْ منزلته حتّى قال عضد الدولة: أنا غلام أبي علي في النحو. وصنّف له (كتاب الإيضاح والتكملة) في النحو، وله تصانيف أخرى تزيد على عشرة.

ويحكى أنه كان يوماً في ميدان شيراز، يساير عضد الدولة، فقال له: أنصب المستثنى في قولنا (قام القوم إلا زيداً فقال الشيخ: بفعل مقدّر. فقال له: كيف تقديره؟ فقال: أستثني زيداً، فقال عضد الدولة: هلا رفعته، وقررتَ الفعل، امتنع زيد؟ فانقطع الشيخ وقال: الجواب ميداني، ثم إنه لما رجع إلى منزله، وضع في ذلك كلاماً، وحمله إليه فاستحسنه. وذكر في كتاب الإيضاح أنه بالفعل المتقدّم تقوّيه إلا.

وحكى أبو القاسم بن أحمد الأندلسي قال: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي ـ وأنا حاضر ـ فقال: إني لا أغبطكم على قول الشعر، فإن خاطري لا يوافقني على قوله، مع

= خمسة عشر ألف رجل.

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٣١: وحمل صمصام الدولة إلى فارس فاعتقل في قلعة هناك.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٣١: وكان خراج أملاكه في كل سنة ألفي وألف وخمسمائة ألف درهم.

تحقيقي العلوم التي هي من موادّه، فقال له رجل: فما قلت قطّ شيئاً منه؟ فقال: ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات، وذكرها في السبب، ولم أذكرها أنا في هذا الكتاب، لأنه أبدى فيه عيباً وذماً، وهو: (في الشرع نور ووقار)، كما ورد به في حديث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في قصّة إبراهيم عليهما أفضل الصلاة والتسليم.

وذكر بعض المؤرخين أنه ذكر له إنسان في المنام أن لأبي عليّ ـ مع فضائله ـ شعراً حسناً. وأنشده في المنام منها هذا البيت:

الناس في الخير لا يرضون عن أحد   فكيف ظنّك يسمو الشرّ أو ساموا

وقيل: إن السبب في استشهاده في باب (كان) من كتاب الإيضاح ببيت أبي تمام:

من كان مرعى عزمه وهمومه   روض الأماني لم يزل مهزولا

لأنّ عضد الدولة كان يحبّ هذا البيت وينشده كثيراً، وعدّوا له من المصنفات عدّة كتب، وفضله أشهر من أن يذكر، وكانت وفاته ببغداد، وقبره في الشونيزية[١].

* وفيها توفّيت أمة[٢] الواحد ابنة القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي، حفظت القرآن والفقه والنحو والفرائض، وغيرها من العلوم، وبرعت في مذهب الإمام الشافعي، وكانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة.

* وفيها توفّي ابن لؤلؤ الورّاق أبو الحسن علي بن محمد الثقفي البغدادي الشيعي، وكان ثقة يحدّث بالآخرة.

* وفيها توفي أبو الحسن الأنطاكي علي بن محمد المقرىء الفقيه الشافعي. دخل الأندلس، ونشر بها العلم، وقال ابن الفرضي: أدخل الأندلس علماً جمّاً، وكان رأساً في القراءات، لم يتقدّمه فيها أحد.

* وفيها توفّي الحافظ الغطريفي محمد بن أحمد بن الحسين بن القاسم بن السري بن الغطريف الجرجاني الرباطي.

سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة

* فيها توفّي الشيخ الكبير، شيخ الصوفية، وصاحب كتاب (اللمع في التصوف)، أبو

---

(١) الشونيزية: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي، دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين. (معجم البلدان).

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ١٣٤: أمة الواحد ستيتة، وقيل: آمنة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين المحاملي.

نصر السرّاج عبد الله بن علي الطوسي.

* وفيها توفّي الحافظ صاحب التصانيف، وأحد أئمة الحديث، أبو أحمد الحاكم محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النيسابوري. روى عن ابن خزيمة، وعبد الله بن زيدان محمد بن الفيض الغسّاني وغيرهم، وأكثر الترحال، وكتب ما شاء الله. قال الحاكم ابن البيع: أبو أحمد الحافظ إمام عصره، صنّف على الصحيحين، وعلى جامع الترمذي، وألف (كتاب الكنى)، و (كتاب العلل)، و (كتاب الشروط)، و (المخرج على المزني)، وولي قضاء الشاش[١]، ثم قضاء طوس، ثم قدم نيسابور، ولزم مسجده، وأقبل على العبادة والتصنيف، وكفّ بصره قبل موته بسنتين ـ رحمة الله عليه ـ.

سنة تسع وسبعين وثلاثمائة

* فيها وفي التي تليها اشتدّ البلاء، وعظم الخطب ببغداد بأمر العبّادين[٢]، صاروا حزبين، ووقعت بينهم حروب، واتّصل القتال بين أهل الكرخ وباب البصرة، وقتل طائفة، ونهبت أموال الناس، وتواترت الفتن وأحرق بعضهم دروب بعض.

* وفيها توفّي شرف الدولة سلطان بغداد ابن السلطان عضد الدولة الديلميّ، وكان فيه خير وقلّة ظلم، وكان موته بالاستسقاء، ولي بعده أخوه أبو نصر.

* وفيها توفّي الإمام العالم المتكلّم أحد أئمة الأشعرية الكبار في وقته، وعنه أخذ أبو علي بن شاذان: محمد بن أحمد أبو جعفر الجوهري البغدادي النقّاش.

* وفيها توفّي أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي، شيخ العربية بالأندلس، وصاحب التصانيف. وأدّب المؤيد بالله ولد المستنصر، كان واحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، إلى علم السير والأخبار، ولم يكن مثله في وقته. وله كتب تدلّ على وفور علمه، منها مختصر (كتاب العين)، و (كتاب طبقات النحويين واللغويين) في المشرق والأندلس، من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمنه، وعدّة كتب أخرى، وتولى قضاء أشبيلية، وكان كثيراً ما ينشد:

الفقـــر فـــي أوطـــاننـــا غـــربـــة والمـــال فـــي الغـــربـــة أوطـــان
والأرض شـــيء كلّهـــا واحـــد والنـــاس إخـــوان وجيـــران

---

(١) الشاش: قرية بالري، وهناك أخرى بهذه التسمية وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. (معجم البلدان).

(٢) أنظر الكامل لابن الأثير: ٧/ ١٣٩.

والزُبَيْدي ـ بضم الزاي وفتح الموحّدة وسكون المثنّاة من تحت وبعدها دال مهملة ـ نسبة إلى زُبَيْد، واسمه منبّه بن صعب بن سعد العشيرة بن مَذْحِج ـ بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وبعدها جيم ـ وهو في الأصل اسم أكمة حمراء باليمن، ولد عليها مالك بن ردّ، فسمي باسمها، ثم كثر ذلك في تسمية العرب، حتى صاروا يسمّون بها، ويجلّونه علماً على المسمّى، وقطعوا النظر عن تلك الأكمة. وزُبيد قبيلة كبيرة باليمن وكذا مَذْحِج.

سنة ثمانين وثلاثمائة

* فيها توفّي الحافظ المحدّث الأندلسي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأموي مولاهم القرطبي. سمع وصنّف، ومن مصنّفاته (فقه الحسن البصري) في سبع مجلّدات، و (فقه الزهري) في أجزاء عديدة.

* وفيها توفّي الوزير أبو الفرج[١]، وزير صاحب مصر العزيز بالله، وكان يهودياً بغدادياً، عجباً في الدهاء والفطنة والمكر، يتوكّل للتجارة بالرملة، فانكسر وهرب إلى مصر، فأسلم بها، واتّصل بالأستاذ كافور، ثم دخل المغرب، وأنفق عند المعزّ، وتقدّم ولم يزل في الارتقاء إلى أن مات. وكان عظيم الهيبة، وافر الحشمة، عالي الهمّة، وكان معلومه على مخدومه في السنة مائة ألف دينار، وقيل إنه خلّف أربعة آلاف مملوك، ويقال أنه حسن إسلامه.

سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

* فيها أمر الخليفة الطائع بحبس الحسين بن المعلّم ـ وكان من خواصّ بهاء الدولة ـ فعظم عليه ذلك، ثم دخل على الطائع وفيه هيبة، دخلوا للخدمة، فلما قرب منه قبّل الأرض، وجلس على الكرسي، وتقدّم أصحابه فجذبوا[٢] الطائع بحمائل سيفه من السرير، ولفّوه في كساء حتّى أتوا به دار السلطنة، واختبطت بغداد، وظنّ الأجناد أنّ القبض على بهاء الدولة من جهة الطائع، فوقعوا من النهب. ثم إن بهاء الدولة أمر بالنداء بخلافة القادر بالله، فأكره الطائع على خلع نفسه، وعمل بذلك سجلّ، ونفد إلى القادر وهو بالبطايح[٣]،

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٤٦: أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وزير العزيز صاحب مصر، وكانت وفاته في ذي الحجة، ولما مات خلّف شيئاً كثيراً، وقيل: إنه كفّن بما قيمته عشرة آلاف دينار، ورثاه مائة شاعر.

(٢) أنظر الكامل لابن الأثير: ٧/١٤٧، ١٤٨.

(٣) البطايح ـ ومفردها البطيحة: أرض واسعة بين واسط والبصرة. (معجم البلدان).

وأخذوا جميع ما في دار الخلافة، حتّى الرخام والأبواب، واستباحت الرعاع قلع الشبابيك، وأقبل القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله، وله يومئذ أربع وأربعون سنة، وكان كثير التهجّد والخير والبرّ، صاحب سنّة وجماعة.

* وفيها توفّي العبد الصالح المقرىء مصنّف (كتاب الغاية) والشامل في القراءات: الأستاذ أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني ثم النيسابوري. قال الحاكم: كان إمام عصره في القراءات، وأعبد من رأينا من القرّاء، وكان مجاب الدعوة.

* وفيها توفّي القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي، كان من موالي المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهدي صاحب الإفريقية. جهّزه في جيش كثيف ليفتتح ما استعصى من بلاد المغرب، فسار إلى فاس، ثم إلى سجلماسة، ثم توجّه إلى البحر المحيط فاتحاً للبلاد، وصاد من سمك البحر، وجعله في قلال الماء، وأرسله إلى المعزّ، ثم رجع ومعه صاحب فاس[١] أسير في قفص حديد. وقد مهّد البلاد، وحكم على أهل الزيغ والعناد من إفريقية إلى البحر المحيط من جهة المغرب، وفي جهة المغرب من إفريقية إلى أعمال مصر، ولم يبق بلد من هذه البلاد إلا أقيمت فيه دعوته، وخطب له في جميعه جمعية وجماعية إلا مدينة سبتة[٢]، فإنّها بقيت لبني أميّة أصحاب الأندلس.

ولما وصل الخبر إلى المعزّ بموت كافور الإخشيذي صاحب مصر، بعث المعزّ القائد جوهراً المذكور إلى جهة المغرب لإصلاح أموره، وجميع قبائل العرب، وجنى القطائع التي كانت على البربر، وكانت خمسمائة ألف دينار، وخرج المعزّ بنفسه إلى المهديّة، فأخرج من قصور آبائه خمسمائة حمل دنانير، وعاد إلى قصره، وعاد جوهر بالرجال والأموال، فجهّزه إلى الديار المصرية ليأخذها، وسيّر معه العساكر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فتسلّم مصر، وصعد المنبر خطيباً، ودعا لمولاه المعزّ ووصلت البشائر إلى المعزّ بأخذ البلاد، وأقام بها حتّى وصل إليه المعزّ وهو نافذ الأمر واستمرّ على علوّ منزلته وارتفاع درجته متولّياً للأمور إلى سابع عشر المحرّم سنة أربع وستين، فعزله المعزّ، وكان محسناً إلى الناس. ولما توفّي لم يبق شاعر إلاّ رثاه.

وكان سبب انفاذ مولاه المعزّ إلى مصر أنّ كافوراً الإخشيذي ـ كما تقدّم ـ بسكون

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٦/٣٥٤: ثم ركب جوهر في العساكر فدخل فاساً فاستخفى صاحبها ـ أحمد بن بكر ـ وأخذ بعد يومين، وجعل مع صاحب سجلماسة، فحملهما في قفصين إلى المعزّ بالمهدية.

(٢) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على البحر تقابل جزيرة الأندلس. (الكامل لابن الأثير ٦٦/٧).

الخاء وكسر الشين والذال المعجمات وسكون المثناة من تحت بين الشين والذال، الخادم المشهور، لما توفي دعا لأحمد بن علي الإخشيذي على المنابر بمصر وأعمالها، والبلدان الشاميات والحرمين، وبعده الحسن بن عبد الله، فاضطرب الجند لقلّة الأموال وعدم الانفاق فيهم وكان تدبير الأموال إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات فكتب جماعة من وجوههم إلى المعزّ بإفريقية ويطلبون إنفاذ العساكر ليسلّموا له مصر، فأمر القائد جوهر المذكور بالتجهيز إلى الديار المصريّة، وجهّز له ما يحتاج إليه من المال والسلاح والرجال، فبرز بالعساكر ـ ومعه أكثر من مائة ألف فارس وأكثر من ألف ومائتي صندوق من المال، وخرج المعزّ لوداعه ثم قال لأولاده: انزلوا لوداعه، فنزلوا عن خيولهم، ونزل أهل الدولة لنزولهم، والمعزّ متكىء على فرسه، وجوهر واقف بين يديه، ثم قبّل جوهر يد المعزّ وحافر فرسه، فقال له: اركب، فركب وسار بالعساكر.

ولما رجع المعزّ إلى قصره، أنفذ إلى جوهر ملبوسه وكلّ ما كان عليه سوى خاتمه وسراويله وكتب المعزّ إلى عبده أفلح صاحب بُرقة أن يرتحل للقائد جوهر، ويقبّل يده عند لقائه، فبذل أفلح مائة ألف دينار على أن يعفي من ذلك، فلم يعفَ، وفعل ما أمر به عند لقائه، ووصل الخبر إلى مصر بوصوله مع العساكر، فاضطرب أهلها، واتّفقوا مع الوزير ابن الفرات على المراسلة في الصلح وطلب الأمان، وأرسلوا بذلك أبا جعفر مسلم بن عبيد الله الحسني، بعد أن التمسوا منه أن يكون سفيرهم، فأجابهم، وشرط أن يكون معه جماعة من أهل البلد. وكتب الوزير معهم كتاباً بما يريد، فتوجّهوا نحو القائد جوهر، وكان قد نزل في قرية بالقرب من الإسكندرية، فوصل إليه الشريف بمن معه، وأدّى إليه الرسالة، فأجابه إلى ما التمسوه، وكتب له جوهر عهداً بما طلبوه، فاضطرب البلد اضطراباً شديداً، وأخذت الإخشيذية والكافوريّة وجماعة العسكر الأهبة للقتال، ورجعوا عن الصلح فبلغ ذلك جوهراً، فرحل إليهم، فتهيأ للقتال، وساروا بالعساكر نحو الجيزة، ونزلوا بها، وحفظوا الجسر. ووصل القائد جوهر، وابتدأ بالقتال، وأسرت رجال، وأُخذت خيل، ومضى جوهر إلى (ميتة الصيّادين[1]) وأخذ المخاضة يمنة سلفان[2]، واستأمن إلى جوهر جماعة من العسكر في مراكب، وجعل أهل مصر على المخاضة من يحفظها، فلما رأى ذلك جوهر قال لجعفر بن فلاح، لهذا اليوم أرادك المعزّ، فعبر عرياناً في سراويل ـ وهو في مركب ـ ومعه الرجال خوضاً، حتى خرجوا إليهم، ووقع القتال، فقتل خلق كثير من الإخشيذية وأتباعهم، وانهزموا في الليل، ودخلوا مصر، وأخذوا من دورهم ما قدروا عليه. وخرجت حرمهم

---

(١) ميتة الصيّادين: لم تذكر في معجم البلدان، ولم تذكر أيضاً فيه: منية الصيّادين.

(٢) سلفان: لم أجدها في معجم البلدان.

ماشيات ودَخلْنَ على الشريف أبي جعفر في مكاتبة القائد بإعادة الأمان. فكتب إليه يهنئه بالفتح، ويسأله إعادة الأمان، فعاد الجواب بأمانهم، ثم ورد رسوله إلى جعفر بأن يجتمع به مع جماعة من الأشراف والعلماء ووجوه البلد، فاجتمعوا به في الجيزة، ونادى منادٍ: ينزل الناس كلهم، إلا الوزير والشريف. فنزلوا وسلّموا عليه واحداً بعد واحد، والوزير عن شماله، والشريف عن يمينه، ولمّا فرغوا من السلام ابتدؤوا بدخول البلد، فدخلوا وقت زوال الشمس، وعليهم السلام والعدد، ودخل جوهر بعد العصر، وخيوله وجنوده بين يديه، وعليه ثوب ديباج، وتحته فرس أصفر، ونزل في موضع القاهرة اليوم، واختطّ موضع القاهرة، ولما أصبح المصريون حضروا عند القائد للتهنئة، فوجدوه قد حفر أساس القصر في الليل، وكان فيه دورات جاءت غير معتدلة لم تعجبه، ثم قال: حفرت في ساعة سعيدة لا أغيّرها. وأقام عسكره يدخل البلد سبعة أيام، وبادر جوهر بالكتاب إلى مولاه يبشّره بالفتح، وأنفذ إليه رؤوس القتلى في الوقعة، وقطع خطبة بني العباس عن منابر الديار المصريّة، وكذلك أسمهم على السكة، وجعل ذلك كلّه باسم مولاه المعزّ، وزال الشعار الأسود، وألبس الخطباء الثياب البيض. وفي يوم الجمعة أمر جوهر بزيادةٍ عقب الخطبة: اللهم صلّ على محمد المصطفى، وعلى عليّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطَيْ الرسول اللذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً، اللهم صلّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين. وعاد في الجمعة الأخرى وأذن بحي على خير العمل. ودعا الخطيب على المنبر للقائد جوهر، فأنكر جوهر عليه وقال: ليس هذا رسم موالينا. وشرع في عمارة الجامع بالقاهرة.

قال ابن خلكان: وأظنّ هذا الجامع هو المعروف بجامع الأزهر، فإنّ الجامع الآخر بالقاهرة مشهور بجامع الحاكم. وأقام جوهر مستقلاً بتدبير مملكة مصر قبل وصول مولاه المعزّ إليها أربع سنين وعشرين يوماً. ولمّا وصل المعزّ إلى القاهرة خرج جوهر من القصر إلى القائد، ولم يخرج معه شيء إليه سوى ما كان عليه من الثياب، ثم لم يعدْ إليه، ونزل في داره بالقاهرة، وسيأتي أيضاً طرف من خبره وخبر سيّده المعزّ في ترجمته ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وكان ولده الحسين قائد القوّاد للحاكم صاحب مصر، وكان قد خاف على نفسه من الحاكم وولده وصهره القاضي عبد العزيز زوج أخته، فأرسل الحاكم من بَرّهم وطيّب قلوبهم، وآنسهم مدّة مديدة، ثم حضروا للخدمة، فتقدّم الحاكم إلى سيف النقمة وأشد، فاستصحب عشرة من الغلمان الأتراك، وقتلوا الحسين وصهره القاضي، وأحضروا رأسيهما بين يدَيّ الحاكم (في القيامة يكون التحاكم).

* وفيها توفّي سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان الثعلبي صاحب حلب، وولي بعده ابنه سعد، فلما مات ابنه سعد انقرض ملك سيف الدولة من جهة ذرّيته.

* وفيها توفي الحافظ أبو بكر ابن المقرىء محمد بن إبراهيم الأصفهاني صاحب الرحلة الواسعة، وقاضي الجماعة أبو بكر القرطبي المالكي صاحب التصانيف، وأحفظ أهل زمانه لمذهبه.

سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة

* فيها منع أبو الحسن بن المعلّم الكوكبي الرافضة من عمل المآتم يوم عاشوراء الذي كان يعمل من نحو ثلاثين سنة، وأسقط طائفة من كبار الشهود الذين ولّوا بالشفاعات، وقد كان استولى على أمور السلطان بهاء الدولة كلّها.

* وفيها شغبت الجند، وعسكروا، وبعثوا يطلبون من بهاء الدولة أن يسلّم إليهم ابن المعلّم، وصمّموا على ذلك إلى أن قال له رسولهم: أيها الملك، اختر بقاءه أو بقاءك، فقبض حينئذ عليه وعلى أصحابه، ما زالوا به حتّى قتلوه رحمة الله عليه.

* وفيها توفّي أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، أحد الأئمة في الأدب والحفظ، وهو صاحب أخبار ونوادر واتّساع في الرواية، وله التصانيف المفيدة. وكان الصاحب بن عبّاد يريد الاجتماع به، ولا يجد إليه سبيلاً، فقال لمخدومه مريد الدولة: إنّ البلد الفلاني قد اختلّ حاله، وأحتاج إلى كشف، فأذن لي في ذلك، فأذن، فلما أن وصل توقّع أن يزوره أبو أحمد المذكور، فلم يزره، فكتب الصاحب إليه:

ولمـا أبيتـم أن تـزوروا وقلتـم ... ضعيفٌ فلم نقدر على الوجدانِ
أتينـاكـم مـن بعـد أرض نـزوركـم ... منـزل بكـر عنـدنـا وعـوانِ

وكتب مع ذلك شيئاً من نثر بحال أبي أحمد. والبيت المشهور:

أهـمّ بـأمـر الحـزم لـو أستطيعـه ... وقـد حيـل بيـن العيـر والنـزوان

فعجب الصاحب من اتفاق هذا البيت له، وذكر أنّه لو عرف أنه يقع له هذا البيت لغيّر الرويّ. والبيت المذكور لأخي الخنساء صخر بن عمرو بن الشريد مع أبيات أخرى، وكان قد حضر محاربة بني أسد، فطعنه ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، وبقي مدّة حولٍ في أشدّ ما يكون من المرض، وأمّه وزوجته سلمى تمرّضانه، فضجرت زوجته منه، فمرّت بها امرأة، فسألتها عن حاله فقالت: لا هو حي فيُرجى، ولا

هو ميت فيُنسى. فسمعها صخر فأنشد:

أرى أمّ صخـر لا تمـلّ عيـادتـي　　وملّت سليمى مضجعي ومكـانـي
وما كنت أخشى أن أكون جنازة　　عليـك، ومَـنْ يغتـرّ بـالحـدثـانِ
لعمري لقد نبّهت من كان نائماً　　وأسمعـت مـن كـانـت لـه أذنـان
وأي امـرىء سـاوى بـأم جليلـة　　فـلا عـاش إلا فـي شقـى وهـوانِ
أهـمُّ بـأمـر الحـزم لـو أستطيعـه　　وقـد حيـل بيـن العيـر والنـزوان
فَلْلمـوتُ خيـر مـن حيـاة كـأنّهـا　　مِعَـرَّسُ يعسـوبٍ بـرأس سنـان

سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفّي أبو محمد بن(١) حزم(٢) بن الفرضي: كان جليلاً زاهداً شجاعاً مجاهداً، ولاّه المستنصر القضاء فاستعفاه، وكان فقيهاً صلباً ورعاً، وكان يشبّهونه بسفيان الثوري في زمانه.

* وفيها توفّي الزاهد الواعظ شيخ الكرامية، ورأسهم بنيسابور إسحاق بن حمشاد. قال الحاكم: كان من العبّاد المجتهدين، يقال أسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف، قال: ولم أرَ بنيسابور جنازة أكثر جمعاً من جنازته.

* وفيها توفّي محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور ابن أخت محمد بن جرير الطبريّ العلاّمة المشكور، كان إماماً في اللغة والأنساب والأشعار. من الشعراء المجيدين الكبار.

يحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عبّاد، فلما وصل بابه قال لبعض حجّابه: قل للصاحب: على الباب أحد أرباب الأدب، وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب فأعلمه بما قد تكلّمه، فقال الصاحب: قل له: قد ألزمت نفسي ألاّ يدخل عليّ من أولي الأدب إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب، فأعلمه بما قال، فقال: ارجع إليه وقل له: من شعر النساء أم من شعر الرجال؟ فدخل الحاجب، وأعاد عليه ذلك القول، فأذن الصاحب له حينئذٍ في الدخول، فدخل عليه، فعرفه، وانبسط في الكلام معه. وله ما حوى من الفضائل ديوان شعر وديوان رسائل. من نظمه المشتمل على المعاني

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٦٣/٧: أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم القلعي، من أهل قلعة أيوب ـ وهي مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس.

(٢) العبارة غير كاملة ـ وهي في الكامل لابن الأثير: ١٦٣/٧: قال ـ عنه ـ ابن الفرضي: كان جليلاً زاهداً شجاعاً...

الحسان هذان البيتان:

رأيتك إن أيسرت خيّمت عندنا مقيماً، وأن أعسرت زرتَ لماما
فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه أغبّ، وإن زاد الضياء أقاما

وله ملح شهيرة ونوادر كثيرة، وكان قد فارق الصاحب بن عبّاد غير راضٍ عنه، فقال في الإنشاد:

لا تحمدنّ ابن عبّاد وإن هطلت يداه بالجود حتّى أخجل الدّيما
فإنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

فبلغ ذلك ابن عبّاد، فلما بلغه خبر موته أنشد:

أقول لركب من خراسان[١] قافلٍ أمات خُوَيْرِزْمِيّكُم؟ قيل لي: نعم
فقلنا اكتبوا بالجصّ من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم

سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

* فيها اشتدّ البلاء بالعباد ببغداد، وقووا على الدولة ـ وعلى رأسهم عزيزا[٢] ـ، التفت عليهم خلق عظيم، فنهض السلطان وتفرّغ لهم فهربوا. ولم يحجّ أحد الركب المصري[٣].

* وفيها توفي الحافظ أبو الفضل[٤] الهمداني السمسار الذي لما أملى الحديث باع طاحوناً له بسبع مائة دينار، ونثرها على المحدّثين، قيل: كان ركناً من أركان الحديث، ديّناً ورعاً، لا يخاف في الله لومة لائم، وله عدّة مصنّفات. والدعاء عند قبره مستجاب.

* وفيها توفّي محمد بن عمران المرزباني البغدادي المولد وصاحب التصانيف المشهورة، والمجاميع الغريبة. كان راوية للأدب، صاحب أخبار، وتواليفه كثيرة، وكان ثقة في الحديث مائلاً إلى التشيّع في المذهب، حدّث عن عبد الله بن محمد البغوي وأبي بكر بن داود السجستاني وآخرين. وهو أول من جمع ديوان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهو صغير الحجم يدخل في مقدار ثلاث كراريس، وجمعه جماعة من بعده، وزادوا فيه أشياء

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٦٣: أقوال لراكب من خوارزم قافل...

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٦٨: فيها عظم الخطب بأمر العيارين، عاثوا ببغداد فساداً... وكان رأسهم عزيز البانصري.

(٣) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٦٥: ولم يحجّ من العراق والشام أحد... وإنما حجّ أهل مصر والمغرب خاصة.

(٤) في الكامل لابن الأثير: ٧/١٦٨: صبح بن أحمد أبو الفضل التميمي الأحنفي الهمذاني السمسار محدّث همذان ـ ولد سنة ثلاث وثلاثمائة، وكان لما أملى الحديث باع طاحوناً...

ليست له. وشعره مع قلّته في نهاية من الحسن، ومن محاسن شعره الأبيات التي منها قوله:

إذا رمت من ليلى على البعد نظرة لتطفي جوي بين الحشا والأضلع
تقول نساء الحي تطمح أن ترى محاسن ليلى مُتْ بداء المطامع
وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهّرتها بالمدامع
وتلتذّ منها بالحديث وقد جرى حديث سواها في خُزوق المسامع
أُجلّك يا ليلى عن العين إنما أراك بقلبٍ خاشع لك خاضع

حزوق بالقاف هو المشهور عند الجمهور ورواه بعضهم بالتاء المثناة من فوق. رجعنا إلى ذكر المرزباني. روى عن دريد وابن الأنباري، وروى عنه أبو عبد الله الضميري وأبو القاسم التنوخي وأبو محمد الجوهري وغيرهم، والمرزباني لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّم المعظّم القدر، وتفسيره بالعربية حافظ الحدّ.

* وفيها توفّي المحسن بن علي بن محمد التنوخي الذي يقول فيه أبو عبد الله الشاعر:

إذا ذكر القضاة وهم شيوخ تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرض لم اسقمه إلا بحسرة سيدي القاضي التنوخي

وله (كتاب الفرج بعد الشدّة)، و (كتاب نشوار المحاضرة)، (كتاب المستجاد من فعالات الأجواد)، وديوان شعر أكبر من ديوان أبيه، وسمع بالبصرة من أبي العباس الأثرم وأبي بكر الصُّولي. والحسين بن محمد بن يحيى وطبقتهم. ونزل بغداد وأقام بها، وحدّث بها إلى حين وفاته، وكان أديباً شاعراً أخبارياً، ولاّه الإمام المطيع لله القضاء بعسكر المُكْرَم(١) ورامهرمز(٢) وتقلّد أعمالاً كثيرة في نواحي مختلفة. ومن شعره في بعض المشايخ، وقد خرج يستقسي وكان في السماء سحاب فلما دعا أصحت السماء، فقال التنوخي المذكور:

خرجنا لنستسقي بفضل دعائه وقد كاد هدب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشّفت السما فما تمّ إلا والغمام قد انقضى(٣)

ومن الشعر المنسوب إليه:

قل للمليحة في الخمار المذهّب أفسدتِ نسك أخي التّقى المترهّبِ

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٦٧/٧: ثم ولاّه المطيع لله القضاء بعسكر مكرم ورامهومز.
(٢) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان. (معجم البلدان).
عسكر مكرم: بلد مشهور من نواحي خوزستان (معجم البلدان).
(٣) في الكامل لابن الأثير: ١٦٧/٧: فلما ابتدا يدعو تقشّعت السما..

نــور الخمــار ونــور خــدّك تحتــه عجبــاً لــوجهــك كيــف لــم يتلهّــبِ
وجمعــت بيــن المــذهبيــن فلــم يكــن للحســن عــن ذهبيهمــا مــن مــذهــب
وإذا أتيــت عينــي لتســرق نظــرةً قــال الشعــاع لهــا اذهبــي، لا تــذهبــي

قال ابن خلّكان: وقد أذكرتني هذه الأبيات في الخمار المذهّب حكاية وقفت عليها منذ زمان بالموصل، وهي أنّ بعض التجّار قدم مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ومعه حمل من الخُمرُ السود فلم يجد لها طالباً، فكسدت عليه، وضاق صدره، فقيل له: ما ينفقها لك إلا المسكين الدارمي، وهو من مجيدي الشعراء الموصوفين بالطواف والخلاعة، فقصده، فوجده قد تزهّد وانقطع في المسجد، فأتاه، وقصّ عليه القصّة فقال: وكيف أعمل، وأنا قد تركت الشعر، وعكفت على هذه الحالة؟ فقال له التاجر: أنا رجل غريب، وليس معي بضاعة سوى هذا الحمل، وتضرّع إليه، فخرج من المسجد، وأعاد لباسه الأول، وعمل هذين البيتين، وشهرهما:

قـل للمليحـة فـي الخمـار الأسـود مــاذا أردت بنــاســكٍ متعبّــد
قــد كــان شمّــر للصــلاة إزاره حتّـى قعـدتِ لـه ببـاب المسجـد

وشاع بين الناس أنّ المسكين الدارميّ قد رجع إلى ما كان عليه، وأحبّ واحدة ذات خماراً أسود، فلم يبق بالمدينة ظريفة إلا وطيب خمار أسود، فباع التاجر الحمل الذي كان معه بأضعاف ثمنه لكثرة رغباتهن فيه، فلمّا فرغ منه عاد مسكين إلى تعبّده وانقطاعه.

وللتنوخي المذكور ولد كان أديباً فاضلاً، وكان يصحب أبا العلاء المعرّي، وأخذ عنه كثيراً، وكان يروي الشعر الكثير، وهم أهل بيت كلّهم فضلاء أدباء ظرفاء. (والمُحَسِّن) بضم الميم وفتح الحاء المهملة وكسر السين المهملة المشددة وبعدها نون.

* وفيها توفّي الرماني شيخ العربية أبو الحسن علي بن عيسى النحوي ببغداد. وله قريب من مائة مصنّف، أخذ عن ابن دريد وابن السرّاج، وكان متفنّناً في علوم كثيرة من القرآن والفقه والنحو والكلام على مذهب المعتزلة والتفسير واللغة.

* وفيها توفي الحافظ أبو الحسن محمد بن العباس بن أحمد بن الفرات البغدادي. سمع من أبي عبد الله المحاملي وطبقته، وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته. قال الخطيب: بلغني أنه كان عنده عن علي بن محمد المصري وحده مائة جزء وإنة كتب مائة تفسير ومائة تاريخ وهو حجّة ثقة.

* وفيها توفّي الإمام أبو الحسين الماسرجسي، شيخ الشافعية بخراسان محمد بن علي النيسابوري. قال الحاكم: كان أعرف الأصحاب بالمذهب وترتيبه، وتفقّه بخراسان والعراق

والحجاز، وصحب الإمام أبا إسحاق المروزي مدّة، وتفقّه عليه، وصار ببغداد معيد أبي علي بن أبي هريرة، وهو صاحب وجه في المذهب، وعليه تفقّه القاضي أبو الطيب الطبري، وسمع من أصحاب المزني ويونس بن عبد الأعلى والمؤمل بن الحسن، وعقد له مجلس الإملاء في دار السنّة.

سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفي الصاحب المعروف بابن عبّاد، وهو أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عبّاد بن أحمد بن إدريس الطالقاني. كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه. أخذ الأدب من أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي، صاحب كتاب المجمل في اللغة. وأخذ عن أبي الفضل بن العميد وغيرهما. وقال أبو منصور الثعلبي في كتابه اليتيمة في حقّه: ليست بحضرتي عبارة أرضاها للإفصاح عن علوّ محلّه في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرده بالغايات في المحاسن، وجمعه أشتات المفاخر، لأنّ همه قوتي ينخفض عن بلوغ أدنى فواضله ومعاليه، وجهدُ وصفي يقصر عن أيسر فضائله ومساعيه. ثم شرع في شرح بعض محاسنه وطرف من أحواله. وقال أبو بكر الخوارزمي في حقّه: الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودبّ ودرج من وَكرِها، ورضع أفاويق درّها، وورثها عن آبائه، كما قال أبو سعيد الرستمي في حقّه:

ورث الوزارة كابراً عن كابر   موصولة الأسناد بالأسناد

وروى عن العباد بن عبّاد[1]:

وقال بعضهم رأيت في أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان في حياته غير الصاحب، فإنه لما توفي أغلقت مدينة الريّ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة، وسائر القوّاد، وقد غيّروا لباسهم.

قلت إنه لم يسعد واحد بعد موته كما كان في حياته غيره من أرباب ولايات الدنيا، وما يفتخرون به من المناصب التي هي إن لم يسلّم الله تعالى ما طيب، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، فقيل له: صاحب بن العميد، ثم أطلق عليه هذا اللّقب لما تولّى الوزارة، وبقي علماً عليه.

وذكر الصابي في (كتاب الناجي) أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة منذ الصبا، وسمّاه الصاحب فاستمر هذا اللقب عليه، واشتهر به، ثم سمّي به كلّ من تولّى

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ١٧١:
يروي عن العباس عباد وزا. . . رته وإسماعيل عن عبّاد.

الوزارة بعده. وكان أولاً وزير مؤيد الدولة أبي منصور (بُوَيه) بضم الموحدة وفتح الواو وسكون المثناة من تحت وفي آخره هاء ساكنة ابن ركن الدولة الديلمي، تولى وزارته بعد أبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد، فلما توفّي مؤيد الدولة في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، استولى على مملكته أخوه فخر الدولة أبو الحسن، فأقرّ الصاحب على وزارته، وكان مبجّلاً عنده معظماً نافذ الأمر، وكان حسن الفطنة. كتب بعضهم إليه رقعة أغار فيها على رسائله، وسرق جملة من ألفاظه، فوقّع تحتها هذه: (بضاعتنا رُدَّتْ إلينا).

وحبس بعض عياله في مكان ضيّق بجواره، ثم صعد السطح يوماً، فأطلع عليه، فرآه، فناداه المحبوس بأعلى صوته، فاطلع فرآه في سواء الجحيم، فقال الصاحب: اخسؤوا فيها ولا تكلّمون (قلت): معنى أنك خاطبتنا بخطاب من هو معذّب فأجبناك بالجواب الذي يجاب به أهل النار.

وله نوادر وتصانيف كثيرة، منها كتاب (المحيط) في اللغة، وهو سبع مجلّدات، و (كتاب الكشف) عن مساوىء شعر المتنبي و (كتاب أسماء الله تعالى)، وصفاته، وكتب أخرى، وله رسائل بديعة ونظم جيد من جملته قوله:

رَقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
وكأنما خمرٌ ولا قدحٌ وكأنّما قدحٌ ولا خمرُ

قلت وهذان البيتان يُتمثل بهما في الأمور المحتملة المتشابهة، وممن يتمثّل بهما شيخ عصره وإمام دهره شهاب الدين السهروردي قدّس الله روحه.

وحكى أبو الحسين الفارسي النحوي أن نوح بن منصور أحد ملوك بني ساسان كتب إليه ورقة يستدعيه ليفوّض إليه وزارته وتدبير أهل مملكته، فكان من جملة اعتذاره إليه أنه يحتاج لنقل كتبه إلى أربعمائة جملٍ في الظل لمن يبقى بها من التحمّل.

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: حكى لي من أثق به أنّ الصاحب بن عباد كان إذا انتهى إلى ذكر الباقلاّني وابن فورك والأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني وكانوا متناصرين من أصحاب الشيخ أبي الحسن الأشعري قال: الباقلاّني بحر مغرق، وابن فورك جبل مطرق، والأسفراييني نار محرق.

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: وكأنّ روح القدس نفث في روعه، حيث أخبر عن هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم. انتهى.

وأخبار الصاحب بن عباد كثيرة، وفضائله بين أهل هذا الفنّ شهيرة، اقتصرت منها

على هذه النبذة اليسيرة. وكانت وفاته ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر من السنة المذكورة بالريّ، ثم نقل إلى أصبهان، ودفن بمحلّة تعرف بباب درية، ولما خرج نعشه صاح الناس بأجمعهم وقبل الأرض ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس، وقعدوا للعزاء أياماً.

وقال أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني: رأيت في المنام قائلاً يقول: لِمَ لمْ ترِث الصاحب ـ مع فضلك وشعرك ـ فقلت: ألجمتني كثرة محاسنه، فلم أدرِ بما أبدأ منها، وخفت أن أقصّر، وقد ظن في الاستيفاء لها. فقال: احفظ واسمع ما أقوله. فقلت: قل.

قال: ثوى الجود والكافي معاً تحت حفرة
فقلت: ليأنس كلّ منهما بأخيه
فقال: هما اصطحبا حيّين ثم تعانقا
فقلت: ضجيعين في لحدٍ بباب درية
فقال: إذا ارتحل الثاوون من مستقرّهم
فقلت: أقاما إلى يوم القيامة فيه

وممّا رثاه الشعراء قول أبي سعيد الرستمي:

أبعدَ ابن عبّاد يهشّ إلى السرى ... أخو أهل ويُستماح جواد
أبى الله إلاّ أن يموتا بموته ... فما لهما حتّى المعادِ معاد

وفي السنة المذكورة توفي الإمام الحافظ المشهور، صاحب التصانيف الدارقطني أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني. قال الحاكم: صار أوحد عصره في الحفظ والفهم والورع، وإماماً في النجاة، صادفته فوق ما وصف لي، وله مصنّفات يطول ذكرها.

وقال الخطيب كان فريد عصره، وقريع دهره، ونسيج وحده. وإمام وقته، انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بمذاهب العلماء والأدب والشعر، قيل إنه يحفظ دواوين جماعة وقال أبو ذر الهروي: قلت للحاكم: هل رأيت مثل الدارقطني؟ فقال: هو لم يرَ مثل نفسه، فكيف أنا؟ وقال البزقاني: كان الدارقطني يملي عليّ العلل من حفظه وقال القاضي أبو الطيب الطبري: الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث وقال غيره: أخذ الفقه عن أبي سعيد الأصطخري الفقيه الشافعي. (قلت) يعني الإمام المشهور صاحب الوجوه في المذهب، قيل بل أخذه عن صاحب لأبي سعيد، وأخذ القراءات عرضاً وسماعاً عن محمد بن الحسن النقّاش، وعلي بن سعيد القزاز، ومحمد بن الحسين الطبري، ومن في طبقتهم وسمع من ابن مجاهد وهو صغير، وروى عنه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء

وجماعة كثيرة. وصنّف (كتاب السنن)، و (المؤتلف والمختلف) وغيرهما، وخرج من بغداد إلى مصر قاصداً أبا الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الأخشيذي، فإنه بلغه أنّ أبا الفضل عازم على تأليف مسند، فمضى إليه ليساعده عليه، وأقام عنده مدّة، وبالغ أبو الفضل في إكرامه، وأنفق عليه نفقة واسعة، وأعطاه شيئاً كثيراً، وحصل له بسببه مال جزيل، ولم يزل عنده حتّى فرغ المسند. وكان يجتمع هو والحافظ عبد الغني على تخريج المسند وكتابته، إلى أن تبحّر. وقال الحافظ عبد الغني المذكور: أحسن كلاماً على حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثة: عليّ بن المديني في وقته، وموسى بن هارون في وقته، والدارقطني في وقته أو كما قال.

وسأل الدارقطني يوماً أحد أصحابه: هل رأى الشيخ مثل نفسه؟ فامتنع من جوابه، وقال: قال الله تعالى ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ [سورة النجم، آية ٣٢] فألحَّ عليه فقال: إن كان في فنّ واحد، فقد رأيت مَنْ هو أفضل منّي، وإن كان من اجتمع فيه ما اجتمع في فلان، كان متفنّناً في علوم كثيرة.

قلت: فهذا ما لخّصته من أقوال العلماء في ترجمته، وكل ذلك مدح في حقّه، إلا سفره إلى مصر من أجل الوزير المذكور، فإنه وإن كان ظاهره كما قالوا لمساعدة له في تخريج المسند المذكور، فلست أرى مثل هذا الإيقاع بأهل العلم، ولا بأهل الدين. ثمّ لمّا كان مثل هذه المساعدة بعض أهل العلم والدين لا يشوبه شيء من أمور الدنيا كان حسناً منه، وفضلاً وحرصاً على نشر العلم، والمساعدة في الخير. وبعيد عن تطاوع النفوس لمثل هذا إلا إذا وفق الله، وذلك نادر أو معدوم، وما على الفاضل المتديّن من أرباب الولايات ألفوا أو لم يألفوا نعم، لو أرسل إليه بعضهم وقال: أروِ عنّي كتابي وكان فيه نفع للمسلمين فلا بأس، فقد روينا عن شيخنا رضي الدّين أربعين حديثاً، تخريج السلطان للملك، فظفر صاحب اليمن، وتوفي الدارقطني رحمه الله، وقد قارب الثمانين، أو كاد يبلغها، وصلّى عليه الشيخ أبو حامد الأسفراييني.

وفي السنة المذكورة (توفّي) الحافظ المفسّر الواعظ صاحب التصانيف: أبو حفص ابن شاهين[١]، عمر بن أحمد البغدادي. قال الحسين[٢] بن المهتدي بالله: قال لنا ابن شاهين صنّف ثلاثمائة وثلاثين مصنّفاً، منها (التفسير الكبير) ألف جزء، و (المسند) ألف وثلاثمائة

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٧٣/٧: في ذي الحجة توفي أبو حفص عمر بن محمد بن أيوب المعروف بابن شاهين الواعظ، مولده في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين.

(٢) وجاء في الصفحة السابقة من المصدر السابق: قال أبو الحسين بن المهتدي بالله: قال لنا ابن شاهين: صنّفت. . .

جزء، و (التاريخ) مائة وخمسون جزءاً. وقال ابن أبي الفوارس: ابن شاهين ثقة مأمون، جمع وصنّف ما لم يصنّفه أحد.

* وفيها توفّي أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة، الأديب الهاشمي العباسي البغدادي، الشاعر المشهور، لا سيما في المزاح والمجون. وكان هو وابن نجاح يشبّهان في وقتهما بجرير والفرزدق، ويقال إن ديوان ابن سكّرة يزيد على خمسين ألف بيت. قال الثعالبي: وهو شاعر متسع العبارة في أنواع الإبداع، فاق في قول الظرف والملح على الفحول والأفراد، جاد في ميدان المجون والسخف ما أراد. قالوا وهو من ولد علي بن المهدي بن أبي جعفر المذكور المنصور الخليفة العباسي ومن بديع تشبيهه ما قاله في غلام رآه وفي يده غصن عليه زهر:

غصن بانٍ بدا وفي اليد منه ... غصن فيه لؤلؤ منظوم
فتحيّرت بين غصنين في ذا ... قمر طالع وفي ذا نجوم

ويقال إن الملحي البغدادي الشاعر كتب إلى ابن سكرة الهاشمي:

يا صديقاً أفادنيه زمان ... فيه ضيق بالأصدقاء ونصح
بين شخصي وشخصك بعد ... غير أنّ الخيال بالوصل سمح[1]
إنما أوجب التباعد منّا ... أنّني سكّر وأنك ملح

فكتب إليه ابن سكرة:

هل يقول الخليل يوماً لخلّ ... شاب منه محض المودّة قدح
بيننا سكّر فلا تفسدنه ... أم يقول بيني وبينك ملح؟[2]

هكذا صوابه. أعني إن الأبيات الأولى لابن سكّرة، والبيتين الأخيرين للملحي، خلاف ما رأيته في بعض التواريخ، حيث عكس ذلك، وهو غير مناسب لمفهوم نظمهما.

ولابن سكّرة أيضاً في الشباب:

لقد بان الشباب وكان غصناً ... له تمر وأوراق تظلّك
وكان البعض منك فمات فاعلمْ ... متى ما مات بعضُك مات كلُّك

وله أيضاً من أبيات له في هجاء بعض الرؤساء:

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٣٠٩/٣/٦.
بين شخصي وبين شخصك بعد...
(٢) وفيه أيضاً: ... أم يقول بيننا ـ ويك ـ ملح؟

ولا تقــل ليــس فــيّ عيــبٌ قــد تُقــذف الحــرّةُ العفيفــه
والشعــر نــار بــلا دخــان وللقــوافــي رؤى لطيفــه[1]
كــم مــن ثقيــل المحــلّ شــامٍ هــوت بــه أحــرف خفيفــه
لــو هُجِــيَ المســك وهــو أهــل لكــلّ مــدح لصــار جيفــه

وله:

قيــل مــا أعــددت للبــر د فقــد جــاء بشــدة
قلــت: دُرّاعــةُ عُــري تحتهــا جُبّــة رِعــدَةْ

وله في الشتاء الكافات[2] المشهورة.

وفي إعراضها قلت مشيراً إلى نصحتين: الأولى لبني الدنيا الراغبين، والثانية لبني الدين الزاهدين:

وهــي كــانــون مصطــلٍ، ففصــل الشتــاء يــا صــاحِ بــالبــردِ مقبــلُ
وأوّلــه فــي الفجــر سبــع لشــوكــه وشمــس تجــدي لــذي شــوى وتــوكّــل
بــأوّل كــانــونيــن خــامــس عشــرة تكــون فــإن كنــت أنصحــت فقــل
فخذ عشر كافات خلت عن خلاعة على الفسق تغري الفاسقين وتحمل
كلِ الكبش واكتس بالكسافي أريكة للحلا زكت والكبش عندك يكمل
ولكــن أولــى النصــح مــا فيــه قلتــه وإن لــم أكــن ممّــن إذا قــال يفعــل
تمسكْن وكن في كنّ كونك ناسكاً وكــل كلمــا يلقــى إليــك التــوكّــل
تــأسَّ بمسكيــن وواسِ بممكــنٍ وفكّــر بمــن فــوق المــزابــل ينــزل
وللنفــس قــل هــل مــن نعيــم ورفعــة كمثــل جنــان هــم بهــا منــك أفضــل
بخمــس مــا بيــن ســابقــون بخيــرهــا لهــم فــي عــلاهــا فــوق رأسك منــزل
وهــذا إذا صــادفــت سعــد عنــايــة وقــرب بهــا بــاقــون مــن تلــك يــدخــل
قصــور وحــورٌ لا تُطــاق صفــاتهــا وكــلّ نعيــم مــا لــه العقــل يعقــل
إلهــي بجــاه المصطفــى.لا حَــرّمتنــا نعيمــاً بهــا يــا نعــم مــولــى مــؤمّــل
وصــلّ علــى تــاج العلــى سيّــد الــورى رســول كــريــم لا يســاويــه مــرســل

وفي السنة المذكورة توفي الفقيه العلّامة الزاهد الورع الخاشع البكّاء المتواضع، أبو بكر الأودني، شيخ الشافعية ببُخارى. ومن غرائب وجوهه في المذهب أن الربا حرام في كل شيء، فلا يجوز بيع شيء بجنسه متفاضلاً.

وفيها توفي أبو محمد يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي النحوي

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٣/٣٠٩: ... وللقوافي رقىً لطيفه.
(٢) أنظر بيت الشعر الذي احتوى سبع كلمات تبدأ بحرف الكاف، في الوافي بالوفيات ٦/٣/٣١٠.

اللغوي الإخباري الفاضل ابن الفاضل، قد تقدّم ذكر أبيه في سنة ثمان وستين مع ذكر شيء من فضائله، وهو السيرافي المشهور بين النُّحاة، وهذا ابنه كان عالماً بالنحو، وتصدر في مجلس أبيه بعد موته، وخلفه على ما كان عليه، وأكمل كتاب أبيه الذي سمّاه (الإقناع)، وهو كتاب جليل نافع في بابه. فإنّ أباه كان قد شرح كتاب سيبويه، وظهر له بالإطلاع والبحث في حال التصنيف ما لم يظهر لغيره من المعاني، ثم صنّف (الإقناع) وكأنه ثمرة استفادته حال البحث والتصنيف، ومات قبل إكماله فكمّله ولده المذكور. وليوسف عدّة كتب، منها: (شرح أبيات كتاب سيبويه) وهو في غاية من الجودة. و (شرح أبيات كتاب إصلاح المنطق)، وأجاد فيه أيضاً، وكذلك (شرح أبيات المجاز) لأبي عبيدة، و (أبيات معاني الزجّاج)، و (أبيات غريب أبي عبيد القاسم بن سلام) وغير ذلك. وكانت كتب اللغة تقرأ عليه مرّة رواية، ومرّة دراية، و (كتاب البارع) للمفضّل بن سلمة في عدّة مجلدات. هذّب (كتاب العين) في اللغة المنسوب إلى الخليل، وأضاف إليه من اللغة طرفاً صالحاً، وعن عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد قال: كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي، وبعض أصحابه يقرأ عليه إصلاح المنطق لابن السكّيت فمر ببيت جميل:

ومطـويـة الأتـراب أمّـا نهـارهـا   فمكـث وأمـا ليلهـا فـذميـل

وقال أبو محمد يوسف بومطوية بالخفض أصلح. ثم التفت إلينا وقال: هذه وأورب، فقلت: أطال الله بقاء القاضي، إنّ قبله ما يدلّ على الرفع، فقال: ما هو؟ قلت:

إيـاك فـي الله الـذي أنـزل الهـدى   والنـور والإسـلام عليـك دليـل

ومطويّة الأتراب، قال فعاد وأصلحه، وكان ابنه أبو محمد حاضر، فتغيّر وجهه لذلك، ونهض لساعته إلى دكّانه، فباعه واشتغل بالعلم إلى أن برع فشرح كتاب المنطق، وحدّث من وراءه بعمل هذا الشرح، وبين يديه أربعمائة ديوان، ولم يزل أمره على سداد واشتغال وإفادة إلى أن توفي، وكان ديّناً صالحاً ورعاً متقشّفاً رحمه الله.

سنة ست وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفي شيخ الإسلام، قدوة الأولياء الكرام أبو طالب المكّي صاحب قوت القلوب محمد بن علي بن عطية الحارثي، نشأ بمكة، وتزهد، ولقي الصوفية، وصنّف، ووعظ، وكان في البداية صاحب رياضة ومجاهدة، وفي النهاية صاحب أسرار ومشاهدة. وأستاذه الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو الحسن بن سالم البصري.

* وفيها توفّي العزيز بالله أبو منصور، نزار بن المعزّ بالله معد بن المنصور إسماعيل بن القاسم بن محمد بن المهدي العبيديّ الباطنيّ، صاحب المعزّ ومصر والشام، ولي الأمر بعد

أبيه. وكان شجاعاً جواداً حليماً قريباً من الناس، لا يحبّ سفك الدماء، له أدب وشعر، وكان مغرماً بالصيد، وقام بعده ابنه الحاكم.

وذكر بعض المؤرخين أنه هو الذي اختطّ أساس الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح، وفي أيامه بني قصر البخرة بالقاهرة الذي لم يُبنَ مثله شرقاً ولا غرباً، وقصر الذهب، وجامع القرافة. وقيل: كتب نزار المذكور إلى المرواني صاحب الأندلس كتاباً يسبّه فيه ويهجوه، فكتب إليه: أما بعد فإنك قد عرفتنا، فهجوتنا، ولو عرفتك لأجبتك، والسلام فاشتدّ على نزار، وأقحم عن الجواب وأكثر أهل العلم بالأنساب لا يصحّحون نسب العبيديين إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على ما حكاه بعضهم.

قلت وسيأتي ذكر الطعن في نسبه في محضر فيه خطط جماعة من الأئمة المشهورين في العراق، وفي مبادي ولاية العزيز المذكور صعد المبرّد يوم الأحد فوجد هناك ورقة، فيها مكتوب.

إنّا سمعنا نسباً منكراً يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدّعي صادقاً فاذكر ما بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فأنسب لنا نفسك كالطائع

* وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن حسن الأسترابادي، ختن أبي بكر الإسماعيلي، وكان صاحب وجه في المذهب، وله مصنّفات، وكان أديباً بارعاً مفسّراً مناظراً. روى عن أبي نعيم عبد الملك بن عدي الجرجاني، وعاش خمساً وسبعين سنة، وتوفي يوم عرفة ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفّي الشيخ العارف المنطق بالحكم والمعارف، والحبر الواعظ الإمام السيد الجليل، قدوة الأنام، سنّي الأحوال الذي على فضله الأفاضل مجمعون، عالي المقام أبو الحسين محمد بن أحمد المعروف بابن شمعون[1].

قال الإمام الحافظ أبو بكر بن إسماعيل: أبو الحسين الواعظ المعروف بابن شمعون كان واحد دهره، وفريد عصره في الكلام على الخواطر والإشارات، ولسان الوعظ دوّن الناس حكمه، وجمعوا كلامه، قال: وكان بعض شيوخنا إذا حدّث عنه قال: حدّثنا الشيخ الجليل المنطق بالحكمة أبو الحسين بن شمعون.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٢/ ٥١: ابن سمعون (بالسين المهملة).

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: محمد بن أحمد بن شمعون لسان الوقت، والمرجوع إليه في آداب الظاهر، يذهب إلى أشد المذاهب، وهو إمام التكلّم على هذا الشأن في الوقت، والمعبّر عن الأحوال بألطف بيان، مع ما يرجع إليه من صحة الاعتقاد، وصحبة الفقراء.

وروى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الأصفهاني خادم الشيخ أبي بكر الشبلي قال: كنت بين يدي الشبلي في الجامع، يوم الجمعة، فدخل أبو الحسين ابن شمعون ـ وهو صبيّ على رأسه قلنسوة ـ فجاز علينا، وما سلم، فنظر الشبلي إلى ظهره وقال: يا أبا بكر: أتدري أيّ شيء لله تعالى في هذا الفتى من الذخائر.

وبسند الحافظ أبي القاسم إلى النجيب عبد الغفّار بن عبد الواحد الأموي قال: كان القاضي أبو بكر الأشعري[1]، وأبو حامد يقبّلان يد ابن شمعون يعني الإمامين ناصر السنّة وقامع البدعة شيخ الأكابر من أئمة الأصول الجهابذة الحذّاق، والإمام الكبير السيد الشهير شيخ طريقة العراق. قال: وكان القاضي ـ يعني الباقلاني ـ يقول: ربما خفي عليّ من كلامه بعض شيء لدقّته.

وروى الحافظ أبو القاسم أيضاً بسنده: إنه كان في أوّل عمره ينسخ بأجرة، ويعول بأجرة نسخه على نفسه وعلى أمّه، وكان كثير البرّ لها فجلس يوماً ينسخ ـ وهي جالسة بقربه ـ فقال لها: أحبّ أن أحجّ، قالت: يا ولدي، كيف يمكنك الحجّ، وما معك نفقة، ولا لي ما أنفقه؟ إنما عيشنا من أجرة هذا النسخ، وغلب عليها النوم، فنامت، وانتبهت بعد ساعة فقالت: يا ولدي، حجّ، فقال لها: منعت قبل النوم، وأذنتِ بعده؟ فقالت: رأيت الساعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو يقول: دعيه، فإن الخيرة له في حجّه في الآخرة والأولى. ففرح، وباع من دفاتره ماله قيمة، ودفع إليها من ثمنها نفقتها، وخرج مع الحجّاج، فأخذ العرب الحاجَّ، وأُخذ في الجملة.

قال ابن شمعون: فبقيت عرياناً، فوجدت مع رجل عباءة كانت على عدل، فقلت له: هبْ لي هذه العباءة أستر نفسي بها، فقال: خذها، فجعلت نصفها على وسطي، ونصفها على كتفي وكان عليها مكتوب: يا ربّ سلم مبلغ رحمتك، يا أرحم الراحمين. وكنت إذا غلب عليّ الجوع، ووجدت قوماً يأكلون، وقفت أنظر إليهم، فيدفعون إليّ كسرة، فأقنع بها ذلك اليوم. ووصلت إلى مكّة، فغسلت العباءة، وأحرمت بها، وسألت أحد بني شيبة أن يدخلني البيت. وعرّفته فقري، فأدخلني بعد خروج الناس، وأغلق الباب، فقلت: اللهم

---

(١) وفيه أيضاً: كان القاضي أبو بكر الباقلاني وأبو حامد...

أنك بعلمك غنيّ عن إعلامي بحالي، اللهم ارزقني معيشة أستغني بها عن سؤال الناس؛ فسمعت قائلاً يقول من ورائي: اللهم إنه ما يحسن أنْ يدعوك، اللهم ارزقه عيشاً بلا معيشة. فالتفتّ فلم أر أحداً، فقلت: هذا الخضر أو أحد الملائكة الكرام ـ على الجميع السلام ـ قال: فأعدت القول، فأعاد الدعاء، فأعدت، فأعاد ثلاث مرّات وعدت إلى بغداد، وكان الخليفة قد حرم جارية من جواريه، وأراد إخراجها من الدار، فكره ذلك إشفاقاً عليها. قال أبو محمد ابن السنّي: فقال الخليفة: اطلبوا رجلاً مستوراً، يصلح أن يزوّج هذه الجارية. فقال بعض من حضر: قد وصل ابن شمعون من الحجّ، وهو يصلح لها، فاستصوب الجماعة قوله، وتقدم بإحضاره وبإحضار الشهود فأحضروا، وزوّج بالجارية، ونقل معها من المال والثياب والجواهر ما يحمل بالملوك. وكان ابن شمعون يجلس على الكرسي للوعظ فيقول: أيّها الناس، خرجت حاجّاً، وكان من حالي كذا وكذا ـ وشرح حاله جميعه ـ وأنا اليوم عليّ من الثياب ما ترون، ووطئتي ما تعرفون، ولو وطئت على العتبة تألّمت من الدلال، ونفسي تلك.

وروى الحافظ والخطيب عنه: إنّه خرج من مدينة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قاصداً بيت المقدس، وحمل في صحبته تمراً صيحانياً، فلمّا وصل إلى بيت المقدس طالبته نفسه بأكل الرطب، فأقبل عليها باللائمة، وقال: من أين لنا في هذا الموضع رطب؟ فلمّا كان وقت الإفطار، عمد إلى التمر ليأكل منه، فوجده رطباً صيحانياً، فأكل منه شيئاً، ثم عاد إليه من الغد، فوجده تمراً على حالته، فأكل منه، أو كما قال.

وكان له حسن الوعظ، وحلاوة الإشارة، ولطف العبارة. أدرك جماعة من جلّة المشايخ، وروى عنه منهم الشيخ الكبير العارف أستاذ الطريقة، ولسان الحقيقة، وبحر المعارف أبو بكر الشبلي، وروى عن أبي بكر بن داود وجماعةٌ، وأملى عدّة مجالس، وروى الصاحب بن عبّاد قال: سمعت ابن شمعون يوماً، وهو على الكرسي في مجلس وعظ يقول: سبحان من أنطق باللحم، وبصر بالشحم، وأسمع بالعظم إشارة إلى اللسان والعين والأذن وهذه من لطائف الإشارات.

ومن كلامه أيضاً: رأيت المعاصي نزلة، فتركتها مروءة، فاستحالت ديانة. وله كلّ معنى لطيف كان لأهل العراق فيه اعتقاد كثير، ولهم به غرام شديد، وإياه عنى الحريري في المقامة الحادية والعشرين وهي الرازية بقوله في أوائلها: رأيت ذات بكرة زمرة أسرر تمرات، وهم منتشرون انتشار الجراد، مستنّون استنان الجياد، ومتواصفون واعظاً يقصدونه، ويجعلونه ابن شمعون دونه. وكان مولده سنة ثلاثمائة، وتوفي رحمه الله في نصف ذي القعدة يوم الجمعة، وقيل ذي الحجّة من السنة المذكورة، ولم يخلف ببغداد بعده

مثله رحمه الله.

* وفيها توفي أبو طاهر ابن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي.

والفقيه الإمام أبو عبد الله ابن[(١)] بطّة الحنبلي.

سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفي الحافظ أبو بكر، أحمد بن عبدان الشيرازي الصيرفي، كان من كبار المحدّثين.

* وفيها توفي الحافظ أبو عبد الله: حسين بن أحمد بن عبد الله بن بكير البغدادي الصيرفي. كان عجباً في حفظ الحديث وسرده.

* وفيها توفي الإمام الكبير الخيّر الشهير أبو سليمان الخطابي أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الشافعي. كان فقيهاً أديباً محدّثاً، وله التصانيف البديعة، منها (أعلام السنن) في شرح البخاري، و (معالم السنن) في شرح سنن أبي داود، و (غريب الحديث)، و (كتاب إصلاح غلط المحدّثين)، و (كتاب الشرح[(٢)])، و (كتاب بيان الدعاء) وغير ذلك، سمع بالعراق أبا علي الصفّار، وأبا جعفر الرزّاز وغيرهما.

وروى عنه الحاكم أبو عبد الله بن البيع النيسابوري، وعبد الغفّار بن محمد الفارسي، وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي سهل الخطابي، وذكر صاحب يتيمة الدهر، وأنشد له:

وما غُمْةُ الإنسان في شقّة النوى ... ولكنها والله في عدم الشكلي

وإلى غريب بين (بُسْتَ) وأهلها ... وإنْ كان فيها أسرتي وبها أصلي[(٣)]

---

(١) في الكامل لابن الأثير ١٨٨/٧: ابن بطة الحنبلي: عبيد الله بن محمد بن حمران أبو عبد الله العكبري ـ المعروف بابن بطة الحنبلي ـ كان مولده في شوّال سنة أربع وثلاثمائة.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي ٣١٧/٧/٦: ومن تصانيفه: كتاب «شرح الأدعية المأثورة» وكتاب «شرح البخاري».

وفي الكامل لابن الأثير: ١٩٤/٧: وله «شرح أسماء الله الحسنى».

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي ٣١٨/٧/٦:

وما غربة الإنسان في شقّة النوى ... ولكنها والله في عدم الشكل

وإني غريب بين بست وأهلها ... وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

قلت يعني بالشكلي: المشاركة في أوصافه، وأُسرة الرجل بالضمّ رهطه والغُمة بالضم الكربة. وأنشد له أيضاً:

فسامحْ ولا تستوفِ حقّك كلّه　　وأبقِ فلم يستوف قطّ كريمُ
ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد　　كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

قلت هكذا يحفظ ذميم، وفي الأصل الذي وقفت عليه من نقل ابن خلّكان سليم، ومعناه غير صحيح، فإن الطرفين إمّا إفراط، وإما تفريط. قالوا: وكان يشبّه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام علماً وأدباً وزهداً وورعاً وتدريساً وتأليفاً. و (البُسْتي) بضمّ الموحدة، وسكون السين المهملة، والمثنّاة من فوق) نسبة إلى بُسْت: مدينة من بلاد كابُل، بين هراة وغَزْنَة، كثيرة الأشجار والأنهار..

قال الحاكم أبو عبد الله: سألتُ أبا القاسم المظفّر بن طاهر عن اسم أبي سليمان الخطابي: أحمد أو حمد؟ فقال: سمعته يقول اسمي الذي سمّيت به (حمد)، ولكنّ الناس كتبوا أحمد، فتركته عليه.

وقال أبو القاسم المذكور: أنشدنا أبو سليمان لنفسه:

ما دمت حيّاً فدارِ الناس كلّهم　　فإنّما أنت في دار المداراة
من يدر دارى، ومن لم يدرِ سوف يرى　　عمّا قليل نديماً للندامات

قلت داري قوله هذا: مأخوذ من القول السائر في ألسنة الناس، متضمّناً للجناس: (دارهم ما دمت في دارهم) قلت: وهذا الإطلاق الذي أطلقه وأجمله، أرى فيه تقييداً وتفصيلاً، وقد خطر لي وقت وقوفي على هذين البيتين معارضتهما ببيتين، فقلت:

إن كنت بالناس مشغولاً فدارهم　　أو كنت بالله ذا شغل وهمّاتِ
فلا تعلق سوى بالله ذائقة　　إنّ المهيمن كافيك المهمات

* وفيها توفي الحاتمي محمد بن الحسن بن المظفّر الكاتب اللغوي البغدادي، أحد الأعلام المشاهير المطّلعين المكثرين. أخذ الأدب عن أبي عمرو الزاهد المعروف بالمطرز غلام ثعلب. روى عنه وعن غيره أيضاً، وأخذ عنه جماعة من النبلاء، منهم القاضي أبو القاسم التنوخي، وله الرسالة الحاتمية التي شرح فيها ما جرى بينه وبين المتنبي من إظهار سرقاته وإبانة عيوب شعره، ولقد دلّت رسالته على غزارة مادّته وتوفّر إطلاعه، وسمّاها

الموضحة، وهي كثيرة في اثنتي عشرة كرّاسة، شهدت لصاحبها بالفضل الباهر، مع سرعة الاستحضار، وإقامة الشاهد، وله (كتاب حلية المحاضرة) يدخل في مجلّدين و (الحاتمي) نسبة إلى بعض أجداد له اسمه حاتم.

حكى في أول رسالته المذكورة السبب الحامل له على إنشائها، فقال: لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام منصرفاً عن مصر ومتعرّضاً للوزير أبي محمد المهلبي بالتخيم عليه، والمقام لديه، التحف رداء الكبر، وأرسل ذيول التيه، ونأى بجانبه استكباراً وثنى عطفه[1]. . . وازدراءاً. وكان لا يلاقي أحداً إلا أعرض عنه بها، وزخرف عليه القول تمويهاً، تخيّل عجباً إليه أنّ الأدب مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يرد به غيره، وروض لم يَرَ نوّاره سواه، فهو يجني جناه، ويقطف قطوفه دون من تعاطاه، وكلّ مجرى في الخلاء يستر، ولكلّ نبأ مستقرّ، فغير جارٍ على هذه الوتيرة مديدة، أحرز به رسن البغي فيها، فظلّ يموج في تيهه حتى إذ تخيّل لأنّه السابق الذي لا يجارى في مضمار، ولا يُساوى عذاره بعذار، وأنه ربّ الكلام ومفضض عذارى الألفاظ، ومالك رقّ الفصاحة. نثراً ونظماً، وقريع دهره الذي لا يقارع فضلاً وعلماً، وثقلت وطأته على كثير ممّن وسم نفسه بميسم الأدب، وأنيط من مائه أعذب مشرب، فطأطأ بعض رأسه، وخفض بعض جناحيه، وظاهر من أعلى التسليم له طرفة. وساء معزّ الدولة أحمد بن بُوَيه، وقد صوّرت حاله أن يرد حضرته ـ وهي دار الخلافة ومستقرّ العزّ، بيضة الملك ـ رجل صدر عن حضرته سيف الدولة ابن حمدان، وكان عدوّاً مبايناً لمعزّ الدولة، فلا يلقى أحداً بمملكته يساويه في صناعته، وهو ذو النفس الأبيّة والعزيمة الكِسَروِيّة، والهمّة التي لو هممت بالدهر لما قصرته بالإحراز صروفه، ولا دارت عليهم دوائره وحنوقه، وتخيّل الوزير المهلبي ـ رجماً بالغيب ـ أن أحداً لا يستطيع مساجلته، ولا يرى نفسه كفوءاً له، ولا يصلح بأعيانه فضلاً عن التعلّق بشيء من معانيه، ولم يكن هناك مزية يتميّز أبو الطيب بها تميز الهجين الجذع من أبناء الأدب، فضلاً عن العتيق القارح إلاّ الشعر، ولعمري إن افتاته كانت فيه ريطبة ومجانبة عذبة[2] له منيعاً عوّاره، معلماً أظفاره، ومذيعاً أسراره، وناشراً مطاويه، ومنقذاً من نظمه ما تسمح فيه، ومتوخّياً أن يجمعنا دار يشار إلى ربّها، فأجري أنا وهو في مضمار، ويعرف فيه السابق من المسبوق، واللاحق من المقصّر عن اللحوق، وكنت إذ ذاك ذا سحاب مدرار، وزندٍ في كل فضيلة ودار، وفظيع يناسب صفو العقار، إذا وصبت بالحباب ووسبت به سرائر الأكواب، والخيل تجري يوم الرهان بإقبال أربابها لا بعروقها ونصابها، ولكلّ امرىء حظّ من مواتاة زمانه،

---

(١) وردت بيضاء دون كتابة.

(٢) هكذا وردت دون كتابة.

يُقضى في ظلّه أرب، وبذلك مطلب، ويتوسّع مراد ومذهب، حتى إذا عدت عن اجتماعنا عواراً من الأنام قصدت مستقره، وتحتي بغلة سفوا تنظر عن عيني بارويتشوف بمثل قادمتي نسر، كأنّني كوكب وقّاد، من تحته عمامة، يقتادها زمام الجنوب، ومن بين يديّ عدّة من الغلمان الورقة مماليك وأحرار، يتهافتون تهافت فريد الدرّ عن أسلاكه، ولم أذكر هذا تبجّحاً ولا تكبّراً بل لأن أبا الطيب شاهد جميعه ولم يرعَه روعته، ولا استنطقه زبرجه، ولا زادته تلك الحالة الجميلة التي ملأت طرفه وقلبه إلا عجباً بنفسه وإعراضاً عنّي بوجهه، فألفيت هناك فتية تأخذ عنه شيئاً من شعره، فحين أوذن بحضوري، واستؤذن عليه لدخولي، نهض عن مجلسه مسرعاً، ووارى شخصه مستخفياً، فأعجلته نازلاً عن البغلة ـ وهو يراني ـ ودخلت، فأعظمت الجماعة قدري، وأجلستني في مجلسه، وإذا تحته أحلاق عناقد الحبّ ـ عليها الحوادث ـ فهي رسوم دائرة، وأسلاك متناثرة، فلم يكن إلاّ ريثما جلست، فنهضت، ووفّيته حقّ السلام، غير مشاح له في القيام، لأنه إنما اعتمد نهوضه عن الموضع لئلا ينهض إليّ، والغرض في لقائه غير ذلك، وحين لقيته تمثّلت بقول الشاعر:

وفي الممشى إليك عليّ عار ... ولكنّ الهوى منع القرارا

فتمثّل بقول الآخر:

يُسقى رجال، ويسقى آخرون بهم ... ويُسعِد الله أقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حليته ... لكن جدود وأرزاق بأقسام
كذلك الصيد بحرمة الرامي المجيد وقد ... يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

وإذا به لابس سبعة أقبية، كلّ قباء منها لون، وكنّا في وغرة القيظ وجمرة الصيف، وفي يوم تكاد ودائع الهامات تسيل فيه، فجلست مستوفزاً، وجلس محتقراً، وأعرض عنّي لاهياً، وأعرضت عنه ساهياً، أؤنب نفسي في قصده، وأستخفّ رأيها في تكلّف ملاقاته بعزّ هيئته، ثانياً عطفه، لا يعيرني طرفه، وأقبل على تلك الرغفة التي بين يديه، وكلّ يومىء إليه، ويرجّي بلحظه، ويشير إلى مكاني بيده، ويوقظه من سِنته وجهله، ويأتي الازدراء نفاراً وعتوّاً واستكباراً، ثم أيّان يثني جانبه إليّ، ويقبل بعض الإقبال عليّ، فأقسمت بالوفاء والكرم ـ فإنهما من محاسن القسم ـ أنّه لم يزد عليّ أن قال: ايش خبرك؟ فقلت: بخير، لولا ما جنيت على نفسي من قصدك، ووسمت به قدري من ميسم الذلّ بزيارتك، وتجشّمتُ رأيي من السعي إلى مثلك، ممّن لم تهذّبه تجربة، ولا أدّبته بصرة، ثم تحدّرت عليه تحدّر السيل إلى قوارة الوادي، وقلت له: أبِنْ لي ممّ تيهك وخيلاؤك وعجبك وكبرياؤك؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك. والرمي بهمّتك إلى حيث يقصر عنه باعك، ولا يطول إليك ذراعك؟ هل هاهنا نسب تنتسب إلى المحدّثة، أو شرف علقت بأذياله، أو

سلطان تسلّطت بعزّه، أو علم يقع الإشارة إليك به؟ إنّك لو قدّرت نفسك بقدرها، أو وزنتها بميزانها، ولم يذهب بك البتّة مذهباً لما عددت أن تكون شاعراً مكتسباً فامتقع لونه، وغصّ بريقه، وجعل يلين في الاعتذار، ويرغب في الصفح والاعتقار، ويكرّر الإيمان أنه لم يتبيّن، ولا اعتمد التقصير فيّ. فقلت: يا هذا، إنْ قصدَك شريف في نسبه تجاهلت نسبه، أو عظيم في أدب صغّرت أدبه، أو متقدّم عند سلطان حفظت منزلته، فهل المجد تراث لك دون غيرك؟ كلاّ والله، لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك، وضربته رواقاً حائلاً دون مباحثك، فعاود الاعتذار فقلت: لا عذر لك مع الإصرار، وأخذت الجماعة في الرغبة أنّي في مباشرته وقبول عذره واستعمال الأناة الذي تستعملها الحرمة عند الحفيظة، وأنا على شاكلة واحدة في تقريعه وتوبيخه، وذمّ خليقته، وهو يؤكد القسم أنه لم يعرفني معرفة ينتهز معها الفرصة في قضاء حقّي، فأقول لم يستأذن عليك باسمي ونسبي، أما في هذه الجماعة من كان يعرفني لو كنت جهلتني؟ وهب أنّ ذلك كذلك، ألم تر شاربي؟ أما شممت عطر نشري؟ ألم تميّز في نفسك عن غيرك؟ وهو في أثناء ما أخاطب به وقد ملأتُ سمعه تأنيباً وتفنيداً يقول: خفّف عليك، أكفف عن عزّتك، اردد من صورتك، فإنّ الأناة من شيم مثلك فأصحب حينئذ جانبي له، يعني: انقاد بعد صعوبته، ولانت عريكتي في يده، واستحييت من تجاوز الغاية التي انتهيت إليها في معاتبة، وذلك بعد أن روّضته رياضة الصعب من الإبل، وأقبل عليّ معظّماً، وتوسّع في تقريظي مفخماً، وأقسم أنه ينازع منذ ورد العراق ملاقاتي، ويعد نفسه بالاجتماع معي، ويسومها التعلّق بأسباب مودّتي، فحين استوفى القول في هذا المعنى استأذن عليه فتى من الفتيان الطالبين الكوفيين، فأذن له، فإذا حدث مرهف الأعطاف يمثل به نشوة الصبيّ، فتكلم، فأعرب عن نفسه، وإذا لفظ رخيم، ولسان حلو وأخلاق فكهة، وجواب حاضر وثغر باسم في إناة الكهول ووقار المشايخ، فأعجبني ما شاهدته من شمائله، وملكني ما تبيّنته من فضله، فجازاه أبياتاً. ومن ها هنا كان افتتاح الكلام بينهما في إظهار سرقاته ومعايب شعره.

قلت هذا ما نقله ابن خلّكان مع خلل في ألفاظ يسيرة من نقله، قال: وقد طال الكلام، لكنّه لزم بعضه بعضاً، فما أمكن قطعه، وهذه الرسالة تشتمل على فوائد جمّة، فإن كان كما ذكر أنه أبان له جميعها في ذلك المجلس، فما هذا الإطلاع عظيم. قلت: والأمر على ما ذكر ابن خلّكان، أعني إن كان هذا الكلام صدر عنه في مجلس واحد فقد أبدع ما صنع، وجمع من الفوائد.

سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

* فيها توفّي الإمام الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي، شيخ المغرب، وإليه انتهت رئاسة المذهب. قال القاضي عياض: حاز رئاسة الدين والدنيا،

رحل إليه من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب وملأ البلاد من تآليفه، وكان يسمى مالكاً الأصغر.

* وفيها توفّي أبو الطيب ابن غلبون[١] الحلبي، المقرىء الشافعي، صاحب الكتب في القراءات.

* وفيها توفي أبو الهيثم الكُشْمِيهَنِيّ[٢] محمد بن مكّي المروزي، راوية البخاري عن الفربري، وله رسائل أنيقة. توفي يوم عرفة رحمه الله.

سنة تسعين وثلاثمائة

* فيها توفّي ابن فارس اللغوي، أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي. كان إماماً في علوم شتّى. وخصوصاً اللغة فإنه أتقنها، وألف (كتاب المجمل) فيها، جمع على اختصاره شيئاً كثيراً، وله (كتاب حلية الفقهاء)، ورسائل أنيقة، ومسائل في اللغة تفانى بها الفقهاء، ومنه اقتبس الحريري صاحب المقامات ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية وهي مائة مسألة وكان مقيماً بهمدان، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات المتقدّمة على مقامات الحريري، وله أشعار جيّدة فمنها قوله:

وقالوا: كيف حالك قلت: صبراً ... يقضي حاجة وتفوت حاج
إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا ... عسى يوماً يكون بها انفراج

وله شعر:

مرّت بنا هيفاء مجدولة ... تركية تنمى لتركي
تريق بطرفٍ فاترٍ فاتنٍ ... أضعف من حجّة نحوي[٣]

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/٢٠١: أبو الطيب ابن غلبون عبد المنعم بن عبد الله بن غلبوك الجلبي المقرىء الشافعي صاحب الكتب في القراءات. ولد في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، روى عن جماعة كثيرة، وروى الحديث، وكان ثقة محققاً بعيد الصيت، وأخذ عنه خلق كثير ومات بمصر..

(٢) في الأنساب للسمعاني ٥/٧٥، ٧٦: الكشميهني: هذه النسبة إلى قرية من قرى مَرْوَ على خمسة فراسخ منها في الرمل، إذا خرجت إلى ما وراء النهر ـ منها: أبو الهيثم محمد بن مَكّي بن محمد ابن زُراع بن هارون بن زُراع الكشميهني الأديب... توفي بقريته يوم عيد الأضحى.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٧/٢٧٩، ٢٨٠:

مرّت بنا هيفاء مجدولة ... تركيّة تعزى لتركي
ترنو بطرف فاتر فاتن ... أضعف من حجّة نحوي

وقوله:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... وأنت بها كلف مغرم

فارسل حكيماً ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

وغير ذلك من أشعار حذفتها للاختصار.

* وفيها توفّيت أمة الإسلام[1] بنت القاضي أحمد بن كامل البغدادية، كانت ديّنة حافظة فاضلة، رحمها الله تعالى.

* وفيها توفي الحافظ أبو زُرعة الكشيّ محمد بن يوسف الجرجاني.

* وفيها توفي القاضي أبو الفرج النهرواني، المعافى بن زكريّا الجريري، تفقّه على مذهب محمد بن جرير الطبري، وسمع من البغوي وطبقته. قال الخطيب: كان من أعلم الناس في وقته بالفقه والنحو واللغة وأصناف الآداب. وله شعر حسن، ومنه ما روى القاضي أبو الطيب:

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله ... لأنّك لم ترضَ لي ما وهب

فجازاك عنّي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في (كتاب طبقات الفقهاء) وأثنى عليه، ثم قال، وأنشدني قاضي بلدنا أبو علي الداودي، قال: أنشدني أبو الفرج لنفسه:

أأقتبس الضياء من الضباب ... وألتمس الشراب من السراب

أريد من الزمان النذل بذلاً ... وأربأ من جنى سلع وصاب

أرجّي أن ألاقي لاشتياقي ... خيار الناس في زمن الكلاب

يعني ما لا يرى العسل، ومن شعره أيضاً:

مالك العالمين ضامن رزقي ... فلماذا أملك الخلق رقي

قد قضى لي بما عليّ ومالي ... خالقي جلّ ذكره قبل خلقي

صاحب البذل والندى في يساري ... ورفيقي في عسرتي حين رفقي

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٢٠٨/٧: أم السلامة بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة أم الفتح. ولدت في رجب من سنة ثمان وتسعين، سمعت من محمد بن إسماعيل البصلاني وغيره، وعنها أخذ الأزهري والتنوخي وأبو يعلى ابن الفراء... توفيت في رجب.

فكمـــا لا يـــردّ عجـــز رزقـــي فكـــذا لا يجـــرّ رزقـــي حـــذقـــي

وله عدّة تصانيف ممتعة في الأدب و (كتاب الجليس والأنيس) تصنيفه. وروى عن الفقيه عبد الباقي أنه كان يقول: إذا حضر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلّها، ولو أوصى رجل بشيء أن يدفع إلى أعلم الناس لوجب أن يدفع إليه.

سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفّي الحسين المعروف بابن الحجّاج الشاعر، له ديوان شعر في عشر مجلّدات، تولى حسبة بغداد، وقيل إنه عزل بأبي سعيد الاصطخري الإمام الشافعي. ومن شعره:

يـا صـاحبـيّ استيقظـا مـن رقـدة تـزري علـى عقـل اللبيـب الأكْيـسِ

هـذي المجـرّة والنجـوم كـأنّهـا نهـر تـدفّـق فـي حـديقـة نـرجـسِ

* وفيها توفّي الفقيه إمام أهل الظاهر في عصره أبو الحسن عبد العزيز بن أحمد الخوزي (بالخاء المعجمة والزاي) قال عبد الله الضميري: ما رأيت فقيهاً أنظر منه ومن أبي حامد الأسفراييني الشافعي.

* وفيها تـوفي حسـام الـدولـة مقلّـد بـن المسيّـب بـن رافـع العقيلـي، صـاحـب الموصل تملّكها بعد أخيه، قتله غلام له، ورثاه الشريف الرضي وأبو القاسم بن أحمد الشيباني.

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة

* فيها زاد أمر الشطّار، وأخذوا الناس ببغداد نهاراً جهاراً، وقتلوا وبدّعوا وأضلّوا بعد ذلك ببعض، وكثروا، وصـار فيهم هاشميّون، فسيّر بهاء الدولة وكان غائباً عميد الجيوش إلى العراق ليسوسها، فقتل وصلب ومنع السنّة والشيعة من إظهار مذهب، وقامت الهيبة.

* وفيها توفّي الفقيه أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المغربي، وكان عالماً بالحديث، رأساً في الفقه. قال الدارقطني: لم أرَ مثله.

* وفيها توفّي أبو عبد الرحمن بن أبي شريح: محمد الأنصاري، محدّث هَرَاة.

* وفيها توفّي أبو الفتح عثمان بـن جنّي الموصلي النحوي. كان إماماً في العربية، صاحب تصانيف في النحو والعروض والقوافي، وشرح ديوان المتنبي، لازم أبا علي

الفارسي، وكان أبوه مملوكاً رومياً. وسُئل المتنبي عن قوله (صبرتَ أمْ لم تصبرا) في ثبوت الألف مع لم الجازمة، فقال: لو كان أبو الفتح هنا لأجابك، يعني ابن جنّي. قلت: وهذا الألف بدل من نون التأكيد الخفيفة، أصله (أمْ لم تصبرَنْ) ومنه قول الأعشى: ولله فاعبدا. أصله: فاعبدَنْ. ولابن جنّي تصانيف كثيرة مفيدة، منها (التنبيه)، و (المهذب)، و (اللمع)، و (التبصرة)، ويقال إن أبا إسحاق أخذ تسمية كتبه منه.

* وفيها توفّي الوليد بن أبي بكر الأندلسي الحافظ. رحل وروى عن ابن رشيق، وعلي بن الخطيب وخلق، قال ابن الفرضي: كان إماماً في الفقه والحديث، عالماً باللغة والعربية، لقي في الرحلة أزيد من ألف شيخ.

سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفي الحسن بن الضبي المعروف بابن وكيع الشاعر المشهور، ذكره الثعالبي وقال: كان شاعراً بارعاً وعالماً جامعاً، قد برع على أهل زمانه، فلم يتقدّمه أحد في أوانه، وله كلّ بديعة، يسخر الأوهام، ويستعبد الأفهام، وله ديوان شعر جيّد، وله كتاب بيّن فيه سرقات المتنبي سمّاه (المصنّف) ومن شعره:

لقد قنعت همّتي بالخمول ... وصدّت عن الرتب العالية
وما جهلت طعم طيب العلا ... ولكنّها تؤثر العافية

قال بعض الفقهاء: أنشدت الشيخ أبا الفتح القضاعي المدرّس بتربة الشافعي في القَرَافَة بيتي ابن وكيع المذكورين، فأنشدني لنفسه على البديهة:

بقدر الصعود يكون الهبوط ... فإياك والرتب العالية
وكن في مكان إذا ما سقطت ... تقوم رجلاك في عافية

ولابن وكيع أيضاً:

سلا عن حبّك القلب المشوق ... فما يصبو إليك ولا يتوق
جفاؤك كان عنك لنا عزاء ... وقد يسلى عن الولد العقوق

* وفيها توفي الإمام أبو نصر، صاحب الصحّاح الجوهري إسماعيل بن حماد التركي اللغوي أحد أركان اللغة. قيل: كان في جودة الخط في طبقة ابن مقلة ومهلهل، أكثر الترحال، ثم سكن نيسابور، وقيل كان متردّياً من سطح بيت بنيسابور، وقيل إنه تسوّد، وعمل له شبه جناحَين وقال: أريد أن أطير، فطار، فهلك ـ رحمه الله تعالى ـ.

* وفيها توفي الطائع لله عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر جعفر بن

المعتضد أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكّل العباسي. كانت دولته أربعاً وعشرين سنة، خلع من الخلافة في شعبان سنة إحدى وثمانين بالقادر بالله، إلى أن مات ليلة الفطر من سنة ثلاث وتسعين، وله ثلاث وسبعون سنة، وصلّى عليه القادر بالله، ولم يؤذوه، بل بقي مكرّماً محترماً في دار ابن عمّه القادر بالله، وشيّعه من الأكابر، ورثاه الشريف الرضي.

* وفيها توفي السلامي محمد بن عبد الله المخزومي الشاعر. قال الثعالبي: هو من أشعر أهل العراق قولاً بالإطلاق، وشهادة بالاستحقاق. ومن شعره قوله في عضد الدولة:

إليك طوى عرضَ البسيطة جاعل ... قُصارى المطايا أن يلوح لها القصر[1]
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي ... ثلاثة أشياء كما اجتمع النّسرُ
وبشّرتُ إياك بملكٍ هو الورى ... ودارٍ هي الدنيا ويوم هو الدهر[2]

وقد أخذ القاضي أبو بكر الأرجاني معنى البيت الأخير، وسبكه في قوله:

يا سائلي عنه لمّا ظلت أمدحه ... هذا هو الرجل العاري من العار[3]
لو زرته لرأيت الناس في رجل ... والدهرُ في ساعة والأرضَ في دار[4]

وقد استعمل المتنبي أيضاً هذا المعنى، لكنه لم يكمله، بل أتى ببعضه في النصف الأخير من هذا البيت.

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ... ومنزلك الدنيا رأنت الخلائق

ولما ذكر ابن خلّكان ما بعد نظم السلامي قال: وإن كان في معنى ذلك لكن ليس فيه رشاقته، ولا عليه طلاوته. وكان عضد الدولة يقول: إذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إليّ.

سنة أربع وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفّي أبو عمر عبد الله بن عبد الوهاب السلمي الأصبهاني المقرىء.

* وفيها توفي أبو الفتح إبراهيم بن علي البغدادي.

* وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك اللخمي القرطبي الحدّاد.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٣١٨/٣/٦: إليك طوى عرض البسيطة عاجل...
(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٣١٨/٣/٦: وبشّرت آمالي...
(٣) وفيه أيضا: يا سائلي عنه لمّا جئت أمدحه...
(٤) وفيه أيضاً: لقيته فرأيت الناس...

سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفي الحافظ أبو القاسم عبد الوارث بن سفيان القرطبي.

* وفيها توفّي الخفاف أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر الزاهد النيسابوري.

سنة ست وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفّي الحافظ العلم أحمد بن عبد الله اللخمي الأشبيلي، كان يحفظ عدّة مصنّفات، وكان إماماً في الأصول والفروع.

* وفيها توفّي الإمام أبو سعيد[1] بن إسماعيل، شيخ الشافعية بجَرْجان.

* وفيها توفّي ابن شيخهم إسماعيل[2] بن أحمد. كان صاحب فنون وتصانيف، توفّي ليلة الجمعة، وهو يقرأ في صلاة المغرب ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥]، ففاضت نفسه وله ثلاث وستون سنة.

* وفيها توفي الحافظ أبو عمرو محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر النيسابوري المزكّي، صاحب الأربعين المرويّة.

سنة سبع وتسعين وثلاثمائة

* فيها توفّي الإمام أصبغ[3] بن الفرج الأندلسي المالكي مفتي قرطبة.

* وفيها توفي أبو الحسن[4] القصّار البغدادي المالكي، صاحب كتاب (مسائل

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٩/٨٧: الإسماعيلي الشافعي: إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس العلاّمة أبو سعد ابن أبي بكر الإسماعيلي الجرجاني الفقيه الشافعي، شيخ الشافعية بجرجان... توفي ليلة الجمعة نصف شهر ربيع الآخر... مات وهو في صلاة المغرب يقرأ ﴿ **أياك نعبد وإياك نستعين** ﴾.

(٢) هو الإمام السابق نفسه.

(٣) في الوافي بالوفيات ٦/٩/٢٨١: أصبغ بن الفرح بن فارس أبو القاسم الطائي القرطبي المالكي، من كبار المفتين بالمدينة، من أهل اليقظة والنباهة.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٧/٢٣٨: علي بن أحمد أبو الحسن الفقيه المالكي المعروف بابن القصاب، وهو في الأصول بالباء، وصوابه: ابن القصّار ـ بالراء ـ كذا في الديباج المذهب وشذرات الذهب وتاريخ بغداد وغيرها، تفقّه بأبي بكر الأبهري وغيره، وبه تفقّه أبو ذر الهروي والقاضي عبد الوهاب، ومحمد بن عمروس وجماعة. ولي قضاء بغداد، وله كتاب في مسائل الخلاف... أرّخ وفاته ابن فرحون في الديباج سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة.

الخلاف). قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: لا أعرف لهم كتاباً في الخلاف أحسن منه. وقال أبو ذرّ الهَرَوي: هو أفقه مَنْ لقيتُ من المالكية.

* وفيها توفّي من طبقته أبو الحسن بن القصّار علي بن محمد بن عمر الرازي الفقيه الشافعي. كان مفتياً قريباً من ستّين سنة، وكان له من كلّ علم حظّ، وعاش قريباً من مائة سنة.

سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة

* فيها ثارت فتنة هائلة ببغداد. قصد رجل شيخ الشيعة ابن المعلّم وهو الشيخ المفيد وأسمعه ما يكره، فثار تلامذته، وقاموا، واستنفروا الرافضة، وأتوا قاضي القضاة أبا محمد الأكفاني، والشيخ أبا حامد الأسفراييني، فسبّوهما، فحميت الفتنة، ثم إن أهل السنّة أخذوا مصحفاً قيل إنه على قراءة ابن مسعود، فيه خلاف كثير، فأمر الشيخ أبو حامد والفقهاء بإتلافه، فأتلف بمحضر منهم، فقام ليلة النصف رافضي، وشتم فأخذ، فثارت الشيعة، ووقع القتال بينهم وبين السنّية، واختفى أبو حامد، واستنفرت الروافض، وصاحوا يا حاكم[١] يا منصور، فغضب القادر بالله، وبعث خيلاً لمعاونة السنّية، فانهزمت الرافضة، وأحرق بعض دورهم، وذلّوا وأمر عميد الجيوش بإخراج ابن المعلم من بغداد، فأخرج[٢]، وحبس جماعة، ومنع القصّاص[٣] مدة.

* وفيها زلزلت (الدِيَنَور)، فهلك تحت الردم أكثر من عشرة آلاف، وزلزلت (سيراف) السبت[٤]، وغرق عدّة مراكب، ووقع برد عظيم، وبلغ وزن واحدة منه مائة وستة دراهم.

* وفيها هدم الحاكم العبيدي الكنيسة المعروفة بالقمامة[٥] بالقدس، لكونهم يبالغون في إظهار شعارهم، ثم هدم الكنائس التي في مملكته. ونادى: من أسلم وإلا فليخرجْ من مملكتي أو يلتزم بما أمر. ثم أمر بتعليق صلبان كبار على صدورهم، وزن الصليب أربعة أرطال بالمصري، وبتعليق خشبة كبد[٦] المكمدة، وزنها ستّة أرطال في عنق اليهودي إشارة إلى رأس العجل الذي عبدوه، فقيل: كانت الخشبة على تمثال رأس عجل، وبقي هذا مدّة

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٢٤٠: يا حاكم يا منصور.
(٢) وفيه أيضاً: فأخرج منها ثم شفع فيه.
(٣) وفيه أيضاً: ومنعت القصّاص من التعرض للذكر والسؤال باسم الشيخين وعليّ رضي الله عنهم.
(٤) أنه كان مكاناً فهو: سَبْت: موضع بين طبرية والرملة عند عقبة طبرية. (معجم البلدان).
(٥) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٢٤٠: أمر الحاكم بأمر الله ـ صاحب مصر ـ بهدم بيعة قمامة وهي بالبيت المقدس، وتسمّيها العامة القيامة.
(٦) وفي الموضع السابق أيضاً: وعلى اليهود تعليق رأس العجل...

سنين، ثم رخص لهم في الردّة لكونهم مكرهين، وقال: تنزّه مساجدنا عمّن لا نيّة له في الإسلام.

* وفيها توفّي أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني الأديب العلاّمة بديع الزمان، صاحب المقامات الفائقة التي هي بالاختراع سابقة، وعلى منوالها نسج الحريري مقاماته، واحتذى حذوه واقتفى أثره، واعترف في خطبته بفضله، وأنه الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج، وإلى ذلك أشار بقوله:

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً بسعدى شفيت النفس قبل التندّم
ولكن بكتْ قبلي فهيّج لي البُكا بكاها، فقلتُ الفضل للمتقدّم

والبديع المذكور أحد الفضلاء الفصحاء، وله رسائل بديعة ونظم مليح، سكن هَرَاة من بلاد خراسان. (فمن رسائله) الماء إذا طال مكثه ظهر خبثُه، وإذا سكن متنه تحرّك نتنُهُ. فكذلك الضيف، يسمج لقاؤه إذا طال ثواؤه، ويثقل ظلّه إذا انتهى محلّه والسلام.

ومن رسائله أيضاً: حضرته التي هي كعبة المحتاج، لا كعبة الحجّاج، ومشعر الكرام لا مشعر الحرام، ومنى الضيف لا منى الخيف، وقبلة الصلاة لا قبلة الصلاة وله من تعزية الموت خطب قد عظم حتى هان، ومسّ خشن حتى لان، والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخفّ خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها، فانظر يمنة، هل ترى إلاّ محنة، ثم انظر يسرة هل ترى إلا حسرة؟! ومن شعره من جملة قصيدة طويلة:

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق المحيّا يمطر الذهبا
والدّهر لو لم يخنّ والشمس لو نطقت والليثُ لو لم يصدّ والبحر لو عذبا

وله كلّ معنى مليح حسن من نظم ونثر توفّي رحمة الله مسموماً بهراة.

وقال بعضهم: سمعت الثقات يحكون أنّه مات من السكتة، وعجّل دفنه، فأفاق في قبره، وسمع صوته بالليل، ونبش عنه، فوجد قد قبض على لحيته، ومات من هول القبر والله أعلم.

سنة تسع وتسعين وثلاثمائة

* فيها رجع الركب العَراقي خوفاً من ابن الجرّاح الطائي، فدخلوا بغداد قبل العيد. وأمّا ركب البصرة فأجازه بنو زغب الهلاليون. وقال ابن الجوزي: أخذوا للركب ما قيمته ألف ألف دينار.

* وفيها توفّي أحمد بن محمد الدارمي الشاعر المشهور، كان من فحول شعراء عصره

وخواص مدّاح سيف الدولة بن حمدان. وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة، وله معه وقائع ومعارضات في أناشيد. ومن شعره في القاضي أبي طاهر صالح بن جعفر الهاشمي:

أميـر العـلا إنّ العـوالـي كـواسـب علاك فـي الـدنيـا وفـي جنّـة الخلـدِ
يمـرّ عليـك الحـول سيفـك فـي الطُّلـى وطـرفـك مـا بيـن الشكيمـة والـوردِ
ويمضـي عليـك الـدهـر، فعليـك للعلـى وقـولـك للتقـوى وكفّـك للـرّفـدِ

قلت هذا هو في الأصل المنقول منه، وصوابه (علاك من الدنيا ومن جنة الخلد) رالطُّلى: بضمّ الطاء المهملة وتشديدها: الأعناق، وهو مراده في هذا البيت وبكسرها: القطران وما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه، والخمر عند بعض العرب وبفتحها: الولد من ذوات الظلف. والطَّلِي بكسر اللام: الصغير من أولاد الغنم والطِرف بكسر الطاء: الكريم من الخيل.

* وفيها توفّي أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصُدفي (بضمّ الصاد) المنجّم المصري صاحب الزِيج (بكسر الزاي وسكون المثناة من تحت، وفي آخره جيم) الحاكمي، المشهور المعروف بزيج ابن يونس، وهو زيج كبير في أربع مجلّدات، بسّط القول والعمل فيه، وما أقصر في تحريره، وذكر أنّ الذي أمره بعمله وابتدأه للعزيز بن الحاكم صاحب مصر.

قال بعضهم كان ابن يونس المذكور أبلّه مغفلاً يعتّم على طُرطُور[1] طويل، ويجعل رداءه فوق العمامة، وكان طويلاً، إذا ركب ضحك منه الناس لشهرته ورثاثة لباسه وسوء حالته، وكان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة في النجّامة، لا يشاركه فيها أحد، وكان متفّنناً في علوم كثيرة، وقد أفنى عمره في النجوم والسير والتوليد، ولا نظير له في ذلك، وكان يضرب بالعود على جهة التأدّب به، وله شعر حسن منه قوله:

أحمـل نشـر الـرّيـح عنـد هبـوبـه رسـالـة مشتـاق لـوجـه حبيبـه
بنفسـي مـن تحيـى النفـوس بقـربـه ومـن طـابـت الـدنيـا بـه وبطيبـه
لعمـري لقـد عطلـت كـأسـي بعـده وغيّبتهـا عنّـي لطـول مغيبـه
وجـدّد وجـدي طـائـف منـه فـي الكـرى سـرى مـوهنـاً فـي خفيـة مـن رقيبـه[2]

ويحكى أنّ الحاكم العبيديّ صاحب مصر قال وقد جرى في مجلسه ذكر ابن يونس

(١) الطرطور: القلنسوة الدقيقة الطويلة.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٤٥: وجدّد وجدي طارق...

وتغفّله: دخل إلى عندي يوماً ومداسه[1] في يده فقبّل الأرض، وجلس وترك المداس إلى جانبه، وأنا أراه وأراها، وهو بالقرب منّي، فلما أراد الانصراف قبّل الأرض، وقدّم المداس، ولبسه، وانصرف. قيل: ذكر هذا في معرض غفلته، وقلّة اكتراثه. وكانت وفاته فجأة.

* وفيها توفّي القدوة أبو الفضل أحمد بن أبي عمران نزيل مكة ـ رحمه الله ـ.

* وفيها توفّي أحمد بن محمد الأنطاكي الشاعر ومن شعره قوله في مدح وزير العزيز ابن المعزّ العبيدي:

قد سمعنا مقالَه واعتذاره   وأقلْنا ذنبه وعثارَه
والمعاني لمن عفّت ولكنْ   بك عرضت فاسمعي يا جارَه

سنة أربع مائة

* فيها أقبل الحاكم العبيدي على التألّه والدين على مقتضى مذهبه، وأمر بإنشاء دار العلم بمصر، وأحضر فيها الفقهاء والمحدّثين، وعمر الجامع المعروف بجامع الحاكم في القاهرة، وكثر الدعاء له، فبقي كذلك ثلاث سنين، ثم أخذ يقتل أهل العلم، وأغلق تلك الدار، ومنع من فعل كثير من الخير.

* وفيها توفّي أبو نعيم الأسفراييني عبد الملك بن الحسن، راوي المسند الصحيح عن الحافظ أبي عوانة، وكان عبداً صالحاً.

* وفيها توفّي أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البُسْتي، الشاعر المشهور، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس، فمن نثره البديع قوله: من أصلح فاسده أرغم حاسده. ومن أطاع غضبه أضاع أدبه. عادات السادات سادات العادات. من سعادة جدّك وقوفك عند حدّك. أجمل الناس من كان للإخوان مذلّلاً وعلى السلطان مدلّلاً. الفهم شعاع العقل. المنيّة تضحك من الأمنية. حدّ العفاف الرضي بالكفاف، بالخرقُ الرقيع ترقيع. يعني بالرقيع: الأحمق. قلت: ولو قال: على الإحسان مذلّلاً، عوضاً عن قوله وعلى السلطان، كان أصلح وعند أهل الخير أملح، لكنّه ممنْ لهم رغبة في القرب من السلطان، فللرهبة، ولهذا قال أيضاً: الرشوة رشاء الحاجات: ما دخل نجاس النجاسات في جواهر الجناسات. ومن بديع نظمه قوله:

إنْ هزّ أقلامه يوماً ليعلمها   أنساك كلّ كمي هزّ عامله
وإنْ أمرّ على رقّ أنامله   أقرّ بالرقّ كتاب الأنام له

---

(١) المداس: الحذاء.

وقوله:

إذا تحدّثتَ في قوم لتؤنسهم ... بما تحدّثتَ من ماض ومن آتِ
فلا تعد لحديث إنّ طبعَهُمُ ... مُوَكّلٌ بمعاداة المعاداةِ

وقوله:

تحمّل أخاك على ما بِهِ ... فما في استقامته مطمعُ
وإن له خلق واحد ... وفيه طبائعه الأربعُ

وكم قدّروا له أشعاراً شهيرة تجنيساً وغيره.

* وفيها توفي السيد الجليل الفقيه الفاضل الصالح العالم العامل الورع الزاهد جعفر ابن عبد الرحيم التيمي، من حوالي الجند[1] (بفتح الجيم والنون) سأله والي الجند الإقامة في بعض تلك البلاد لنفع الخلق بالفتوى والتدريس ونشر العلم، فأجابه إلى ذلك بشرطَيْن (أحدهما): إعفاؤه من الحكم، و (الثاني) أن لا يأكل من طعام الوالي شيئاً، فأقام على ذلك مدة، ثم اتّفق أنه حضر يوماً عقداً عند الوالي، فأحضر من الطعام ما جرت العادة بإحضاره عند العقد، ثم خصّ الوالي الفقيه المذكور بشيء من الموز وقال: هذا أهداه لي فلان وذكر إنساناً تطيب به النفس، فأكل منه موزتين، ثم خرج، فتقيّأهما في دهليز الوالي. ثم لمّا ملك البلاد ابن الصليحي، سأله أن يتولّى القضاء فقال له: لا أصلح لذلك. فأعرض عنه ابن الصليحي مغضباً، فخرج من عنده، فافتقده فلم يجده، فأمر بعض من عنده من الجند أن يلحقوه، ويبطشوا به، فلحقه منهم في بعض الطريق خمسة عشر رجلاً، فضربوه بسيوفهم فلم تقطع فيه شيئاً، ثم كرّروا الضرب حتّى آلمتهم أيديهم، فلم يؤثر فيه، فرجعوا وأعلموا ما مضى من ابن الصليحي، فأمرهم بكتمان ذلك.

وسئل الفقيه المذكور عن حاله وقت الضرب فقال: كنت أقرأ سورة يس فلم أشعر بالضرب.

تم الجزء الثاني،

ويليه إن شاء الله، الجزء الثالث،

وأوله حوادث سنة إحدى وأربعمائة

---

(١) الجند: مدينة باليمن، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً. (معجم البلدان).

فهرس موضوعات

الجزء الثاني

مـــن

مرآة الجنان

فهرس الموضوعات